

كوبلاي خان

ملك المغول الذي أعاد بناء الصين

تأليف: جون مان
ترجمه : أحمد لطفي

كوبلاي خان

ملك المغول الذي أعاد بناء الصين

تأليف

جون مان

ترجمة

أحمد لطفي

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.
DS752.6.K83 M3612 2013
-Man, John, 1941
كوبلاي خان: ملك المغول الذي أعاد بناء الصين / تأليف جون مان ؛ ترجمة أحمد لطفي.- ط. 1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.
ص. ؛ سم.
ترجمة كتاب: Kublai khan: the mongol king who remade china
تدمك: 4 – 228 – 17 – 9948 – 978
1. Kublai Khan, 1216-1294 2. المغول -- تاريخ. 3. الصين – الملوك والحكام -- تراجم أ. لطفي، أحمد. ب.العنوان.







دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

كوبلاي خان

الكاتب في سطور

يعتبر جون مان مؤرخاً وكاتب رحلات بارزاً وصاحب اهتمام خاص بمنغوليا التاريخ المسجل للتواصل بين البلدان. وهو مؤلف كتاب «صحراء غوبي: اجتياز الصحراء» الذي يعد أول ما كتب باللغة الإنجليزية عن هذه المنطقة من العالم، وقد صدر الكتاب سنة 1920. كما أنه صاحب كتابي «ألفا بيتا» و»أطلس عام 1000» اللذين تناولا جذور حروف الهجاء الرومانية، وكتاب «ثورة جوتنبرج» الذي بحث في أصول اختراع الطباعة وآثارها. وقامت دار نشر بانتام بوكس بنشر كتابيه «جنكيز خان: حياته ووفاته وعودته للحياة» و»أتيلا المغولي: الملك الهمجي وسقوط روما». كما نشرت بانتام برس أحدث كتبه «سور الصين العظيم».

ويقول الكاتب البريطاني سايمون سيباج مونتفيور مادحاً كتاب «أتيلا المغولي»: «هذا الكتاب حطم جميع المعتقدات السائدة... ولن تستطيع أن تجد قاصاً أو محللاً أفضل من جون مان حين يسعى إلى التعرف على ذلك العالم الغامض... إن كتابه «أتيلا» من أروع ما كتب؛ من حيث بساطة أسلوبه وغزارة معلوماته ولمساته الفريدة التي أعادت المغول وملكهم إلى الحياة. في كل صفحة يجد المرء جديداً يبهره».

كما ورد عن الكتاب في دليل جود بوك: «عرف عن أتيلا – ذلك المقاتل العظيم– أنه سفاح، إلا أن ما خفي كان أعظم. يصحب مان قرّاءه في رحلة مع ذلك الرجل أثناء غاراته في أنحاء أوروبا، حيث ألقى الرعب في قلوب شعوب بأكملها».

أما الصنداي تلغراف فنشرت عن الكتاب: «تتميز أحداثه بالحيوية والخيال... حيث تعيد الحياة إلى واحدة من أكثر الشخصيات التاريخية عنفاً واضطراباً بأسلوب سهل وشيق».

أما في صحيفة الجارديان فقد ورد ما يلي: «يبدو ذلك الكتاب في بعض أجزائه كما لو كان يحكي الأحداث الحقيقية لرواية «ملك الخواتم» الشهيرة... فهو يتميز بأسلوبه الرشيق والجذاب... متعة حقيقية للقراءة».

وذكرت صحيفة وسترن ديلي بري: «إن ما يضفي الواقعية والحياة على الانتصارات المشينة لذلك القائد الحربي هو الحواشي التي أضافها مان في كتابه، وكذلك تعليقاته على الأحداث والمقارنات التي عقدها بينها وبين مثيلاتها. إن ولعه الواضح بالتاريخ الشفهي وقدرته على استخلاص أفضل ما هو متوافر في المصادر الحديثة يدفع بمجريات الحكي والأحداث بطريقة تتماشى مع سرعة الأحداث الحقيقية التي عاشها أتيلا. إن مان حقاً كاتب ذو ميزات متعددة».

كما ورد في نيو ديركشنز: «يغلب على الكتاب طابع كتب الرحلات أكثر من الطابع التاريخي، حيث يكشف الكاتب عن أفكاره وحماسه لما وجده في المجر في عصرنا الحديث... إن ما يعطي هذه الدراسة قوتها وتأثيرها هو كيفية صياغة مان لمعركة سهول كاتالونيا».

وأثنت صحيفة الجارديان على كتاب جنكيز خان: «يتميز بأسلوبه الرشيق والجذاب... رواية مثيرة لأحداث حياة جنكيز خان ووفاته وتأثيره المستمر... هو بحث معاصر يستولى على عقول القراء».

ويقول الكاتب فيليب فرناندز أرمستو في صحيفة إندبندنت عن الكتاب: «كتاب رحلات من الطراز الأول، ليس رواية عن حياة الخان بقدر ما هو رحلة بحث عنه... يتمتع مان بهبة خاصة باعتباره باحثاً تاريخياً، كما أنه يتميز بذكائه الحاد وأسلوبه الفريد في الكتابة. إن هذا الكتاب يعتبر مقدمة جيدة لموضوع الدراسة، كما أنه يضمن للمرء متعة القراءة».

أما صحيفة ميل أون صانداي فقالت: «كتاب جيد الأسلوب يدل على بحث مستفيض».

ورأت دورية ووترستونز بوكس كوارترلي أنه: «كتاب شيق... يظهر مان في ذلك الكتاب رؤية ثاقبة وواضحة بقدر تلك التي يتمتع بها الفرسان المغول الذين يحكي قصصهم... إنها رواية معبرة ليس عن شخصية تاريخية مذهلة وعن شعب حكمته فحسب، وإنما عن إرهاصات التاريخ ذاته».

وصحيفة إندبندنت أون صانداي: «مثير ومفعم بالأحداث».

ومجلة سبكتيتور: «يحمل قصة عظيمة».

وصحيفة يوركشاير إيفننج بوست: «رائع... كل جزء في هذا الكتاب يعطي الموضوع حقه... فهو يصور الجانب الجذاب في شخصية قائد الحرب ببراعة، كما يسلط الضوء على ما تجمعه الشخصية من قسوة وعبقرية عسكرية وثقة بالذات، تلك الصفات التي جعلت منه القائد الأعظم من وجهة نظر مان... ما من أسلوب آخر يمكنه أن يعرض التاريخ بهذا القدر من التشويق».

ومجلة هيستوريكال نوفلز ريفيو: «إن كتاب مان الرائع يعيد إلى الحياة شخصية قائد لا تزال تعيش في وجدان شعوب الصين ومنغوليا إلى يومنا هذا».

ومجلة ليتيراري رفيو: «إن مان مرشد ممتاز... فهو خبير بمنغوليا، حيث جاب البلاد كثيراً، في حين أخذ يبحث في الجوانب الغامضة في حياة جنكيز، وتلك الخبرة تنعكس في أجزاء الكتاب... فهو يكتب عن علم ودراية».

مجلة إينك: «كتاب مدهش ودراسة وافية وشاملة».

كتب أخرى للكاتب:

- صحراء غوبي: اجتياز الصحراء
- أطلس عام 1000
- ألفا بيتا
- ثورة جوتنبرج
- جنكيز خان: حياته ووفاته وعودته للحياة
- أتيلا المغولي: الملك الهمجي وسقوط روما
- السور العظيم

شكر خاص

أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى كل من: تشارلز بودين الذي بدأ الخطوات الأولى لهذا العمل برمته، وآن كولين التي قدمتني لزاو منجفو، وشولون دالاي من أكاديمية العلوم المنغولية، وبول ديني وجولي دوجلاس اللذين أفاداني كثيراً في التعرف على الأسلحة وأدوات الحرب القديمة، ويوفان دنج من جامعة ستوني بروك بنيو يورك، ولوك كوانتن وليلي تشن من وكالة بيج آبل تاتل موري في شنغهاي، والأستاذ المتقاعد شيزويا نيشيمورا من جامعة هوسيه بطوكيو، وبنجامين رين لحُسن ضيافته في شانغدو (زانادو)، والبروفيسور ياو دالي من قسم التاريخ بجامعة فودان في شنغهاي، ويوان تشو روبي لام من القسم الصيني بجامعة ويلسلي بماساشوستس، وإيجور دي راتشفيلتز من كلية العلوم الآسيوية والباسيفيكية بالجامعة الأهلية الأسترالية، وذلك لما منحني من توجيه وإرشاد مفيد دون كلل حتى عبر بي من ظلمة الجهل إلى النور، وراندال سازاكي، جامعة تكساس إي أند إم الذي وجه انتباهي لأول مرة إلى أسطول كوبلاي المفقود، وكنزو هاياشيدا الذي تفضل باصطحابي لرؤية بقايا السور الياباني في فوكوكا والاكتشافات التي قام بها هو وزملاؤه خارج تاكاشيما.

وكذلك أوجه الشكر إلى ويليام شو (وي زونغ) وشيزون تشنغ على رحلة زانادو، وهيلين تانغ أفضل المعلمين الصينيين، وجاك ويذرفورد من جامعة ماكالستر بمنيسوتا، ودوغ يونغ وسايمون ثوروجود والجميع في ترانسوورلد، وجيليان سامرسكيلز للعمل الرائع الذي قامت به في المراجعة، وأخيراً وليس آخراً إلى فيليسيتي برايان ومايكل توبهام وغيرهم الكثير.

تمهيد
إلى جنكيز خان.. حفيدك

في عام 1215 لم يكن العالم مرتبطاً بعضه ببعض كارتباطه اليوم، فكان الإنسان والحيوان يشق طريقه ببطء عبر مسافات الأسفار، واستغرق الأمر بضعة أيام كي يصل الإنسان إلى مدينة مجاورة وعدة أسابيع لعبور حدود بلاده. وكان سكان الهند القارية يعيشون في أكوان منعزلة، ولا يعرف بعضهم عن بعض شيئاً، ولم يفكر أحد آنذاك في شق البحر بين آسيا وأستراليا، باستثناء ثلة من سكان جزيرة سولاويزي الإندونيسية، أرادوا ركوب أمواج بحر تيمور لصيد خيار البحر الذين كان وقتها من لذائذ الطعام، وكان الطلب عليه في الصين كبيراً جداً كما هي الحال اليوم. عدد قليل من سكان أوراسيا في هذه الحقبة زار الأمريكتين، باستثناء بعض أبناء الإسكيمو الذين استخدموا قواربهم المتواضعة في عبور مضيق بيرنغ. أما في جرينلاند فكانت المجتمعات النرويجية تعيش حياة مزدهرة في الفصول الدافئة الطويلة التي كانت تذيب جليد البحر بضعة أشهر، لكن النرويجيين لم يحبوا السفر، ولم يراودهم شغف تكرار محاولات أجدادهم- التي حاولوا على استحياء قبل قرنين من الزمان استعمار البر الأمريكي، فكانت سفنهم تستقر على الشواطئ فترات طويلة، باستثناء بعض الزوارق البولينيزية التي خرجت في سفرات قصيرة عبر المحيط الهادئ، لكن ثلة قليلة من النرويجيين هم من حاول كسر رهبة المحيط المفتوح.

في هذه الحقبة من الزمان غابت عن المشهد كل علامات العولمة، ولم تغب أمارات الأقلمة، فكان لأوروبا وآسيا قصب السبق في التواصل القاري الإقليمي، بفضل ارتباط القارتين براً، وصيغت الأواصر والروابط على يد الإمبراطوريات التوسعية والثقافات العظمى مثل روما وفارس والصين.

ففي أوروبا كان العلماء المسيحيون من أيرلندا (وأيسلندا أيضاً) يتجاذبون أطراف الحديث باللغة اللاتينية مع نظرائهم في روما، وكان المهندسون المعماريون - بين مدينة أسيزي الإيطالية ومدينة يورك البريطانية - يتنافسون للظفر بالمجد من خلال تصميم

الدعامات والرسوم الدقيقة المتشابكة، ولم تكن تفصل مدينة ريس الفرنسية سوى خمس سنوات عن إنشاء واحدة من أعظم الكاتدرائيات القوطية في فرنسا. وكانت الكنيسة تتمتع بقوة وجبروت فدمرت جزءاً كبيراً من جنوب فرنسا في حملة صليبية شرسة لاجتثاث هرطقة المسيحيين الألبيجيين. وأدانها البابا في تلك السنة في مجمع لاتران الرابع (الذي حرّم في الوقت نفسه إجبار البارونات الإنجليز للملك جون على التخلي عن بعض حقوقه الإلهية في ماجنا كارتا).

وسعت أوروبا أيضاً للتوسع إلى الخارج، فنشط رجل اسمه ألبرت - وهو مواطن من منطقة بوكستيود الواقعة شمال ألمانيا - في نشر المسيحية في مناطق بحر البلطيق من خلال تأسيس مدينة ريغا[1] التي قام فيها بعرض مسرحية إنجيلية بهدف تنصير السكان المحليين، وهي أول مسرحية يشاهدها سكان لاتفيا[2] في حياتهم؛ لذا عندما هاجم جدعون الفلسطينيين في هذه المسرحية ظن اللاتفيون أن تلك المشاهد حقيقية ففروا للنجاة بحياتهم. وكانت للمجلس الكنسي - الذي عاقب المسيحيين الألبيجان بعنف، نحو الجنوب الشرقي خارج حدود أوروبا المسيحية - تلك الأرض التي أطلق عليها المسيحيون اسم «الأرض المقدسة» ولا تزال تهوي إليها أفئدتهم، وكانت آنذاك تحت سيطرة المسلمين.

وثمة بُعد آخر للحملات الصليبية، فقد كان الصليبيون يقيمون صلات غير مرغوب فيها بين أوروبا المسيحية والشرق الأوسط الإسلامي منذ أكثر من قرن عن طريق إنشاء الجيوب المسيحية في المنطقة التي تسمى حالياً سوريا ولبنان وإسرائيل. ولم يكن العداء موجهاً بالكامل ضد من أُطلق عليهم اسم «الوثنيون»، فقبل تسع سنوات من ذلك الوقت استولى جنود الحملة الصليبية الرابعة الذين كانت في الأساس متجهة إلى مصر، على القسطنطينية من حكامها الأرثوذكس. وحتى عام 1215 ظلت المدينة تحت سيطرة جنود الحملة الصليبية، مما عزز يأس الجميع من اتحاد المسيحية تحت لواء واحد.

وكان الإسلام نداً للمسيحية، وكان العلماء والتجار المسلمون يسافرون من إسبانيا قاطعين شمال أفريقيا والشرق الأوسط وصولاً إلى آسيا الوسطى، فيجدون مجتمعات

---

(1) عاصمة لاتفيا الحالية.

(2) إحدى جمهوريات البلطيق والاتحاد السوفيتي السابق.

مسلمة مثلهم يعود تاريخها إلى 500 عام، تنطق بلغة القرآن وتتاجر في العبيد والذهب، وكانت هاتان السلعتان تأتيان من جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا. وكان التاجر المسلم يسافر من مدينة تمبكتو[1] إلى دلهي وهو على يقين بأنه سيجد تجاراً يفكرون مثله ويعملون بمثل طريقته. وإذا توجّه في رحلته عن طريق بغداد - قلب الإسلام آنذاك - فإنه سيجد اليهود والزرادشتيين والمانويين والمسيحيين من طوائف عديدة، كالنساطرة واليعقوبيين والغنوصيين والأرثوذكس اليونان. وكان الربابنة العرب يفضلون الإبحار بطول السواحل لمدة عام أو عامين إلى جنوب الصين لاستيراد الحرير والخزف.

أما الروابط البرية بين الغرب والشرق فكانت وطيدة جداً بفضل طريق الحرير التجاري الشهير. ولم تعد قوافل الإبل تستطيع السفر على مدار ستة أشهر بين العالم الإسلامي والصين، فقد اعتدى المغول تحت قيادة جنكيز خان على الدولة البوذية الكبيرة «شي شيا» الواقعة في شمال التبت، الواقعة في «شيانغ يانغ» في الوقت الحاضر، مما حرم طريق قوافل الإبل من ميزة الأمان. وكانت الاتصالات ضعيفة للغاية. لكن هذه الأماكن والثقافات، البعيدة للغاية بعضها عن بعض زماناً ومكاناً، أصبحت في انتظار زلزال مدوٍّ نتيجة لحدثين وقعا في هذا العام:

الأول هو هجوم المغول الكبير بقيادة جنكيز خان على المدينة الكبرى في شمال الصين (بكين حالياً). وقد ظهر جنكيز من العدم واللامكان بعد أن كان شخصاً هارباً يسعى لتأسيس دولة، وبعد أن نجا من العديد من الحوادث التي كادت تودي بحياته أدرك أن السماء اختارته حاكماً. حاكماً على من؟ بالتأكيد على شعبه المغولي. فخرج جنكيز في غزوة بعد الأخرى، ليعرف أن المجالات التي أتاحتها له معتقداته الربانية أصبحت في توسع دائم. لكن أين ينتهي هذا التوسع؟ شمال الصين؟ ربما. كل أنحاء الصين؟ رغم أن أي سلطة بدوية في السابق لم تتمكن من حكم الصين بأكملها. لكن ربما.

وطالما جذب شمال الصين - الذي شكّل مصدراً مهماً للثروة والسلطة - المحاربين البدو مما وراء صحراء غوبي[2]، وقد بذلت المنطقة ما بوسعها للدفاع عن نفسها من خلال

(1) مقرها دولة مالي الحالية الواقعة في غرب القارة الأفريقية (المترجم).

(2) منطقة صحراوية شاسعة تغطي شرق الصين وشمال غربها وتربطها بجنوب منغوليا (المترجم).

إقامة الجدران العالية وبناء الجيوش وتقديم الرشاوى واستعمال الدبلوماسية والزواج. وكان شمال الصين العدو التقليدي وأيضاً المفتاح لتوسيع الإمبراطورية، كما أن بكين - مقر حكام الجين في المنطقة - كانت مفتاحاً لشمال الصين. وقد سقطت بكين في السنة التي سبقت الهجوم المغولي بعد سلسلة من الحملات الطويلة التي قام خلالها جنكيز بتحييد إمبراطورية «شي شيا»- تانغوت، وغزا ودمّر معظم البلاد الواقعة إلى شمال النهر الأصفر، وحاصر بكين حتى استسلم إمبراطور الجين. وفي عام 1214، غادر جنكيز بكين دون أن يستولي عليها أو ينهبها معتقداً أنها أصبحت طوع بنانه، لكنه اكتشف عندما انسحبت الجيوش المغولية أن إمبراطور الجين انتقل مع 3 آلاف بعير و30 ألف عربة محملة بالمتاع والممتلكات إلى عاصمة الصين القديمة كايفنغ الواقعة جنوب النهر الأصفر، وعندما علم جنكيز بذلك قال غاضباً: «إمبراطور الجين لا يثق في كلامي! استغل السلام ليخدعني!».

لذلك عاد المغول مرة أخرى إلى بكين، وهذه المرة دون تهاون حتى تسقط المدينة وتدين إمبراطورية الجين بأكملها. حاصر الجيش المغولي المدينة خلال شتاء 1214-1215 دون أن يتمكنوا من اقتحامها؛ لأن جدران المدينة الضخمة بلغ طولها 15 كيلومتراً وكانت مزودة بـ 900 برج حراسة، فضلاً عن المنجنيقات التي أرسلت الصخور الضخمة والقنابل الحارقة والأقواس على العدو، إلا أن جنكيز لجأ إلى التجويع لدفع بكين للاستسلام، وهو ما حدث. ففي يوم 31 مايو فتحت بكين بواباتها ليدخلها المغول الذين لم يلبثوا أن قتلوا الآلاف وأوقدوا النار في أرجاء المدينة فظلت بكين تحت النار لمدة شهر كامل، وبقيت الجثث ملقاة على الأرض رغم مرور عام كامل على غزو جنكيز وتفشت الأمراض. وقد ذكر رسول مسلم أن أرض بكين ظلت فترة طويلة دهنية الملمس بسبب الدهون البشرية التي تفجرت من جثث القتلى.

وأدى سقوط بكين في 1215 إلى سلسلة من الأحداث غيرت مجرى التاريخ الأوروبي الآسيوي، إذ لم ينتهِ الأمر عند شمال الصين؛ لأن انتباه جنكيز تحول إلى الأحداث التي وقعت في الغرب، فبعد أربع سنوات تعرّض وفد تجاري مغولي متجه إلى دولة خوارزم الإسلامية الجديدة إلى الذبح كاملاً عن بكرة أبيه. ومع تحييد شمال الصين تحوّل جنكيز إلى جيرانه الواقعين إلى الغرب للانتقام بصورة سريعة وإطلاق العنان للدمار على نطاق

غير مسبوق، فسوّى بالأرض مدن طريق الحرير القديم بخارى وسمرقند ومرو وأورجينش. ثم أذن بالقيام بحملة استثنائية استطلاعية عبر جورجيا وأوكرانيا شكلت المرحلة الافتتاحية للحكم المغولي لجنوب روسيا الذي دام 200 عام. وعندما عاد رجاله من هذه المغامرة الضخمة تحول جنكيز مرة أخرى إلى الأراضي الواقعة عبر صحراء غوبي، لكنه في صيف 1227 أدركته المنية عندما كان يوسّع نطاق حملته لتشمل الجبال الواقعة إلى جنوب النهر الأصفر.

غير أن مهمة جنكيز العظيمة بقيت غير مكتملة وبقي جزء كبير من العالم الإسلامي، ومن ضمنه بغداد، خارج سيطرة المغول، وكذلك السهوب الروسية، والجيوب المتبقية من شمال الصين، وكامل جنوب الصين، وهي دولة منفصلة تحكمها سلالة سونغ. وثمة شعوب خارج هذه المنطقة عليها أن تعترف بسيادة جنكيز مثل مناطق الحدود الشرقية للإمبراطورية المغولية (كوريا واليابان) وجنوبها (كمبوديا وفيتنام وبورما)، والمناطق الواقعة عبر جزر إندونيسيا الغنية في حين أن الطريق إلى الغرب عبر المراعي المجرية، ستصبح طريقاً سريعاً إلى قلب أوروبا المسيحية.

كان ذلك قدراً قدّرته السماء للمغول. لكن لماذا كان ذلك قدرهم؟ لم يعرف جنكيز ولا ورثته إجابة عن هذا السؤال، لكنهم قبلوا بهذا الواقع. فثمة الكثير من الأعمال التي لم تُنجز بعد، ورغم أن الوفاة قد غيّبت جنكيز، فإن أثره لم يزل باقياً، وهو الذي أدخل تحولات كبيرة على المنطقة. فلم يحدث أن ارتبط الشرق بالغرب بمثل ذلك الارتباط الوثيق إلا في عهد جنكيز. وقد صار جنرالات المغول يعرفون منافسيهم من الأمراء الروس أوثق معرفة، وباتوا على دراية بالكيفية التي يستطيعون بها تشتيتهم عندما يحين الوقت. وقد صار سعاة البريد السريع يقطعون مسافة 150 كيلومتراً تقريباً في اليوم لتسليم الرسائل ضمن منطقة تمتد لمسافة 4 آلاف كيلومتر بين بكين وأفغانستان في غضون ستة أسابيع، وذلك بفضل السيطرة المغولية على كل الأراضي بينهما.

لكن يبقى السؤال: ما الذي يمكن تحقيقه من خلال الامتداد الشاسع لهذه الإمبراطورية؟ يمكن للتجار أن يجلبوا ثروات الشرق والغرب، وللفنانين أن يتقاطروا لخدمة فاتح العالم، ولرجال جميع الأديان أن يطرحوا وجهات نظرهم، وللباحثين أن يجمعوا ويترجموا الكتب

من أعظم المكتبات، وللمبعوثين الدبلوماسيين أن يصلوا من الشرق والغرب لتقديم فروض الولاء، وبذلك يعيش العالم تحت سماء واحدة في أمن ووئام. هذه الرؤية ملأت عقول ووجدان ورثة جنكيز. لكن لا سبيل واقعياً إلى تحقيق هذا الحلم بالطبع، والزمن سيثبت لهم ذلك، فهذه الإمبراطورية كغيرها من الإمبراطوريات سوف تبلغ أقصى حدودها، ثم تتشرذم وتضمحل وتنحل.

في يوم 23 سبتمبر 1215، أي بعد أربعة أشهر تقريباً من سقوط بكين، وُلد في قلب الأراضي المنغولية طفل للعائلة الملكية اسمه «خان الخانات» (أو الخان العظيم). هذا الطفل سيقبل التحدي المتمثل في تحقيق رؤية جنكيز المستحيلة، وسيبذل جهداً يفوق ما بذله أي زعيم آخر لتحقيقه. وسوف يمتد بأسه وسلطته ما بين مناطق المحيط الهادئ وجنوب روسيا. ورغم أن سلطته على هذا الامتداد الشاسع ستكون مهتزة، فسوف يصبح أقوى رجل دب على ظهر الأرض حتى ظهور القوى العظمى الحديثة، وسوف يتمتع بسطوة اسمية على خُمُس مناطق العالم المأهولة، وربما نصف البشرية جمعاء. وسوف ينتشر اسمه إلى أبعد من المناطق التي يحتلها، وبالتحديد إلى أوروبا واليابان وفيتنام وإندونيسيا، حتى يصل خبر محاولته غزو جاوة الإندونيسية عام 1292 وسيبلغ مسامع صائدي خيار البحر قبالة سواحل شمال أستراليا. ليس هذا فحسب، وإنما بعد مرور قرنين كاملين على وفاته، ستصبح أسطورة ثرواته ومُلكه مصدر إلهام للمستكشف الأسطوري كولومبوس حين يشق بسفينته المحيط غرباً في رحلة تنتهي باكتشاف أرض ظلت منذ الأزل طي النسيان. وربما لولا «الخان العظيم» ما قامت أية إمبراطورية للمغول في الصين، وما كنا لنعرف اسم الرجل الذي سيكتشف الأمريكتين بهذا الإلهام..

وبفضل تراث «الخان العظيم»، ترامت رقعة الصين وأصبحت تتمتع بالتخوم الموحدة الحالية. وهنا تبرز مفارقة غريبة فعلاً، إذ إن حدود الصين الحالية تضم بعضاً من مناطق منغوليا، مسقط رأس «الخان العظيم»، رغم أن هذه القوة العظمى (الصين) لا تعترف إلا على مضض بأنها تدين بصورتها الحالية من شمالها المغبر إلى جنوبها الخصيب وصحراواتها

الغربية المتسعة وجبال التبت الشامخة - لهذا الطفل المغولي الذي جاء إلى الوجود في العام نفسه الذي دُمرت فيه بكين.

ذاك الشبل هو حفيد جنكيز خان.. واسمه كوبلاي خان

الجزء الأول

الربيع

الفصل الأول

اللبؤة وأشبالها

هناك شيء واحد يسترعي دائماً الانتباه في منغوليا، هو سلطة المرأة، حيث تنظر النساء العجائز اللاتي لديهن وجوه تشبه ثمرة الجوز - بعيون كلها ثقة ونظرات ثاقبة، وتمتطي الفتيات الصغيرات ذات الطابع الخشن والخدود الحمراء - ظهور الخيل مثلهن مثل أمهر الفرسان الرجال. ولا تستطيع السير في العاصمة «أولان باتور» من الميدان الرئيسي حتى المتجر الوحيد هناك دون أن يخطف بصرك الجمال والأناقة اللتان يزخر بهما هذا البلد؛ فالنساء في منغوليا لديهن قوة احتمال واعتماد على الذات غير عادية تفوق مثيلاتهن في نيويورك وبكين. صحيح أن التعميم لن يكون دقيقاً في هذا السياق لأن منغوليا لها نصيب من الفقر والعوز لا يخفى على أحد، لكن التقاليد البدوية القبلية لهذا البلد ضمنت على مدار العصور تساوي الرجال والنساء في الاعتماد على الذات، ولم يعد دور المرأة الريفية قاصراً على طهو الطعام ورعاية الأطفال وتربيتهم، بل اعتادت النساء على الخروج للصيد والرعي إن دعت الحاجة.

أصدر جنكيز خان قراراً أثر أيما تأثير في واقع الحياة اليومية كان مفاده أن «تقوم النساء المرافقات للجنود بإنجاز الأعمال والمهام التي يقوم بها الرجال عندما يذهب الرجال إلى الحرب»، وهذا يعني أن النساء سوف يخضن المعارك أيضاً. في عام 1220 مثلاً خرجت ابنة جنكيز في مهمة غزو استهدفت مدينة نيسابور الفارسية، وقامت «بذبح جميع الناجين، ولم تُبق إلا على 400 شخص تم اختيارهم من أصحاب الحرف». وتمتلك المرأة على صعيد الحياة العائلية والسياسة نفوذاً واسعاً على الدوام، فالتوريث يسير دائماً في الخط الذكوري، لكن الأرامل - أرامل الطبقة الأرستقراطية - كن يستحوذن على ممتلكات آخر أزواجهن من ذوي النفوذ، وهذا يعني أن هؤلاء النسوة سوف يصبحن مستقلات إلى أبعد الحدود وأثرياء أيضاً. وتقول إحدى المقولات الغريبة إن الإمبراطورية التي تبسط نفوذها على أكبر جزء من اليابسة في العالم تدين بوجودها وازدهارها إلى نساء خارقات، رغم أن امتداد النفوذ هو أحد مفردات الذكورة.

كان جنكيز معدماً في طفولته وصباه، رعته أمه الأرملة هولن التي نبذتها عشيرتها وأُجبِرَت على النبش في جنبات الجبل للعثور على بذور العرعر. لكن هولن علمته كيف

يحيا وكيف يعيش، وكيف يبني أواصر العائلة، وكيف يقيم الصداقات التقليدية، ويصنع التحالفات، ويقدم الولاء دون سعي وراء مكاسب شخصية. علمته كيف يولي الاهتمام دوماً إلى عامة الناس وأسرهم. كانت أمه توبخه إذا أخطأ حتى يتبين له الخطأ فيما اختارت. قَتل جنكيز أخاه غير الشقيق عندما كان مراهقاً، مما جعله زعيماً لا يُبارى في إطار عائلته، فصبّت عليه أمه جام غضبها، ونظمت كلماتها شعراً في وثيقة تأسيس منغوليا - التي أصبح يُطلق عليها اسم «التاريخ السري للمغول»، وهي تصرخ قائلة: «أنت الذي دمرت الحياة» وشبهته بأنواع كثيرة من الحيوانات في وحشيته وحماقته. وقالت: كيف لجنكيز أن يُقدم على هذه الفعلة ونحن لا نملك سوى وحدة الأسرة التي نعيش في ظلها؟

ليس لنا أصدقاء غير ظلنا....

ولا نملك سوى أذيال الخيول سياطاً

وعى جنكيز الدرس، وكان يرغب في أن يعيه آخرون أيضاً. لقد حثَّ جنكيز - في مرحلة نضوجه شعراءه على نظم هذه القصة في أغنية، وحينما أصبح إمبراطوراً، كان يُجلُّ أمه، بل يذكر بعض الرواة أنه كان يهابها ويُكبرها طيلة عمره المديد.

أنجبت زوجة جنكيز - وكان اسمها سوركاكتاني وهي موضوع هذا الفصل - ابنه تولوي الذي جاء على شاكلة أبيه. ففي عام 1215، وبدون مقدمات، جمعت هذه المرأة المستقبل بين يديها، ليس فقط لأنها أنجبت مولودها الجديد كوبلاي خان فحسب، بل لأن كوبلاي كان أحد خمسة أبناء لها، أصبح اثنان منهما إمبراطورين، وثالثهم حكماً على فارس. كما أن تمزق إمبراطورية جنكيز على إثر صراعات عائلية واضطرابات دامت 20 سنة لم يتماشَ مع طموح سوركاكتاني وبصيرتها وحسها السليم، فقد عانت الإمبراطورية محاولتين للتدخل الأجنبي في لحظات عصيبة، فضلاً عن عجز ابنها كوبلاي عن الحصول على ميراثه الشرعي.

ولم تكن سوركاكتاني من أصول منغولية، فقد كانت كرتية[1]، وأسهمت نشأتها في تلك المجموعة الناطقة بالتركية - والتي فرضت سيطرتها على أواسط منغوليا حين ولد

---

(1) الأكرات (Keraits) هم مجموعة من قبائل وسط آسيا، تحالفوا مع جنكيز خان، وكان لهم بالغ الأثر في صعود الإمبراطورية المغولية (المترجم).

جنكيز – في إطلاعها الواسع على سياسة آسيا الداخلية. وكان توغرل – ملك الكرت واسمه يعني «الصقر» باللغة التركية – عمَّ سوركاكتاني، وكان أول حاكم من بين زعماء العشائر الذين قاموا بالرعي في المروج خلف السور العظيم، وكانت له اتصالات طيبة بالغرب والجنوب. وقد تحول شعب توغرل إلى إحدى مذاهب الديانة المسيحية على يد المبشرين النساطرة[1]، من أتباع المهرطق نسطور الذي ادعى أن المسيح يجمع بين الطبيعة الإلهية والبشرية وأن له ذاتين في ذات واحدة، وهو عكس الاعتقاد السائد في المسيحية بأنه فرد لا يتجزأ. وارتبط توغرل بعلاقات بشمال الصين، حيث مُنِحَ في أواخر حياته لقب أمير «وانغ»، وأصبح معروفاً لدى المؤرخين بلقب «وانغ خان» (الملك الأمير). وكان له دور حاسم في مصير والد جنكيز خان، الذي حصل على مساعدات من توغرل في مواقف عدة، وأصبح «أخاه الحليف». وكانت العلاقات الطيبة قد بدأت في مطلع حكم جنكيز، ولكنها ما فتئت أن فسدت وأفضى الأمر بينهما إلى حرب خرج منها جنكيز منتصراً.

وكان لتوغرل أخ أصغر اسمه «جاخا» له قصة تحمل تعقيدات ومخاطر كبيرة بسبب تحالفاته غير المستقرة مع قبائل آسيا الداخلية. وقد تربى وكبر جاخا بين شعب إقليم التانغت فيما كان يُعرف باسم مملكة «شي شيا» (Xi Xia) التي تدين بالبوذية وتعرف حالياً باسم «تشنغ يانغ». ترقى جاخا إلى رتبة «جامبو» في التانغت، فأصبح اللقب جزءاً من اسمه «جاخا جامبو». وعاد جاخا – وهو قائد محارب لا يملك سوى جيش صغير – إلى منغوليا لينضم إلى جنكيز في فترة كان فيها المغول والكرت لا يزالان أصدقاء، وظل جاخا، على عكس توغرل، مخلصاً لجنكيز خان حين ساءت الأمور بين المغول والكرت. وكان الكرت قد شنوا حرباً على الجانبين في العقد الذي شهد الحرب الطويلة بين القبائل من أجل الوحدة القومية. وحين هُزِمَ الكيان الأساسي للكرت في سنة 1200، قام جنكيز بصهر القبائل معاً من خلال الزواج، حيث كان لجاخا ابنتان، ضمَّ جنكيز الكبرى منهما لزوجاته وكان اسمها أباكا، كنوع من التقدير التام لوالدها الوفي، رغم أنه منحها فيما بعد لأحد قواده. أما البنت الصغرى واسمها سوركاكتاني، فقد أعطاها على الفور لابنه الأصغر تولوي (الذي لم يزل

(1) النسطورية هي مذهب مسيحي يقول إن يسوع المسيح مكون من جوهرين يعبر عنهما بالطبيعتين وهما: جوهر إلهي (الكلمة) وجوهر إنساني أو بشري (وهو يسوع)، وفي النسطورية لا يوجد اتحاد بين الطبيعتين البشرية والإلهية في شخص يسوع المسيح (المترجم).

في سن المراهقة) في مستهل مهمته العسكرية المميزة، وأنجبت سوركاكتاني أربعة أبناء خلال سنوات الزواج التالية التي تميزت بغياب زوجها فترات طويلة في حملاته العسكرية على الصين وبلاد المسلمين، ومن ثم أصبح لديها دوافع ووسائل كسب الأصدقاء وبسط نفوذها على الناس.

لقد كُتب لأبناء سوركاكتاني الأربعة التسود على أجزاء شاسعة من قارة آسيا لأكثر من 50 سنة، مما أسهم في تغيير تاريخ هذه القارة، وكان عليها الانتظار طويلاً حتى تأتي الرياح بما تشتهيه نفسها.

وكانت الانطلاقة الموفقة لسوركاكتاني، إذا جاز أن نطلق عليها ذلك، هي وفاة جنكيز خان في سنة 1227، حيث أصدر جنكيز قراراً أعلن فيه ابنه الثالث أوقطاي وريثاً للإمبراطورية مع جميع أبنائه الأربعة الذين يمارسون سلطاتهم الفردية على المناطق الخاضعة لهم. وتولى الابن الأكبر لجنكيز حكمَ ما يُعرف اليوم باسم دولة روسيا من منتصف الطريق مروراً بسيبيريا والبحر الأسود، لكنه توفي قبل جنكيز بفترة وجيزة، وورثه ولداه أوردا وباتو. وكانت منطقة وسط آسيا الممتدة من بحر الآرال حتى التبت من نصيب شنغاداي، أما إمبراطورية «شي شيا»، فكانت تعتبر من الممتلكات الشخصية لأوقطاي (وتضم هذه المنطقة معظم مناطق الصين الغربية). وقد ورث تولوي الابن الأصغر حسب العُرف، أراضيَ موطن والده، والمقصود بها هنا كل أنحاء منغوليا، وهذا ما منح سوركاكتاني قوتها الأساسية في الوقت المناسب.

لقد تضمن هذا التقسيم تصوراً طموحاً، فالمناطق الحدودية كانت غير محددة بشكل كبير، ولا تزال محل نزاع مع السكان المحليين. وقد غُزي شمال الصين فحسب وكانت خوارزم لا تزال بحاجة إلى التهدئة، ورغم هزيمة الروس فيما قبل فإن المسألة لم تعد كالسابق ولم يعد من السهل هزيمة الروس مرة أخرى. وكان موقع تولوي هو الأقوى؛ فقد بسط نفوذه على المنطقة الوسطى بالفيالق الجاهزة التي كان قوامها العبيد المدنيون. واستطاع تولوي - نظراً لأن الرعاة كانوا جنوداً أيضاً - أن يمارس بعض السلطات على الجيش من الناحية النظرية. أما إمكانية بسط نفوذه فلم يكن ليستغلها مع ذلك، إذ إن الجيش لم يكن خاضعاً لسلطة أوقطاي وحده، وكان كل من الأخوين يحب الآخر. ولم يكن هناك

اعتراض من تولوي، وبذلك لم يكن ثمة سبب حتى هذه اللحظة يدفع سوركاكتاني لأن تحلم بالمجد لأولادها.

بدأ أوقطاي حكمه باضطرابات في النشاط العسكري ضمن مساعيه الهادفة إلى تحقيق رؤية والده، وذلك في أربع حملات كبرى متتابعة، هدفت إحداها إلى إعادة تأسيس الدولة المنغولية في إيران، والاستيلاء عليها من يد الحكام السلاجقة. وبدأ غزو كوريا بغارة لم تنتهِ حتى عام 1260، ثم العودة إلى شمال الصين في سنة 1231، وهو الحلم الذي مات عنه جنكيز خان. وتقدمت القوات المغولية في ثلاثة أجنحة يقودها أعظم قادة جنكيز، وهم على التوالي: سوبيدي ذو العين الواحدة، وأوقطاي، وتولوي الذي غزا عدة مدن في الهجوم الأول قبل 20 سنة.

وتمثلت ضربة الحظ التالية لسوركاكتاني - في مستهل الحملة على شمال الصين - في وفاة زوجها تولوي. وتصف وثيقة «التاريخ السري» موته بقالب قصصي محكم الحبكة يهدف في النهاية إلى تشبيه ولاء الأخ الأصغر نحو أخيه الأكبر بولاء القائد إلى الإمبراطور. ونزل المرض بأوقطاي بعد فترة وجيزة من بداية الحملة عام 1231، فثارت داخله الأرواح الأرضية والمائية، ربما بسبب لعنة الأرواح الشريرة، واحتشد كهنة القبائل للتكهن بالسبب، وبعد اختبار أحشاء الحيوانات المذبوحة، قرروا جميعاً تقديم القرابين طلباً لشفائه. وبمجرد أن بدأ الكهنة في جمع الأسرى والذهب والفضة والماشية والطعام لتقديمها قرابين، أخذت حالة أوقطاي تتدهور أكثر فأكثر. وتساءل الجميع: «ماذا نفعل؟ وهل يستطيع أحد أفراد أسرة الخان أن يحل محله؟ وكان تولوي على استعداد أن يتحمل عن أوقطاي مرضه. لكن كيف؟ اجتمع جمع كهنوتي في محاولة لتقديم المشورة والنصح، طلبوا من تولوي تناول جرعة من الكحول سعياً لعلاج أوقطاي، وافق تولوي قائلاً: «يقوم الكهنة بجمع رقياتك وعمل تعاويذك!»، لكن ما خفي عن الجميع أن آلام أوقطاي لم تكن أعراض مرض وإنما سكرات الموت. هذه هي المهمة الشاقة التي تولاها تولوي دون أن يدرك أبعادها، فشرب الجرعة وسرى مفعولها سريعاً، ولم يكن لديه وقت كاف ليعهد بمسؤولية عائلته إلى أوقطاي، فقال وهو في حالة إعياء: «قلت ما ينبغي قوله، لقد أصابني السكر». وغاب تولوي عن الوعي ولم يعد إليه مرة أخرى. تقول وثيقة التاريخ السري: «بتلك الطريقة مات»، وكانت هذه الكلمات

هي آخر حروف الوثيقة. وربما كان السبب المؤكد في وفاة تولوي هو الإفراط في الشراب، لكن هذا مجرد احتمال. وأصيب أوقطاي بالذهول عندما فقد أخاه ولم تعد له عافيته، وأفرط في الخمر من حزنه الشديد، لكنه كُتب له العيش لعشر سنوات أخرى.

منحت وفاة تولوي دوراً جديداً لأرملته سوركاكتاني في قلب الإمبراطورية الآخذه في التوسع، وكانت تقاليد المجتمع المغولي تقضي بأن أرملة الرجل الثري تدير ممتلكات زوجها حتى يتمكن أكبر أولاده من تحمل تلك المسؤولية. وبالمصادفة كان عمر أكبر أبنائها 21 عاماً، لكن أوقطاي منحها حق تحمل المسؤولية عن مختلف شئون تولوي، وقد شملت العائلة والجيش والسلطة والسكان المحليين. «ويجب أن تكون صاحبة الأمر والنهي في كل الأمور التي تخضع لسيطرتها وعلى الجميع الإذعان لأوامرها». ورغم أن سوركاكتاني أصبحت ملكة منغولية بامتياز، فقد ظلت خاضعة لسطوة الإمبراطور.

وقد لعب القدر دوراً في منح سوركاكتاني الاستقلالية، فقد كانت في عقدها الرابع، وكان لها قدر كاف من الدهاء والطموح مكّنها من الاحتفاظ بوضعها. وحين طلبها أوقطاي للزواج من ابنه جايوك – الحليف الذي سيربط خطي العائلة الرئيسيين – رفضت طلبه بلباقة قائلة: إن مسؤوليتها الأساسية هي تربية أبنائها. ولم تتزوج سوركاكتاني أبداً ومارست الحكم على مدار 15 سنة تالية بدهاء شديد، واكتسبت في فترة حكمها شهرة منقطعة النظير بفضل حزمها وحكمتها. واتفق العديد من الروايات على ذلك، فقد ذكر أحد مبعوثي البابا – واسمه جون بلانو كاربيني (نسبة إلى اسم المقاطعة الإيطالية بلانو كاربيني التي جاء منها) – أنها «كانت الأكثر شهرة بين نساء التتار، باستثناء أم الإمبراطور»، وذكر رشيد الدين أنها كانت على قدر بالغ من الذكاء والموهبة، وقد أكثر من الثناء على قدرتها الكبيرة وحكمتها التامة وبراعتها وأخذها في الاعتبار عواقب الأشياء. وقال الطبيب اليهودي بارهيبراس: «قوة هذه المرأة في الحكم حازت إعجاب الأمراء»، واستشهد ببيت من الشعر يقول:

ولو كان النساء كمثل هذي ... لفضلت النساء على الرجال

وكان حسها السليم بادياً في الطريقة التي ربَّت بها أولادها الذكور الأربعة، حيث اهتمت بتعليمهم تعليماً وافياً وفقاً للطرق المغولية، وإلمامهم بكل دساتير وقوانين جنكيز. وكانت

الإمبراطورية آنذاك شاسعة، وتضم الكثير من الأديان، وتعلمت سوركاكتاني من خبرتها الشخصية - بوصفها امرأة كرتية مسيحية متزوجة من كاهن مغولي - أهمية عدم الفصل بين الحلفاء والرعية. ولذا كان هناك معلمون للبوذية والنسطورية والكونفوشيوسية، ومن بعد ذلك كان اختيار الزوجات يتم وفقاً للصورة التي تراها سوركاكتاني، حيث يجب أن تتمتع بالقوة والحيوية والذكاء، وأن تكون الزوجة غير متعصبة، وعلى درجة عالية من الاستقلال، مما يسهم في استمرار التسامح الذي كان أحد شيم جنكيز الرائعة. وقد آثر ابنها الأكبر مونخيه أن يظل كاهناً، لكنه تزوج من امرأة نسطورية. وتزوج هوليغو أيضاً من نسطورية، وهو الذي أصبح فيما بعد حاكم الدولة الفارسية الإسلامية. كما تزوج كوبلاي عدة مرات لكن زوجته الثانية تشابي التي اشتهرت بجمالها وتعصبها للبوذية، كانت الوحيدة التي رافقته طيلة حياته.

اتسعت الإمبراطورية خلال تلك الفترة وتدفقت عليها الثروات، حيث سقطت كايفنج عاصمة الجين في سنة 1233، ولجأ إمبراطور الجين للفرار، وتمت محاصرته بالقرب من حدود سونغ قبل أن ينتحر. وبعد مرور عشرين سنة بعد الغزو الأول، والذي كان قد قام به جنكيز، كان كل شمال الصين في قبضة المغول، وفي الفترة بين 1236 و1242، زادت الحملة الغربية من إحكام سيطرة المغول عبر السهول الروسية حتى بولندا والمجر. استمر أوقطاي في موطنه، فيما بدأ جنكيز في تأسيس قاعدة راسخة لإدارة الإمبراطورية، من خلال القوانين المدونة والإحصاءات، وتدفق عوائد الضرائب.

رأى أوقطاي الآن ما رآه جنكيز، فقد أدرك أن إمبراطورية بهذا التعقيد لا يمكن حكمها من خلال معسكر، وعلم أنه يحتاج إلى عاصمة تصبح بديلاً عن قاعدة لافراجا المغولية القديمة الواقعة على نهر خيرلين. هذا المكان الذي لا يزال في حاجة إلى مسح أركيولوجي، ويقع على الحافة الجنوبية لقلب منغوليا الأصلية في بقعة تتلاقى فيها روعة جبال مع سحر المروج. وإلى الشمال من هذه البقعة تنتشر الجبال والغابات والإحساس بالأمان، وإلى الجنوب تمتد المناطق العشبية وصحراء غوبي الصينية، وكانت فيما مضى مصدراً مهماً للتجارة والغنائم. لقد كان هذا المكان مثالياً بالنسبة لأي عشيرة، ولكنه ليس كذلك بالنسبة لإمبراطورية. وأدرك جنكيز ما هو أفضل مكان يستطيع من خلاله حكم دولته حديثة النشأة، والتي تمتد بشكل كبير نحو الغرب، في وادي نهر أورخون، حيث كان يحكم الأباطرة الأتراك

السابقون، وقد أطلق عليها الأتراك كاراكوروم (الجلمود الأسود). وقد اتخذها جنكيز خان عاصمة جديدة له سنة 1220، ولكنه لم يفعل الكثير لها. وبدأ أوقطاي حكمه في 1228 بعملية استخباراتية هائلة، حيث أدار على الأرجح عملية جمع البيانات والمعلومات التي تم تدوينها في وثيقة التاريخ السري للمغول، لكنه في ذات الوقت كانت لديه خطط توسعية. لقد كان هو أيضاً من حقق حلم والده، بداية من تحويل كاراكوروم إلى مستوطنة دائمة في عام 1235، بعد فتح شمال الصين مباشرة، وقبل الانطلاقة التالية نحو الغرب.

أحيطت المدينة الصغيرة بأسوار ترابية مزودة بأربع بوابات، وكانت تحوي قصراً ذا أرضية خشبية وأعمدة خشبية، وسقفه من القرميد، وأقبية لتخزين الثروات. وكشفت أعمال الحفر التي أجريت مؤخراً عن تماثيل عدة وبعض الرؤوس الطينية للمعبود بوذا. وألحقت بالقصر غرف خاصة ووقفت في المقدمة سلحفاة حجرية حملت عموداً منقوشاً بنفس نقوش المعابد الصينية التقليدية. وفي الداخل امتد ممر مركزي يؤدي إلى درجات انتصب عليها عرش أوقطاي. ولم يهتم المغول ببناء المدن على الإطلاق، وهم كذلك حتى اليوم، وسيقول لك أي زائر إلى العاصمة المنغولية «أولان باتور» إن الإحساس بالمكان في منغوليا يأتي للزائر من خلال الناس وليس العمارة. كان هذا هو وضع كاراكوروم، وخلال فترة وجيزة خُصّص ثلث المدينة للمصالح الحكومية لتقديم القرابين للآلهة والإشراف على الكهنة والتجار ونظام نقل البريد والخزائن ومستودعات الأسلحة، وبدأ التجار المسلمون والحرفيون الصينيون في الاحتشاد داخل الأسوار. ورأى الراهب «وليم بروك» القصر من الداخل ولم يندهش لمنظره فقال: «يجب أن تعلم أن قيمة قصر الخان ليس في رونق مدينة القديس دنس (الفرنسية)، فقيمة دير القديس دنس هي عشرة أضعاف قيمة هذا القصر».

ضم القصر مئات الخيام المصنوعة من اللباد، وآلاف العربات، وعشرات الآلاف من الحيوانات. وكان أثرياء المغول الذين بات عددهم بالمئات في هذه الفترة، يملكون كل وسائل الرفاهية، وكانت قمة الرفاهية في هذه الفترة امتلاك عربة يجرها الثيران، وكان لدى المغول 200 عربة منها. وكانت العربات تربط معاً فتسير في صورة قطارات هائلة يجرها من 20 إلى 30 زوجاً من الثيران، وكانت هذه العربات تتحرك ببطء عبر السهل الفسيح، وكانت تقود هذه القطارات امرأة واحدة في عربة المقدمة. ويستطيع أحد الزوار أن يرى عربة ضخمة

عرضها 10 أمتار يجرها 22 ثوراً، وكانت هذه العربة مخصصة لحمل الخيمة الإمبراطورية. واليوم تتوافر ثلاث عربات شبيهة بهذا النوع في مدينة «أولان باتور»، تسير إحداها حول الإستاد في شهر يوليو من كل عام ضمن فعاليات الاحتفال باليوم الوطني.

وكان هذا المقر الرئيسي الذي اتخذه أوقطاي لحكومته المؤسسة حديثاً[1]، وقد حصل على توجيهات المرشد الصيني لجنكيز خان «تشو تساي» (أو تشوازي حسب النظام الهجائي الصوتي الصيني)- الذي انتمى إلى عائلة «يه لو» الأرستقراطية. وكان شمال الصين تحت حكم الدولة الختانية حتى غزاها الجين في سنة 1125. واختار والد تشو تساي استخدام النظام الجديد الذي اتبعه المرشد تشو تساي أيضاً، وقد ترقى في المناصب حتى صار نائباً لحاكم بكين. وأصبح تشو تساي شخصية ذات صيت منذ العشرينيات من عمره، واشتهر بذكائه وطوله الفارع وصوته الجهوري ولحيته المتدلية إلى خصره. وتم إعفاؤه من منصبه عام 1215، ودخل الدير مدة ثلاث سنوات لاستعادة صفاء الذهن، وأصبحت شهرته فيما بعد سبب استدعائه لمقابلة جنكيز خان في منغوليا. عيّنه جنكيز في وظيفة رئيس المحكمة التي تم تأسيسها حديثاً مسؤول عن الكتبة المدونين للقوانين والضرائب. وكان من غير المتوقع أن يقبل تشو تساي هذا العرض، فجنكيز خان قال له: إن «الدولة الختانية والجين كانا عدوين لدولته، وأن جنكيز ثأر له». وكان تشو تساي شجاعاً بما يكفي إلى حد جعله يقول لجنكيز إنه ووالده كانا خادمين وفيين للجين.

فهل كان جنكيز ينظر إلى أبيه وموظفيه السابقين على أنهم أعداء؟ جنكيز تغاضى عن هذه المسألة، وقدَّم إليه الوظيفة، وظل يبجل هذا الرجل دائماً وأطلق عليه فيما بعد لقب «طويل اللحية». وسافر تشو تساي مع جنكيز إلى بلاد المسلمين في سنة 1219، وصحبه في حملته الأخيرة على الصين عامي 1226 و1227. ولما جاء أوقطاي إلى الحكم، عيّن تشو تساي رئيساً للأمانة الجديدة (أصبح الحاكم الفعلي في الواقع) في سنة 1229. وكان تشو تساي أول مسؤول مدني يتولى هذه المهام الجسام. وفي العام نفسها عيّن أوقطاي أحد الأجانب

(1) لهذا السبب أحييت مرة أخرى لتكون مقرّاً للحكومة المغولية. وكان كبار المسؤولين في عام 2005، يناقشون الاقتراح المذهل الذي قدمه رئيس الوزراء والذي يتضمن بناء عاصمة جديدة بالكامل في كاراكوروم. ومن المفترض أن يُتخذ القرار في 2006، في الذكرى الـ 800 لتأسيس جنكيز خان للدولة.

النزهاء حاكماً على بلاد المسلمين، وكان اسمه محمود- الشهير باسم «يالافاتشي»- وهي كلمة تركية معناها «الرسول»).

وبذل تشو تساي ما بوسعه لصرف أوقطاي عن الانغماس في حياة الشرب والصيد، ناصحاً إياه بترشيد الإنفاق. وكانت هذه بمثابة معركة سياسية وشخصية أيضاً؛ لأن الأفراد التقليديين في البلاط اعتبروا الخيول والماشية الثروة الحقيقية الوحيدة، وكان ينظرون إلى الصينيين باعتبارهم «دود الأرض»، وكانوا يرون أن الاستخدام الأمثل لشمال الصين هو الإتيان على كل المزارع وتحويلها إلى مراع للماشية. ولم يهتم أحد بأحوال ملايين الفلاحين الذين عاشوا على هذه المزارع، فقد كان هؤلاء الفلاحون بلا قيمة فعلياً. وقد أشار تشو تساي إلى أن هذه الفظاظة هي في أفضل حالاتها تدمير للذات. ومن ثم كان من الأفضل الاهتمام بالفلاحين وجمع ضرائب منهم من خلال مسؤولي جباية الحرير والحبوب والفضة. واختبر تشو تساي نظام جباية الضرائب في سنة 1230، وبالفعل حصل على 10 آلاف سبيكة فضية، وفي العالم التالي ثُبِّت في منصبه.

وبالطبع ثار رفاقه المغوليون واعتبروا مقترحات تشو تساي مكيدة لحرمانهم من المكافآت المستحقة لهم ومصادرة ممتلكاتهم المالية لصالح خزائن الإمبراطور. ولم يساعد أوقطاي في هذا الأمر؛ لأن استجابته لتدفق الأموال تعني زيادة وتيرة تبديدها، فقد طالب هو بالمال لتمويل الحملات العسكرية واستثماره لدى التجار المسلمين الذين وعدوه بعائدات كبيرة. وأدت إصلاحات المرشد الصيني تشو تساي إلى التهدئة، حيث أوكل أوقطاي مهمة جباية الضرائب إلى رجل مسلم (مسؤول ضرائب) اسمه عبد الرحمن. واشترى رفاقه حق فرض الضرائب، مع حرية تحديد الفائدة التي يرغبونها حتى 100 ٪ في السنة (إذ رفض أوقطاي فرض رسوم عالية)، وأسس محتالو القروض حلقة مفرغة من عمليات الاحتيال. وكان التجار المسلمون يقرضون أوقطاي المال بفوائد باهظة تعود بالخراب على الفلاحين البؤساء، ممن كانوا في حاجة إلى تلك القروض لتعويض ما خسروه في الضرائب التي يدفعوها. وكانت النهاية المتوقعة أن هجر الناس منازلهم هرباً من جباة الضرائب وطغيان العصابات. وتقول إحدى التقديرات أن 50 ٪ من السكان لم يكن لديهم مأوى ثابت أو خضعوا للاستعباد على يد موظفي المغول. واكتفى تشو تساي بدور المشاهد لهذه الأحداث

قبل أن يموت بعد ثلاث سنوات من وفاة أوقطاي.

قبضت سوركاكتاني على زمام الأمور في قلب دولة المغول، واستفادت من تلك الاضطرابات التي أكسبتها الحنكة والدراية. وفي عام 1236، وبعد عامين على غزو أوقطاي لشمال الصين، طالبت سوركاكتاني بالحصول على جزء من إقليم هيبي إقطاعية لها، وقد تردد أوقطاي في الاستجابة لهذا الطلب. ويذكر رشيد الدين أن «أوقطاي اعتاد أن يستشير سوركاكتاني في كل شئون الدولة، وكان يأخذ نصيحتها مأخذ الجد». واستطاعت سوركاكتاني سريعاً أن تجبر أوقطاي على الإذعان لطلبها بتمليكها إقليم هيبي، حيث أقنعته بأن ملكية هذا المكان هو حق أصيل لها لأن زوجها هو من قام بغزوه.

وحينما سافرت إليها هي وعائلتها - بالإضافة إلى كوبلاي البالغ من العمر 21 عاماً - شهدت الدمار الذي ألحقته آلة الحرب المغولية، فأهملت المزارع وتركت بلا حصاد، وأصبحت القرى خاوية على عروشها وفر أهلها. ووقع غزوان وحشيان آخران خلال القرون الثلاثة السالفة، لكن لم يكن لهما الآثار المدمرة نفسها، ففي عام 1234، تناقص عدد سكان الشمال بنحو ثلاثة أرباع - وكان عددهم 40 مليون نسمة تقريباً في بداية القرن الثالث عشر- من 7.6 إلى 1.7 مليون نسمة، وهو رقم مذهل لدرجة أن الكثير من المتخصصين لم يصدقوه. وهناك قناعة بوجود خطأ في طريقة حساب هذه الإحصاءات. وربما دُمِّرت البيوت، وفر الملايين نحو الجنوب، لكن العواقب الاجتماعية كانت كارثية بكل المقاييس.

فر زينغ دينغ (تشين- تينج) لمسافة 200 كيلومتر جنوبي غرب بكين- من واحدة من أكثر المناطق هدوءاً مُنحت إلى أمير حرب استسلم لجنكيز، وقام بتجهيز قوة دفاعية من المزارعين الفلاحين الذين حافظوا على المنطقة باعتبارها أرضاً للسلام والاستقرار، وقدّم لابنه «شاي تيانز» بعض الخبرات الإدارية المفيدة. ولم يكن ذلك المكان مصدر إزعاج للمغول، فقد اشتهرت المنطقة بمعابدها وتماثيلها البوذية ولا تزال كذلك، وكان البعض منها ممن عرفتها سوكاكتاني نفسها، كالتمثال الإلهي البوذي البالغ طوله 22 متراً ذي العيون والأذرع المتعددة - اسمه أفالوكيتشفارا - الذي يلوح بيديه الاثنين والأربعين إلى السياح في مجمع المعابد الرئيسي. وتقع المنطقة على الحافة الغربية لسهل شمال الصين العظيم، حيث تؤدي الأراضي الخصبة إلى المرتفعات الموجودة بين أودية النهر. ولم يحدث أن أثارت

هذه المنطقة على الإطلاق - والتي بلغ عدد منازلها 80 ألفاً، وزاد سكانها على نصف مليار نسمة - اهتمامَ المغول التقليديين الذين اعتبروا المزارعين مجرد نفايات، ورأوا أن المزارع ليس أكثر من مساحات صالحة للرعي. ولم يكن ذلك نفس موقف سوركاكتاني، بل يعود الفضل في ذلك إلى بعد نظر جنكيز والاقتداء بالمرشد تشو تساي، فاقتنصت سوركاكتاني فرصة بناء ثروتها الشخصية بعيداً عن مناطق المدينة التي تعرضت للخراب على يد الغارات المغولية. وقامت سوركاكتاني برعاية العزب الخاصة بها ومزارعيها من الفلاحين، وفي محاولة منها لتملق السكان المحليين قامت بتوظيف معلمين صينيين لأجل أطفالها، وقامت بالتودد إليهم من خلال تبجيلها للبوذية والطاوية (وتفيد إشاعة محلية بأنها تظاهرت حتى بنبذ النسطورية)، وأخذت الثروات تتدفق عليها وعائلتها في شكل ضرائب.

أحكمت سوركاكتاني مخططها الواعي بشكل أكبر، وحصّن كوبلاي إقليماً على بعد 100 كيلومتر من المنطقة التي تملكها والدته، وبها حوالي 10 آلاف منزل. وكان لا يزال صغيراً على الاهتمام بالحكم بالشكل الصحيح، ففي بداية الأمر أطلق كوبلاي العنان للموظفين المحليين، وكان لذلك تداعياته المتوقعة من فرض ضرائب باهظة واستشراء الفساد وعدم الالتفات إلى الاعتراضات، وكانت كل هذه الأشياء ملائمة وقوية بما فيه الكفاية لإنشاء المنازل في أي مكان آخر، وانهيار القاعدة الضريبية وعائدات الضرائب. وأمر كوبلاي بالقيام بالإصلاح نتيجة لتبدل الأحوال، أو ربما نتيجة لموقف والدته من هذا الوضع، وعين موظفين جدداً (كان من بينهم شاي تيانز، الذي كان يدير أملاك والدته)، كما روجعت القوانين الضريبية أيضاً، وعاد الناس بعد مرور عقد من الزمن إلى منازلهم القديمة، حيث تعلم كوبلاي درساً مهماً في إدارة الأعمال.

ومنذ ثلاثينيات القرن الثالث عشر أصبح أوقطاي يسير نحو الموت بخطوات ثابتة بسبب معاقرة الخمر، فقد أدمنها بشكل كبير وعُيّن موظف خاص مهمته حساب عدد الكؤوس التي يحتسيها أوقطاي في محاولة بائسة للسيطرة على استهلاكه من الخمر، وبالفعل تناقص عدد الكؤوس بوضوح، لكنه سرعان ما تبيّن أن أوقطاي أصبح يستخدم كؤوساً أكبر حجماً.

وأصبح إدمان أوقطاي للخمر سبباً في تنازع الأمراء، وقد انجرف إلى أحد الصراعات الابن الأكبر لأوقطاي جايوك وابن عمه باتو المدعو «خان»، وكان موضوع الصراع هو القبيلة

الذهبية - تلك المنطقة السهلية المعروفة اليوم باسم روسيا - والتي تمتد بين جبال القوقاز وجبال الأورال. وأثناء فترة غزو روسيا وبولندا والمجر بين عامي 1236 و1241، كان اجتماع كلا الرجلين في إحدى المناسبات، وورد في التاريخ السري نسخة من رواية باتو لما حدث- والتي حملها معه إلى أنحاء آسيا على ظهر فرسه. والمعروف أن باتو - وهو الأكبر - بدأ بالشرب أولاً، وقام جايوك وأميران آخران بشن عدوان، وانطلقوا في نوبة من الغضب وهم يسبون ويشتمون. وكانوا جميعهم متكافئين، لكن باتو الذي تظاهر بالنضوج لم يكن كذلك، فقد كان عجوزاً لا يطيق ضرَبة من عصا خشبية على صدره... ووضع ذيلاً خشبياً له. وأثناء العودة إلى الوطن أعاد أوقطاي باتو وعنف ابنه قائلاً: «قد يتعفن هو، هو وحده مثل البيضة! أيتمرد على شخص أكبر منه!»، وفيما كان يفكر جايوك، ويتصرف باستعلاء وتفاخر كما لو كان هو من غزا بلاد المسلمين بنفسه، حرم أوقطاي في غمرة غضبه جايوك من الميراث وعيّن حفيده شايرمن مكانه.

اشترك الإمبراطور في ديسمبر 1241 في رحلة الصيد الشتوية السنوية، فبُني سور خاص لفترة الرحلة حتى يتم به جمع الحيوانات البرية ولاسيما الأيل والذئاب. افتتح الإمبراطور الليلة بشرب الخمر بشراهة بصحبة صديقه المفضل المسلم عبد الرحمن - جابي الضرائب من الفلاحين، لكن الموت داهمه فجر 11 ديسمبر ليُسلم الروح عن عمر 55 عاماً. وختم كاتب «التاريخ السري» حكم أوقطاي بمقولة من أوقطاي نفسه تدينه: «اللوم يقع عليّ دون غيري لأني سمحت للخمر بأن يتغلب عليّ، هذا هو الخطأ الذي ارتكبته». فقد كانت نهاية مخزية، وربما لم يُدفَن بسببها مع والده في جبل بورخان خلدون المقدس، ودفُن في أقاصي غرب منغوليا التي امتلكها هو قبل وفاته.

استحوذت أرملة أوقطاي- تورجين على الإمبراطورية، وتجاهلت وصية زوجها عندما سعت إلى انتزاع العرش وتسليمه لابنها الأكبر جويوك- البالغ من العمر 35 عاماً. ولم يكن جويوك قادراً على بلوغ العرش بمفرده؛ لأنه كان دائم العلة بسبب إدمانه الخمر مثل والده. اتسمت تورجين بالحزم الشديد، وكانت المرأة الوحيدة التي تفوقت على سوركاكتاني. وقد نقل جون بلانو كاربيني قول رشيد الدين: «لم تمتلك تورجين قدراً كبيراً من الجمال وكانت مستبدة بطبعها»، ووُصفت بأقذع الصفات في معظم الروايات، لكننا نستطيع القول إنها لم

تكن في غاية السوء. فقد نجحت في استمالة معظم أفراد العائلة عن طريق تشجيع النزاعات وبذل العطايا، لكنها لم تستطع استمالة باتو، الذي رفض الحضور إلى مجلس «الكيرلتاي» مقر اجتماع الأمراء لاختيار الخان القادم. وادعى باتو وقتها أنه يعاني من النقرس. واستمرت التأجيلات لخمس سنوات، داومت خلالها تورجين على دعم ابنها عن طريق تدبير المكائد ودفع الرشاوى لتمهد طريقه إلى العرش.

وعلمت سوركاكتاني أن تورجين في موقف ضعيف، فلعبت لعبة الانتظار وواصلت دعمها الكامل لعائلة أوقطاي خلال السنوات الأربع التي شهدت اضطرابات كبيرة بسبب خلو العرش. وكان النزاع كفيلاً بتمزيق الإمبراطورية، حيث سيقوم كل أمير بوضع قوانين خاصة لحاشيته، مغيراً ما دُوّن بناء على رغبة جنكيز. وكان أخو جنكيز خان الأصغر (تموج) قد بلغ عقده الثمانين. لكنه واصل ادعاءه بأنه أحد أكبر رجال الدولة وأنه المسؤول عن تعيين الخان الجديد دون عقد أي اجتماع. وقد لاحت في الأفق بوادر فوضى، فخرجت سوركاكتاني، التي لا تقبل أن يراجعها أحد فيما تتخذه من قرارات لمؤازرة جايوك، مانحة تورجين رتبة صغيرة بين الأمراء. وفي النهاية رتّبت تورجين للمجلس الذي عُقد في ربيع 1246.

وكان مجلس الكيرلتاي يضطلع بأعظم شئون المملكة مع ذلك، حتى إن جوفايني وصفه بأسلوب بديع فقال: «مع ذوبان الثلوج وتجدد المراعي، ولهو الحمام المطوق مع الحمام القمري، وغناء طيور العندليب وعذوبة أصواتها، أصبحت كاراكوروم مسرحاً لبزوغ الثروة والقوة المكتسبة حديثاً. واجتمع نسل جنكيز المشتتين - الأبناء والأحفاد وأولاد الأعمام والأخوال - خلال عدة أسابيع بواسطة القادة التابعين من شمال الصين وكوريا وروسيا والمجر وتركستان وأذربيجان وتركيا وجورجيا وسوريا وحتى بغداد التي لم تُفتح بعد، وتوصلوا إلى إنشاء مدينة تابعة قوامها ألفي خيمة. كان مشهداً لم يُرَ مثله ولم يُقرأ عن مثله في سجلات التاريخ، كما تؤكد رواية الراهب الإيطالي جيوفاني جون القادم من مدينة بلانو كاربيني الإيطالية (John of Plano Carpini) الذي وصل لتوه وكان مشغولاً بجمع المعلومات الداخلية من الروس والمجريين المقيمين فترات طويلة ممن يتحدثون اللاتينية والفرنسية.

استمرت الولائم وحفلات الشراب مدة أسبوع، قدم خلالها الأمراء العرش على مضض للأمير جايوك، الذي رفضه على طريقة الرفض الروتيني ثلاث مرات ثم قبله أخيراً! وتُوِّج في أغسطس في معسكر ثان في أحد أودية النهر يبعد عدة كيلومترات عن كاراكوروم. وكانت الهدية التي منحها عبارة عن 500 عربة محملة بالأقمشة الحريرية والمخملية والمقصبة وبالذهب والفضة والفرو، وعُرضت هذه الهدايا في محل تتويج جايوك وحوله. وكان المكان عبارة عن خيمة فخمة من اللباد تدعمها أعمدة خشبية مطلية بالذهب. وتأخر الاحتفال عدة أيام بسبب هبوب عاصفة من البرد القارس، بعدها تُوّج جايوك على عرش من العاج المرصع بالذهب، صنعه صائغ روسي. وتولت سوركاكتاني مهمة الإشراف على منح الهبات الضخمة والهدايا التي وصلت كل فرد من رفاق جنكيز ممن اشتعلت رؤوسهم شيباً مروراً بقادة الكتائب البالغ عددهم 10 آلاف قائد، إلى رؤساء الوحدات العسكرية الصغيرة التي كان قوامها عشرة رجال، وبداية من السلاطين وصولاً إلى الموظفين البسطاء وعائلاتهم.

واستطاع جايوك وأمه تورجين انتزاع اعتراف من الأمراء المجتمعين ببقاء التاج في عائلة أوقطاي، على خلاف وصية جنكيز التي حددت الإجراءات الواجب اتباعها إذا لم يكن من أبناء أوقطاي من يمتلك أهلية الحكم. وتشير الأبيات الشعرية التالية إلى هذه النقطة في وثيقة التاريخ السري:

إذا ثبت أنهم غير صالحين

وإن غُطوا بالعشب النضر،

فلن يأكلهم ثور

وإن غُطوا بالدهن

فلن يأكلهم كلب

وهل يخلو أحفادي من رجل واحد صالح؟

لذا كان من المقبول تماماً أن يبحث الأمراء عن خان من فرع آخر من العائلة من نسل

تولوي. وربما لم تدفع سوركاكتاني بمونخيه لتولي منصب الخان لحاجة في نفسها.. وكان عمر مونخيه 36 عاماً. لكن سوركاكتاني لم تكن على استعداد لخوض غمار معركة تنصيبه، ولم يكن هناك طائل من الدخول في هذا الصدام سوى زيادة التهديد لوحدة الإمبراطورية، وربما إن حدث ذلك الصدام لأصبحت مكانتها على حافة الخطر، لذلك التزمت سوركاكتاني ضبط النفس وتقدمت مع الأمراء الأقوياء لتشهد على الاحتفاظ بالخلافة في نسل أوقطاي، وأقسمت لجايوك أن الخلافة ستدوم «ما بقيت قطعة من اللحم من جثث هذا النسل لم يقربها ثور أو كلب، حتى لو كانت مغطاة بالدهن أو العشب» على حد قولها. وكان الهدف من هذه المعاهدة هو مخالفة الكلمات المنسوبة عمداً إلى سيدهم ومولاهم جنكيز، لكن هذه المعاهدة أحدثت أثراً مباشراً وصادماً، فقد قُتل أخو جنكيز المسن الذي طالب بالعرش لنفسه، وأُعدم أخو جنكيز وسط موجة التذمر العارم في صفوف الأمراء. وكان أكثرهم حنقاً هو الأمير باتو الذي ذهب إلى المجلس كرهاً، لكن سبق السيف العذل، ونجحت تورجين في تعطيل الخلافة قبل وصوله، حينما كان هو وجيشه على بُعد أكثر من ألف كيلومتر.

زادت وتيرة السُخط، ولم يكن لجايوك خيار سليم على الإطلاق، فقد كان معتلّاً على الدوام، وظلت حالته تسوء من كثرة الشراب، وكان متقلب المزاج ونزاعاً إلى الشك وعابثاً. حاولت والدته تحسين صورته أمام الذين لم يرغبوا فيه من أقاربه والتابعين، فكانت تمنحهم الهدايا لشراء ولائهم، لكن ذلك لم يكف للاحتفاظ به، وأخذت تورجين نفسها في النفور من العائلة والموظفين، ولاسيما ممن اعتبرتهم محل ثقة.

وقبل التتويج مباشرة حدثت حكاية طريفة ومثيرة، فقد استغلت تورجين امرأة مسلمة اسمها فاطمة، أتت إلى كاراكوروم أسيرة في إحدى الحروب، وكانت تدير شبكة من الداعرات المحليات، وتسللت تلك المرأة بطريقة ما إلى بيت تورجين وأصبحت صديقة المقربة لها وناصحتها. وكانت امرأة شيطانية منحها اطلاعها على الأحداث السرية للملكة والمؤامرات التي تُحاك داخل القصر تأثيراً بالغ الأهمية، لدرجة جعلت أي وزير يحتاج إلى أمر مباشر منها حتى يؤدي مهمته. ولدرجة أنها بدأت بالفعل في إصدار قرارات خاصة بها، وكان علية القوم يتوسلون إليها ويدفعون الكثير كي يحظوا باهتمامها، ولم يكن لديهم سوى احتواء غضبها إن لزم الأمر.

حدث ذلك بعد وراثة جايوك للعرش بوقت قصير، فبعد مرض أخيه افترض أحدهم أن فاطمة سحرته؛ ولذلك حاول جايوك أن يصلح الخطأ، فجردها من الحماية التي حظيت بها من جانب والدته، واتهمها بسحر وسامها سوء العذاب حتى اعترفت. وبعد ذلك قتلها شر قتلة ومنحها شرف الموت على طريقة الطبقة العليا دون إراقة الدم، فقام بسد فتحات جسدها العليا والسفلى ولفها في كفن من اللباد وأُلقيت في النهر. ولا شك أن غالبية المحيطين تنفسوا الصعداء، لكن هذا الصراع بين الابن ووالدته لم يكن أساساً سليماً لحكم رشيد.

لكن ماذا عن باتو في تلك الفترة؟ باتو لم يزل يتقدم ببطء. وقد اشتبه جايوك في حدوث انقلاب، فحشد جيشه وسار نحو الغرب، متظاهراً بتفقد ممتلكاته الواقعة على الحدود المغولية – الكازاخية. وفي إحدى المرات هناك قام بالتجهيز لشن هجوم مضاد استغرق شهوراً، ليفسح الطريق أمام أحد أهم تدخلات سوركاكتاني. وكان قراراً صعباً محفوفاً بالمخاطر، فإذا تم اكتشافها سيضيع كل شيء هباء – سنوات انتظارها واتصالاتها الحذرة وآمالها التي أرادت تحقيقها في أبنائها – و سينظر إليها على أنها خائنة وستُعدم هي وعائلتها. وكان ما فعلته أنها حسب رواية رشيد الدين قد تذكرت روابط الأخوة بين زوجها السابق وبين أبي باتو، وأرسلت رسالة سرية إلى باتو تحذره فيها من أن تقدم جايوك لا يخلو من شبهة الخيانة. واستفاد باتو من هذا الإنذار واستعد للمعركة بلا فاعلية، حيث خمدت نيران الحرب؛ لأنه في أبريل 1248، توقف الجيشان فعلياً على طول شواطئ بحيرة بالخاش، حين كان يعاني جايوك من المرض على الدوام وقد أُنهك من السفر ومات، وربما حدث ذلك أثناء القتال، لكن هناك احتمالاً قوياً بأنه مات بسبب المرض.

ولم يهتم باتو الذي اكتفى آنذاك بإمبراطوريته في جنوب روسيا، بترقية نفسه لمنصب الخان الجديد، فباتو يدين بالفضل لسوركاكتاني، وقام بتحويل جيشه سريعاً إلى مجلس أميري وعَهِدَ بالخلافة لمونخيه أكبر أبناء سوركاكتاني.

دبّت الخلافات بين أبناء جايوك الذين كانوا تحت رعاية والدتهم، وأنشا كل واحد منهم قصوراً لنفسه، مثلما فعل حفيد أوقطاي المفضل شايرمن. وتمزقت الإمبراطورية مرة أخرى، وانحصر اهتمام الحكام المحليون في أنفسهم فقط، وشرعوا في انتزاع كل ما قدروا عليه من رعاياهم. واستخدم الأمراء نظام ترحيل البريد لإسراع وتيرة الاتصالات

في الإمبراطورية وتحقيق مآربهم الخاصة، مثلما يفعل مسؤولو الدول الديكتاتورية الذين يستخدمون السيارات الحكومية لتقضية مصالحهم الشخصية. ولم يعلم أحد من سيحكم، حيث تصارع الجميع على العرش والسلطة، وجاءت معظم الرسائل تقول: «لن نحضر اجتماع اختيار الخان الجديد».

عُيّن أوغل خان أرملة جايوك وصية على العرش حسب التقاليد حتى يكون ابنها الأكبر قادراً على الحكم، لكن أبناءها - أحفاد أوقطاي - كانوا صغاراً للغاية. كما أن الأحداث الأخيرة أنهكت قواها، فأحاطت نفسها بالسحرة في محاولة لتحقيق غاياتها بقوة السحر. وتذكر الناس كلمات جنكيز: إن لم يكن أبناء وأحفاد أوقطاي مناسبين للحكم، يجب اختيار الخان الجديد من نسل آخر أي من ذرية أحد أبناء جنكيز الثلاثة الآخرين. وكان لدى اثنين منهما - جوتشي وشقطاي - وضع خاص جعل أبناءهما بعيدين عن الصراع على العرش، وأصبح أبناء سوركاكتاني (وهم من نسل تولوي- أبناء جنكيز) ورثة الدولة المغولية.

عند هذه النقطة دلفت سوركاكتاني إلى معركة مهمة، وكانت في الستين من عمرها، لكنها كانت فرصتها الأخيرة. فقد سعت للحصول على الكثير من النقاط في معركتها، ولم تكن السلطة والمال والجاه والنفوذ أعلى ما تصبو إليه سوركاكتاني. وقد خُلّص القصر من بلاء فاطمة، واستغلت فرصة أن ذرية جايوك هم أحفاد جنكيز في الأساس، في حين أن أبناءها كانوا أحفاده مباشرة، وهم الجيل الأقرب إلى جنكيز العظيم. فكان اختيار مونخيه - وهو في عقده الرابع آنذاك - موفقاً إلى حد بعيد؛ لأنه كان مؤهلاً بما يكفي. فقد قاد مونخيه جيش المغول إلى الغرب نحو أوروبا بين عامي 1238 و1242، وسحق المجريين في معركة موهي، أضف إلى ذلك أن لمونخيه أخوين يصغرانه، وهما قائدان خبيران نهضا بدور نشط في استئناف «مهمة السماء التي كلفت المغول بحكم العالم».

وضع الخلاف أوزاره في عام 1250 تقريباً، حين اجتمع المتنافسون في معسكر باتو وأصغوا إلى باتو مرة أخرى. وطالب باتو بانتخاب مونخيه، لكن هذا المجلس لم يكن في قلب الدولة المغولية، ولم يحظ باهتمام كبير. وفي العام التالي، أقر المجلس الثاني طلب باتو. وأظهر مونخيه بمجرد انتهاء عملية الانتخاب كل السماحة، وعمل على تهدئة خصومه السابقين وأبدى مناصرته لهم ولعائلاتهم، ونجح في ذلك تقريباً، لكن محاولات مونخيه لم

تفلح مع شايرمن الذي كانت له آراء أخرى.

يسجل جيوفاني القصة كما يلي:

المشهد هو مجلس الأمير في لافراجا، حيث بضعة مبانٍ صخرية وأعداد مهولة من الخيام والعربات والحيوانات. الكل سعيد بانحسام أمر الخلافة. فَقَدَ صائد الصقور «كشيك» (أو كشيج والاسم يعني الحارس) الناقة المفضلة لديه، وخرج في رحلة للبحث عنها، ركب لمدة يومين أو ثلاثة يبحث عنها في كل مكان، وفي طريقه التقى بجيش. أي جيش هذا؟ وجاءه الرد: لقد أتينا لتقديم تهانينا وإظهار تقديرنا لمونخيه. وما أكد له أيضاً أنه حين استمر في رحلة البحث، رأى عربة معطلة يصلحها شاب، فتوقف ليساعده، وبعدها لاحظ أن العربة مليئة بالأسلحة.

فسأل: «ما كل هذه الأسلحة؟».

فرد الشاب: «العربة تحمل الأسلحة مثل أي عربة أخرى».

وفي النهاية بدأ كشيك يتساءل وأجرى مناقشات أخرى. وقام بجمع أجزاء القصة معاً. فهؤلاء الناس يتوون الخيانة والخداع والغدر وإثارة الشغب والهجوم على مونخيه أثناء الوليمة. أما حيم فوجد ناقته، وقطع مسافة ثلاثة أيام في يوم واحد، واندفع نحو الإمبراطور الجديد وقام بنثر الحبوب. اندهش الجميع ولم يصدقوه، فأعاد عليهم قصته مراراً. لكن مونخيه لم يأخذ التهديد على محمل الجد، واعترض قواده. وفي النهاية وافق على أن يأخذ منجسر - رئيس القضاة وقائد حرس الإمبراطور - ثلاثة آلاف رجل ويخرج ليتحقق من الأمر. فقد رأوا الجيش واكتشفوا أنه جيش شايرمن واصطدموا معه، أصاب شايرمن وقواده الذهول: «فانخرس لسان التبرير وشلت حركته، فلم يستطع المضي قدماً أو التقهقر. ولم يعد هناك أمل في الرحيل أو احتمالية تقدم». وتحت الحراسة احتشد القادة في حضور مونخيه، في مجموعات مكونة من تسعة أفراد، وبعد ثلاث أيام من التحقيقات، أصدر مونخيه حكمه النهائي- إجراء مفزع لا يُصَدَّق، ولا تسمعه أذن العقل أو تقبله روح الحكمة، لكنه حقيقي. اعتبرهم مونخيه خونة، وبدأت عمليات الاعتقال وانتزاع الاعترافات والإعدام. وتخلى مونخيه عن سماحته الغريزية، وأمر بضرب عنق هذا السجين وسحقه حتى الموت، في حين

انتحر آخرون طاعنين أنفسهم بالسيف.

تتابعت عمليات التطهير والتفتيش في أماكن بعيدة مثل أفغانستان والعراق، وكانت أرملة جايوك (أوغل كايميش) بين الضحايا، وقد اعتبرها مونخيه أحقر من الكلب والأقبح بين بذيئات النساء- إنها أم شايرمن، بل وشايرمن نفسه. لقد كان حدثاً فظيعاً سالت فيه الدماء، وادعى منجسر نفسه أنه نفذ حكم الإعدام في 77 قائداً معارضاً، وكان عليه أيضاً التخلص من عدة مئات من البشر. فكانت هذه الأحداث بمثابة بداية لعهد أكثر عبوساً، يعترف بفضل رؤية جنكيز الجديدة التي كرستها من جديد العبادة الرسمية لجنكيز خان (وهي ديانة يعبد أصحابها جنكيز خان وتستمر حتى الآن في منغوليا).

وتلك هي الطريقة التي حصل بها مونخيه على السلطة المطلقة، ويعود الفضل في ذلك إلى سوركاكتاني، وهناك قدر كبير من الحظ في هذا، حيث تغلّب نسل تولوي على نسل أوقطاي؛ ما يعني أنه عند حدوث أي شيء لمونخيه تصبح الفرصة طيبة وسانحة لحصول كوبلاي على الخلافة.

أضاف مونخيه قوة جديدة للثقة المقدسة التي أسسها جنكيز، إنها مهمة الكفاح من أجل الهيمنة الكونية. واستهل عهده بموجة من الإصلاحات ووضع خطط للتوسع، وسارت العمليتان معاً على قدم وساق، فتحديد الفتوحات سيوحد شعبه المنقسم. وكان إيقاف العمل الهادف إلى تحقيق المصالح الشخصية يتطلب ممارسة السلطة على أساس معرفة دقيقة بالموارد المتاحة، فقام بعمل إحصاء سكاني (مجموعة من الإحصاءات السكانية حدثت فيما بعد) على مستوى الإمبراطورية برمتها. ونُفّذ هذا المشروع الضخم خلال خمسينيات القرن الثالث عشر، ووُضع كتاب ضخم جداً يشبه كتاب «يوم الحساب» المغولي، اشتمل على معلومات عدة منها أعداد الناس والمدن والحيوانات والحقول والموارد الخام من شاطئ المحيط الهادئ وصولاً إلى بحر البلطيق. ولم يعد هناك مجال للاهتمام بالمصالح الشخصية، ولن يُستغَل بعد نظام ترحيل البريد لصالح أصحاب المناصب. وستكون هناك ضريبة رئيسية (تطبق على الأفراد في الأراضي الإسلامية وعلى العائلات في الصين) وتُدفع نقداً، وتدفع الضريبة الزراعية في هيئة سلع، وتُفرَض الضريبة التجارية على الأعمال كافة. ومكنت عملية إحصاء السكان أيضاً أمانة مونخيه من الإحاطة علماً بالحجم المحتمل

لقواته المسلحة، وحصرت المنازل الموجودة في كل منطقة وما بها من الرجال ممن يمكن إلحاقهم بالخدمة العسكرية.

وعلى هذا الأساس ستكون هناك اندفاعة نحو الخارج لم تشهد الإمبراطورية مثلها فيما سبق، فقد أوكل مونخيه مهمة إدارة الحملات لأخويه الصغيرين وعدد من أقاربه، فتحرك هوليغو نحو الغرب باتجاه العالم الاسلامي. وتولى مونخيه بنفسه بمساعدة كوبلاي مهمة تنفيذ الغزو النهائي لجنوب الصين وبالتحديد مملكة سونغ. واستهدفت عملية التقدم الثالثة - وهي الأصغر بين تلك العمليات المتزامنة - كوريا، وقد تولاها ابن أخي جنكيز واسمه «جوشي خَسر». وكان الإخوة الثلاثة مونخيه وهوليغو وكوبلاي في قلب هذه الحملة التوسعية. وبينما احتل مونخيه المقدمة، قاد أخواه الاثنان جناحي الحملة الأيمن والأيسر، وقد قامت جيوشها بأعمال مشابهة في الشرق والغرب بهدف بسط نفوذ الإمبراطور وعائلته على العالم الإسلامي من ناحية وعلى الصين من الناحية الأخرى.

في هذه الفترة تعلم كوبلاي من والدته الاعتناء بممتلكاته في الصين، وعيّن اثني عشر مستشاراً من الصينيين الثقات، من أصحاب الاهتمامات الفكرية والدينية المشتركة، وممن كانوا على استعداد للعمل مع سيدهم الجديد وإسداء النصح له، بما يساعده في اكتشاف طريقة تستند إلى الوصايا الدينية المستمدة من الديانات البوذية والطاوية والكونفوشيوسية؛ لتحويل القادة المغول إلى حكام صينيين صالحين. وكانت خطوة مميزة من كوبلاي استطاع بها تجسير الفجوة اللغوية والثقافية، فلم يكن كوبلاي يتحدث الصينية، وكان عدد قليل جداً من الصينيين يتحدثون اللغة المغولية، ومن ثم كانت صور الاتصال كافة تتم عبر مترجمين.

وكان من بين مستشاري كوبلاي من حظي باهتمام خاص، الأول هو راهب بوذي بارز اسمه «ها ياين»، وكان متقد الذهن في طفولته فاستطاع استيعاب وهضم الكونفوشيوسية بسهولة كبيرة. ويُقال إنه في السابعة من عمره، اطلع على آراء كونفوشيوس ووجدها غير مفيدة، فعاد إلى البوذية، وقد عُيّن راهباً في التاسعة من عمره. وفي عام 1219، حين استولى المغول على مدينة ليانغزهو (Liangzhu) في وسط إقليم كانسو، كان عمر «ها ياين» حينها 16 سنة، وكان يتجول مع سيده وسط الخراب والدمار غير مبال بما يراه حوله، فوجه أحد القادة المغول إلى «ها ياين» وصاحبه سؤالاً: هل تخافون أن تقتلكم قواتنا؟ فرد «ها ياين»

بهدوء قائلاً: نحن نعتمد على حمايتكم. وتأثر بذلك قائد شمال الصين موقالي وحظي الاثنان باهتمام جنكيز، الذي أمر لهم باللباس والطعام وأعفاهم من الضرائب. وبعد فترة وجيزة، مات السيد الكبير وبدأ التلميذ «ها يابن» في البحث عن مبدأ ديني جديد. وقد عبّر عن إدراكه لوحي السماء حينما قال عبارة مبهمة تعتبرها الديانة البوذية دليلاً على الحكمة: «أدركت اليوم لأول مرة أن الحاجبين يتحركان أفقيّاً عندما يكون الأنف في وضع رأسي».

ترقى «ها يابن» إلى أن أصبح رئيس معبد، وذات مرة طلب أحد كبار مسؤولي الدولة المغول نصيحة «ها يابن» فيما يخص رحلات الصيد التي يخرج المسؤول فيها. فأجابه الراهب بحدة: «المهمة الأساسية للمسؤولين هي الحفاظ على الحياة وليس ممارسة الألعاب». وعندما كانوا يتناقشون عن إمكانية وسم التابعين الصينيين بعلامة على ذراعهم لتمييزهم إذا حاولوا الهرب، عنّف «ها يابن» القادة قائلاً: «الرجال ليسوا كالبهائم»، فتخلوا عن الفكرة. وحينما التقى كوبلاي بالراهب «ها يابن» في كاراكوروم عام 1242، سأل الراهب عما إذا كانت البوذية تقدم وسيلة لإقامة السلام العالمي، فرد «ها يابن» بالإيجاب، واستدرك قائلاً إنه حتى يتحقق هذا المفهوم، يجب على كوبلاي أن يحيط نفسه بالعلماء. وسأله كوبلاي: أي التعاليم الثلاث أسمى- البوذية أم الطاوية أم الكونفوشيوسية؟ فقال له «ها يابن»: بالنسبة للحكمة والإخلاص البوذية أسمى: لأنها تقدم أفضل توجيه للأمير الراغب في الارتقاء بنفسه بالفضيلة، والتخلص من المعاناة، ومقاومة الضلال، وقبول النصح النافع، وتَجنُب الإسراف، وتمييز الصواب عن الخطأ. وقد نزل هذا القول من كوبلاي منزلاً. وكان الراهب «ها يابن» هو من أعطى كوبلاي عند ولادته سنة 1234، اسم «زينجين» (ومعناه الذهب الخالص).

عرَّف «ها يابن» كوبلاي على راهب آخر اسمه «ليو بينغ زونغ»، وكان رساماً وخطاطاً وشاعراً وعالم رياضيات وصاحب مواهب عدة، وكان منتسباً إلى الطائفة الطاوية. وكان اسم الأب الروحي لهذه الطائفة «تشانغ تشن» الذي استدعاه جنكيز على طول الطريق إلى أفغانستان، وتحوّل بعد ذلك إلى البوذية دون أن يفقد اهتمامه بالطاوية والكونفوشيوسية. في حين عاد «ها يابن» في النهاية لإدارة شئون معبده في بكين، وبقي «ليو» ضمن فريق كوبلاي، مكرساً حياته (حسبما جاء في وصف كاتب سيرته الذاتية هوك - لام تشان) للوصول إلى

التعديل المناسب في أعراف وعادات المغول بما يتفق مع مبادئ الكونفوشيوسية».

انضم «ياو شو»، المرشد الثالث، إلى فريق أوقطاي عام 1235، وأُرسل بصحبة قوات غازية عبر حدود سونغ، فلم يدخر وسعاً في سبيل كبح وحشية المغول. وفيما بعد قدّم «ياو شو» المساعدة في تأسيس أكاديمية كونفوشيوسية في بكين، لكنه رجع بعد ذلك - بعد نقل الإدارة المغولية - إلى المدينة مدة عشر سنوات، فاختاره كوبلاي ودعاه إلى كاراكوروم في عام 1251. وأصبح «ياو شو» المعلم الخاص لابن كوبلاي الصغير ووريث عرشه المقرب إلى قلبه «جينجيم» الذي لم يزل في الثامنة من عمره.

قام كوبلاي بتعيين الأجانب أيضاً، فقد رغب في إحداث توازن بين ماضيه وحاضره، وبين مصالحه الخاصة بالأمور المحلية وبين سكان الإمبراطورية من مغول وصينيين وأتراك. وخصَّص كوبلاي فريقاً صينياً لاستشارته في أمور الحكم، في حين اعتمد على المغول في الشئون العسكرية، واختص الأتراك بأعمال الترجمة والسكرتارية. وشُكّل مجلس وزراء من مجموعة مدهشة - عدداً وتنوعاً - من الخبراء، اختيروا بعناية لتحقيق التوازن السياسي، وبدا أن كوبلاي يعد نفسه لحكم إمبراطورية أكبر من ملكه الحالي.

لقد كان مؤهلاً جداً لذلك حينما طلب من مونخيه أن يمنحه مسؤوليات أكبر في شمال الصين، وكان هناك سبب إستراتيجي وجيه لهذا الطلب هو ضمان مورد من الإمدادات يمكن أن تعتمد عليه القوات المحتلة. وقد كانت عينه على الأراضي الزراعية الخصبة الممتدة على النهر الأصفر وروافده، والمتمثلة في إقليمي شانشي (Shanxi) وهنان، وتقع تقريباً بين العاصمة القديمة «شيان» والعاصمة الأحدث التي غُزيت حديثاً لمدينة كايفنغ. وكان مونخيه قلقاً من تسليم جزء كبير من الإقليم دفعة واحدة، ومنح كوبلاي حرية الاختيار، وأخبره مستشاروه الصينيون بأن الأرض في أدنى النهر معرضة للفيضانات كما أنها ملحية، ولذلك وقع اختياره على المنطقة في أعلى النهر، على نهر «ألوي»، وهي عبارة عن بقعة غير منتظمة وهي تقريباً في نصف حجم إنجلترا، وتمتد من وادي نهر ألوي جنوباً وعبر الجبال حتى حدود سونغ. وقد أثارت طريقة تفكيره إعجاب مونخيه فمنحه إقليم هنان أيضاً. واتبع كوبلاي في حكم هذه المناطق نصيحة مرشده «ياه لو تشو تساي»، والتدريبات الداهية التي تلقاها على يد أمه، والإستراتيجية الإمبراطورية التي يتبعها مونخ. فقد سمح للفلاحين بالعمل، وفرض

عليهم ضرائب منصفة، وقام أيضاً بتأسيس (مزارع عسكرية) كانت بمثابة مستعمرات تمد القوات. وقد نجح الأمر، حيث قام بتشكيل القاعدة الأساسية للحكم (الصينية)، وهو الأمر الذي أثار الشكوك بين التقليديين مرة أخرى.

ولم يحتمل كوبلاي المضي في هذا الطريق، فقد نصحته أمه بأن يظل على اتصال بكل ما هو منغولي في آخر ظهور إمبراطوري لها. وكان لها مثلاً جناحها الغربي في سنة 1251 الذي يُعرف اليوم باسم شرق إيران وأوزبكستان، وعلى مدى 30 سنة ظلت هذه المناطق ضمن مدن «طريق الحرير»، ولم تُمس دولة الإسلام الغربية وعاصمتها بغداد. وظلت سوركاكتاني نفسها على اتصال بهذه المنطقة وقامت بتمويل بناء المساجد والمدارس والكليات الإسلامية، بما فيها واحدة من مدارس بخارى التي كان يتعلم بها ألف طالب. وهو ما اعتبره المسلمون مبادرات مميزة وكريمة من ملكة مسيحية.

وفي بداية 1252، ماتت سوركاكتاني بعد أن جاوزت السبعين عاماً، ودُفنت في أقصى الغرب في إقليم كانسو، وهي المدينة القديمة التي وفرت الحماية لطريق الحرير، وأصبحت معقلاً للحملات التبشيرية النسطورية. ويبدو أن سوركاكتاني كانت لديها اتصالات مبكرة ودائمة بالمدينة، أما بالنسبة لمثواها الأخير فقيل إنه معبد بوذا العظيم. وقد اشتهر هذا المعبد ليس بسبب وجود تمثال ضخم به يبلغ ارتفاعه 34 متراً فحسب، فضلاً عن عمره الذي يزيد عن 17 قرناً، وإنما لموقعه الإستراتيجي. فعندما زرت المعبد في سنة 2005، كان التمثال يخضع لعمليات الترميم لإزالة ما علق به من أوساخ على مدار ألف سنة، فتجولت وحيداً في الظلام بين جنبات المكان لأجد مجموعة السقالات المنتصبة، أعتقد أنها كانت تخفي وراءها حائطاً مزيناً. ولم ألحظها إلا بعد أن أمعنت النظر، وقد رأيت ابتسامة مفعمة بالمرح تبددت في الظلام فوقي، وليست هناك أية إشارة عن أي شيء مسيحي. وبدأت أتساءل عما إذا ما كنت أتعامل مع شيء أسطوري، فأمسكت بيد المدير «وو زن كي» الذي انشغل بمتابعة عملية الترميم، وكان رجلاً أربعينياً نشيطاً، قصير الشعر، وكان الرجل المناسب للإجابة عن أسئلتي، لأنه ألّف كتاباً عن المعبد، وكان مفعماً بالحماس، تتدفق منه المعلومات بسلاسة ويُسر.

فقال لي: «في القرن الثالث عشر، ربما كانت مساحة المكان خمسة أضعاف ما هي عليه

الآن، ويضم المعبد محتويات مسيحية وبوذية. ولا شك أن بي جي (لقب صيني للتوقير لم أسمعه من قبل) مدفون هنا»، وكانت صلته كبيرة إلى درجة تجعلك تظن أن أمه كانت حاملاً بكوبلاي حين وصلت هنا في المرة الأولى، وأنه وُلد في هذا المعبد.

«يتناقل هذا الحدث السكان المحليون من جيل إلى جيل». قام «وَو زن» بتوقيع نسخة من كتابه وتحفّظ على هذا الادعاء أكثر مما أيده، وقال: «ليس لدينا دليل على ذلك». وربما سنكتشف يوماً ما بعض الآثار التاريخية التي تُثبِت ما يقولون». وليست هناك طقوس تربط المعبد بسوركاكتاني اليوم، ولكنها أصبحت قيمة دينية، كونها أحد المذكورين على ضريح جنكيز خان، إدسن خورو (أو قبر الملك)، ويقع المعبد في منغوليا الداخلية حيث كان يُعبَد جنكيز وعائلته.

وربما كانت سوركاكتاني حينما اقتربت من أيامها الأخيرة تشعر بالطمأنينة بعد أن أدركت أنها أنجزت مهمتها العظيمة. وكان أكبر أبنائها خان، وهو من وحد الإمبراطورية، وحقق حلم جنكيز بغزو العالم مرة أخرى، وأصبح الحلم أقرب إلى الواقع بحلول العام. وسمعت قبل موتها أخبار بداية حملة مونخيه لتوسعة نطاق الإمبراطورية بشكل أكبر باتجاه بلاد المسلمين. وعلمت سوركاكتاني أن كوبلاي تولى مهمة التوغل بعمق أكبر نحو الصين، وربما عرفت سلفاً أن هذه التحركات كانت مجرد بداية، وربما أدركت أن كوبلاي سيرث يوماً كل شيء.

الفصل الثاني

الحرب الأولى على الإرهاب

كان المتوقع أن يسعى القائد ذو السطوة العظيمة إلى توحيد شعبه الذي انقسم أثناء الانتخابات، وأن يضع خططاً للحرب. ولمَّا اكتشف بالصدفة أن طائفة من المسلمين المتعصِّبين المعروف عنهم العنف الشديد يتآمرون سرّاً للقضاء عليه، اضطرَّ إلى مواجهتهم بكل ما أوتي من قوة، وكان ذلك في يوم 11 سبتمبر 2001.

ويذكِّرنا الحدث السابق بأحداث مماثلة وقعت في فترة خمسينيَّات القرن الثالث عشر لمَّا علم الإمبراطور المغولي مونخيه الذي اعتلى العرش حديثاً، بمؤامرة اغتياله عن طريق إرسال جيش سري صغير يتراوح بين أربعمئة وأربعين قاتلاً مأجوراً (هذا العدد يختلف باختلاف المصدر) وكانوا من الحشاشين وعُرفوا بالتفاني في سبيل تحقيق هدفهم، ويتشابهون في ذلك مع مجموعة الإرهابيين الذين خسروا حياتهم مقابل تنفيذ عملية برجي التجارة العالمية في الولايات المتحدة، وهناك تشابه بين ردود الأفعال الغاضبة للقائدين والنتائج المترتِّبة على هذه الأحداث.

كما يُلاحظ تشابه كبير بين أحداث سبتمبر بالولايات المتحدة وما حدث في الإمبراطورية المغولية، والذي تبدّى في الخطر الذي أحدثه المتطرفون من خلال عملياتهم الانتحارية، والمخاطر الأخرى التي نتجت عن الإصرار على توسيع حدود الإمبراطورية، وبناء جيش ضخم، وتكوين التحالفات وقوة عسكرية باطشة، والغزو، وسقوط بغداد، ووقوع أضرار على الجانبين المتحاربين، وانتهاء بالاحتلال.

ولا يجب المبالغة في التشابه بين الحدثين، فهناك اختلاف أيضاً، حيث هاجم الأمريكيون العراق بعد هجومهم على أفغانستان، بينما دخل المغول إيران عن طريق فارس، وهي واقعة كانت حتمية الحدوث عاجلاً أو آجلاً، لأنهم كانوا يريدون تحقيق هدف ورثوه عن جنكيز، لكن وحشية المغول فاقت ما اقترفه بوش وحلفاؤه في العراق. فقد أراد المغول الإبقاء على الاحتلاف مدى الحياة، في حين خطَّطت الولايات المتحدة لتغيير النظام والانسحاب سريعاً. ومن هنا جاء تشبيه بعض المسلمين للأمريكيين بـ «المغول الجدد»، وهي مقارنة سهلة جداً لو أمعنا النظر بدقة في الأحداث التي أضافت مساحة هائلة من الأراضي إلى

الإمبراطورية التي سقطت في يد كوبلاي، الأخ الأصغر لمونخيه.

قام المغول - منذ ثلاثين عاماً بالأمر نفسه تحت حكم جنكيز خان، لما استعدوا للغزو - في صيف عام 1252 - وكان ذلك عن طريق تكوين جيش قوي منظَّم بقيادة هوليغو أخي الإمبراطور، مزود بأفضل الأسلحة ومعدات الحصار التي صنعت في شمال الصين. تكون الجيش من ألف فرقة مدفعية من أصحاب الخبرة في تشغيل المجانيق العملاقة التي تقذف الصخور الضخمة والقنابل الحديدية المتفجِّرة على بعد مسافة مئة متر أو أكثر.

وكان في طليعة الجيش الحكام والوزراء الذين تم تعيينهم لإدارة الأراضي التي فتحت مؤخراً، ومهمتهم حجز المراعي والأماكن المحظورة على غير المغول وحيوانتهم حتى يعبر الجيش، على حين ساير الجيش قطعان الأفراس لتزويد القوات بمشروبهم المعتاد من لبن الأفراس المخمَّر. وسلكوا نفس الطريق الذي سلكه جيش جنكيز منذ ثلاثين عاماً الذي كان بحاجة إلى العناية والإصلاح، وبعد مرور عام قامت الفرق بإصلاح الجسور وإنشاء العبارات التي يحتاجها القواد وعائلاتهم، بخلاف العامة الذين كان طريقهم عبور النهر سواء خاضوه عن طريق السير أو السباحة أو باستخدام العوامات المصنوعة من جلود الحيوانات.

وتميَّزت العملية العسكرية الضخمة السابقة عن تلك التي قادها جنكيز خان في أول تحرك له وللمغول إلى الغرب، وقد شبَّه بعض الكتَّاب التحرك المغولي بالعاصفة أو الدوامة، وكأنه قوة جديدة من قوى الطبيعة فهو أشبه بالهجرة وهذا ما ميز آسيا الوسطى طوال ألفية كاملة.

ولم يكن من السهل على الجيش أن يعولَ نفسه، فالطريق أمامهم يمر بالمراعي الشاسعة التي تشكل طريقاً متقطِّعاً للبدو بين منشوريا (Manchuria) وسهل المجر، وقد أشار جون ماسون سميث إلى ذلك فقال: «إن الفضل في التقدم السريع لحملات المغول العسكرية والاتساع المذهل لإمبراطوريتهم يعود بشكل كبير إلى تلك الميزة اللوجستية التي تُعد هبة من السماء».

وقد أفاد المؤرخ الفارسي رشيد الدين أن ذلك الجيش ضم خمسة عشر قائداً كلّ على رأس كتيبة، حيث تضم الكتيبة الواحدة عشرة آلاف جندي (يكون العدد الفعلي عادة أقل

بكثير) فيتراوح قوام الجيش بين مئة ومئة وخمسين ألف جندي، والعادي أن يصطحبَ كل جندي خمسة أفراس على الأقل ليمتطيها بالتبادل ومصدراً لغذائه، إذ يكفي حصان واحد- مئة وعشرين كيلوجراماً من اللحم - مئة رجل جائع.

تميَّز هذا الجيش عن غيره باصطحاب الجنود لأسرهم، ونجد بصحبة كل أسرة ثلاثين خروفاً، فكان المشهد يشبه هجرة شعب كامل بهدف الاحتلال والاستعمار، فبلغ عدد الجند مئة وخمسين ألف شخص وثلاثمئة فرس ومليون وثمانمئة خروف.

وانتشرت الحيوانات التي قلّصت مساحة المراعي، فكان لا بد من تجهيز خيول بديلة غير مرهقة؛ لأن خيولهم كانت تتحرَّك صباحاً وترعى بعد الظهر وتستريح في المساء، فلم يتسنَّ فعل الأمر ذاته أثناء الفتح والاحتلال، على عكس قوات هوليغو التي كانت تقطع أحياناً بضعة كيلومترات كل يوم على مدار عام كامل، فكانت كالمد والجزر تتحرك حسب ضرورات الفتح والاحتلال.

وليس ما كفل التفوق العسكري للمغول هو قوة خيولهم، بل سرعة التبديل المستمر المعروفة عن الخيل. وقد برع الفرسان المغول في تطويق العدو وفي ممارسة الكر والفر بسرعة هائلة، وتجنب الضربات وإرهاب الأعداء الفارين كالوحوش المفترسة حتى كادوا يموتون خوفاً.

وكان توفير العشب والماء الكافي للخيول أمراً سهلاً في تلك الأراضي العشبية، لكن بعد تجاوزها سيختلف الوضع تماماً، إذ يحتاج الحصان المغولي العادي أربعة عشر كيلوجراماً من العشب كل عشر ساعات ونصف، سواء امتطي أم لا. وقد تكوّن الحشد من مائتين وخمسين ألف مقاتل اصطحبوا خيولهم وخرافهم، فاحتاجوا سبعة آلاف هكتار من العشب يومياً، أي سبعين كيلومتراً مربع كل يوم. وسوف يغطي هذا الحشد الحاشد من الخيول والعربات والخراف ثمانية كيلومترات على الأقل، واحتاج إلى أكثر من مليون جالون من المياه يومياً. وكان هناك نهر عظيم في فترات الفيضان. لكن بعد الخروج من المناطق العشبية، ستصبح الأرض أكثر حرارة والصيف شديد الحر في الشرق الأوسط حيث تجدب المراعي وتنحسر الأنهار، فأدرك المغول أنهم سيواجهون ظروفاً بيئية صعبة.

ولم يُعرف من حاول اغتيال مونخيه ولم يُعرَف إذا كانت هذه المؤامرة حقيقية أم لا، لكن التعامل مع التهديد بجدية كان له سبب وجيه هو أن هؤلاء القتلة لم يكونوا عاديين، وإنما شكلوا تهديداً متأصلاً وخطيراً في العالم الإسلامي، وقد كرسوا أنفسهم لممارسة القتل بدوافع سياسية ودينية.

وتعود جذور هذه القصة إلى الطائفية في الإسلام، فالإسلام شأنه شأن أي دين سماوي، انقسم إلى عدة طوائف، يزعم أصحاب كل منها أنهم الورثة الحقيقيون للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وجميعها آمنت بالقرآن. وبعد عقدين من وفاة النبي ظهرت الخلافات العقائدية والنزاعات السياسية والاغتيالات التي عكَّرت صفو الدين، فكان علي (صاحب النبي) زوج السيدة فاطمة- ابنة محمد (صلى الله عليه وسلم)- أحد ضحايا هذه النزاعات. واشتدَّت الخلافات والتعقيدات مع بدايات القرن السابع حين نشبت الصراعات بين الحكام والأعراف والمناطق والمذاهب واستمرَّت على مدار خمسمئة عام، وسنعرض لذلك عندما نتصدى لأصول الحشاشين.

وفي بدايات عهد الإسلام ظهرت السنة مصدراً عقائدياً ثانياً، ويُقصد بها الأقوال والأفعال المنقولة عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الذين كان لبعضهم صلة دم به وبعضهم لم تكن له به قرابة. ثم ظهرت شيعة علي (رضي الله عنه) معارضين للسنة وأتباعها، وزعموا أن المصدر الوحيد للسلطة السياسية هو علي، وأن إماماً وزعيماً روحياً من سلالة علي اسمه «المهدي» سيظهر لاحقاً، واعتقدوا أن الله سبحانه وتعالى حجبه لوقت ما، فأصبحت هذه الفكرة معتقداً أساسياً لديهم، ونتج عنها ظهور الكثير من الأدعياء والعقائد الفرعية الغريبة. ولعلَّ أكبر مثل على ذلك هو خروج طائفة الإسماعيلية في نهايات القرن الثامن، الذين رأوا أن إسماعيل - ابن سادس الأئمة الذي حُرم من الولاية ومات شاباً - هو الامتداد الحقيقي للولاية من بعد محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأنهم خلفاؤه «الأئمة المحجوبون». وأصبحت تلك عقيدة الأسرة الحاكمة التي تذرعت بانحدارها من زوجة علي السيدة فاطمة ابنة النبي (صلى الله عليه وسلم).

اعتنق الفاطميون العقيدة الإسماعيلية، وأسسوا مملكة في شمال إفريقيا، وأرادوا الاستيلاء على مصر لاتِّخاذها قاعدة لمحاربة الخلافة والسيطرة على جميع المسلمين،

لكنهم لم يتمكنوا من ذلك وانهارت الدولة الفاطمية. وواصل دعاة الإسماعيلية الدعوة إلى عقيدتهم وتعاليمهم، ووجد الفقراء والمقهورون ضالتهم في الإسماعيلية، حتى اشتهرت إحدى الطوائف بالعنف تجاه المسلمين السنة وأسست أسرة حاكمة.

بعد ذلك اجتاح الأتراكُ العالم الإسلامي قادمين من قلب آسيا عام ألف من الميلاد تقريباً تحت قيادة حكامهم السلاجقة، ووجَّهوا ضربتهم ناحية الغرب انطلاقاً من قاعدتهم القوية (أوزبكستان وإيران حالياً)، واعتنقوا المذهب السني وانقلبوا على الشيعة، بمن فيهم أصحاب الطائفة الإسماعيلية الذين بدؤوا يشكلون شبكة من الخلايا السرية لرد العدوان.

وقد عاش في راي (طهران حالياً) رجل اسمه حسن الصباح في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وسوف يظهر في سياق الأحداث أشخاص آخرون اسمهم حسن. أما حسن الصباح بالتحديد فكان له أصدقاء من ذوي المناصب العليا من أمثال الشاعر عمر الخيام، كما أنه التقى بأحد المروِّجين للطائفة الإسماعيلية فتحول عن المذهب السني ودخل في مواجهات مع السلطة، متمثلة في ناظم الملك وزير طهران، ثم هرب إلى مصر ورأى نظام الحكم الفاطمي/ الإسماعيلي خاوياً هشّاً، فشن حربه الشخصية دفاعاً عن الإسماعيلية وإمامها الفاطمي في قلب دولة السلاجقة، واختار هو وأتباعه قلعة الموت[1] (Alamut) الحصينة أفضل نقطة انطلاق لهجومه، وكانت القلعة تقع على ارتفاع يقرب من ألفي متر فوق جبال البراز جنوب بحر قزوين، ولكن لسوء حظهم كانت القلعة محتلة.

نجح حسن في استمالة بعض الحاميات وتسلل إلى الداخل متنكِّراً، وكسب المزيد من الموالين في صفه، وحالفه النجاح في الاستيلاء على «الموت» وبذلك وقعت الحامية والقلعة في قبضته. وعرض على صاحب القلعة عرضاً مغرياً هو إخلاء القلعة مقابل صك بمبلغ ثلاثة آلاف دينار من الذهب (ما يعادل خمسة وسبعين ألف جنيه إسترليني اليوم تقريباً). وأصيب صاحب القلعة بالذهول عندما علم أن من قام بصرف المبلغ له كان موظفاً من أهل المدينة تحوَّل على يد حسن الصباح.

إذن أصبح على المغول مواجهة حصن «الموت» باعتباره قلعة مبنية داخل حصن

---

(1) حصن كان يقع على جبال البورز في جنوب بحر قزوين على مسافة 100 كيلومتر من مدينة طهران الحالية (المترجم).

طبيعي وبوصفه حجر أساس لبناء الدولة الإسماعيلية التي أرادها حسن. وتذكر القصص الشعبية أن أصل اسمها يعود إلى مقولة إيرانية محلية معناها «عش النسر» وهو - إن صحَّت الرواية - اسم مناسب، حيث كان الحصن يقع فوق قمة على ارتفاع مئات الأقدام، ولا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق واحد يمكن عبوره من جانب واحد من وادي منحدر ضيق يشقه نهر «الموت»[1].

ويصف جوفايني الصخرة بأنها «تشبه جملاً راكعاً ورأسه متكأة على الأرض، أما القلعة فتبرز عالياً وكأنها حمولة فوق حدبة الجمل، وتخفي جدرانها الملساء وأسوارها المطلية بالرصاص أقبية للتخزين، نُحتت من صخور صلدة. ناهيك عن انسياب المياه عبر قناة تنحدر من منبع لتنصب في «صهاريج تشبه المحيطات»، ولا تزال تتجمَّع فيها مياه الأمطار حتى اليوم. وبلغ طول القلعة قرابة مئة وأربعين متراً، وتراوح عرضها بين عشرة أمتار وأربعين متراً، وتطل على منحدرات شديدة وطرق منزلقة وأدراج يحميها نظام أمني بدائي غير مهيأ لمواجهة أية قوة معتدية.

وفي ثلاثينيات القرن الماضي سافرت الرحالة والكاتبة فريا ستارك بصحبة مرشدين محليين إلى هناك انطلاقاً من قزوين، وقطعوا أكثر من ثلاثين كيلومتراً عبر التلال والسهول تحت الشمس الحارقة، وتسلقوا المنحدرات الطينية إلى قمة جبل رأت من فوقه وادي نهر الموت المؤدي إلى جبال البراز. «بدا تخت سليمان وكأنه عرش، فقد فاق ارتفاعه كل ما حوله من القمم الجبلية، وقد بزغت قممه السوداء بين الحقول المغطاة بالجليد، وعكس غطاؤه الثلجي الأبيض منظر الثلوج الذائبة المتمددة في الأفق».

وقد تحدث مضيف فريا وابنها من داخل القرية التي بنيت بيوتها من الطمي عن فصل الشتاء الذي يخيم عليه الجليد، «حين تتصارع قطعان الذئاب مع كلاب القرية، وكما تحدث أيضاً عن الدببة والثعالب والصيد، وعن الينابيع التي تنساب من الجبل وكيف تفيض في فصل الربيع وتغطّي الحقول الشديدة الانحدار». وفي الاتجاه المعاكس لتيار النهر كان يوجد حول أسوار الوادي طريق ضيق ملتف يمر بين واحتين من الأشجار الرمادية الأوراق

(1) كلمة «الموت» في «قلعة الموت» و«نهر الموت» لا تعني مفارقة الحياة، وإنما هي اسم فارسي يعني «عش النسر» (المترجم).

والكرمات والذرة وأشجار الجوز، ووقفت الصخرة ذاتها ناحية الشمال أعلى واد جانبي وكأنها سفينة ذات سطح عريض.

بدت الصخرة العظيمة مكاناً موحشاً، وقام جبل هوديغان (Haudegan) (ارتفاعه 15 ألف قدم) خلفها بمنحدراته المكسوة بأجراف الجرانيت. وفي قاعدة الجبل شرقي وغربي الصخرة، انساب نبعان شقا طريقيهما باتجاه القاع ليصبا في نهر قاصر (Qasir Rud). ولا يوجد أي عشب على امتداد المسار حتى الطريق الضيق الذي يربط القلعة بتلك الأرض المقفرة، فعلى زائر هذه المنطقة أن يتسلق الطرف الشرقي من الجبل من خلال أدراج قديمة مطموسة، حتى يصل إلى الطرف الجنوبي، وينظر إلى أسفل لمسافة ألف قدم من الصخور، ليرى الحقول وأشجار قصر خان (Qasir Khan) والمنحدرات المشمسة للضفة الشرقية، ويرسل بصره إلى ما وراء نهر الموت ليرى نهر البراز الجليدي. وكان هناك صدع أعلى «قلعة الموت» في الجرف الهائل لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق غابات مازانديرن (Mazanderan) مروراً بطريق تندورخان (Tundurkhan Pass) على ارتفاع ثلاثة آلاف وخمسمئة متر، وكان هذا الممر هو الطريق المثالي لداخل الحرم الحصين. وعزم حسن (أول حكام «الموت» السبع) على فرض تأويله الخاص والغريب للإسلام، فكان قائداً مهيباً واثقاً من نفسه، مثقفاً زاهداً صارماً ودكتاتوراً مفرط القسوة، وليس أدل على قسوته من أنه أمر بإعدام ولديه، أحدهما لشرب الخمر، والثاني لأنه شك في تورطه في مؤامرة لقتل داعية إسماعيلي.

وقد شوهت هذه الأوقات العصيبة وجه الإسلام بما حملته من أقاويل، فاتخذ حسن مبرره واستخدم وسائله للوصول إلى غايته. ففي مصر عام 1094 أطاح أحد رجال الجيش الأقوياء بنزار ولي العرش الفاطمي، وأمر بقتله داخل الجيش وولى مكانه رجلاً ضعيفاً ليتحكم فيه. وكان حسن على قناعة بأن المهدي سيخرج من بين ورثة نزار ليخلص الإسلام من الفساد والغزاة الأتراك، ورأى عدم تحديد ولي لخلافة نزار مشكلة مؤقتة، فجعل نفسه نائباً ونصيراً لنزار واختبأ خلفاؤه ليظهروا في الوقت المناسب، وعُرف تابعوه باسم النزاريين وأصبحوا من المسلمين الشيعة التابعين للمذهب الإسماعيلي، فكانوا طائفة داخل طائفة من طوائف الإسلام. وقد جذبت هذه «التعاليم الجديدة» (كما أسماها حسن) أهل الريف

الذين تاقوا للخلاص من الحرب والفقر والريبة، فقد كان أهل الريف، مثل «الانتحاريين» في يومنا هذا، قد وهبوا أنفسهم لقضية تدفعهم إليها طاعة عمياء، وقد شهد العالم تحول الشباب المتعصِّبين من أتباع حسن إلى قتلة وسفَّاحين.

ويعد مصطلح الحشاشين محيراً للغاية، فالكلمة الأوروبية (assassins) بمختلف هجاءاتها مشتقّة من كلمة «حشيش» العربية، التي جاءت منها الكلمة الإنجليزية، وتعني أحد الأنواع الجيدة للقنب الهندي القديم (Cannabis Sativa). وعُرِفَ النزاريون بين البعض باسم «الحشايشية» (وهو اللفظ الفارسي لأي متعاط للحشيش). واستخدم الصليبيون المصطلح نفسه في القرن الثاني عشر لمّا سمعوا بالنزاريين في سوريا، واستنتج الجميع أن هؤلاء القتلة اختاروا الحشيش مخدراً سرياً يتعاطونه ليهدئهم قبل الشروع في طعن كبار المسؤولين في عمليات اغتيال ربما تودي بحياة القاتل نفسه. وتأكدت هذه الفكرة عام 1818 مع ظهور أول دراسة جادة عن القتلة، كتبها البارون «أنطوان سلفستريه دو ساسي» (Antoine Silestre de Sacy)- أستاذ اللغة العربية في كلية اللغات الشرقية بباريس، وأصبح أستاذاً للغة الفارسية بالجامعة الفرنسية. ثم شاعت هذه الفكرة رغم أنها لم تكن صحيحة، فالحشيش لم يكن سرّاً من أسرار النزاريين، وقد عرفه الجميع ولم يذكره أي مصدر من مصادر النزارية في رواياته، وعلى الأرجح أن هذا المصطلح أُطلق بغرض إهانة هذه المجموعة المكروهة المخيفة، كما يُوصف الانتحاريون بأنهم مصابون بالجنون، وهي أوصاف تُستخدم في انتقاد تصرفات يراها الناس منفّرة وغير عقلانية.

وقد سقطت بعض القلاع القائمة فوق قمم التلال في أيدي حسن الذي استولى على قلعة جردكوه (Girdkuh) ليفرض سيطرته على الطريق الرئيسي القادم من خراسان، وقلعة شاديز (Shadiz) الواقعة جنوباً بالقرب من أصفهان، ثم قلعة لاماسار (Lamasar) وتاباز (Tabas) بالقرب من حدود إيران مع أفغانستان حالياً. وصنع حسن من هذه الحصون قاعدة منيعة يُطلق من خلالها حملته المدمرة، ولم يغادر «الموت» ثانية وظل طوال خمسة وثلاثين عاماً يقوم بإرشاد وتنظيم تابعيه الذين أطاعوه طاعة عمياء - مثلهم مثل أعضاء تنظيم القاعدة هذه الأيام - وكانوا يقتسمون الموت الذي اعتبروه شهادة، وقناعتهم أن جزاءهم في الآخرة هو الجنة.

وصارت أساليب إقناع حسن مادة خام لنسج الأساطير. وقد سمع ماركو بولو بعد نحو عشرين عاماً وهو في طريقه إلى الصين، عن اختفاء الحشاشين، ونال بولو شهرته لأنه أصبح أكثر المصادر قوة وغرابة. ونقل ماركو بولو عن كوبلاي وبلاطه أن وادي الموت المقفر أصبح من أزهى البساتين، وامتلأ بالخيام المطلية بالذهب والقصور المزخرفة، وتفجرت ينابيع العسل والخمر واللبن والماء في أنحاء المكان، وانتشرت الفتيات يلهين ويغنين وكأنها الفردوس في أزهى صورها كما رواها القرآن.

واحتفظ الإمام بمجموعة من الشباب المفعم بالحيوية،إذ أراد أن يهيئهم ليصبحوا قتلة، فأمر بتخديرهم وحملهم إلى الحديقة ثم تدليلهم بكل الطرق حتى يفيقوا، «وتقوم الفتيات بمداعبتهم على النحو الذي يحبونه حتى ينالوا ما يرغبون من متعة»، وبعد أن تزول آثار المخدر يعود الشباب إلى الواقع، وهم مشوشون وعلى أتم استعداد لعمل أي شيء يعيدهم إلى نعيم الجنة. وكان يأمرهم قائلاً: «اذهب أنت واقتل هذا أو ذاك، وحين تعود ستكون ملائكتي في استقبالك لتحملك إلى الجنة، فإذا مت سوف أرسل ملائكتي لتحملك وتعود بك إلى الجنة».

ولم تكن هناك حديقة ولا مخدِّر في الواقع، ولم يكن حسن في حاجة لأي منهما، فكان أول ضحايا حسن هو الوزير ناظم الملك الذي فرَّ منه قبل أعوام ومن بعده ولداه، وتلاهم عشرات آخرون مثل مفتي أصفهان (الذي ذُبح في المسجد)، وقاضي نيسابور[1]، وحاكم بيهق، وزعيم إحدى الطوائف المعادية للإسماعيلية وآخرون، وكان على قائمة اغتيالات الحشاشين خمسون مسؤولاً بارزاً.

مزقت الحرب الأهلية المنطقة، وجاءت الإسماعيلية لتجذب الكثيرين بما بشرت به من نهضة إسلامية، وخرج القادة والضباط برفقة حراس مسلَّحين وارتدوا الدروع تحت ملابسهم. أفرز هذا الإرهاب والعنف إرهاباً مضاداً، وعانى أتباع الإسماعيلية الداعون إلى الحداثة والتجديد من الاضطهاد الرسمي والاتِّهامات العشوائية والمحاصرة والسجن والقتل أثناء الحبس. لكن كل هذه الممارسات لم تنجح، فقد قال أحد أشهر الضحايا لمحتجزيه:

(1) نيسابور هي مدينة في مقاطعة خراسان شمال شرق إيران بالقرب من العاصمة الإقليمية مشهد. وكانت نيسابور عاصمة خراسان قديماً (المترجم).

«عندما تقتلونني، هل تستطيعون قتل هؤلاء المتحصنين بالقلاع؟».

وكانت وجهة نظر سديدة، فقد سقطت بعض القلاع ماعدا قلعة «الموت» التي ظلت حصناً منيعاً رغم حصار دام ثمانية أعوام نتج عنه تسوية واتفاق سلمي، تخللته عدة اغتيالات لبعض الحكام بمن فيهم الخليفة نفسه، الذي قُتل في بغداد عام 1131، فضلاً عن عدد من محاولات الانتقام الفاشلة. وظلت الحال كما هي حتى بعد وفاة حسن سنة 1124، حيث تمكّن الحشاشون من تحقيق مكاسب فاقت خسائرهم.

ظهر رجل آخر اسمه «حسن» أيضاً وأراد أن يعيد إحياء الحماس الثوري، مما دفع الحشاشين إلى الظل، وقد جمع رجاله في شهر رمضان سنة 1164 وخطب فيهم ووضع منبره بحيث لا يكون مواجهاً لمكة. وأعلن أن الوقت حان، وأن الإمام المحجوب تحدث إليه وعيّنه ممثلاً له، فأصبح هو صاحب السلطة الوحيد. «لقد حرركم الإمام من أحكام الشريعة وأعادكم إلى البعث». وكانت رسالته إلى الناس أنه لا حاجة إلى الشريعة والقانون، وأنهم يستطيعون التواصل مباشرة مع الله من خلال حسن الذي أصبح مندوباً عن الإمام وخليفة نزار الحقيقي. وكان أول ما أمرَ به حسنٌ رجاله هو الإفطار والانضمام إليه في مأدبة طعام تعقبها الموسيقا والخمر. لكن عهد حسن الجديد لم يطل، وبعد عامين طعنه زوج أخته الأكثر تشدداً منه حتى لفظ آخر أنفاسه، وأصبحت فكرة البعث التي تبنَّاها حسن جزءاً من عقيدة الحشاشين.

وظلت هذه الفكرة واحدة من أسرار العقيدة الإسماعيلية، يحميها مبدأ محدد هو أن كل شئ مباح، حتى التنازل عن المبادئ، في سبيل الحفاظ على العقائد الإسماعيلية الأساسية؛ ولهذا كان التظاهر أمام أصحاب المعتقدات الأكثر شيوعاً - مقبولاً إن لزم الأمر حتى يحافظ الإنسان على حياته. وكان أي قانون ظاهر - حتى القانون الإسماعيلي - مجرد «حجاب» يخفي الحقيقة وراءه، فلا يمكن مقارنة القانون أو أية قيم أخلاقية أخرى يدركها العالم بالحقيقة الكامنة مثل «القيامة» و«البعث». وقد فسرت هذه الازدواجية التغير المفاجئ والقصير في وجهة نظر الإمام جلال الدين عام 1210، والذي أذهل تابعيه والعالم الإسلامي بأكمله حين أعلن أن الوقت حان لإحداث تحول جديد يتم من خلاله العودة إلى صحيح الدين الإسلامي. وقد صدَّقه القادة المسلمون بفضل أسلوبه الشديد الإقناع، ورأينا أن وفاته

فتحت الباب مرة أخرى أمام عودة الاغتيالات وأعمال النهب.

لكن المسألة كانت بالنسبة للحشاشين أكبر من مجرد الازدواجية والعنف، فقد سعى الحشاشون إلى تأكيد عقيدتهم فيما يخص إرادة الله، فالحقيقة لا تضار أبداً إن حصلت على مساندة من العقل والعلم؛ ولذلك ولع أئمة الإسماعيلية بالمعارف المادية قدر ولعهم بالغيبيات، وبنوا مكتبة شهيرة وشجعوا الباحثين على دراسة معتقدهم، وكان من بين هؤلاء الدارسين عالم الفلك واللاهوت الشهير نصر الدين توسي الذي عاش في قلعة «الموت» عدة سنوات. ولم يتوقف الحشاشون واستمرّوجودهم ونشاطهم، فقاموا باغتيالات بين الحين والآخر، حتى شنَّ المغول عام 1219 هجوماً على سلطنة خوارزم، جارتهم الجديدة من جهة الشرق، والتي ظهر فيها شاه جديد عقد العزم على طرد السلاجقة عام 1194. وبلغ عدد ضحايا الهجوم المغولي أكثر من مليون شخص في الأحداث العنيفة بين عامي 1219 و1222، كما غرق الكثير من المدن الكبرى في الدمار وتفككت المملكة. ولم تكن هذه الفوضى في صالح الحشاشين على الإطلاق؛ ذلك لأنهم استولوا على المزيد من القلاع وشرعوا في استمالة المزيد من الناس لاتِّباع مذهبهم تحت دعوى النهضة الإسلامية، مما دفع مونخيه إلى الخشية على حياته، فراح يستهدف جموع الحشاشين بمجرد أن استقر على ضرورة توسيع إمبراطوريته ناحية الغرب تحت حكم هوليغو.

ولم يكن لدى الحشاشين في هذه الظروف الصعبة قائد شجاع، فقد كان الإمام المنصّب في ذلك الوقت _ الإمام علاء الدين - لا يزال في عقده الثالث، وقد دفعته العزلة والخمر والطاعة العمياء إلى الجنون. وكانت عشيقته زوجة شاب وسيم اسمه حسن (أيضاً)، ألقى المغول القبض عليه في غزوتهم الأولى، لكن هذا الشاب هرب وانضوى تحت لواء الحشاشين وأصبح عبداً يسوقه علاء الدين المتقلب المزاج، فكان علاء الدين يقربه إليه تارة وينقلب عليه أخرى، وأجبره على ارتداء ملابس رثة، وأدت الصفعات التي كان يحصل عليها من رئيسه إلى خفض «رجولته». وبينما كان علاء الدين على علاقة بزوجة حسن لم يحاول الأول تجنيب الأخير الأذى؛ وهو ما يفسّر تكسّر أسنان حسن وبتر نصف عضوه الذكري، الذي جعله خادماً مهاناً في نفسه وعِرضه، وكلها أسباب كافية لجعل حسن يكره رئيسه، مثله رجال كثيرين منهم ركن الدين ابن علاء الدين الذي لم يزل في مرحلة المراهقة

آنذاك.

كتب جيوفاني: «كان علاء الدين في لحظات الجنون التي تنتابه يعذب ويضطهد الفتى دون سبب»، وأمر الفتى بالبقاء مع النساء في غرفة مجاورة لغرفة أبيه، وكان يهرب منها في غياب الإمام ليجوب أنحاء القلعة، وكان دائم الخوف من تقلبات مزاج والده فدفعه ذلك إلى الاعتقاد بأن أمله الوحيد في النجاه هو الثورة على والده والاستيلاء على ميراثه والتسليم للمغول. ذلك الخلل الذي عاناه الأب وابنه نال من صمود القلعة ومنعها من الحفاظ على استقلالها تحت مطرقة الاحتلال المغولي».

وفي نوفمبر عام 1255 استغرق الشاب ركن الدين في خطة للتحرك، حين ذهب قائد الحشاشين إلى واد قريب ليتمِّم على قطيع من الخراف، وفي آخر ليلة في الشهر هاجم أحد الدخلاء قائد الحشاشين وخادميه أثناء نومهم، وفي صباح اليوم التالي وُجد الرجل «مقطوع الرأس بضربة فأس واحدة»، وقد مات أحد خادميه الاثنين بجرح بالغ، وتعافى الثاني لكنه لم يستطع الإدلاء بأية معلومات عن ماهية القاتل. وقيل إن ركن الدين هو من ارتكب الجريمة، لكنه كان يعاني من الحمى في ذلك اليوم، إذاً لم يتبقى سوى حسن الذي اعترفت زوجته تحت ضغط بأنها على علم بالخطة، وأن ركن الدين كانت له يد في الأمر، حيث قامت عصبة من المجهولون حاملين فؤوساً،بقطع رأس حسن عندما خرج يتفقد الخراف قبل استجوابه، وتم إعدام أفراد أسرته وحرقهم بسرعة، وصار ركن الدين القائد الجديد رغم أنه لم يكن أفضل حالاً من أبيه.

أصبح ركن الدين حرّاً في تفاوضه على حياته وانتقل إلى قلعة أخرى - قلعة ميمون ديز، وبعث رسله إلى المقر الرئيسي المحلي للمغول بحمدان معلناً استعداده للاستسلام. جاءه الرد بالموافقة، لكن هوليغو بدأ يتحرك وكان يجب الاستسلام له. انتظر ركن خمسة أشهر، وفي مايو 1256 أرسل أخاه إلى هوليغو والذي كان على مسافة خمسة أيام عن دامارفاند، فقال هوليغو: إن على ركن الدين أن يدمر ركن قلعته ويأتي إليه،وقد حاول ركن التهرب من هذا الالتزام مرة أخرى عندما طلب المزيد من الوقت. وبالفعل دمَّر ركن الدين بعض المباني وترك قلعته، ولكي يؤكِّد حُسن نواياه، أكد أنه سيرسل ابنه البالغ من العمر ستة أعوام إلى هوليغو ضمانة لاستسلامه، ولما اكتشف هوليغو أن هذا الابن كان ولداً غير شرعي أنجبه

ركن من خادمة كردية، أعاده إليه لعدم أهميته.

ظل ركن يراوغ لما يقرب العام حتى وصل المغول ثم جاء شهر نوفمبر. قال توسي عالم الفلك: إن النجوم لم تقر المقاومة لذلك فالاستسلام أفضل، وكان ذلك ما فعله ركن أخيراً. كما فعل هوليغو الشيء الصحيح حين استقبل ركن استقبالاً طيباً يليق بإمام وأعطى هداياه لقوات المغول. وظل بصحبة هوليغو وقتاً طويلاً أحب أثناءه فتاة مغولية وسمح له أن يضمها لحريمه، كما ولع بإبل الحرب، فأهداه هوليغو مئة ناقة. شعر ركن بالأمان في ضيافة هوليغو ولكنه لم يبد تقديره لهذا الجميل، فالإناث لا تقاتل مما دفع ركن للتذمر قائلاً: «كم سأنتظر حتى تلد تلك الإناث ذكوراً يصلحون للقتال؟» إلا أن هوليغو قابل ذلك التذمر بصدر رحب؛ فلو أحسن معاملة الإمام سيتجنَّب المغول عناء مهاجمة قلعة تلو الأخرى.

وقد كان، حيث فتحت معظم القلاع بواباتها عدا الموت ولاماسار وجيردكوه، وكان صمود القلعتين الأخيرتين عدة سنوات دليلاً على أن تلك القلاع كانت ستظل حصوناً منيعة لو أنها صمَّمت على المقاومة. وفي الموت تزامن وصول قوات المغول في نوفمبر عام 1256 مع ارتداد ركن، فأقنع ذلك حاكمها بتغيير موقفه بعد شهر واحد فخرج سكان القلعة ودخل المغول وأحرقوا المكان. كان مصير كل محتويات القلعة هو الضياع والدمار لولا أن اقترح جيوفاني، والذي كان يخدم لدى المغول، أن يتفقَّدَ المكتبة وحصل منها على المصاحف وأدوات خاصة بعلم الفلك ومجموعة من الكتب التاريخية. وأشار إلى أن القلعة كانت في حالة جيدة جداً وأنها قادرة على الصمود لأجل غير مسمى.

قُتل اثنا عشر ألف شخص من صفوة النزاريين، ولعب ركن الدين دوره المطلوب، وسرعان ما كان سيتم التخلص منه، فالحشاشون إما أن يقاوموا أو يستسلموا ببطء. صبر هوليغو على ركن كثيراً وهو يعلم أنه بالتخلص من حاكم استسلم بإرادته سيرسل رسالة خاطئة لحكام آخرين قد يسيرون على نفس النهج الذي سار عليه ركن، ولكن ركن استعجل موته حين طلب أن يسمح له بتقديم نفسه لمونخيه في كاراكوروم، أعجب ذلك هوليغو ليبعد الإمام الشاب عن طريقه. وبالفعل وصل ركن بصحبة دليل عبر به آسيا الوسطى إلى بلاط مونخيه فاستقبله بعد عدة أشهر ببرود وعدم ود، وأمره مونخيه بالعودة إلى بلاده وتدمير قلاعه، وفي طريق العودة عند حافة جبال خان جاي، أخذ المرافقون المغول ركناً وصحبته

جانباً، وذبحوا صحبته بسيوفهم، وأخذوا يركلون ركن - الذي كان قائداً رغم كل شيء - بأقدامهم حتى مات ميتة خالية من الدماء تليق بقائد.

وانتهى بذلك الحشاشون رغم استمرار أحد فروعهم في سوريا حتى جاء المصريون وقضوا عليهم تماماً في سنة 1273، وكانت هذه نهاية الحشاشين لا نهاية النزاريين - أصحاب التاريخ الغريب.

وانقسم الفريقان الفارسي والسوري، فاتبع كل منهم شخصاً ادّعى أحقيته بالقيادة، وانتهت سلسلة الأئمة السوريين عام 1800 تقريباً، وصمدت السلسلة الفارسية مدة أطول. وفي منتصف القرن التاسع عشر، عُيّن الإمام النزاري حاكماً للقوم (Qom) ومنحه لقباً جديداً هو «أغا خان». وبعد إقالة الأغا خان من ثاني منصب له كحاكم على كرمان وإشتراكه في انتفاضة، اتجه مع قواته وعائلته إلى أفغانستان وتحالف مع البريطانيين في الهند. وشجعه البريطانيون على زعزعة أمن واستقرار فارس كجزء من لعبة كبرى نص عليها المخطط الأنجلو روسي، وكان ذلك في الوقت نفسه الذي طُرد فيه الإنجليز من كابول بعد هزيمة فادحة تعرضوا لها في سنة 1842. وقد استقر «الأغا خان» أخيراً في بومباي عام 1848 تحت الحماية البريطانية، وظلَّ حاملاً للقب «صاحب السمو» كما لقّبه البريطانيون، مستقرّاً هناك طوال ثلاثين عاماً أعاد فيها بناء ثروته ومارس هوايته في تربية خيل السبق.

وتلقى الإمام الحالي «الأغا خان» الرابع تعليمه الجامعي في جامعة هارفارد، وخدم الجالية النزارية المشتّتة التي بلغ عددها عدة ملايين نسمة من خلال مؤسسة أغا خان في سويسرا ومقرها الرئيسي بالقرب من باريس. وقد أشرف على جامعة «الأغا خان» في باكستان إلى جانب قرابة ثلاثمئة مدرسة وكلية، وشبكة تضم مائتي مؤسسة وبرنامج صحي وستة مستشفيات. وكانت صلات الأغا خان البريطانية لا تزال قوية، وكان قد تزوج من الليدي جيمس كريشتون ستيوارت (كان اسمها سارة كروكر بوول قبل الزواج) وكانت واحدة من أشهر عارضات الأزياء البريطانيات قبل زواجها منه. كما استقرت أكبر جالية نزارية - وقوامها عشرة آلاف شخص - في لندن.

وما يثير الدهشة أن من العواقب التي أفرزها الاعتداء المغولي على العالم الإسلامي

سنة 1254- خروج مونخيه في حملة للقضاء على مجموعة من الحشاشين بعد أن علم أنهم يخططون لقتله، ونجح في القضاء عليهم. إلا أنه مع اختفاء الحشاشين حدث تحول كبير، حيث استطاع إمامهم أن يستخرج الخير من رحم الشر وأصبح الأب الحقيقي لشعب وُلِدَ من جديد، وقد أسهم ذلك في حل نصف مشكلة المغول، فأصبح بإمكانهم الالتفات إلى الخلافة العباسية التي اتخذت من بغداد مقراً لها، ومن ثم أصبحوا قادرين على إتمام ما بدؤوه بعد أن فشلوا في الاستيلاء على بغداد سنة 1238.

وكان هدف هوليغو سهلاً، فالخلافة العباسية قوة مستهلكة، انقسمت على نفسها إلى عدة طوائف: النصيريين والدروز والقرامطة والتختاجية والزيدية والصوفية، وحارب الأتراك الفرس وحارب كلاهما العرب، وكره السوريون الفتح العباسي الذي بدأ قبل خمسمئة عام وأرادوا التخلص منه. أما شرقاً فقد دمَّر الاعتداء المغولي مدن الطريق الحريري العظيمة: خوارزم وبخاري وسمرقند وأورجنش وميرف بين عامي 1219 و1222. ولم يكن الوسط أحسن حالاً حيث أدَّت الرفاهية والترف إلى إضعاف الأسرة الملكية العباسية. ويقول فيليب هيتي في كتابه «تاريخ العرب» أنَّه مثلما حدث مع الإمبراطورية الرومانية «كان الرجل المريض على فراش الموت حين اقتحم اللصوص الأبواب».

في سبتمبر 1257 قام هوليغو- الذي تحرك أربعمئة كيلومتر من جبال البراز - بإرسال رسالة إلى بغداد يأمر فيها الخليفة بالاستسلام وتدمير أسوار المدينة الخارجية تعبيراً عن سلامة نواياه. فكتب هوليغو أن الخليفة المعتصم كان على علم بما أحدثه جنكيز خان بالعالم، ونتساءل ما هذا الخزي الذي حل بعائلات شاهات خوارزم والسلاجقة وملوك دايلام (المنطقة التي تحصَّنَ فيها الحشاشون)... فلم تغلق أبواب بغداد في وجه أي من تلك الأجناس... فكيف إذاً نُمنع من الدخول، ونحن نملك كل هذه القوة والسطوة؟

وكان الخليفة ضعيفَ الشخصية، وكان أجداده مثل عرائس الماريونيت التي حرّكها أسيادهم السلاجقة، وتمنى أن يزول ذلك الخطر مثلما زال خطر السلاجقة قبله. وكان الخليفة بمثابة الزعيم الروحي لكافة المسلمين، ولذلك لم يكن لديه شك في توفيق الله، لكنه كان فاقداً للكياسة عندما قال لنفسه: «أيها الشاب.. ألا تعلم أن عباد الله بين المشرقين - ملوكاً كانوا أو معدمين - هم عبيد في بلاطي؟» وكانت كلمات خاوية جوفاء، ولم يقم عبدٌ

ولا معدمٌ واحد بنصرة الخليفة.

وفي نوفمبر تحرك الجيش المغولي إلى بغداد وخلال شهرين قطعت القوات مئات الكيلومترات، تاركين وراءهم أهليهم وعشائرهم، ووصلت في ثلاثة صفوف: الأول بقيادة بايجو، أحد قادة الاعتداء المغولي على بغداد عام 1238، وكان قريباً من جهة الشمال بعد عبوره نهر دجلة بالقرب من الموصل. والصف الثاني بقيادة أحد أعظم قيادات الجيش هو القائد كيتبوكا الذي لم يكن مغولياً، وإنما كان انتماؤه لقبيلة نايما، إحدى القبائل التي أبادها جنكيز خان قبل خمسين عاماً. وكانت مجموعة كيتبوكا الأكثر توغلاً ناحية الجنوب، فوصلت غرب المنطقة المعروفة حالياً باسم لوريستان في إيران. في حين قاد هوليغو قلب الجيش في الوسط بعد أن تحرك من فوق الهضاب الإيرانية إلى ضفاف نهر ألوند، وأمر فرق الرمي بالمنجنيق بجمع أحمال من الجلمود ذخيرة لمعداتهم، لأن المناطق الواقعة حول بغداد كانت خالية من الحجارة.

كانت المقاومة نخرة، وتمركزت قوة مسلمة في الأرض المنخفضة بالقرب من بعقوبة على بعد ستين كيلومتراً تقريباً شمال شرق بغداد، وانتهت نهاية كارثية حيث فتح المغول قنوات الري وأغرقوهم، ثم تحرَّكوا نحو الجنود المتخبطين وقتلوا اثني عشر منهم حاولوا الفرار من المياة الموحلة. والتقت الصفوف الثلاثة عند سيزيفزن (Ctesiphon) - التي تطل على نهر دجلة على بعد ثلاثين كيلومتراً جنوب بغداد - وخطَّطوا للاستيلاء على الجزء الشرقي الجديد من المدينة الذي تقع به القلعة العباسية، وكلية الحقوق، وأسوار عمرها مئة وخمسين عاماً، ثم جسرين يقطعان النهر.

طُوّقت بغداد بحلول الثاني والعشرين من يناير عام 1258 كما سدت الجسور العائمة النهر من اتجاه المنبع، في حين أعاق المصب كتيبة من الفرسان حتى أصبح القتال مستحيلاً. فبعد أن حاول واحد من المسؤولين الفرار عبر النهر في أسطول صغير عاد أدراجَه عندما رأى وابلا من الحجارة ينهال عليه، والسهام المشتعلة التي أغرقت ثلاثة من مراكبه وقتلت الكثيرين من حاشيته. بدأ الهجوم بعد أسبوع ودمَّرَ المغول أجزاءً ضخمة من الأسوار بالمجانيق التي تكسرت عند القاعدة، ولكي يحرز المغول تفوقاً ملحوظاً جمعوا فتات الحجارة واستخدموه في بناء أبراج حتى يطلقوا من فوقها قذائف المجانيق، ومن ثم أصبح

التصويب على المباني داخل الأسوار أفضل بكثير. وحطَّمت صخور الجلمود الأسقف، واختبأ السكان لما سقط وابل السهام وأشعلت القدور المشتعلة بالنفط النيران في البيوت. وفي الثالث من فبراير استولت القوات المغولية على الأسوار الشرقية.

أصيب الخليفة في بغداد بالذعر، كما يقول جوفايني: «ظل الخطأ والصواب غائبين عنه»، وحاول إرسال المبعوثين سعياً للسلام، فقد أرسل وزيره وبصحبته زعيم المسيحيين في المدينة على أمل أن تتعاطف زوجة هوليغو النسطورية معه - الأميرة دوكوز، أميرة كيرايت وابنة عم والدته النسطورية سوركاكتاني - والتي عُرف عنها حكمتها ودفاعها المستميت عن عقيدتها، وقد بدا تدينها الشديد من خلال الكنيسة المتنقلة التي سافرت معها أينما حلت. كان هوليغو يكن احتراماً كبيراً لزوجته وعقيدتها وكذلك لوالدته التي زوجته دوكوز، لذلك استمع لها حينما توسَّطت لصالح مسيحيي بغداد. فأرسل جنوده ليلقوا سهاماً تحمل رسائل لأهل بغداد مفادها أنه يعد القضاة - الطلاب والزعماء الدينيين - بما فيهم النسطوريين، بأنهم إذا توقفوا عن المقاومة يكونون في مأمن أكثر، كما جاءه أيضاً سفير ثان يلتمس السلام ثم الثالث ولكنه تجاهل الاثنين.

أبلغ الوزير الخليفة بأنه لا أمل، فقال لسيده إن جهود «رسله الذين جمعهم في عجالة بلا جدوى، وكأنها انتفاضات حيوان مذبوح». فكان على الخليفة أن يستسلم، «فالحكماء هم من يتواضعون ويتذلَّلون». وطلب منه أن يستسلم ويسلِّم خزائنه للمغول، ثم يخطط لرباط زواج بحيث «تمتزج الإمبراطورية مع الدين وتصبح السيادة والسلطان والخلافة والسلطة وجهين لعملة واحدة».

تردَّد الخليفة و انهارت الروح المعنوية داخل المدينة، فقد خرج الآلاف آملين في السلام، لكنهم قتلوا جميعاً لأن الخليفة لم يعلن الاستسلام. وقد ارتعد الناجون في أرجاء المدينة من الخوف وأدرك الخليفة أنه لم تعد أمامه أية فرصة للنجاة، وفي العاشر من فبراير قاد الخليفة حاشية تضم ثلاثمئة من قادته وأقاربه وذهب إلى معسكر هوليغو ليعلن استسلامه. وهناك حيَّاه هوليغو بأدب وطلب منه أن يأمرَ كل السكان بالتخلي عن أسلحتهم والخروج من المدينة،

وقد فعلوا ذلك وكان من يقاوم منهم يُذبَح كما تُذبَح الخراف. وتذكر المصادر أن ثمانمئة ألف شخص قد قتلوا - لا يجب التسليم بأية أرقام ذكرت هنا؛ لأن المغول الذين اعتادوا أعمال القتل الجماعي كانوا قادرين على قتل هذا العدد الكبير- فحتى لو كان الرقم الحقيقي هو ثلث ما ذكر هنا، فإن ذلك يذكرنا بالمذابح النازية ونسبة القتلى فيها. فلا عجب أن المسلمين يشيرون إلى تلك المذبحة حتى يومنا هذا على أنها واحدة من أبشع الجرائم التي اقترفت في حق الإسلام والمسلمين.

وبعد مرور ثلاثة أيام اندفع المغول داخل المدينة الخالية من السكان وأشعلوا النيران في أغلبها وقد عفا هوليغو عن النسطوريين كما وعدهم، وبينما احترقت بغداد من حولهم وجدوا ملاذَهم مع البطريرك في كنيسة مسيحية. منح البطريرك فيما بعد قلعة رئيس الجامعة وانضمَّ إليه مسيحيون آخرون ليحتفلوا بسقوط الإسلام المذهل ونهضتِهم المسيحية.

قرَّرَ هوليغو أن يمارسَ الإذلال ضد الخليفة لكي يُتوِّج انتصاره، فبعد أن استولى على قلعة الخليفة أقام مأدبة طعام لضباطه وعائلته ودعا إليها أسيره، وقال له ساخراً: «أنت المضيف ونحن ضيوفك قدِّم لنا ما عندك مما تراه مناسباً لنا».

ثم تطوَّعَ الخليفة - الذي كان يرتعد خوفاً - أن يفتحَ خزائنه، إلا أنه اكتشف أن خدمَه الباقين على قيد الحياة كانوا لا يعرفون المفاتيح الصحيحة لتلك الخزائن، وبعد أن تم تحطيم الأقفال خرج الحاضرون بألفي حلة وعشرة آلاف دينار نقداً وسلاطين مرصَّعة بالمجوهرات والكثير من الأحجارِ الكريمة، والتي تكرَّمَ هوليغو وقام بتقسيمها جميعاً بين قادة جيشه. ثم عادَ للخليفة ليقول له أن تلكَ كانت الكنوز المعروفة، وسأله: «قل لخدمي عن المكان الذي تخبِّئ فيه الكنوز»، وقد علم هوليغو أن هناك كنزاً مخبَّأ: بركة مليئة بسبائك الذهب والتي التُقطت ووُزّعت.

ثم جاء دور الحريم: سبعمئة امرأة وألف خادمة، وقد توسَّلَ الخليفة إلى هوليغو بألا يأخذ كل النساء. أظهر هوليغو كرمه هذه المرة أيضاً حيث سمح للخليفة باختيار مئة امرأة ليتم إطلاق سراحهن، في حين أمر بتقسيم البقية على القادة المغول.

وفي اليوم التالي، جُمعت أكوام من الممتلكات الموجودة في أنحاء القلعة من كنوز

وتحف فنية جمعت على مدار خمسمئة عام، ووُضعت خارج أسوار القلعة، وقد أُرسل جزء من الغنيمة فيما بعد لمونخيه في منغوليا. أما بقية الغنائم – كما أشار المؤرخ رشيد الدين – فقد ضُمَّت جميعها إلى غنائم الموت والغنائم التي استولي عليها من قلاع الحشاشين في جورجيا وأرمينيا وإيران وأُرسلت جميعاً إلى حصن فوق جزيرة وسط بحيرة أوروميا، وهي بحيرة مالحة في إيران في أقصى الطرف الشمالي الغربي.

وفي نهايةِ الأمر وبعد أن فاحت رائحة الموت النتنة في أنحاء المدينة، أمر هوليغو بقتل مجموعة أخيرة من أسراه كانت هي الخليفة وبقية حاشيته. كانت نهاية المعتصم وخمسة آخرين من بينهم أكبر أبنائه نهاية شنيعة. وبعد مرور يومين قتل ابن الخليفة الثاني، ولم يصفح هوليغو سوى عن أصغر أبناء الخليفة الذي تزوَّجَ بامرأة مغولية أنجب منها ولدين. وكانت هذه نهاية الأسرة العباسية، كما كانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي لم يكن للإسلام فيها قيادة دينية.

جاء وقت السلم فدفنت الجثث وأُعيدَ فتح الأسواق وعين المسؤولون. بدأ ثلاثة آلاف مغولي بالعمل في إعادة إعمار بغداد، في حين عاد آخرون غيرهم لتأمين بقية الأراضي العباسية. وقد فتحت أغلب البلدان أبوابها مثل الهلَاة، و أبت بعض البلدان أن تستسلم وترتَّبت على ذلك العواقب نفسها، ففي الوسيط والتي تقع على بعد خمسة عشر كيلومتراً جنوب شرق بغداد، قُتِلَ أربعون ألفاً (في رواية أحد المصادر، إلا أنه يجب توخي الحذر عند التعامل مع الأعداد، فهي دائماً غير محددة وعادة ما يوجد بها مبالغات تصل إلى عشرة أضعاف العدد الفعلي). ولم تغير المقاومة أي شيء، فقد أصبحت المنطقة من أفغانستان وحتى الخليج العربي تحت سيطرة هوليغو، كما خضعت له جورجيا وبقية سلطنة السلاجقة – تركيا الشرقية حالياً – ولم يعد أمامه بعد ذلك سوى سوريا ومصر.

لكي نُنهِي هذا الجزء من القصة علينا أن نسبقَ الأحداث بعدة أعوام قبل العودة إلى كوبلاي، حيث كانت سوريا هي المحطة التالية، فقد تأسست على ساحلها مجموعة من الإمارات الصليبية، على حين حكم العرب حلب ودمشق في الداخل. وتقدَّمَ هوليغو نحو ساحل البحر المتوسط وسارع المسيحيون إلى التحالف مع ذلك الفاتح المغولي حيث رأوا في حملته المعادية للإسلام امتداداً لحملاتهم الصليبية، كما انضم إليهم الشعب الأرماني

الذي يعتنق المسيحية كذلك، وقد عامل هوليغو المسلمين بوحشيته المعتادة بقدر ما أظهر سعة صدره وشهامته نحو الحلفاء المسيحيين، أخطأ الأمير الذي كان يحكم ديار بكر – حالياً في جنوب شرق تركيا – لما قام بصلب كاهن مسيحي كان يسافر وبحوزته جواز سفر مغولي، والذي زاد من الأمر سوءاً مقاومته لقوات هوليغو.

ومن هناك بدأت الحملة المتجهة غرباً حيث استولى المغول على حصونه وألقوا القبض عليه ثم قتلوه بعد أن طعنوه آلاف الطعنات، وأخذوا يقطعون لحمَه شيئاً فشيئاً ويضعون قطعَ اللحم في فمه، ثم قطعوا رأسَه التي أصبحت بمثابة تعويذة تجلب الحظ أثناء تقدم الحملة السريع.

عبرت الحملة نهر الفرات ووصلت إلى حلب في الرابع والعشرين من يناير عام 1260، وكان ذلك بعد مذبحة استمرَّت ستة أيام في حلب، تم تسليم المدينة للملك الصليبي بوهيموند السادس. كما سلمت كل من حمص وحماة، وفر سلطان دمشق إلى مصر وقام كيتبوقا بقطع رأس حاكمها بنفسه. وقد فرح المسيحيون ودُقَّت أجراس الكنائس وجرى الخمر أنهاراً وعادت العبادة المسيحية إلى أحد المساجد، وقد بدا أن عهد الحكم الإسلامي الذي استمر ستة قرون قد انتهى. ثم توجه المغول إلى الجنوب ناحية نابلس حيث أبيدت الحامية العسكرية هناك بعدما قامت بمحاولات عديدة للمقاومة. وفي تلك الأثناء بدأ المغول يستغلون المراعي الغنية الموجودة في أراضي الحدود السورية.

وفي النهاية لم يتبقَّ أمام المغول سوى مصر التي كانت تحتَ حكم المماليك الذينَ كانوا عبيداً لدى الأتراك، واستطاعوا أن يَصلُوا إلى الحكم منذ تسعة أعوام فقط بعد أن أراقوا الكثيرَ من الدماء. وقد وصلت أخبار في ذلك الوقت عن وقوع حدث في منغوليا قد يغير كل شئ هو خبر وفاة مونخيه في أغسطس عام 1259، وسوف نعود لنتحدث عن تلك التطورات في الفصل الخامس، و فور سماعه لذلك الخبر عاد هوليغو لفارس على رأس أغلب قواته الغازية، تاركاً كيتبوقا لقيادة عشرين ألف رجل.

وقد أقدم السلطان المصري قطز في ذلك الوقت على فعل أمر بدا في غاية الحماقة إلا أن ذكاءَه اتَّضحَ فيما بعد، حين أرسل هوليغو رسله ليطلبوا أن تستسلم مصر أمر قطز

بقطع رؤوسهم، وكان قتله للرسل عملاً همجياً بالنسبة للمغول يحول دون أية محاولات أخرى للتواصل، حتى لو كان ذلك من أجل إعلان الاستسلام. فقد كانت تلك بمثابة أكبر إهانة يمكن أن توجَّه للمغول، فقد كان معروفاً أن تصرفه هذا هو ما حفَّزَ جنكيز ليهاجم خوارزم عام 1219، ومن ثم لم يجد المغول طريقة أفضل لاختيار الغزو. وربما كان ذلك تصرفاً به نوع من التحدي: فلنمت ولا نحيا عبيداً مرة أخرى، وربما كان هذا التصرف يتعمَّد الاستفزاز...

كان قطز على علم ودراية جيداً أن لديه فرصة لهزيمة قوات المغول التي تقلصَّت برحيل هوليغو وأخذت تترنَّح في نضالها من أجل البقاء، ففي سوريا وخلال شهر مايو تنحسر الأنهار الرئيسية - القويق والعاصي والبرادة والأعوج - لتجدب المراعي، فكيف سيجد الثلث الباقي من الجيش المغولي ماءه وطعامه؟ ولن يتم ذلك إلا بعودة الثلثين الآخرين إلى الشرق. فسرعان ما أدركَ المغول حقيقة أساسية تخص التخييم وإقامة المعسكرات في تلك المنطقة، وهي حقيقة صاغها جون ماسون سميث بمنتهى الوضوح كالتالي: «إذا كان حجم القوة يُمكِّنُها من التمركز بين المراعي والمياه الوفيرة، فذلك يعني أنها قوة صغيرة لن تتمكن من التفوق على المماليك.» أو بعبارة أخرى كان المغول يفتقرون إلى القوة البشرية والعتاد والوقود الذي يلزمهم لخوض معركة كبرى، ربما يتراجع قائد أكثر حكمة عن قراره إلا أن المغول لم يكن لديهم خيار آخر سوى القتال، وبخاصَّة بعد الإهانة التي وُجِّهَت إليهم والتحدِّي الذي حملته تلك الإهانة المقصودة بين طياتها.

وفي يوليو عام 1260 خرجت قوة من مصر قوامها يتراوح ما بين خمسة عشر ألفاً وعشرين ألف جندي، وقد تكون مساوية للقوة المغولية أو تزيد أو تقل عنها بعض الشيء (لا يعرف أحد الأعداد على وجه التحديد)، تحرَّكت هذه القوة إلى فلسطين وتمركزت في عكَّا.

وفي يوم 3 سبتمبر- في شهر رمضان - استعدت القوات للقاء جيش كيتبوقا بالقرب من نابلس، وكان جيشاً مختلفاً عن جيوش المغول - حيث كانت المراعي قليلة في مصر، وكان الجندي المملوكي العادي يحصل على فرس واحد، يوليه رعاية كبيرة. ومن ثم يصبح بصوت أعلى وأقوى من الفرس الصغيرة التي امتطاها المغول. واعتمد المغول على قوة أسلحتهم وليس السرعة، وكان من بين أسلحتهم الأقواس والسهام والرماح والعصي

والسيوف والفؤوس والصولجانات والخناجر، وتفوقوا في رمي القوس، واستعملوا أسلحة صنعها أمهر صناع الأقواس (وكانت الأقواس تصنع محلياً على أرض المغول). وكانت كميات السهام لدى السهام مهولة صنعها لهم حدادون مهرة، وقد ذكر جون ماسون سميث أن المغول أطلقوا 1.3 مليون سهم في معركة حطين التي انتصرت فيها قوات صلاح الدين على الصليبيين سنة 1187، وتدرب الجنود على سرعة الرمي والدقة من فوق ظهور الخيول الثابتة.

ولم تكن أفراس المماليك تطارد أعداءها، وبدأت المعركة والخيول تحمل أحمالاً ثقيلة وتتجه نحو بلد مفتوح يعرفه المغول تمام المعرفة. وكان المغول هم الخاسرين على أرض المعركة كما حدث من قبل في معركة بارفان في أفغانستان عام 1221. وتم اختيار الجنود المماليك على أساس تفوقهم الجسدي، أما المغول فكانوا أشخاصاً عاديين، لا يتفوقون إلا عندما يضعون شروط المعركة بأنفسهم.

ولم يكن ذلك ممكناً في هذه المرة، فكان اسم المكان عين جالوت - وهو المكان الذي يصل فيه وادي جزريل إلى نهايته عند منحنى تلال جيلبو المقفرة حيث يقال أن داود ألقى بحجره المصيري. لم تبقَ أية أخبار مفصَّلة عن المعركة ولكن تبعاً لأكثر المصادر مصداقية[1]، وصل قطز في الصباح الباكر في اليوم الثالث من سبتمبر بعد أن خرج من عكا وسار على رأس قواته مسافة خمسين كيلومتراً، واختار هذا الموقع لتوافر الحطب والماء فيه والشمس الطالة من خلف تلال جيلبو الواقفة وراءه (حيث كان يخطط لهم أنهم لما يختبئوا خلف التلال تحجب أشعة الشمس من رؤيتهم). تبعاً لإحدى الروايات قام قطز بنشر قواته على المنحدرات القريبة تحت الأشجار ونظَّم الباقين في صفوف عند سفح التلال.

وقد التف المغول حول التلال في طريقهم من الأردن لكي يلتقوا بالمماليك، كانوا يتقدَّمون ببطء وقد أحدثوا جلبة مرعبة بطبولهم. إلا أن المغول بعد ما أعماهم ضوء الشمس اكتشفوا بعد فوات الأوان أنهم كانوا ضحيةَ خدعة ومناورة. وضيق فرسان المماليك المفعمون بالنشاط والمسلحون بشكل جيد الخناق على المغول بعد أن استنفدت قواهم، في حين كانت الإمدادات تصل إلى المماليك من جانبي وديان جيلبو. وقد تخلى قائدان من

(1) رواية شفهية لصربم الدين، سجلها بيتر ثوراو في كتابه «معركة عين جالوت: دراسة جديدة».

المماليك عن المغول بعد أن انضمَّ كلاهما لقواتهم، فأدى ذلك إلى إنقاص عدد المغول أكثر.

أبيد المغول عن آخرهم، إلا أن كيتبوقا - حسب إحدى الروايات - ظل عظيماً حتى النهاية ومكث يبعث الحماس في رجاله إلى أن أوقع بفرسه وألقي القبض عليه وقدم لقطز، ورفض أن ينحني أمامه زاعماً أنه يفخر لكونه خادم الخان قائلاً: «لست مثلك، فأنا لا أقتل سيدي!»، وكانت هذه آخر كلماته قبل أن تُقطَعَ رأسُه.

شهدت الضفة الغربية الحالية نهاية آلة الحرب المغولية، فعلى كل حال لم يكن المغول الجيش الذي لا يقهر، وقد شنَّت القوات المغولية بضعة هجمات على سوريا لاحقاً، إلا أنهم لم يتمكنوا أبداً من الاستيلاء عليها؛ لأنهم كلما ابتعدوا عن المراعي الغنية لعبت الطبيعة ضدهم. وفي ناحية الغرب وصل طموح جنكيز في إخضاع العالم إلى الحكم المغولي إلى نهايته، أما التوسعات المستقبلية فسوف تكون ناحية الشرق على يد كوبلاي.

كان لهزيمة المغول في عام 1260 أصداؤها الغريبة حتى عالمنا اليوم، فالمسلمون الذين يرون أن الأمريكيين هم «المغول الجدد» يتباشرون بمعركة عين جالوت التي أثبتت لهم أن أي اعتداء على الإسلام مهما كان غاشماً فإنه لن ينجح طويلاً.

وقد جاء في مقال حول السقوط الثاني لبغداد أن «الأصوليين يرون أن لديهم أسباباً وجيهة للتنبؤ بالانتصار في تلك المعركة (على الأمريكيين)، إذا إن قصة بغداد لم تنته في سنة 1258. فقد استطاع المماليك المصريون وقف مد الانتصارات المغولية في عين جالوت في فلسطين بعد مرور عامين».[1] ولا يملك التاريخ شيئاً في وجه أشخاص لديهم الإرادة والقدرة على تحويل الرسالة التاريخية إلى واقع ملموس، وليس هناك ما يدفعنا للاعتقاد بأن نقص الوقود سوف يوقف تحالف الولايات المتحدة، كما عطلت قلة المراعي جيوشَ المغول في الماضي. ولا يزال المسلمون يرون أن هناك رسالة ما، وما يمنحهم المزيد من الطمأنينة هو احتلال المغول لفارس والعراق الذي دام قرناً من الزمان. وقبل انتهاء عصر المغول بفترة طويلة، دخل المغول في الإسلام؛ مما يثبت للبعض أن للإسلام الغلبة في

(1) حسين حقاني، «المغول الأمريكيون»، السياسة الدولية، عدد مايو- يونيو 2003.

النهاية مهما كانت العقبات.

الفصل الثالث

الاستيلاء على إقليم يونان

كان كوبلاي خان في هذا الوقت يتطلَّع إلى الجنوب مباشرة تجاه إمبراطورية سونغ في جنوب الصين، وهو تحد أكبر بكثير من الاستيلاء على العالم الإسلامي. فمنذ قيام إمبراطورية سونغ في جنوب الصين، والتي بقيت ثلاثمئة عام، أصبحت هي القوة الرئيسية على مستوى العالم، ولم ترتبط مكانتها قط بحيزها الجغرافي، فقد انقسمت إلى نصفين تقريباً عندما استولى الجورتشن الذين تحدّروا من منشوريا على النصف الشمالي بأكمله، وحكموا شعبه الذي كان تعداده أربعين مليون نسمة سنة 1125.

وكانت سونغ الجنوبية بمثابة بقية بقاع العالم التي لا تخضع لحكم منغوليا، حيث سكنها نحو سبعين مليون نسمة وربما أكثر من ذلك، عاشوا في مدن مزدحمة في قلب الصين القديمة وحولها، وهي عبارة عن سهل خصيب شقه نهر تشانغ حسب الاسم الصيني، والذي عرفه الأوروبيون باسم نهر اليانغتسي.

وينبع تشانغ من ممرَّات ناتئة عند حافة مرتفعات التبت، وظل هذا النهر على الدوام مصدر نعمة ونقمة في ذات الوقت، فكانت مياهه تروي الأراضي لكنها في أوقات أخرى ابتلعت الحقول الغنية بالأرز الممتدة على جانبي مجراه. وكان النهر هو الطريق السريع الرئيسي في البلاد، فهو سهل الإبحار فيه لمسافة 2700 كيلومتر، حيث تعيش أكثر من ست مدن من كبريات مدن الصين على امتداد النهر.

وهذا ما قصده الصينيون عندما وصفوا بلادهم بأنها «المملكة الوسطى» ؛ ما يعني أن الصين عالم يقع بين البحر والجبال، حيث تمتد حدود الصين بين صحراء الشمال ورطوبة الجنوب الحار الذي تستحوذ عليه التلال المكدسة بالأشجار على جانبي حوض نهر اليانغتسي، ومع تلاشي هذه الأشجار أصبحت المنطقة سهولا خصبة على ضفتي النهر.

ما أروعها من بقعة جميلة تختلف كل الاختلاف عن موطن المغول الأصلي! فقد تحدّر الشعب المغولي من أرض رملية جدباء، افتقرت إلى أي نهر يمكن الإبحار في مجراه إلى أي مكان، وقد مثَّل المغول قرابة ٪1 من سكان إقليم سونغ وكان للمغول مدينة واحدة في هذا الإقليم.

لم تحمل الأرقام وحدها مفتاحاً للغز القوى الفعلية لإمبراطورية سونغ، وإنما كان العمق الثقافي والقوة الاقتصادية والوحدة السياسية عوامل رئيسة في هذا الإطار. فقد تألفت الإمبراطورية من ست ممالك مستقلّة، كوَّنت في مجملها أمة عظيمة أكبر بكثير من جميع الدول المجاورة لها، وهي التانغت والتبت في الغرب، وننتشاو وفيتنام في الجنوب.

ورغم نجاح الغزاة الجورتشن عام 1125 في الاستيلاء على الجزء الشمالي من الصين إلى جانب العاصمة كايفنغ، فإن إمبراطورية سونغ الجنوبية قد احتفظت بهويتها الثقافية واستطاعت أن تبسطَ حكمَها من عاصمتها الجديدة هانغتشو (كانت تُعرَف وقتها باسم لينان). ومع ذلك بقيت لغة الجين ولم تُلغَ وهي اللغة التي يتحدَّث بها الصينيون، لأن شعبي الصِّين كانا يتقاسمان لغة وثقافة واحدة، ورغم الخلاف المستمر والنزاعات التي تنشأ طوال الوقت من حين لآخر بين الحكومتين الصينية والجورتشن فلم تتسبب في إرباك الحياة اليومية للصينيين إلا في أضيَقِ الحدود حيث بقيت كما هي.

أما بالنسبة إلى أية سمة ثقافية أو اجتماعية كالفن والثروة والابتكار وعمق الفكر يمكن قياسها من حيث الكم أو النوع، فليسَ هناك مَن يباري إمبراطورية سونغ الجنوبية. وإذا عقدنا مقارنة بينها وبين الإسلام نجد أن الإسلام يعد شيئاً جديداً، أي إمبراطورية وحدتُها هي الدين والتجارة، ولكنها في الوقت نفسه تنقسِم على نفسها.

وفي الوقت الذي كان يشع فيه نور المعرفة من إمبراطورية سونغ الصينية، كانت أوروبا تغط في سُبات عميق قبل عصر النهضة الأوروبية، أما بالنسبة إلى الهند، ومنطقة جنوب شرق آسيا، واليابان وإفريقيا، فلم تكن تجمعُهُم أية سمة مشتركة. وصف المفكر الفرنسي جاك جيرنيه ما حدث في ظل حكم سونغ حتّى الاجتياح المغولي بأنه كان بمثابة عصر النهضة – بالمعنى الأوروبي - ويُقصد بها العودة إلى التقاليد القديمة، وانتشار المعرفة، ونهضة علمية وتكنولوجية ونظرة أكثر إنسانية للعالم، ربما ينساب بعضُها صوب الغرب وينعش أوروبا.

ويدعونا استخدام مصطلح «عصر النهضة» إلى عقد مقارنة بين سونغ وإيطاليا في فترة القرن الخامس عشر، وهي تُعَد مقارنة عادلة من بعض الأوجه باستثناء أن النهضة في سونغ لم تؤدِّ إلى النشاط الموجَّه إلى الخارج الذي ميَّز أوروبا في فترة ما بعد القرون الوسطى،

فنجد المجتمع في سونغ كان يفضِّل الاستمرارية والالتزام بالتقاليد على الثورة. وإليكم صورة موجزة عن العالم الذي كان المغول على وشك أن يتحدَّاه، فقد تم اقتلاع القليل من الزهور بصورة عشوائية من حديقة فسيحة قد تحتاج إلى عمر كامل لكي يتمّ اكتشاف ما فيها.

وكان الوقود الذي أدى إلى انطلاق مسيرة هذه النهضة يتمثل في الطرق الجديدة لزراعة الأرز، وبدأت الحياة تصبح أيسر فأيسر تدريجياً بالنسبة لجموع الفلاحين العريضة، رغم أن ذلك لم يكن ملحوظاً من الناحية العملية في السجلات التي قامت على كتابتها الصفوة المجيدة للقراءة والكتابة لصالح أسيادهم.

ويُلاحظ أن التطورات التي طرأت في ذلك الوقت – مثل تزايد كميات الطعام وتحسّن جودته ونمو السكان وازدهار التجارة وظهور صناعات جديدة (مثل القطن)، وبحثُ الناس عن أسباب النهوض بأنفسهم وزيادة دخلهم عن طريق تحسين إنتاجية الأراضي ونشر التعليم، فضلاً عن زيادة عدد الموظفين المدنيين – تضافرَت معاً لإحداث طفرة حضارية.

وكانت المزارع الكبيرة تدر دخلاً لملاك الأراضي الغائبين عنها، والذين هجروها للعيش في المدينة، وقد وفَّر هذا النمو تمويلا لرعاية الفنون وإنشاء الحدائق ونشر الموضة والسيراميك والمعمار. وقد فضَّل الكثير من الفلاحين الذين وجدوا أنفسَهم بدون أراضٍ زراعية على عكس الصفوة الأغنياء الذين تتزايد مساحة رقعة مزارعهم؛ أن يشقوا طريقهم بحثاً عن عمل في الجيش أو الخدمة في منازل الأغنياء، أو العمل في الحانات والمقاهي، أو العمل في دور اللهو، أو العمل في إحدى الصناعات المزدهرة مثل استخراج الفحم أو المعادن أو صناعة الورق أو الطِّباعة أو تسويق الملح، وأيضاً في أحد المصانع المُموَّلة من الدولة، والتي كان يبلغ عدد العاملين بها أكثر من ثلاثة آلاف عامل. وكما أصبح سيراميك سونغ واحداً من أعظم مفاخر الصين، ونجد الطرقات قد ازدحمت بسائقي العربات الكارو، وانتشر الصيادون في الأنهار والقنوات.

وكان السبب في توجه إمبراطورية سونغ الصينية تجاه البحر هو أن حدود الجزيرة كانت محاطة بممالك البربر من جهة البر. وقد شكَّل نهر اليانغتسي وروافده وقنواته طريقاً طوله 50 ألف كيلومتر، تبحر فيه سفن التجَّار إلى الشريط الساحلي الذي انتشرت على طوله

عدة موانئ فاقت نظيراتها الأوروبية، وكانت تبحر منها سفن مزوَّدة بأنظمة شراعية معدّة للاستفادة من الرياح الموسمية المنتظمة. ويعد ميناء كوانزهو من أعظم هذه الموانئ، وكان معروفاً جيداً لدى التجار الأجانب. وعرف العرب هذا الميناء باسم «ميناء الزيتون».

ومن هذه البقعة أو من منبع نهر اليانغتسي، نزل قبطان من إمبراطورية سونغ إلى البحر، بعد أن قام بتحديد مساره من خلال استخدام البوصلة (وهي اختراع مأخوذ من علم الرمال، وقد استخدمها الصينيون قبل أن يعرفَها الأوربيون بقرنين من الزمان تقريباً)؛ على متن سفينة الينك الشراعية ذاتَ الأربع أو الست سوارٍ، وتتكوَّن من عدة مقصورات مُحكَمَة لا يتسرَّب منها الماء (وهي لم تكن معروفة في أوروبا حتى القرن التاسع عشر)، وكان معه على متن السفينة ألف شخص. انتشرت عملة إمبراطورية سونغ في اليابان والهند بفعل التجارة الخارجية. وكان الخزف الصيني يصدَّر إلى كلّ من الفلبين وجزيرة بورنيو[1] وأفريقيا.

وقد تم توسيع نطاق نظام الاختبار المطبَّق لتعيين الموظفين المدنيين (بناءً على الجدارة دون أية محسوبية)، وكان قد ترسَّخ بالفعل منذ فترة بعيدة، وكان هذا ما أعطى كبار الموظفين صلاحيات جديدة، وقد بلغ عددهم 20 ألفاً، في حين تراوح عدد الموظفين التابعين لهم بين مائتي ألف وثلاثمئة ألف.

وقد قيدت القوانين الموجودة في ذلك الوقت الأغنياء في حين كانت تساعد الفقراء، وكان المسؤولون عن الدولة يتقاضون رواتب مجزية من أجل الحد من الفساد. وفي ظل الدخل الذي تدره الضرائب واحتكار صناعة الملح والتعدين، عملت الدولة على رعاية مواطنيها على نحو لم يعهد من قبل، كما قامت ببناء دور لرعاية الأيتام، ومستشفيات، وقامت بشقِّ الترع، وبناء المقابر، والاحتفاظ بمخزون كاف من القمح، بل وكانت الدولة تموِّل أيضاً المدارسَ القروية.

كما تم إصلاح نظام الضرائب لكسب تعاون الفلاحين الفقراء، وكانت عائدات الضرائب المتدفِّقة إلى الدولة بالغةَ الضخامة، ولذلك كانت تُسجَّل بدقة وعناية، ويُلاحَظ أن العائدات السنوية من الرسوم الجمركية المحصَّلة عند الموانئ قد وصلت إلى خمسة وستين مليون

(1) بورنيو هي ثالث أكبر جزيرة في العالم وهي مقسمة سياسياً بين أندونيسيا وماليزيا وبروناي (المترجم).

رسن في أواخر القرن الحادي عشر، كان يضم كل واحد منها ألف عملة معدنية، أي ما يصل إلى 65 مليار عملة معدنية.

أصبحت العملات المعدنية[1] تسبِّب مشقة، وبات النظام المالي متخماً بالعملات المعدنية التي لم تعد تتناسب والظروف الحالية. وأصدر كل إمبراطور عملات خاصة به، وكانت كل ألف عملة مثقوبة من الوسط على شكل مربع يمر به شريط معدني يشدها إلى بعضها، وكان وزنها ستة كيلو جرامات تقريباً، وتعادل أونصة واحدة من الفضة (أكثر قليلاً من 7 دولارات اليوم)، ويمكن للفرد أن يشتري بها نحو ستين كيلو جراما من الأرز2.

وقد بدأت إمبراطورية سونغ بعد عام 1000 ميلادي في طباعة ورق البنكنوت، وبعد ذلك بدأت المؤسسات التجارية تستخدم الشيكات القابلة للصرف من مكاتب الصرافة التي انتشرت في المدن الرئيسية. ولكن كيف كان يتم سك العملة الورقية؟ تتضح إجابة هذا السؤال من خلال معرفة السمة المميّزة للمجتمع الصيني بشكل عام ولشعب إقليم سونغ بشكل خاص وهي تفجر المعلومات. فكانت طباعة النقود تتم بنفس طريقة طباعة الكتب، أي باستخدام القوالب الخشبية، فكان يتم نحت الصور على قالب خشبي على شكل نقوش بارزة. وكانت هذه التقنية أساس النهضة في مجال السجلات والمواد المقروءة التي بدأت تظهَر في القرن الثامن في الصين واليابان وكوريا.

وفي المقابل، كان الجهد الكبير المبذول في نقش كل صفحة من أجل طباعتها هو ما أوحى بابتكار طريقة الطباعة بطريقة الحروف القابلة للتحريك. وهي فكرة لم تظهر، أو على الأقل لم يتم تطبيقها في أي مكان آخر من العالم حتى عهد الألماني جوهانز جوتنبرج الذي استخدام التقنية الثورية المعروفة في ألمانيا في منتصف القرن الخامس عشر. وربما حرم المغول أنفسهم من فرصة تاريخية عظيمة بتجاهل استخدام تقنية الحروف القابلة للتحريك.

وترجع الفكرة السابقة إلى «بي شينغ» الرجل الذي ابتكر في القرن الحادي عشر تقنية للطباعة عن طريق نحت الحروف في الصلصال المبلل ثم تحميص الصلصال. واختار الحروف وثبّتها في إطار ووضع الحبر عليها ثم وضع عليها قماشاً أو ورقاً، وضغط عليها

(1) هذه العملات لا تزال شديدة الشيوع ويمكن الحصول على بعض منها مقابل بضعة دولارات من التجار.

قليلاً تماماً. لكن «بي شينغ» لم ينجح في هذا؛ لأن الحروف المقطَّعة إلى صلصال مبلل لم تمنحه خطاً كتابياً جيداً. لكنه ظل اختراعاً عبقرياً في الثقافة الصينية ومنتهى التطور في زمنه، لأن الطباعة على القوالب الخشبية كانت رخيصة وفعالة وأصبحت التكنولوجيا المناسبة لطبيعة النصوص الصينية والصور الإيضاحية.

احتاج عمال النسخ آلاف الحروف لتمثيل المجموعة الهائلة من العلامات التي احتوت عليها المخطوطات الصينية، واحتاجوا أيضاً نسخاً كثيرة من الحروف الشائعة التي تتكرر في الوثيقة الواحدة، وكان عددها بعشرات الآلاف. ففي القرن الثامن عشر، كان يُستخدم 200 ألف حرف في أعمال الطباعة الإمبراطورية، وأخيراً تمت فهرسة الحروف على أساس صوتي إيقاعي وخُزنت في جداول دائرية الشكل.

وظلت تقنية استخدام الخزف والحروف المعدنية نادرة الاستعمال، لأنها استغرقت وقتاً طويلاً في اختيار الحروف اللازمة لكتابة صفحة واحدة. ولم تُستخدم التقنيات الميكانيكية حتى القرن التاسع عشر الذي شهد ظهور البرامج الحديثة التي استطاعت أن تضع حداً لهذه المشكلة.

وعندما اخترع جوتنبرج حلاً مشابهاً لمشكلة إنتاج النصوص، كانت لديه مزايا فنية عدة منها استخدام الورق وسطحه الصلب والاستفادة من فكرة معصرة الخمور، ومزايا ثقافية أيضاً تتمثل في عدد الحروف الهجائية. وقد صنع جوتنبرج مائتي حرف معدني، هي الحروف الأساسية الاستهلالية، وحروف صغيرة مصنوعة في أنماط مختلفة حسب الاستخدام في الكتابة وعلامات التشكيل والترقيم.

وربما لأن النص الخاص بهم كان أبسط مما كان بالنسبة إلى الكوريين، إلا أنهم خطفوا الفكرة وهربوا بها، وأصبحوا من أول الشعوب التي استخدمت الحروف المعدنية المتحركة في طباعة مجلدات النصوص الدينية (50 مجلداً) في سنة 1234. وقد حدث هذا الأمر فيما مضى قبل وقت قليل من سقوط إقليم سونغ في يد المغول، فقد توفرت كل العوامل المساعدة على ابتكار الطباعة باستخدام الحروف المتحركة قبل جوتنبرج بقرنين من الزمان. ويحتوي الفصل السادس عشر من هذا الكتاب على مزيد من المعلومات عن هذا الموضوع.

وازدهرت الطباعة بالقوالب الخشبية في عهد إمبراطورية سونغ ويُعد النمو الهائل في الكتب أكبرَ دليل على فعاليتها في ذلك الوقت، وقد كان خشب الكمثرى الذي تميز بنسيجه الناعم المستوي هو الخيار الأمثل في معظم الأعمال العادية، على حين حُفرت الصور الإيضاحية الدقيقة في الخشب الصلب المُستخرج من أشجار الخرنوب العسلي، وبالنسبة إلى النصوص وحدها فقد كانت قواطع الخشب تعمل بنجاح مع خشب البقس. وقد شكلت المخرجات من ذلك ظاهرة استثنائية بامتياز.

احتوت المكتبة الإمبراطورية بمدينة كايفنغ على نحو 80 ألف مجلد، وبعد فترة وجيزة لما تولى سونغ مقاليدَ الأمور طُبعت كل الأسفار البوذية التي بلغت 260 ألف صفحة على شكل قوالب خشبية، يحوي كل قالب صفحتين. وكانت هناك أيضاً مجموعات كبيرة من النصوص الرسمية والموسوعات التي بلغت ألف فصل. وقد شجَّعت هذه المجموعات على ابتكار اللوحات والخط والأحجار والعملات والأحبار، أي شيء وكل شيء. وظهرت الأبحاث العلمية على الفُطر والخيزران والفاوانيا وأشجار الفواكه والطيور والتفاح البري وفواكه الليمون وكل أنواع الموضوعات الفنية، ومنها (مقالات بركة الأحلام لشن جوا)، ويتضمن قصة باي شينغ وحروفه المطبعية المتحركة.

عُثر على أبحاث علمية تناولت الكثير من المجالات والعلوم مثل: الطب والجغرافيا والرياضيات والفلك. وبلغت سرعة الطباعة درجة مذهلة، إذ وصلت إلى إنتاج عدَّة ملايين من النسخ؛ حتّى إنّه لا تزال 400 ألف نسخة من المجموعات البوذية المؤلّفة في القرن العاشر موجودة.

أظهر المؤرخون نزعة أدبية واهتماماً بالمصادر الجيدة وسط تأثير سيما جوانج في القرن الحادي عشر، وقد تحكمت في ذلك ضوابط منهجية تهتم بعزو كل شيء إلى مصدره. وسعى العلماء إلى الهروب من التأثير الكبير للاهوت البوذي، فاندفعوا بالاختبارات الشاقة جداً التي تقود إلى الوظائف، والوضع الاجتماعي والدخل، ولهذا السبب نجدهم اتجهوا إلى الرجوع والذهاب بعيداً عن التقاليد الكونفوشيوسية، مؤكِّدين إيمانهم بالعقل والدليل وفوائد التعليم، وبإمكانية حدوث التقدم في المجتمع والسياسة؛ ولذلك نجد هذه الفئة المثقفة اهتمت بطبيعة الأخلاق وتأثيراتها في الحياة في هذا العصر. وتوالت النزاعات

الدينية التي خاضتها الحكومات، والتي لم تكن حروباً دينية ولم تشترك فيها الكنائس. وفي هذه الظروف ونتيجة لهذه الفوائد الفكرية ظهر الكثير من الرجال الألمعيين، نذكر منهم العبقري «شين جوا»- الذي عاش في القرن الحادي عشر، وكان شديد الشبه بـ «دا فينشي» وداروين، فأدرك طبيعة الحفريات ووضع نظريات تقول إن الجبال كانت يوماً قيعاناً للبحار، وطور أدوات لسبر أغوار الفضاء، وقاد حركة تنويرية في علم الرياضيات، وشرح عمل البوصلة، وألّف في الصيدلة، واهتم بالسياسة والتاريخ والأدب، فكانت إسهاماته للبشرية عصية على الحصر.

ولم تكن الرياضات العنيفة محببة إلى طبقات المجتمع الراقية في إمبراطورية سونغ، فصبّ ذلك في مصلحة مجالات أخرى مثل الآداب وفنون الرسم والخط، فكان كتاب «العملات القديمة» (Hung Tsun's Ku-ch'ua)- الصادر في تسعينيَّات القرن الثاني عشر - أول كتاب تناول علم المسكوكات وعُني بدراسة العملات النقدية والأوراق المالية.

وقد أعد شخص اسمه «زاو مينغ شينغ» كتالوجاً جمع فيه الأحجار القديمة والنقوش البرونزية حيث سجّل من هذه العملات ألفي عملة، واشتهرت زوجته «لي كينجزاو» بالشعر وصارت واحدة من ألمع شعراء عصرها. وإذا انتقلنا إلى المدن نجد بائعي المحلات والحرفيين أحبوا رواية القصص، والمسرحيات الموسيقية القصيرة، وعروض العرائس ومسارح الظل، وصارت هذه التقاليد فيما بعد محاكاة للمسرح والأوبرا.

هذه المظاهر أصبحت قوة وزخماً ثقافياً عظيماً آنذاك، لكن الجانب العسكري في إمبراطورية سونغ لم يكن بنفس البريق. ورغم أن إمبراطورية سونغ لم تعان من نقص أعداد المقاتلين، إذ كان لديها أكثر من مليون جندي في عام 1045، فإن مشكلة الإمبراطورية تعلقت بمسألة الفعالية، فقد كان الضباط مسؤولين مثقفين ولم يكونوا جنوداً محترفين مؤهلين، أما الجنود فكانوا مرتزقة وحثالة المجتمع قامت بحشدهم وكالات التوظيف التي كانت بمثابة أداة عقابية في مناطق الأرياف.

ولكن من خلال بعض التكنولوجيا الاستثنائية، تغلبوا على غياب الفعالية في صفوف

الجيش. ويلاحظ في تلك الفترة أن المدن بدأت تتسع مساحاتها، مع تفاقم حرب الحصار وظهور مجموعة متنوعة من الأسلحة الثقيلة كالمنجنيق وأقواس الحصار التي استخدمها المغول، وشهدت هذه الفترة أيضاً ظهور بعض الأبحاث الكيميائية القديمة. وفي بداية القرن العاشر بدأ استخدام البارود المصنوع من نترات البوتاسيوم، في تكتيكات إشعال النيران المسماة بـ «النيران الطائرة»، وهي الصواريخ البدائية. وبعد مرور قرن من الزمان أدى استخدام إمبراطورية سونغ للمنجنيق إلى ظهور القنابل ومُطلقات قذائف الدخان.

ولم تلبث أن داهمت قوات المغول هذه الحضارة العظيمة وجاءت النتيجة عكسية وغريبة. فالوضع كان أشبه بصب الماء على نار أشعلها الزيت، وتبعثر الوقود في وجه قوات المغول المتدفقة نحو الغرب باتجاه أوروبا مدججين بالأفكار والاكتشافات المهمة التي ابتكرها الصينيون، وكان كوبلاي القوة الدافعة لهذه السلسلة من الأحداث.

وكان الهجوم المباشر على سونغ عن طريق نهر اليانغتسي الواسع والمتحصِّن بالدفاعات المتينة، محاولة ومخاطرة باءت بالفشل، ولم يتوقع أحد أن يفشل المغول في هذه المحاولة، فقد احتاج مونخيه إلى شيء ما يعطيه ميزة، وتكرر هذا الأمر في جنوب غرب سونغ، حيث كان هناك ولاية صغيرة لو سيطروا عليها، لكانت بمثابة قاعدة انطلاق للجبهات التالية.

وكان على كوبلاي أن يتولى المسؤولية رغم أنه بلغ السابعة والثلاثين ولم يسبق له تولى مسؤولية أي شيء سوى ممتلكاته الخاصة، على عكس أبيه وأخيه اللذين قادا حملات عظيمة منذ سن المراهقة وعشرينيات عمرهم. وفي أول حملة لكوبلاي بدت ضحالة خبرته، لذلك حرص مونخيه كثيراً على توفير أفضل دعم لكوبلاي حديث العهد بالحملات العسكرية، فأمدَّه بأحد أكثر رجالاته خبرة وتمرساً - الجنرال يوريانغ كاداي، وكان عمره خمسين عاماً، وهو ابن القائد الأسطوري سوبيدي الذي فتح نصف آسيا وأجزاء شاسعة من روسيا في عهد جنكيز خان.

ولم يكن هدف المغول سهل المنال، فقد أرادوا الوصول إلى مملكة نانزو العظمى التي احتلت أهمية حاسمة بالنسبة لهم في الفترة ما بين عامي 647 و937، ثم تقلص الهدف إلى مجرد السيطرة على بقايا المملكة و عاصمتها دالي. وكانت مدينة دالي - التي سيطرت على

الطريق ومن ثم على مسارات التجارة بين الهند وفيتنام (عن طريق الأراضي التي تُعرف اليوم باسم بورما) - تمثّل نقطةَ التقاء لسلاسل جبلية مكسوة بالغابات. فكان من الصعب على القبائل المنافسة الوصول إليها، فما بالك بالسيطرة عليها! وفي سنة 751 حاول أحد أباطرة سلالة تانغ الصينية أن يخضعَها، فخسر 60 ألف من رجالاته في سبيل ذلك.

ولم يكن من الغريب أن تظل المعلومات المتوافرة عن دالي (نانزو) غير كافية ومحل جدال، فتشير أساطير تايلاند مثلاً إلى أن نانزو هي الموطن الأصلي للتايلانديين، وأنه استقر للتايلانديين حكم مجيد بها قبل أن يطردهم المغول منها. وثمة إجماع بين العلماء على أن التايلانديين كانوا مجموعات محاربة عاشت في أقاصي الجنوب ولم يكن يُعتد بهم في القتال.

وظهر شعب باي دالي (اسم قبيلة بورمية تبتية) مجموعة مهيمنة في عام 937، ومنذ ذلك الحين احتفظت هذه القبيلة بالاستقلال طوال ثلاثة قرون تحت حكم عائلتها الملكية - دوانز. ورغم أن «باي دالي» أسست منطقة كاملة وثقافة مميزة، فإنه لم يسمع عنها سوى القليل من الغربيّين، فلم تكن هذه البقعة مكاناً عاديّاً، حيث حكم أبناء هذه القبيلة منطقة امتدت عرضاً لمسافة 800 كيلومتر، وكان مساحتها الإجمالية قرابة نصف مليون كيلومتر مربع،وهوما يقرب من حجم أفغانستان أو تكساس.

وتميزت سيتشان - وهي منطقة واقعة جهة الشمال - بجوهها الرطب، وعرفها الصينيون باسم دالي، وأحاط بها إقليم يونان (ومعناه جنوب السحاب). وكانت دالي جزءاً من أوراسيا بين أفغانستان وسويسرا، وقد استطاعت السيطرة على الصراعات القبلية التي وقع فيها حكام جمعوا ثرواتهم من التجارة، وتعلموا الكثير في فترات السلم مع الصين، ثم تركوا المكان بسبب تشابك قبائله وجباله وبحيراته ومناخه.

ولا يزال الازدهار حاضراً في دالي اليوم بفضل جذورها القديمة وشخصيتها المتفردة، ولم يبرح سكانها ارتداء القمصان اللامعة التقليدية التي تلف الجسم وعصابة ثقيلة على رؤوسهم. وتتزين البيوت المشيدة من الحجارة بالنحوت الخشبية، كما تُرصف الشوارع بالحصى. أما معبد باغودا البوذي - الذي يعد أحد المعالم المهمة هناك، فيُعيد إلى الأذهان

صورة مدينة نانزو القديمة، ويتميز فنانو دالي بمهارتهم العالية في تصميم الرخام المحلي. وفي أنحاء المدينة اليوم ينتشر السياح الحريصون على السفر حول المدينة والمرور بسلاسل جبالها والاستمتاع بالأجواء على جانب البحيرة. ويذكِّرنا هذا المكان بالعاصمة النيبالية كاثماندو (Kathmandu) كما كانت منذ القِدَم، والتي اعتبرها مونخيه وكوبلاي نقطةَ انطلاق مهمة لمواصلة الفتوحات.

وتجدر دراسة تفاصيل هذه المغامرة البالغة الخطورة والوعرة والغامضة بأكبر قدر من التركيز والعناية؛ لأنها توضح كيف صارت مقاطعة يونان جزءاً من الإمبراطورية المغولية، ومن ثم صارت أحد أقاليم الصين الحديثة. فقد اعتبر الإستراتيجيون في كاراكوروم أن اجتياح دالي فكرة جنونية، ولاسيما أن للمدينة مجموعة محدودة من الطرق المؤدية إليها، والتي كان الدفاع عنها غاية في السهولة.

وقد أحاط بأحد جوانب المدينة جبال أزور ذات القمم الحادة المتعرجة، وعلى الجانب الآخر أحاطت المدينة بحيرةُ إرهاي. وقد وضع السلام الذي ساد في القرون الثلاثة المدينة في حالة استقرار بعيداً عن الاضطرابات، ولم يكن لديها جيش يُذكر؛ فكانت بمثابة برقوقة طابت فوق الشجر وتنتظر الالتقاط، إن أراد المغول الوصول إليها عبر إقليم سونغ. فقام المغول بالتخطيط الدقيق وحشدوا جيوشهم في المنطقة التي غزوها مؤخراً، وانطلقوا نحو الجنوب على مسافة ألف كيلومتر عبر الحدود الغربية التي لم تكن مزودة بالحراسة الكافية.

وفي أواخر صيف 1252، وبالتحديد في شبه صحراء أوردوس (Ordos) داخل حلقة النهر الأصفر، نجد جيش كوبلاي استغرق عاماً لاستجماع قواه، وهي عملية مرهقة تضمنت حشد أعداد ضخمة من المركبات الحربية وآلات الحصار التي ستشق الأنهار والوديان في طريقها.

وفي خريف 1253، توجَّهت هذه القوة العظمى نحو الجنوب الغربي لمسافة 350 كيلومتراً على طول النهر الأصفر إلى التاو، ثم نحو الجنوب عبر سفاح هضبة التبت إلى منطقة «ستشان»، وكانت منطقة جميلة وبعيدة عن الجميع بمن فيهم المغول. لكن ابن أوقطاي الثاني(كوتن) اجتاحها في سنة 1239. وعسكر كوبلاي في المراعي المرتفعة الجرداء

بمنطقة «أبا» التي تمتعت بالحكم الذاتي دون أن يسبب أية متاعب لسكانها المحليين، وكانوا أهل قبيلة جولوك شبه البدوية وعُرفوا بوحشيتهم، وعند ذلك أصبح كوبلاي جاهزاً للهجوم على دالي.

ولم تكن ثمة حاجة لبث الدمار في دالي بعد أن استسلمت. وقد ذكر كتاب تاريخ اليوان الصيني فيما بعد، قصة عن مستشاري كوبلاي الصينيين وأنهم حاولوا تحريك المشاعر الإنسانية لدى كوبلاي الذي تمتع بروح مغولية عنيفة، فحكى له كبيرُ مستشاريه «ياو شو» ذات ليلة حكاية عن أن جنرالاً من سونغ اسمه «كاو بن» استولى على ناجينج دون أن يزهقَ روحاً واحدة، فلم تغلق الأسواق أبوابها في وجهه، وبدا كأنه السيد الأعلى للبلاد الذي غاب عنها وعاد إليها. وفي الصباح التالي امتطى كوبلاي فرسه، ومال على ياو شو وهو يقول له: «ما قلته أمس عن تورع «كاو بن» عن قتل الناس يمكن أن نفعله».

وكان المعتاد أن يرسلَ كوبلاي ثلاثةَ رسل يعرضون فرصة الاستسلام، وفعل ذلك مع دالي، لكن وزير دالي أمر بإعدامهم، وكان يمثِّل السلطة فيما بعد حاكم دوان. وربما لكن لم يكن لدى الرجل معلومات كافية عن كوبلاي، أو ربما أخذته الثقة الزائدة، أو أضله عدم فهم التاريخ، أو وقع ضحية للثلاثة معاً. ذلك لأن قتل الرسول هو من أسوأ الجرائم الدبلوماسية وصفعة على وجه الدولة المقابلة، وبالفعل هذا الإجراء ضمن الاقتحام الكامل لبلده على يد كوبلاي، والله وحده يعلم قدر الذعر الذي سينتج عن هذا الاقتحام.

قسَّم كوبلاي قواته إلى ثلاث فرق: جناح منها اتجه إلى الشرق بعيداً عن المراعي المرتفعة وهبوطاً نحو حوض سيشان (هذه المنطقة اليوم اسمها مدينة شانغدو)، وقد استكملوا الإمدادات في حقول دوغيانغ يان التي حُصدت مؤخراً، وكانت تتحكَّم السدود والجزر الصناعية منذ 1500 عام تقريباً في نهر مين. وتوجّه كوبلاي بنفسه إلى المراعي نحو الجنوب والتقى 350 على بعد الأولى مع الفرقة كيلومتراً تقريباً.

هذه الأمور عرفها من سكن مدينة دالي، وفي تلك الأثناء، أخذ يوريانغ كاداي طريقاً صعباً على بُعد نحو 150 كيلومتراً باتجاه الغرب في عمق جبال سيشان، وقطع الوديان وسلاسل التلال إلى الطريق الرئيسي بين دالي والتبت، وهذا ما دفعه إلى العدو السريع على

مدار يومين إلى أن يأتي في الوقت.

وقام جاو قائد مدينة دالي بتكتيل قواته في أعلى نهر اليانغتسي، وكوَّنت منابع هذا النهر وادياً يستغرق السير فيه يوماً عبر سلسلة التلال نحو الشرق للوصول إلى المدينة. وبدا جيش دالي مخيفاً، لكن المغول تعرضوا لهذا الموقف مرَّات عديدة، و لم يُمثل النهر عائقاً أمامهم، فقد عبروا عشرات الأنهار في طريقهم نحو الجنوب. وكان مع جنكيز بعض من المحاربين القدامي منذ عام 1226، وقد عبر النهر الأصفر باستخدام جلود الغنم كعوّامات للمراكب، وكان هذا أمراً يُتعاد عليه هناك على مدار عقود من الزمان، وحتى اليوم يمكن أن نلمسه في لانزو، أو في اتجاه تيار ماء النهر في شابوتو بالقرب من النقطة التي عبرَ منها جيوش جنكيز في بداية آخر حملة له.

وقد عبروا ليلاً بالفعل في صمت، وبقيادة جنرال يُسمَّى بيان - الذي شاعت شهرته فيما بعد - هجم المغول في الفجر على جيش جاو، وهناك أنزلوا به أضراراً جسيمة وأجبروه على التراجع بشكل سريع إلى مدينة دالي.

كانت دالي في ذلك الوقت تحت رحمة كوبلاي لمَّا تحرّك يوريانغ كاداي تحركه السريع على طول جانب البحيرة من الشمال وعند هذه النقطة، وقد يُعتقَد أن ثمة مذبحة جماعية آتية بسبب تلك المعارضة التي كانت تواجه الهجوم متمثلة في روح جنكيز. ولم يتّسِم جنكيز بكل هذه الطبيعة القاسية والبربرية، فكان يقوم بذبح سكان المدينة لسبب رئيسي واحد هو تشجيع المدن الأخرى على الاستسلام.

ويمكن الحصول على ما يكفي من الغنائم في أي مكان، ومن السهل أن تتوافر رعايا يكافحون من أجل البقاء بدلاً من أن يعانوا الذل، أو من المحتمل أن يتمرَّدوا بوحشيّة. وهنا لا توجد مدن أخرى يمكن غزوهافأمر كوبلاي بفرض القيود، وأعلن أنه لا ينبغي معاقبة الناس العاديين بسبب أخطاء قادتِهم الحمقى، ولا يصح أن نرجع كل هذا إلى المستشارين الصينيين، وذلك لأن كوبلاي كانت لديه الآن خبرة كافية بالإدارة ليدرك ذلك بنفسه؛ ولكن من الطبيعي جداً أن يُرجعَ مستشاروه وكاتبو تاريخ اليوان، هذا الموقف إلى التأثير الحضاري الصيني، وعلى هذا استقرَّت الأمور في سهولة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه أُعدم الوزير الأول في مدينة دالي ومن كانوا تحت إمرته الذين قاموا هم أنفسهم بإعدام رسل كوبلاي خان من قبل، وهذا كل ما في الأمر.

أصبح الملك كالدُمية في يد رجال كوبلاي خان، فحاله مثل حال الأمير في الهند في زمن الهيمنة الإنجليزية، كان يجري تدليله وتربيته على النعيم لكي ينشأ على التبعية والخضوع، ويُمنح بعد ذلك لقباً فخماً هو في حقيقته لقب أجوف، وهو لقب المهراجا. واتخذ يوريانغ من مدينة دالي قاعدة عسكرية له، ثم اتَّجه إلى إخماد القبائل في المناطق الجنوبية والشرقية، ليتوغل بذلك إلى داخل ما يُعرَف الآن بشمال فيتنام، ويستولي على هانوي في عام 1257، ثم يتراجع بسرعة بعد ذلك ليواجه الحر الاستوائي والملاريا، وبعض المقاومة الباسلة.

وكل ما عُرض ورُوي من قبل يعد بمثابة عملية عسكرية ضخمة.

كان إقليم يونان على مبعدة ألف كيلومتر من هانوي، وقد زحف المغول إلى البقاع المتاخِمة للحدود الغربية لإقليم سونغ في غضون أربعة أعوام، ولم يواجهوا ممانعة تُذكَر، وأصبحت لديهم - وبالأخص لدى كوبلاي خان ذاته - جميع المعلومات اللازمة للتخطيط للمرحلة التالية بعد الحرب على الجنوب.

مثَّل إقليم يونان ثقلاً جديداً في كفة الميزان، وكان سبب التوازن المدهش الذي عرفته الصين، فقد سُمح للإقليم بإدارة شؤونَه الخاصة مع وجود حامية صغيرة لنحو عشرين عاماً. وشهدت تلك الفترة تطوراً ملحوظاً وشديد الأهمية، حيث رتّب المسؤولون المحليون إجراءات إبرام عقد صداقة مؤقتة مع المملكة الصغيرة المجاورة - مملكة الكانجي التي سكنت أعالي دلتا إيراوادي في بورما، أي على الطريق الرئيسي جهة الغرب في اتجاه سهول بورما. وهي اتفاقية ستثبت أهميتها الحاسمة فيما بعد عندما يتطلع كوبلاي خان إلى بورما بعين الرغبة وتساوره أطماع الاستيلاءِ عليها.

وفي عام 1273 وصل التركماني سيد أجل إلى إقليم يونان، وهو رجل تركي وأول مسؤول رفيع المستوى نجا من الهجوم الوحشي لجنكيز خان على بخارى عام 1220، فقد استسلم جده على رأس ألف فارس تحت وطأة الهجوم، ثم تربى هذا الغلام الذي كان عمره آنذاك تسعة أعوام في منغوليا والصين، ولمّا صار شاباً عمل بوظائف مميَّزة في عدة

مناصب حكومية، إلى أن تولى شؤون إقليم يونان، وعمل على إدخاله بأكمله تحت هيمنة الإمبراطورية بمساعدة ابنه ناصر الدين.

وكان لذلك آثاره التي تجلَّت في التعددية الثقافية لإقليم يونان وظلَّت باقية حتى يومنا هذا، فقد استقرَّت شعوب في هذا الإقليم لم تكن من أبناء البلد الأصليِّين دون أن تشكل هذه التعددية تهديداً لأي أحد، ورغم ذلك وجدت تلك الشعوب نفسها عرضة لهجمات المغول بقيادة جيش معظمه من الصينيِين. وتم تسليم هذه المنطقة فيما بعد إلى شخص مسلم حوَّلَها إلى جزء من الإمبراطورية المغولية الصينية، وكما كان مسؤولا أيضاً عن إدخال الإسلام إليها. ونتجَ عن ذلك انجذاب العديد من المسلمين إلى هذه المنطقة فأتوا إليها أفواجاً من بقاع عدة، ويلاحظ اليوم وجود نصف مليون مسلم في إقليم يونان يشكلون جزءاً من مزيج فريد من المجتمعات يعيش به.

الفصل الرابع

من قلب زانادو

عاد كوبلاي إلى الأراضي الصينيّة بعد أن اكتسب الخبرة اللازمة لإدارة شؤون الدولة،و يبدو أن القدر كان يمده بالمهارات اللازمة ليصبح إمبراطور المستقبل على المملكتين المنغوليّة والصينيّة، وكانت الأماكن التابعة لحُكمه قد بدأت في التحول مما يشبه الدُويلات إلى ممالك صغيرة، وخصوصاً مملكتُه الرئيسية في وادي واي (Wai).

وقد عيّن كوبلاي الشاب ليان زيزيان البالغ من العمر عشرين عاماً والذي قام بدوره بتعيين الفيلسوف الكونفوشيسي الصيني المُبجّل زو هينج للإشراف على ممالكه ذات الأطراف المُترامية التي تمتد على مسافة خمسين ألف كيلومتر مربع، والمزيج السكاني من الصينيين وغير الصينيين. وأشارت الكلمات المنمّقة لكتاب «تاريخ اليوان» إلى اعتناق كل منهما لمبادئ التفكير الكونفوشيسي الهادف إلى «منع العنف ومناصرة الضعفاء». ولقد شارك كلاهما بالتعاون مع أحد مستشاري كوبلاي، وهو الراهب البوذي ليوبينغ زونغ في إعادة بناء المدارس ومنع المغول من ازدراء العلماء، فضلاً عن طباعة النقود الورقيّة.

صاغ ليو في مذكرة مطولة الخطوات التي يجب أن يتبعها كوبلاي لإدارة المجتمع بسلاسة واقتدار، أشار فيها إلى اعتماد الإدارة الجيّدة على الخدمة المدنيّة الجيّدة، والتي تظهر فقط من خلال المدارس الجيّدة. أي إن الحكيم ليو نصح كوبلاي بالتصرف كإمبراطور صيني، وتقنين الضرائب والأنظمة القضائيّة وإعادة النظر في متابعة الخدمة المدنيّة وتمويل كتابة أنباء السلالات السابقة والاطّلاع على المهام التقليدية التي يتولاها الحاكم الصيني الجديدُ. إلا أن كوبلاي لم يكن مستعداً للذهاب إلى هذا الحد، إذ لا يمكن إعادة النظر في شأن الخدمة المدنيّة؛ لأنّ ذلك قد يعني استبدال جميع مستشاريه بآخرين صينيّين وحرمان سلالة «ين» التاريخيّة من هذه المناصب، فهؤلاء المستشارون الجدد قد يتحوّلون في أنظار عموم الصينيّين إلى سلالة جديدة تماماً، كما يراها المغول محاولة للاستيلاء على سلطة أخيه، ربما كان هذا ما يُريدُه ليو وليس كوبلاي.

كان كوبلاي بالفعل مُسيطراً على المملكتين، كما اتّخذ في عام 1256 أول قراراته المهمة نحو استمراريّة هذا التوازن الحذر، فقد كان كوبلاي يحتاج إلى مقر أفضل لحكمه،

ولكن لم تكن توجد أية مدينة تابعة لحكمه تصلح لهذا الغرض، وما كان ليستطيع توكيد القيم المغوليّة التقليديّة في مدينة معزولة أو قصر متنقّل إذا أراد استعادة ثقة رعاياه الصينيّين الجُدُد الذين أصبح يعتمد عليهم في توفير الكثير من الأموال والدخول، لذلك ربما يرجع الفضل جزئيّاً في قراره بإنشاء قاعدة ثابتة أو عاصمة إلى ليو، ولم لا؟

اختار أوقطاي كاراكوروم عاصمة له،في حين كان لدى أخيه هوليغو خيارات واسعة شملت العديد من المدن الإسلامية. وكان هذا المطلب مُلحّاً أيضاً من جانب حكومة شمال الصين، وكان عليه تدبير الأمر بعناية. فكان لا بُدّ للحاكم الصيني الحقيقي أن يختار واحدة من العواصم القديمة في زيان (Xian)، وكايفنغ (Kaifeng)، التي تتمتع بموقع متوسّط داخل المملكة، أو حتى بكين التي بدأت في اكتساب المزيد من الاحترام والتقدير بعد هجوم جنكيز في عام 1215. ولم يكن كوبلاي صينيّاً ولم يكن مستعداً ليبدُو كذلك في عيون عائلته ورفاقه المغول، وكان مستشاروه الصينيون يعرفون صعوبة المسألة وأخذوا يفكرون معه في اختيار الموقع المناسب.

كان كوبلاي يعرف المنطقة العامة التي يجب أن تكون عاصمته فيها بسبب قلة الخيارات المتاحة أمامه لضمان التوازن بين الثقافتين، وكان يجب اختيار العاصمة على مقربة من بكين التي كانت تُعرف في ذلك الوقت باسم «زونغ دو» (Zhongdu) أو العاصمة المركزية، كما لا بُدّ أن تكون على أرض عُشبيّة في الأراضي المغوليّة التقليديّة.

والعجيب في الأمر أن الأرض العشبيّة لقلب منغوليا التي يستعمرُها الصينيون حاليا وتمتدّ من السهول، قريبة من بكين على الخريطة، حيث تبعُد عنها بمسافة 250 كيلومتراً فقط، إلا أنّها تعتبر بعيدة عمليّاً عنها حتّى مع توافر الطرق الجديدة داخل صين اليوم المنتعشة اقتصاديّاً، وتبعُد المسافة بينهما قرابة سبع ساعات بالسيّارة تمرّ خلالها بمرتفعات وجبال رائعة، والتي تزيد من طول الرحلة بمسافة 100 كيلومتر أخرى. وتبدأ الرحلة بالتوجه صوب الشمال الغربي بعيداً عن التكدس المروري وتلوث المدينة، فضلاً عن الطريق السريع الذي يُقلّ ما يزيد عن المليون سائح سنويّاً إلى سور الصين العظيم.

ولا يجب أن ندع التعجب يأخذُنا بعيداً؛ لأنه قد بُني بعد مدة طويلة من زمن كوبلاي،

ويجب أن ينصبّ تركيزُنا على الجبال المموّجة التي يمتدّ السور عليها، ويمثّل السور آخر خطوط الدفاع الطبيعيّة عن بكين (منطقتان تكسوهما الأشجار بالكامل وهما جبلا يونغدو (Jungdu)) وزي (Xi)، وجميع السلاسل الجبلية الحادّة والسهول الرسوبيّة مساحات مسطّحة غير مستوية).

وكان الطريق القديم المؤدّي إلى السور عبارة عن ممر جويونغ (Juyong) الذي يبعد مسافة أمتار قليلة عن أضيق أجزائه، ولا يُناسب استخدام هذا الممر طريقاً سريعاً؛ لذا فبينما يقطع الطريق الشمالي للعربات والطرق المجاورة المخصّصة للشاحنات البطيئة سور الوادي، إلا أن الحدّ الجنوبي بعيد عن الأنظار على الجانب الآخر من الجبال، وقد ساعد وجود السور على سهولة الدفاع، إذ كانت غالبية الجيوش تتوقّف عنده عدا المغول في عام 1213، حيث سلكوا طريق الجبال واستولوا عليها من الخلف.

كان هذا ما دعا مينغ (Ming) عندما تعاظمت قوة المغول مرة أخرى إلى بناء السور عبر الجبال، وهذا ما يُفسّر سبب وجود السور على هيئة عدة أسوار تستطيع أجزاؤها المتعددة حراسة الأطراف الجانبيّة التي يمكن للرجال الأقوياء والجياد الجامحة التسرب من خلالها، وإذا سرت بسيّارتك مسافة عدة مئات من الأقدام في منتصف الطريق القديم فسوف تجد سهولة في القيادة خلال مسافة الـ 100 كيلومتر التالية، وستجد لافتات باللغة الإنجليزيّة تُحذّر من أخطار عدم التركيز أثناء القيادة تقول: «لا تحاول القيادة وأنت متعب» و» إيّاك والقيادة في حالة الإرهاق». وكانت المحطّة التالية زانجياكو (Zhangjiakou) على مسافة سبع ساعات من بكين، أما الآن فقد أصبحت هذه المسافة على مسيرة ساعتين إذا كان لا يوجد ازدحام مروري.

وتعتبر زانجياكو مدينة تاريخيّة، إلا أنّك لا يُمكن أن تتخيّل ذلك عندما تنظر إلى الكتل السكنيّة الضخمة التي تملأ الآن طرقات المدينة القديمة التي كانت تسودُها المنازل ذات الطابق الواحد والطرقات الواسعة، فكانت المدينة من قبل بمثابة الحدود الفاصلة بين الصين والأراضي السهليّة المغوليّة، وهذا ما جعل المغول (والمستكشفون الأجانب) يطلقُون عليها اسم كالجان (Kalgan) نسبة إلى لفظ «الممر» باللغة المنغولية.

وتعتبر المدينة ملتقى التجارة بين روسيا ومنغوليا والصين، وأيضاً كانت منذ قرن مضى تضُم سبعة آلاف مؤسسة تجاريّة ومئات العربات التي تجرها الثيران لنقل الناس عبر المسار الشمالي الضيّق للمدينة، ولكن الثورة الروسيّة في عام 1917 قضت على النشاط التجاري للمدينة وأصبحت مناطقُها النائية معقلاً للعصابات، وأصبحت المدينة حالياً محاطة بالحدود الشمالية للصين نهاية بمقاطعتها الحدوديّة أو منغوليا الداخلية، على حين اختفى التأثير المنغولي تماماً وفقاً لما لاحظته بنفسي، ويوجد الإحساس الوحيد بتاريخيّة المدينة في مسطّحاتها الخضراء التي تأخذ الشكل المتعرّج حتّى مزارع وقرى السهول المنغوليّة.

ثمّ تتوجه بعد ذلك ناحية الشرق حيث تجد رسالة على هاتفك النقال تقولُ: «مرحباً في منغوليا الداخلية» وهناك لافتة على تمثال ضخم ليد ممسكة بلجام حصان منغولي تحثّ على حماية المساحات الخضراء - الحماية التي يحتاجون إليها بكلّ تأكيد - بسبب ضياع الكثير منها وندرة الأجزاء المتبقية.

ويتم حالياً بناء خط سكة حديد في مدينة «زينغلان شي» (Zhenglan Qi) على الحدود الشمالية لجذب المزيد من المزارعين وزيادة المدنيّة في هذه المنطقة الحدوديّة عن طريق تخطيط القرى والمدن الجديدة، ولكن ما زالت هناك مساحات مفتوحة تسعد لها روح كوبلاي الذي مات قبل قرون. وتعتبر هذه المنطقة ثرية بتاريخها، حيث يوجد بها الموقع الذي عسكر فيه جنكيز في طريقه إلى بكين في أثناء عودته من الغزو، وربما يكون ذلك ما دفع كوبلاي لتوجيه أنظار مستشاريه إلى هذا المكان حين قامت مجموعة اللوتس الذهبي الاستشارية (اسم أُطلق على أهل الثقة لدى كوبلاي بزعامة ليو بينغ زونغ - بتحديد المكان الذي يُطلق عليه الآن اسم زانادو (Xanadu)- والذي أطلق عليه كوبلاي في وقتها اسم «شانغدو» (Shang- du) أو العاصمة العليا (خلافاً للاسم «دا- دو» (Da-Du) الذي يعني بكين أو العاصمة العظمى كما أصبحت تحت حكم المغول).

هناك أسطورة حول هذا الموقع، حيث كان اسمُه الأصلي لونغ جانغ (Lung Gang) أو ظهر التنين ومن ثم كان يتعين على ليو وجماعة مستشاري اللوتس الذهبي تدبير السحر لطرد التنين ورفع علم حديدي قوي مزوّد بقوى سحرية لمنع عودته، كما كان يوجد بحيرة في منتصف السّهل المفتوح يتعيّن تجفيفها ثمّ ردمها، ولم يكن أي شيء في الجوار يمكن

استخدامه في البناء سوى عدد قليل جداً من الأشجار وعدم وجود أية أحجار، وكان يجب البدء من الصفر في بناء القصر الرئيسي في زانادو والمعابد والمباني الحكومية والقصور التابعة ومنازل مسؤولي الحكومة، باستخدام الحيوانات وعربات القطارات لنقل الأخشاب والحجارة والرخام - كما سنوضح لاحقاً - عبر مسافة مئات الكيلومترات.

شعر كوبلاي بشيء من القلق حيال إطلاق صفة العاصمة على المكان الجديد، وكان يفضل إعطاء انطباع عن هذا المكان على أنه معسكر صيفي ليس إلا، وظل كوبلاي يُطلق على المكان - خلال ثلاث سنوات هي مدة البناء ثم على مدار أربع سنوات تالية- اسم «كاي-بينغ» (Kai-ping)، ولم يتم استعمال اسم «شانغدو» إلا في سنة 1263. وكان الهدف واضحاً منذ البداية، وهو جعل هذا المكان عاصمة للمملكة رغم ميل غالبية الإدارة الحكومية إلى اعتبارها استراحة. وتكونت المدينة من ثلاث مناطق اتخذت ميادينها الطراز الصيني في بناء العواصم، وتعتبر المسافة بين طرفي المدينة الداخلية 2.2 كيلومتر، وبلغت مساحتها الكلية 9 كيلومترات (وليس 16 ميلاً كما ذكرت رواية ماركو بولو المشكوك في صحتها)، وكانت كبيرة بما يكفي لتضمّ المنازل المصنوعة من الطين والخشب التابعة للغوغاء وعامة الناس في أحد أركانها التي لم تقل مساحتها عن كيلومتر مربع، مع الفصل بين هذا الجزء وبين الجزء الشمالي بعناية بالغة.

وهناك منطقة فاصلة عبارة عن متنزه مستطيل اسمه «حديقة الإمبراطور»، وهناك لافتة على مدخل الحديقة حالياً تقول: «جالبة الحظ السعيد». لكن ماركو بولو لم يلتفت إلى وصف الحديقة، وكانت الحملان ترعى في السهول العشبيّة وعبر جدائل الأشجار وتشرب من الينابيع والنافورات. هذه جنة كوبلاي أو نسخة صناعية من السهول العشبيّة المنغولية حيث كان كوبلاي يستطيع صيد الحملان بقوسه، وإرسال أسد مستأنس لصيد حَمَل، وإرسال الصقور لمطاردة صغار الطيور، وأقام كوبلاي واحة من أشجار الخيزران على مسافة 15 متراً، كان يحتمي بها في حر الشمس وعند هطول المطر. وكانت رؤوس الخيزران تمثل سطحاً يمكن من خلاله مشاهدة عروض الفروسية. وأقام كوبلاي في وسط هذه الأجواء الهادئة خيمة ملكيّة عظيمة أصبحت نقطة مركزية للتجمعات المغولية. وتقع المدينة الإمبريالية في الركن الجنوبي الشرقي من المدينة الخارجية على مساحة 1.4

كيلومتر مربع، وقد أُحيطت بسور من الطوب بارتفاع أربعة أمتار، وتضم المباني الحكومية ودور الحرف ومجموعة متنوعة من المعابد الطاوية والبوذيّة، التي تراصت في نسق بديع عبر شبكة من الشوارع.

ويقع قلب المكان أو القصر داخل المدينة الإمبريالية، ولم يكن المربع الذي أحاط بالقصر مربعاً بالمعنى المفهوم، فكانت أبعاده 570 × 620 متراً، أي أكثر من كيلومترين، وضم القصر ست قاعات، هي قاعات الصفاء والسعادة والحكمة والوضوح والشذى والآلهة المسيطرة، أما قاعة الاستقرار العظيم فكانت تشبه جميع المباني الأخرى في طابعها الصيني ذي الأسقف المموجة والطوب المصقول. ويقول المؤرخ الفارسي رشيد الدين: إن المبنى كان يطل مباشرة على البحيرة - الموجودة في منتصف الموقع - على منصة من القرميد والقصدير، وهو ما حفظ المبنى من مياه الفيضانات.

تعرّضت زانادو إلى شيء من الإهمال بعد سقوط الحكم المغولي في عام 1368، وعانت من الانهيار على مدى 600 عام، تعرّض خلالها القصر العظيم والباحات والأبنية والأسوار إلى التآكل حتى أصبحت مجرد أطلال، تكاد لا تُرى من الحشائش المحيطة.

وقد مرّ أحد أطباء البعثة البريطانية في بكين - وكان اسمه ستيفن بوشيل - بالأطلال ذات مرة في عام 1872، وذكر أنه شاهد الأحجار الرخاميّة وبقايا المعابد العظيمة، في حين انتشرت تماثيل الأسود والتنين المهشّمة وبقايا الآثار الأخرى المنحوتة في جميع الاتجاهات. وقد ترك اليابانيون بصمتهم في هذا المكان عندما احتلوا الأجزاء الداخليّة من منغوليا خلال ثلاثينيات القرن العشرين، ولكن لم يتبقّ من هذه الآثار الكثير ولم يُظهر الصينيون أي اهتمام بالمدينة، سواء قبل السيطرة الشيوعية على الصين في عام 1949 أو بعدها. وبالنسبة للسلالة المنغولية التي أسّسها البرابرة مما وراء صحراء غوبي، فكانت مجرد فصل من تاريخ دولة يحب الحكام الجدد أن ينسوها أو يتناسوها.

وقد كانت مناهج المدارس في كل من بريطانيا وأمريكا تقول: إن المدينة مثلت واحة للراحة والمتعة بالنسبة لكوبلاي حسبما تقول إحدى قصائد صامويل تايلور كولريدج، وهي قصيدة بعنوان «يوم صيف» كتبها في عام 1797، ليحكي فيها أحد أحلامه قبل أن يقاطعه

زائر غير مرغوب فيه. وتعتبر رؤية كولريدج وشعره نوعاً من الخيال، غير أنه لا عجب في أن نكتشف أن المكان والمجد هما حقيقتان يمكن للزائر أن يستشعرهما بجلاء.

عند زيارتي الأولى لزانادو في عام 1996 لم تكن هناك أية إشارة تدل على طريق الوصول، وكان المرشد المصاحب لي غير مكترث بذلك، وذكر لي مدعوماً بحكمة السنين: «مكان الفم تحت الأنف،» وبرهن على ذلك بسؤال اثنين من المزارعين عن الطريق، واستطعنا في النهاية التوجه بالسيارة مباشرة صوب المكان لنجد جدراناً متآكلة تبدو عليها الهيبة، ترتفع قليلاً عن الحشائش والأزهار الجميلة. ولم تكن هناك أية أسوار أو تكلفة للدخول أو حراس في الممر بعد الجدار الخارجي. وكانت السماء منغولية صافية زرقاء، والنسيم عليلاً ولا يُسمع سوى صوت طائر الوقواق.

ولم نكن بمفردنا بل كان حولنا ستة رجال مشغولين بقياس بعض الأشياء، وقد وضعوا خيوطاً في شكل مربعات على الأرض، وكانوا مهندسين معماريين من مدينة هوهيهوت بدؤوا في إجراء أبحاث على المكان. وقد تحدّث لي أحدهم وكان اسمه واي جيان (Wei Jian)، وهو أستاذ مساعد بمعهد الهندسة المعمارية، وقد ساعدنا المرشد السياحي في إدارة الحوار، وعلمت منه أن هذه هي الأسوار ومن خلفها يوجد القصر. وكان المكان برمته يسمّى سهل الأزهار الذهبي نظراً لكثرة الزهور الصفراء الممتزجة بأنواع غريبة من الأزهار الأرجوانيّة والبيضاء. وقال لي واي جيان: «كما ترى جمال المكان والتلال التي تحميه». ونظرت إلى التلال المنخفضة التي قامت بمثابة أسوار حماية للقصر من جهة الشمال وانتشرت حوله في انتظام بديع.

وقال جيان: «وقع الاختيار على هذا المكان لأسباب خرافية بحتة، فهناك معتقد يقول إن هذا الموقع يجلب الحظ، حيث يقع شمال جبل التنين وجنوب النهر المسحور، والجبال هناك تشبه... الأثداء»، ثم ضحك وقال: «هناك أضرحة على قمم هذه الجبال وأكوام حجارة، تقول الرواية: إن الأضرحة والحجارة ينتظمان على شكل الآلهة السبعة». وذكر لي جيان أن هذا الموضوع جدير بالدراسة والبحث. ثم سرت عبر الحشائش في اتجاه القصر لأجد في الطريق تمثالاً صغيراً مظهره لا يناسب جو المكان، فقد كان تمثالا تركيّاً يعود تاريخُه إلى ما قبل عصر المغول يقف كأنه الحارس الأمين على المكان، وربما أحضره إلى هذه البقعة

أنصار كوبلاي أو وجدوه هنا وتركوه كما هو. وكانت الأرض غير مُمهّدة تعج بالأنقاض التي تهدد السائر على قدمه بالتواء في الساق إذا لم ينتبه، ولا تزال قاعدة القصر قائمة في مكانها على شكل ربوة شرقية طولها خمسين متراً فوق الحشائش. ورغم ادّعاء رشيد بعدم وجود إشارات على توافر المياه الجوفية في هذه البقعة، ما عدا بقعة واحدة ربما كانت بئراً فيما سبق أو قصراً أو محل رفع علم المملكة. وربوة القصر تقع بين ربوتين أخريين وأطلال ثلاثة مبان عملاقة شكلت معاً ساحة ثلاثية الجوانب، وهناك مسارات عبر الحشائش صنعها السائحون أثناء الصعود إلى قمة الربوة على الجانبين، والجزء الأمامي عبارة عن أرض ممهدة ذات خط من الثقوب ربما كانت تُستخدم في الماضي كأوتاد مرتفعة. تخيلت أني أزور صاحب المقام الرفيع في استراحته، وقبل أن ارتقي درجات سلم القصر يستقبلُني الإمبراطور بنفسه وهو في أوج عظمته.

ولم يعد شيء على حاله في هذه البقعة، فقد هالني مشاهدة منصة من الطين ما زالت في مكانها منذ 700 عام، لم تنل منها أمطار الصيف الشديدة وثلوج الشتاء التي تُحجّر كل ما في المكان، مع ذلك المبنى موجود كما هو، صحيح أن بعض أنقاضه تبعثرت بين الحشائش الجافة، لكن الطوب والحجارة لا تزال كما هي. لكن ماذا عن أطلال المعابد والآثار التي رآها وتحدث عنها بوشيل في عام 1872؟ هل أخذها اليابانيون ولم يتركوا سوى بقايا من الحجارة العديمة النفع؟ عندما التقطت بعضها وجدتها قطعاً لا يدل أي منها على ماضيها، ووجدت قطعاً زجاجية وأجزاء من أوعية وقطع طوب رمادية كساها التراب. لكن ما قيمة هذه الحجارة؟ إنها ببساطة غبار مدينة زانادو العظيمة.

وعندما عدت إلى المكان في سنة 2004، وجدت ملامح التغيير على جميع أرجاء الصين، فقد أصبح هناك طريق سريع جديد يمتد شرقاً من «زينغلان شي» (ZHenglan Qi)، ولافتة مكتوبة باللغتين الصينيّة والإنجليزيّة «يوان شانغ-دو»، وطريق جانبي حديث يؤدي إلى الشمال عبر مرج يؤدي إلى معسكر سياحي يضم خياماً منغولية مستديرة بيضاء اللون.

ويرتبط الطريق بمعسكر السائحين عبر انحناءات تميل جهة اليمين مؤدية إلى سور وبوابة متحف صغير، و عند هذه النقطة يصحبك مرافقان أو ثلاثة مرافقين، وتدفع رسوم دخول.

بعد ذلك وجدت نفسي وحيداً. وكان السائحون الأجانب لا يحصلون على أي مساعدة؛ لأن السلطات لا تُقدر أهمية المكان وخاصة بالنسبة للسائحين الناطقين بالإنجليزية، فاللافتات القليلة الموجودة مكتوبة باللغة الصينيّة. تجولت بحرية في أنحاء المكان، وصعدت ربوة القصر لأشاهد الحطام الذي غطته الحشائش، والتقطت أجزاء من الأحجار والركام والنظر فيها.

وكان المهندسون المعماريون على وشك الانتهاء من عملهم، وداخل ساحة المتحف كانت هناك خزينة زجاجية تحتوي على كتلة هائلة من الرخام الأبيض ارتفاعُها متران، عُثر عليها تحت أنقاض القصر في عام 2003. وربما تعتبر هذه الكتلة جزءاً من قاعدة عمود، وعليها منحوتات بارعة لجدائل من جسم التنين ونبات عود الصليب أتي ترمز للحرب والسلام، وهناك اكتشافان مشابهان نُقلا إلى متحف هوهيهوت.

وتمثّل هذه الآثار اكتشافات مهمة وتدلّل هذه الآثار على روعة المكان وبراعة الفنان الصيني في عهد كوبلاي ودقّة الصّنعة، ويوجد أقرب مصادر الرخام على مسافة 700 كيلومتر من القصر، كما تعتبر بمثابة دليل جديد في الجدل الأكاديمي الذي يتناول ما إذا كان ماركو بولو المشكوك في صحة رواياته كان موجوداً في الصين أم لا، ونجد وصف ماركو بولو يبدأ بالعبارة: «يوجد في هذا المكان قصر من الرخام شديد الروعة» وتوجد لافتة بالقرب من ربوة القصر تقول: «تشهد هذه الأشياء على وجود ماركو بولو».

وتتمثّل أكبر التغييرات التي طرأت ليس في الموقع نفسه فحسب ولكن في الطريق المؤدّي إليه، حيث يبدأ نطاق مدينة زانادو بالمعسكر السياحي الذي يتكون من أربعين خيمة صغيرة بالطابع المغولي، وثلاثة خيام ضخمة أسمنتيّة ذات قباب مزدوجة، ويمثّل المعسكر إشارة للأشياء القادمة، وقد أنشأ المعسكر رجل الأعمال الصيني بنجامين رين (كان الصينيون الذين يتعاملون مع الأجانب الغربيين يطلقُون على أنفسهم أسماءً غربية)، ويحمل بنجامين العديد من السمات المميّزة، فهو وسيم وودود وكريم وطموح، ولديه الرغبة في الجمع بين العمل والبيئة، ووضع بنجامين خطّة لزراعة الغابات وإنقاذ المروج الخضراء إيماناً منه بخطورة الصناعات والمشروعات الزراعية على المراعي العشبيّة،إذ اشترى بمساعدة ثري إندونيسي مساحة من الأرض تُعادل مساحة مقاطعة، وزرع نحو 15

مليون شجرة على نصف هذه المساحة، وكان ينوي تخصيص الجزء المتبقّي لتكون مراعي إذا لم يجد أيّة خطورة عليها، وتحوّلت هذه الأرض حالياً إلى جنّة من العشب الأخضر والأزهار. ويا للمصادفة! فإنّ أرضه تقع مباشرة بجوار زانادو.

أدرك بنجامين الذي تحدّث الإنجليزية بطلاقة إمكانيّة استثمار أرضه في مجال السياحة وبخاصة مع مد الطريق الجديد، واحتاج السائحون إلى مكان للإقامة به، فأنشأ بنجامين معسكراً سياحياً في عام 2003 مكوناً من مجموعة كبيرة من الخيام على الطريقة المغولية، وزود كل خيمة بفراشين وإضاءة ومياه ودورات للمياه ومطاعم مكونة من طابقين، يطهُو بها الطباخون الطعام المغولي وتُعزف بها الموسيقا المغولية. وارتاد المكان في أولى سنوات تشغيله 1500 شخص ثم ارتفع العدد في عام 2004 إلى ستة آلاف، وهو عدد كان متوقّعاً أن يتضاعف لستة أضعاف أثناء أوليمبياد بكين 2008.

وأتصور أنه في ظل مناخ الخصخصة الحالي يستطيع بنجامين أن يعرض متحفه للبيع ويسيطر على الموقع وعلى المعلومات التي يحويها، وبذلك يصبح الوصول إلى المتحف سهلاً ومريحاً، ويزيد مقابل الحصول على خدماته. فإذا لم تسرع بالذهاب إلى المتحف قد تنتهي المغامرات في زانادو، ولن يُسمح بجمع قطع الحجارة المهشمة. ولكن أين ذهبت الآثار التي شاهدها وتحدث عنها بوشيل؟ بنجامين عرف الإجابة عندما أشار إلى الكثير من المباني في مدينة «دولون نر» (Dolon Nur) التي تميزت بالأعمال الحجرية والمعماريّة الرائعة. وأتذكر أن هذه المدينة كانت دائماً تُعاني من العجز في مواد البناء، ويبدو أن زانادو تعرّضت للسلب - حجراً بعد حجر وقطعة بعد قطعة على يد المُلاك المحليّين الذين لم يتركوا فيها سوى الأشياء العديمة القيمة من وجهة نظرهم. ولكني ما زلت أحتفظ بهذه القطع الحجرية التي أخذتُها معي وأعرف تماماً ما يجب أن أفعله بها.

جمعت العاصمة التي اختارها كوبلاي بين الطابعين المغولي والصيني، لكن السمات الصينية غلبت نظيرتها المغوليّة إلى حد ما. وفي كاراكوروم (Karakorum) كان ثمة نفر غاروا من نجاح كوبلاي وأسروا في أنفسهم أنّه تجاوز كل الحدود والطموحات حين حلم ببناء إمبراطورية تضاهي عاصمة مونخيه، وهو ما تطلب أموالاً طائلة. وتساءل البعض هل يمكن لكوبلاي أن يستقطع لنفسه بعض عوائد الضرائب المخصصة لكاراكوروم؟ وعندما

بلغ مونخيه هذا الكلام وتأكّد من صحّته، اقتنع بضرورة مواجهة الأمر،فقد أرسل في عام 1257 اثنين من مفتّشي الضرائب لديه لمراقبة أداء مسؤولي الضرائب لدى كوبلاي، فوجد المفتشان كثيراً من التجاوزات وسجّلُوا 142 حالة انتهاك للقوانين، ووجّهُوا الاتهامات إلى المسؤولين الصينييّن وإعدام البعض منهم، كما أمر مونخيه بالسيطرة على عمليّة جمع كافة الضرائب في الممالك التّابعة لحكم كوبلاي، فكيف يمكن أن يتصرّف كوبلاي حيال ذلك؟ كان يمكنُه أن يوجّه الأوامر إلى حُراسه للقبض على المفتّشين، إلا أن مستشاريه من الكونفوشيسيين والبوذيّين نصحُوه بألا يفعل لأنّ ذلك يعدّ تمرداً غير قانوني، كما نصحُوه بالسعي إلى المصالحة، واستجاب كوبلاي لآراء مستشاريه بإرسال بعثة من شخصين، ولكنّها لم تترك أي انطباع، ثم ذهب شخصيّاً وتحدّث إلى مونخيه من أخ لأخيه وانتهت المقابلة بالصلح بين الأخوين وتبادلا العناق والدموع، حيث أعلن كوبلاي ولاءه واحترامه لأخيه في حين استجاب الأخ بالتسامُح وتجديد الثقة. (كان كوبلاي كالسيف مثل كلمته: أمر بعد ثلاث سنوات بإعدام محاسبيه بتهمة إثارة الفتنة).

والحقيقة أن الأخوين بحاجة إلى بعض حيث كانت قوة كوبلاي تعتمد على دعم مونخيه، وكانت لدى مونخيه مشكلة تسبّب فيها جينكيز قبل 30 عاماً حين كان معجباً بالراهب الطاوي العجوز شانغ-شون الذي استدعاه جنكيز من الصين إلى أفغانستان لتعليم الأساليب الطاوية، كما أعفى جنكيز الرّاهب العجوز وأتباعه من الضرائب، واستغلّ الطاويون الذين كانت ديانتُهم في ذلك الوقت هي أحدث الديانات، هذه الثروة والمكانة الجديدة في السيطرة على المعابد البوذيّة، فازدادت أعداد أتباع الديانة الطاويّة وكانت الثروة مصدراً للوحي بالنسبة لهم، حيث بلغ عددُهم حينئذ 81 شخصاً وفقاً لأحد التقديرات، كان من بينهم الزاهدون والمنغمسون في الشهوات الذين كانوا أشبه بعصابات قطّاع الطرق، وقد وجدُوا متعتهم في تمزيق اللوحات وهدم التماثيل من الأضرحة البوذيّة.

وقد واجه البوذيون هذه الأفعال بالدرجة نفسها من العنف، وكانوا يحصلون على كثير من الدعم من طائفة من الكهنة في التبت، وهي المنطقة التي ضمّها كوبلاي فيما بعد لتصبح جزءاً من إمبراطوريّته (وهو ما سنتناوله في الفصل السابع بمزيد من التفصيل).

وفي عام 1258 أصبح البوذيون على وعي تام بأهمية الروابط السياسية، فاستماتوا من

أجل الانتقام من الطاويّين، وكان لا بد من وقف هذا الصراع لأنّه سيؤدي إلى اندلاع الفوضى والاضطرابات في شمالي الصين وفقدان القاعدة الآمنة التي يمكن استغلالُها في المسألة الأهم، وهي غزو سونغ، فكان كوبلاي هو الحلّ الأمثل!

يقول المؤرخ موريس روسابي: «رغم أني لا أستبعد احتمال تكرار المشهد الدرامي الذي شهده تاريخ الصين، فإني أعتقد أنّه حدث بعد أن أدرك مونخيه وكوبلاي حماقة الخلاف بينهما». لذلك أصبحت أولى أولويات كوبلاي في أوائل عام 1258 عقد مؤتمر يجمع بين القادة الطاويّين والبوذيّين والمصالحة بينهما. وكان مؤتمراً عظيماً، وتوافد على زانادو 300 بوذي و200 طاوي في حضور 200 قاض وحكيم كونفوشيسي، وترأس كوبلاي المؤتمر بنفسه.

واستند دفاع الطاويّين إلى وثيقتين ادّعت كلاهُما أن الحكيم المؤسس للطاوية «لاو-تزو» (Lau-tzo) كان لديه 81 نموذجاً مجسداً للآلهة، ومن هنا جاء عدد الطوائف الطاوية، وكانت إحدى هذه الطوائف تطلق عليه اسم بوذا. وكما تقول إحدى الوثائق أن «لاو- تزو» مات في الهند معقل البوذيّة، وليس في الصين، ومن ثم انصب الجدل على فكرة أن البوذيّة جزء من الطاوية، وظلت هذه الفكرة مُهينة على البوذيّين، وما زاد تعصب الجدل هو الأجندة الطاوية التي تلخصت في عبارة «تحويل العصاة الهمجيّين».

لم يقدّر الطاويون أن انتماء كوبلاي الأساسي كان للبوذية، وأن زوجته المحببة إلى قلبه هي تشابي- المرأة البوذيّة، وأن كوبلاي تأثر بمستشاريه من الرهبان البوذيّين ومبرّراتهم العمليّة لضرورة اعتناق نظام الحكم الجيّد للمنهج البوذي. وكان على كوبلاي في حقيقة الأمر ألا يُظهر تحيّزه لأي من الطرفين، وكان الطاويون غير معتادين على الجدال، ولم تكن لديهم المرونة الكافية في التفاوض.

وجّه مستشار كوبلاي من التبت «فاغز-با» سؤاله لكبير الطاويّين حول مدى صدق نصّهم الرئيسي (تحويل العصاه الهمجيين) بالنظر إلى موت مؤسس الديانة لاو-تزو في الهند، ومن الغريب أن المؤرخ العظيم «سيما كيان» (أو سوما شيان في الصياغة القديمة)، الذي عاش في القرنين الأول والثاني، لم يُشر إلى هذا الادّعاء أو إلى الوثيقة التي تؤكّدُه.

وكان السبب وراء طرح هذه النقطة أن «فاغز-با» استنتج أن «لاو-تزو» مات في الصين، وأن الوثيقة مزيّفة. وبدا الطاويون الذين كانوا لا يملكُون المراجع أو الحُجّة اللازمة، في صورة الأحمق، فمنحهم كوبلاي فرصة أخيرة وهي استدعاء الأرواح والأشباح وإثبات قواهم السحرية من خلال أداء أعمال خارقة للعادة، وكان من البديهي أنهم لم يتمكنوا من إظهار أي من هذه القُوى.

فأصدر كوبلاي حكمه بإقرار البوذيّة ونبذ الطاوية، وأمر بحلق رؤوس 17 شخصاً من الطاويين، وتدمير جميع نسخ الوثيقة المزيفة، وإعادة 237 معبداً إلى البوذيّين. لكن حكمة كوبلاي جعلته لا يبالغ في عقاب الطاويّين ؛لأنه كان على قناعة بأنه غير قادر على نفي أتباع الطاوية بسبب أعدادهم الضخمة، ولم يصدر أية أحكام بالإعدام ضدهم، لكنه عاد إلى المسار الذي كان متّبعاً سابقاً في أوائل القرن قبل الصعود المفاجئ لـ «شانغ شون» قبل ثلاثة عقود.

وقد أكّدت هذه المشكلة عودة كوبلاي إلى الحكمة حيث فرض السلام من خلال عمل تنفيذي حازم، مما يُبرهن على مدى ذكائه وحصافته، وانصاع الجميع لحكم كوبلاي الذي تفرّغ لمهمّته الكُبرى التالية - غزو سونغ بالجنوب.

الفصل الخامس

الطامح إلى العرش

مثلما يفعل الطغاة الناجحون اعتمد مونخيه على الغزو الخارجي الشامل السريع وسيلة لاستباق اندلاع الاضطرابات والانشقاقات بين محكوميه. ولم يستطع المحيطون بمونخيه تفسير دوافعه في هذا الغزو بهذه الطريقة؛ ذلك لأن هذا الدافع توارى وراء حقيقة كبرى: فالمغول رأوا أن مهمتهم في هذا العالم لم تنته بعد. وبحلول عام 1257 انتهى المغول من تأمين فارس وجنوب روسيا، وأصبحت المهمة التالية هي تأمين الجزء المتبقي من الصين وبقية أنحاء العالم.

امتلك المغول مواقع قوية، فتمركزت جيوشهم في زانادو (التي حكمها كوبلاي) ويونان في شمال الصين ومملكة «شي شيا» (Xi Xia)، لكن المهمة المنتظرة لم تكن بهذه البساطة، حيث كان الفارق كبيراً بين الجانبين. وكان إقليم سونغ عبارة عن امتدادات من الأراضي التي تشقها الأنهار وتملؤها الجبال والغابات، ولم يكن بها سهول مكشوفة تمنح ميزة لفرسان المغول في القتال. وكانت الأراضي الواقعة بين النهر الأصفر والساحل الجنوبي آنذاك - مثلما هي اليوم - بمثابة «سلة الخبز» للصينيين، حيث كان بها مليون كيلومتر مربع من الحقول والقنوات، وكانت عاصمتها مدينة هانغتشو (Hangzhou)، وهي أكبر مدينة في العالم من حيث عدد السكان، وكان عدد سكانها 1.5 مليون نسمة، أكثر من إجمالي سكان منغوليا. وقد تحولت المدينة إلى حاضرة مزدهرة على مدار قرن كامل من الإنفاق الإمبراطوري، ولأنها كانت تسيطر على الطرف الجنوبي من مخرج القناة الكبرى في خليج هانغتشو (Hangzhou Bay)، أصبحت هانغتشو واحدة من أفضل موانئ العالم، وكانت أجواؤها جميلة مثل قصورها. فكيف يجرؤ المغول على مجرد الحلم بالانتصار على مدينة كهذه، ناهيك عن 41 مدينة أخرى يقطنها 100 ألف نسمة أو أكثر، وناهيك عن 50 مليون فلاح احتشدوا في الأراضي الغنية بحوض نهر اليانغتسي؟

ولم يمتلك المغول الموارد اللازمة لمثل هذا المشروع، فكان عليهم استخدام الصينيين الشماليين لمحاربة نظرائهم الجنوبيين، ولأن خيالة المغول لا فائدة لهم في هذه المعارك، أصبح الأمر برمته متوقفاً على المشاة الصينيين ومحركات الحصار الصينية والمهندسين الصينيين. وكان المناخ شبه استوائي في الصيف، وكانت طبيعة الأرض متعرجة والمسافات

هائلة والأمراض متفشية، فمن يراهن على النجاح؟

على الأقل كان لمونخيه مقر جيد أقامه جنكيز قبل 30 عاماً هو مدينة كايشنغ (Kaicheng)، وتقع المدينة على بعد 200 كيلومتر تقريباً جنوب النهر الأصفر، وبالقرب من منبع نهر تشينغ شوى (Qing Shui) وعند سفوح جبال ليوبان (Liupan). وقد قضى جنكيز صيف عام 1227 في هذه البقعة قبل أن يداهمه المرض الذي قضى عليه، وكان موقعاً جيداً لأنه مكشوف، وجمع توليفة ممتازة من الغابات المنحدرة والتربة الخصيبة وثروة من الأعشاب الطبية، وقد أُحضر جنكيز من قبل إلى هذا المكان ليتعافى من مرضه الفتاك في محاولة يائسة لم تنجح، وها هو اليوم أصبح موقعاً أثرياً كبيراً. ومدينة كايشنغ هي نفس الموقع الذي استسلم فيه زعيم «شي شيا» الأخير لجنكيز المريض ودفع حياته ثمناً لهذا الاستسلام، ويقع على بعد 70 كيلومتراً من حدود إقليم سونغ.

أدرك مونخيه جيداً ضخامة المهمة التي تنتظره، وتمثلت خطته في البدء وبقوة في تقسيم خصمه إلى نصفين، وكان من المقرر أن تتلاقي ثلاثة صفوف من الجنود على نهر اليانغتسى في مدينة وتشانغ (Wuchang)، التي أصبحت جزءاً من مدينة ووهان (Wuhan) الضخمة - مفتاح الأراضي الواقعة أسفل نهر اليانغتسى - ثم الوصول إلى العاصمة هانغتشو (Hangzhou). وحسب الخطة كان على كوبلاي أن يقود إحدى الصفوف المقاتلة من زانادو خلال رحلة طويلة نحو الجنوب طولها 1400 كيلومتر تقريب، وظل اشتراك كوبلاي محل شك نظراً لأنه كان مصاباً بمرض النقرس، وهو مرض لن يفارقه طوال حياته. وغضب كوبلاي عندما اقترح مونخيه استبداله بأحد أبناء جنكيز، لأنه كانت قد فرغ لتوه من رأب الصدع بين البوذيين والطاويين وكان يتوق للقتال، فقال معترضاً: «النقرس تحسّن، فكيف أترك أخي الأكبر يواصل حملته وأجلس مكتوف اليدين في البيت؟» فسمح له مونخيه أن يتقدم الصف المقاتل. وفي مدينة وتشانغ كان كوبلاي سيلتقي بطابورين آخرين: أحدهما بقيادة أوريانغ-كاداي (Uriyang-kadai) الذي قدم من يونان التي تبعد 1500 كيلومتر تقريب، وصف ثالث قادم من كايشنغ. وترأس مونخيه نفسه حملة منفصلة في وسط هذه المنطقة ليتجه بها باتجاه الجنوب الغربي لمسافة 650 كيلومتراً، بهدف الاستيلاء على مدينة شانغدو (Chengdu) الواقعة في إقليم سيتشوان (Sichuan)، وتحول في النهاية إلى

الجنوب الشرقي بطول 250 كيلومتراً حتى وصل إلى ميناء تشونغ تشينغ (Chongqing) النهري الذي كان حلقة الوصل بين حركة التجارة في اتجاه مجرى نهر اليانغتسي والطريق البري المتجه إلى التبت.

أدى مونخيه الطقوس المناسبة لضمان معية السماء ولتكريم روح جده في قبره على جبل بورخان خلدون (Burkhan Khaldun)، وقام بنثر حليب من قطيع الخيول البيضاء التي ترعى حول قصره، ثم توجه إلى الجنوب عبر صحراء غوبي (Gobi) من خلال «شي شيا»، وقضى صيف 1257 في جبال ليوبان لتجميع قواته. وفي الربيع التالي استولى جيش مونخيه على مدينة شانغدو وتنقّل وسط الضباب في إقليم سيتشوان، وكان ضباباً كثيفاً للغاية، حتى إن الكلاب كانت تنبح عندما ترى الشمس.

غير أن تقدم قوات مونخيه كان بطيئاً بسبب غياب الإرادة، ولم تصل القوات إلى تشونغ تشينغ إلا في أوائل عام 1259، وبعد ذلك حدث مزيد من التأخير، فلكي يستولى مونخيه على تشونغ تشينغ كان عليه أولاً أن يخترق حصناً ضخماً يقع على بعد 60 كيلومتراً ناحية الشمال، يقوم على تل ارتفاعه 400 متر يُطلق عليه اسم «جبل الصيد» فوق ما يُسمى اليوم بمدينة هيتشوان (Hechuan)، ويسيطر هذا الحصن على ثلاثة أنهار تتدفق معاً قبل أن تلتقي بمياه نهر اليانغتسي. هذه العملية أجبرت مونخيه على التوقف تماماً، فتحولت الأسابيع إلى أشهر ومر الوقت من الربيع حتى الصيف، وارتفعت الحرارة، وتفشت الأمراض، ومات آلاف من رجال مونخيه الذي رفض الاستسلام رغم تعالي أصوات جنرالاته المطالبة بذلك.

وفي شهر أغسطس حاول مونخيه التخلص من حرارة الجو في إحدى التلال المجاورة، فاحتسى جرعة من النبيذ وأفرط متعللاً بأن الشراب سيشفيه من المرض، فعاد مصاباً بمرض فتاك ربما يكون الكوليرا. إذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أنه لم يكن له فرصة للنجاة، فتحولت فسالت أمعاؤه وأتت التشنجات على ما تبقى من صحته ليلقى حتفه بعد عشرة أيام.

عند هذه النقطة توجّب وقف جميع الأعمال العسكرية حتى يركّز قادة المغول اهتمامهم على مسألة الخلافة، وجاءت طقوس الدفن التي استغرقت ما بين شهر وشهرين. وتضمنت إعداد الجثمان للسفر والعودة لمسافة 1800 كيلومتر، وهي رحلة استغرقت شهراً كاملاً

للعودة إلى كاراكوروم (Karakorum)، ثم إقامة حداد رسمي لأربعة أيام متتالية في قصور نساء علية القوم. ثم كانت الجنازة النهائية لمسافة 500 كيلومتر شرقاً فوق الأراضي العشبية مروراً بالتلال التي لفت مدينة «أولان باتور» (العاصمة الحالية لمنغوليا) في معقل المغول أعلى نهر خيرلين (Kherlen) فوق سلسلة من التلال، التي تقف حارسة على وديان منابع المياه. ثم وصلت الجنازة أخيراً إلى جبل بورخان خلدون المقدس، البقعة التي وُوري الثرى فيها جنكيز وابنه تولوي (Tolui). وكان ينبغي أن يحضر هذا العمل المقدس للغاية كل أمير ونبيل وأميرة، ومع كل واحد منهم حاشيته من الخيول والعربات، ونُصب عدد مهول من الخيام استعداداً لمراسم الدفن. وكان المقرر أن يدفن جنكيز في «الحرم العظيم» (The Great Forbidden Place) الذي انتشرت به دوريات الحرس الدائمة لمراقبة المناطق القريبة منه. وكان على مجموعة صغيرة من المشيعين أن تلتف بطول وادي نهر بوغد (Bogd) البالغ طوله 20 كيلومتراً ثم تصعد منحدرات الغابات إلى هضبة تقع تحت قمة بورخان خلدون المقدسة. وصُمم الموقع ليصبح سرياً: حيث تطأ الخيولُ القبور وتغطي الشجيرات والأعشاب الأراضي التي تم تقليبها، ثم تعيد أمطار الصيف وصقيع الشتاء التراب إلى حالة التجمد من جديد؛ لذلك لا يزال موقع مقبرة الأباطرة جنكيز وتولوي ومونخيه لغزاً يستعصى على الحل.

المهمة التالية على جدول الأعمال تمثلت في عقد اجتماع كبير للأمراء وزعماء عشائر «الكيريلاتي» (Kuriltai) لانتخاب الخان القادم. لكن الشتاء كان على الأبواب، ولا يحق إجراء الانتخابات قبل الربيع التالي، مما أعطى مهلة كافية للحالمين بالعرش من دراسة ما سيحتاجونه في مهمتهم التالية. لكن أين كان كوبلاي في هذه الفترة؟ كان على وشك عبور نهر هواي (Huai)، على بعد 250 كيلومتراً داخل أراضي إقليم سونغ، عندما بلغه نبأ وفاة مونخيه.

كان كوبلاي مسافراً على الطريق لعدة أسابيع وقطع ألف كيلومتر وفضل السرعة على الأمن عندما تجنب مدينة «شيانغ يانغ» الحصينة وقطع 400 كيلومتر جديدة ربما في عشر أيام ليصل في موعده. وكانت هناك قوات تابعة لإقليم سونغ قادمة على الطريق. وسمع الكشافة بنبأ وفاة أخيه ونشروا البشرى، مما بث روحاً جديدة في قلب معارضة سونغ.

ولاح في الأفق أحد خيارين أمام كوبلاي: إما البقاء محلك سر وإعطاء وقت لسونغ لشن هجوم مضاد والتراجع والتخلي عن الأراضي التي استولى عليها، أو التقدم إلى الأمام، لكن كوبلاي تعلّم بالتجربة أن يتخذ الخيار الأصوب. فعندما توفي جده كان عمره اثني عشر عاماً، وهو سن كاف جعله شريكاً في كتم نبأ الوفاة عن التانغوت (Tanguts) العدو الرئيسي لهم آنذاك، خشية أن يتسبب النبأ في بث روح جديدة في الأعداء. وتحدث كوبلاي في هذه المسألة مع الرجل الثاني باتور (Batur). وكان باتور في نفس عمر كوبلاي، ويعود نسل باتور إلى عائلة عسكرية بارزة، فهو حفيد أعظم جنرالات جنكيز - موقالي (Muqali) (تكتب موخالي Mukhali أيضاً).

قال باتور لكوبلاي إنه يتفهم الأمر وقررا اتخاذ قرار، فقد زعما أن النبأ مجرد إشاعة هدفها بث الخوف وتثبيط الهمم: «علينا ألا نعير هذه الشائعات اهتماماً،» هكذا قال كوبلاي وفقاً لما نقله عنه المؤرخ الفارسي رشيد الدين: «جئنا إلى هنا بجيش كالنمل أو الجراد، فكيف لنا أن نعود دون أن نكمل مهمتنا؟».

وواصل كوبلاي تقدمه حتى نهر اليانغتسى ومن النقطة التي يترك فيها هذا النهر سد الخوانق الثلاثة على بعد 400 كيلومتر من المنبع، يتضخم النهر وتتحرك مياهه في تعرجات بطيئة عبر السهول الغنية بالأرز بسرعة 2.5 سنتيمتراً فقط في الكيلومتر. ولذلك يمكن أن يُطلق عليه اسم «بحر حبيس» أكثر منه نهر. وفي اليوم الذي شهد كوبلاي فيه النهر، لم يكن له أية ضفاف تقريباً، وكان الفيضان قد غمر الضفتين، فأصبح اليانغتسي متاهة من التعرجات والبحيرات وعائقاً لجيش كوبلاي عرضه أكثر من 10 كيلومترات. وأصبح كوبلاي يحتاج إلى أسطول كامل لاجتياز النهر لكنه لم يفعل وفرض حصاراً على مدينة وتشانغ، ولحقت به بعد ثلاثة أسابيع قوة «أوريانغ كاداي،» وقوامها 20 ألف جندي من يونان. مرت بالقوات أوقات عصيبة، فتحصنوا بالممرات الجبلية وفقدوا خمسة آلاف رجل لصالح الأمراض الفتاكة، لكن الوصول المبكر للقوات خلع قلوب أهل وتشانغ. وكانت المدينة على وشك الاستسلام في أوائل شهر أكتوبر عندما أتت وحدات من إقليم سونغ لمواجهة كوبلاي بعد أن استراحت هذه الوحدات عندما علمت بموت مونخيه. واستطاعت وحدات سونغ الالتفاف على المغول ربما عن طريق النهر والدخول إلى المدينة، مما يدل على أن قبضة

المحاصرين لم تكن محكمة بما يكفي.

واجه كوبلاي قراراً صعباً: إما أن يواصل حصار مدينة وتشانغ أو يعود إلى منغوليا ليشارك في جدلية الخلافة. تعطلت الإستراتيجية الإمبراطورية بشكل مطرد بسبب مشكلات العودة إلى الوطن، وفي شهر ديسمبر قرر كوبلاي أنه لم يعد يقوى على التردد لفترة أطول من ذلك، وأصبح عليه أن يختار: إتمام المهمة أو الانسحاب؟

حاول جيا سيداو قائد قوات سونغ، وهو الدبلوماسي الداهية الذي أدرك الضغوط الواقعة على خصمه كوبلاي؛ دفع الأخير نحو الانسحاب. ولعب جيا - وهو أحد أكثر الرجال شهرة وإثارة للجدل في عصره - دوراً مهماً في قصة كوبلاي، فقد كان جده وأبوه رجالاً من ذوي الرتب العسكرية المتوسطة، ولم يتمتع سيداو بأي ميزة استثنائية، لكن مكانة أبيه وجده سمحت له ببعض التدليل في شبابه. ففي مدينة هانغتشو- عاصمة إقليم سونغ ومسقط رأسه - كان سيداو أحد الشباب المحبوبين المائلين إلى الفتيات الجميلات والكحوليات والميسر، وكان محظوظاً عندما اختيرت شقيقته محظية إمبراطورية وأصبحت الأثيرة لدى الإمبراطور، وأنجبت له ابنة أصبحت فيما بعد الابنة الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة، ووصلت أخت سيداو إلى مرتبة الحرم الثمينة وسط الحريم. وفي عام 1236 مرض الإمبراطور وكان بعض كبار المسؤولين على وشك طرح فكرة عزله، فوصل لسمع سيداو أمر هذه المؤامرة، وأخبر شقيقته التي نقلت الخبر إلى الإمبراطور فهب لإنقاذ عرشه. حصل سيداو بعد ذلك على وظائف رفيعة، ولما بلغ الأربعين أصبح ثرياً قوياً، فمارس هوايات تركزت في الفنون وجمع التحف. وكانت لديه مزرعة كبيرة في التلال المطلة على البحيرة الغربية أقام فيها حفلات لضيوف أعدادهم بالآلاف، ومع توفر الوقت والثروة انغمس في هواية غريبة: مراقبة معارك الصراصير، وأصبح خبيراً في الصراصير وسلوكياتها العدوانية، لدرجة أنه كتب كتيباً عن رعاية أبطال الصراصير وتدريبها. وكانت له أعمال أدبية، أحدها كتاب تحدث فيه عن خواطره وخبراته، وكان بعنوان: «مقتطفات عشوائية من القاعة التي يستمتع فيها الشخص بالحياة»، وقد وقّع هذا الكتاب باسم مستعار هو «عجوز نصف كسول». وكان خصومه يصفونه بالمتغطرس التافه، وتحدثوا عن استنزافه لأموال الدولة للإنفاق على زانادو: «حديقة العطور المجمعة» والكنوز الفنية. وفي سنة 1259 عندما كان عمره 46 عاماً

عُيِّن مستشاراً للإمبراطورية وتولى مسؤولية تحديث الأوضاع المالية المتدهورة وشؤون القوات المسلحة المتداعية في إقليم سونغ. وهكذا وجد سيداو نفسه مسؤولاً عن الدفاع عن مدينة وتشانغ، وفي وضع يمكنه من التأثير في كوبلاي في قراره المقبل.

اختار سيداو إستراتيجية شديدة الخطورة، وتقدم سراً إلى كوبلاي مقترحاً عليه شروطاً لها طابع النفاق،وسيدفع سيداو ثمن هذه التصرفات غالياً عندما تحين الفرصة. قال سيداو: ماذا لو دفعت سونغ جزية سنوية، في مقابل موافقة المغول على أن يصبح نهر اليانغتسى هو الحد الجديد الفاصل بين الدولتين؟ لم يقبل كوبلاي باقتراح سيداو، وأجابه عبر مبعوثه: «ربما تكون حسن النية لأنك تؤيد السلام من أجل الأحياء، لكن الآن وبعد أن عبرنا اليانغتسى، ما فائدة كلماتك؟».

لم يكن المغول في حاجة لاتفاق للحصول على صيد سهل، وبالنسبة لهم ربما بدا الأمر غير مريح، فالأفضل لهم التراجع الآن ثم العودة لاحقاً في الوقت الذي يرونه مناسباً، ولاسيما أن الوطن المغولي يمر بلحظة حرجة.

ومثلما علم كوبلاي من رسالة زوجته القلقة، كان شقيقه الأصغر «أريق بوكي» القوي الذي سيطر على معقل البدو في الإمبراطورية، يعزز من مستوى قواته لسبب لا يعلمه أحد. ولابد أن الأمر كان له علاقة بالخلافة، مع العلم بأن أريق كان له ثلاثة أشقاء على قيد الحياة، ولم يكن الأخ هوليغو حاكم فارس، يسعى إلى ذلك، فانحصرت الترشيحات بين أريق وكوبلاي فقط. هل يمكن لكوبلاي أن يعود؟ وإذا كان لدى كوبلاي سبب آخر فسوف يعود خلال يومين عندما جاءه رسل أريق نفسه لا يحملون سوى تحيات واستفسارات بريئة حول صحة كوبلاي. وشك كوبلاي في الأمر، وسألهم ماذا يفعل سيدهم مع القوات التي جمعها، فحاولوا التملص وارتبكوا عند مواجهتم بأنه سمع بإجراءات أريق وتساءلوا: «قوات؟ أي قوات؟ نحن عبيد لا نعلم شيئاً، وهذا كذب». اشتم كوبلاي رائحة الخيانة، وفي لقاء سري مع كبار جنرالاته أخبرهم أنه سيتوجه إلى الشمال ليقف على حقيقة ما يجري.

وكان أريق مستمسكاً بالتقاليد في واقع الأمر، ولم يرد أن يرى شقيقه يهجر الأساليب القديمة من زوجة مسيحية هنا ومزرعة صينية هناك. وسعى أريق للحصول على الدعم

الداخلي في موطنه حتى يتأكد من أنه سيُنتخب خاناً عند انعقاد الجمعية في الربيع المقبل. ولكن الواضح أنه لم يرد أن يصل شيء من نواياه إلى كوبلاي. وبعد أسبوعين تحرك كوبلاي لمسافة 600 كيلومتر شمالاً إلى النهر الأصفر، وأرسل رسالة إلى أريق يسأله عن أمر القوات وسبب تجمّعها؟ ولماذا لم تسلَّم إليه (أي إلى كوبلاي) ليستخدمها ضد الصينيين؟ فأشار أحد مساعدي أريق أن كوبلاي فهم ما يجري، وأن الأفضل إرسال رسل يقولون له إنه قد أُوقف التجنيد، وتأكيد ذلك من خلال تقديم الهدايا من الصقور وحيوانات الصيد.

حدث ذلك وأعرب كوبلاي عن ارتياحه ظاهرياً، لكن الخديعة لم تنطل عليه، فالسياسة أصبحت تهدد أساس الإمبراطورية، وأمر كوبلاي جنرالاته بالتخلي عن حصار مدينة وتشانغ فوراً وترك قوة رمزية كرأس جسر والعودة إلى منغوليا. وجاءت أخيراً نهاية هذا الغزو، واستعاد سيداو ما استولي عليه، وظلت سونغ منيعة لمدة 20 عاماً أخرى. ووجد كوبلاي نفسه منزلقاً في نزاع تصاعد بسرعة ليتحول إلى حرب أهلية. ومن عام 1259 إلى 1260، كانت كل حيلة تواجهها حيلة مضادة ونُقلت رسائل جيئة وذهاباً عبر السهوب وغوبي بسرعة البرق، وكان الاثنان المرشحان لمنصب الإمبراطور يتحينان الفرص كما لو كانوا هم ومؤيدوهم قطعاً على رقعة شطرنج كبيرة. فحاول أريق الدعوة لانعقاد الجمعية لانتخاب نفسه خاناً، لكنه لم يفلح في ذلك، فمن الواضح أن ذلك كان يهدف إلى التلاعب باللوائح وهو ما لم يستجب له عدة أمراء. وجرّب حيلة أخرى فطلب منهم الاجتماع على الفور لتأبين أخيه، فأحس كوبلاي وهو في بكين أنه إذا قام بذلك فسيقع في فخ، فتوقف. ولم يكن مر على عودة رجاله من الحملة سوى وقت قليل. طالب كوبلاي بفترة راحة، وبمجرد خروج رسل أريق، أرسل كوبلاي في طلب القوة التي كان يقودها مونخيه قبل وفاته، وكانت متمركزة بعيداً عن مسرح الأحداث في أرض التانغوت التي عُرفت سابقاً باسم «شي شيا» قبل أن يستولي عليها جنكيز.

وصلنا لفصل الربيع، ورأى أريق الذي وصل مؤخراً لثكناته الصيفية في جبال ألتاي في غرب منغوليا، أنه لا يتحمل الانتظار أكثر من ذلك، ولا يمكن أن يخاطر بالقيام برحلة إلى كاراكوروم، لأنه سيصبح بسهولة في مرمى جيوش كوبلاي، فجمع من الأمراء ما استطاع وأعلن نفسه خاناً وطرد الرسل. وأعلن - مثلما قال رشيد - أن هوليغو وبيرك (الحاكم

الجديد للقبيلة الذهبية في جنوب روسيا) والحاكم الحالي لشقطاي (Chaghadai) في آسيا الوسطى وغيرهم من الأمراء؛ وافقوا على ترقية أريق إلى منصب خان، وينبغي عدم الاهتمام بكلام كوبلاي.

ثارت ثائرة كوبلاي، فهذا تمرد صريح ليس ضده شخصياً وحسب، وإنما ضد أعراف انتخاب الخان الجديد عن طريق اجتماع سري يضم أغلبية الأمراء، وهو كذب أيضاً. فخانات فارس والقبيلة الذهبية لم يكونا في منغوليا، وقد أصبحا الآن عدوين لدودين من ناحية الأرض والدين. وكان هوليغو متوجهاً بالفعل إلى منغوليا بعد وفاة مونخيه، لكن كارثة «عين جالوت»[1] (Goliath's Spring) جعلته يعود إلى وطنه. وكان الأمير بيرك قد اعتنق الإسلام ليصبح في وضع أفضل يمكّنه من حكم رعاياه المسلمين، وانخرط هوليغو في قتل آلاف المسلمين. وطالب الأميران - أحدهما مؤيد للمسلمين والآخر معاد لهم - بالأراضي التي تُسمى أذربيجان. وبينما عاد هوليغو لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، استغل بيرك ضعف ابن عمه ليعلن الحرب. وهنا يبقى السؤال: كيف يستطيع هذان المتنافسان الاتفاق على خان جديد؟

ولم يكن كوبلاي الوحيد الذي أغضبه فعلة أريق ومبرراته، فقد احتشد الأمراء والجنرالات الذين لم يستجيبوا لدعوة أريق وتوجهوا إلى كوبلاي، وكان هناك طريق واحد لإنقاذ الإمبراطورية: أن يعلن كوبلاي نفسه خاناً على وجه السرعة، ولم يكن ممكناً أن يتم ذلك ببساطة لأن الأمر كان يحتاج إلى عقد اجتماع في كاراكوروم، ولم يكن كوبلاي مستعداً لعقد هذا المؤتمر. لذلك وفي أوائل شهر مايو 1260 استدعي الذين ناصروا كوبلاي إلى الحفل في زانادو[2].

وكان الجانبان متوازنين، وكان بإمكان كوبلاي الاعتماد على هوليغو، لكن الأخير انشغل بمنافسه الأمير بيرك، وكان خلف كوبلاي موارد شمال الصين الهائلة التي فعل ما

(1) معركة عين جالوت هي واحدة من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ العالم الإسلامي. انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً على المغول، وكانت المرة الأولى التي يُهزم فيها المغول في معركة حاسمة منذ عهد جنكيز خان. وأدت المعركة لانحسار نفوذ المغول في بلاد الشام وخروجهم منها نهائياً، وإيقاف المد المغولي المكتسح الذي أسقط الخلافة العباسية سنة 656 هجرية/ 1258 ميلادية (المترجم).

(2) هذا هو ترتيب رشيد للأحداث. وضعت مصادر أخرى تتويج كوبلاي أولاً ليأتي بعده مباشرة تتويج أريق. ولكن الأمر لا يهم كثيراً. فالتتويج أولاً لن يكون لها تأثير على مسار الأمور في أي من الاتجاهين.

بوسعه لتأمينها معلناً نفسه خاناً صاحب فضائل لا تحصى، ومتعهداً أن يحكم بالخير والحب ويخفض الضرائب ويطعم المساكين والجائعين ويقدس الأسلاف - أي يقوم بكل ما يتعين على إمبراطور صيني عمله. وأدت مجموعة من الأوامر إلى إنشاء مؤسسات ذات طابع صيني، وقام كوبلاي بتوجيه من مستشاره الصيني «وانغ أو» (Wang O)، بإطلاق اسم «الحكم المعتدل» (Zhong Tong) على نظامه. ويعتقد بعض المتخصصين أن كوبلاي استخدم هذا الاسم للتأكيد على توجهه المؤيد للصينيين من خلال إيجاد صلة بين حكمه وبين «كتاب التغيرات» الصيني التقليدي المتخصص في العرافة أو الرجم بالغيب.

وأعتقد أن هذا المقتطف التاريخي يلقي مزيد الضوء على الخيارات التي واجهت كوبلاي، فجذوره تمتد إلى المراعي رغم أن لم يكن لديه مزارع وضيعات صينية، وحفنة من الفتوحات في الشمال وبعض مناطق الجنوب - وخطط كوبلاي لغزو البقية الباقية. استقر كوبلاي في مدينة مبنية على الطراز الصيني فوق أراضٍ عشبية، وكان على وشك إعلان نفسه إمبراطور. ويبقى سؤال: إمبراطوراً على أي إمبراطورية؟ المغولية أم الصينية؟ كان كوبلاي في حاجة إلى مساعدة ليصل إلى أفضل سبل التعامل مع وضعه الحالي. لكن كوبلاي لم يستدع المنجمين المغول لدراسة عظام كتف الأغنام المحروقة والمكسورة كما هي العادة في هذا الزمن، لكنه قرر استدعاء صيني ماهر عالم بكتاب التغيرات.

واحتل كتاب التغيرات (واسمه «I Ching» باللغة الصينية) مكانة فريدة في الثقافة الصينية الكونفوشية والطاوية، وكلاهما تجد نفسها ممثلة فيه. وعلم كوبلاي من مستشاريه أن المقطع I معناه تغيير مسار الحياة، وأنه كان يُرمز له بمجرى المياه الذي يستطيع الإنسان فيه رؤية ما هو قادم مستقبلاً وما كان في الماضي وانتهى. وتعود جذور نظام «الرجم بالغيب» المسمى بكتاب التغيرات، الذي يدمج بين الأساطير والرموز والطقوس والمناظر الطبيعية والحروف واللغة والكثير من الصفات البشرية؛ إلى خمسة آلاف عام قبل عصر شانغ (Shang)، وقبل العصر البرونزي، وقبل عصور ما قبل الكتابة. ويرى البعض أن تعقيدات هذا النظام وحكمته تتزايد مع كل عصر يأتي بعد ذلك، ويعتبر كتاب التغيرات واحداً من ستة كتب كلاسيكية تمثل الأساس الذي تقوم عليه معظم الدراسات. وفي الصين، فإن جميع الناس، بدءاً من الإمبراطور وانتهاءً بعامل النظافة في الشارع، يعودون إلى هذا الكتاب في

أوقات التحولات ولحظات اتخاذ القرارات الحاسمة عندما يقع التكليف السماوي على أسرة جديدة، لأنه يقدم نظرة ثاقبة على عالم الغيب ويتنبأ بأحداث العالم المادي. وتستطيع أن تحكم أنت على هذا الكتاب حسب درجة إيمانك به، فقد تراه كتاب طلاسم أو مجلداً للحقائق المدهشة، فالكتاب يشبه ورقة نشاف كبيرة يمكنك أن تقرأ من خلالها أصعب مشاكلك وأن تحصل على توقعات مذهلة. وفي هذه الأيام يرى كثيرون كما قال يونغ: إن كتاب التغيرات هو «وسيلة لاستكشاف اللاوعي» من خلال اختراق ضجة الأفكار المتنافسة والتوصل إلى قرار، وتبقى المشكلة في فهم مقصد هذا الكتاب، وهو ما يتقنه الخبراء.

ما قيل لكوبلاي هو ما كان أي إمبراطور صيني يرغب في سماعه. تخيل المشهد: كوبلاي يعتصره الألم في قصره الجديد، وهو يفكر فيما يجب القيام به؛ لأنه علم أن عليه أن يطالب بالعرش في وقت ومكان ما. وكان على كوبلاي توكيد مطالبته بالعرش بإعطاء اسم لحكمه ووضع تقويم جديد كما فعل كل أباطرة الصين الجدد، ولكن هل ينبغي على كوبلاي عمل ذلك هنا والآن؟ وما الاسم المناسب لإمبراطوريته؟

استعد الحكيم لتقديم المشورة عن طريق إحضار خمسين عود يارو (Yarrow) سيستخدمها لتكوين واحد من ستة مخططات سداسية الشكل، تتكون من 64 سطراً تنتج صورة نهائية وتعليقاً. وزاد من تعقيد هذه العملية أن الحكيم الذي سيجريها لا يتحدث سوى الصينية، ولم يكن كوبلاي قادراً على النطق بالصينية، فاستعانة بمترجم. وكان ينبغي تكوين الأسطر الستة التي ستشكّل الشكل السداسي عن طريق تجميع قرارات عشوائية وطقوس وتحولات رقمية معقدة. وتذكر أن هذه العملية تعتمد على فهم التغيير. وضع الحكيم أحد الأعواد جانباً (ربما ليصبح العدد الإجمالي فردياً، لكنني لست متأكداً من السبب). وقُسمت أعواد اليارو المتبقية- وعددها -49 إلى مجموعتين بطريقة عشوائية. وحسب القواعد القديمة قام كوبلاي ببطء بنقل الأعواد من كومة إلى كومة ومن الكومة إلى اليد، حتى حمل تسعة أو خمسة أعواد بين أصابع يده اليسرى. ووضُعت الأعواد جانباً وأُعطيت قيماً رقمية جديدة. كرر هذا الإجراء ثلاث مرات، ثم دمج الاختيارات الثلاثة للخروج برقم نهائي يؤدي إلى أحد خيارين: خط مقطوع (Broken) أو خط متصل (Unbroken) حسب الرقم النهائي الناتج. وفي هذه الحالة، يكون خط «يانغ الشباب» وهو خط متصل إيجابي القيمة،

وهو خط لن يشهد أي تغييرات. وكرر هذا الإجراء ست مرات أنتجت ستة خطوط لها الشكل نفسه. وقد جاء الشكل السداسي التالي في بداية الكتالوج العريق «المبدع» تشيان.

وكان هذا أمراً مبشراً للغاية، فالشكل الإبداعي يأتي من السماء، ويتكون من شكلين هندسيين يتألف كل منهما من ثلاثة خطوط متوازية، اسم كل خط تشيان (Qian). والعلامة كلها تمثل القوة الأولى أو قوة السماء والعمل الخلاق من الإله وصورته على الأرض وهو الزعيم. وقد عرف كوبلاي السماء لأن جده جنكيز تلقى تفويض الحكم والولاية منها أو من الإله تنجر (Tenger)، وإن اتخذ كوبلاي القرار الصحيح وتسلم مقاليد الحكم، فسوف يرث هذا التفويض الرباني ويصير أول خان مغولي، وسيغزو العالم ويصبح أيضاً إمبراطوراً صينياً يحكم بصك التفويض السماوي، فهل هذا هو مصير كوبلاي فعلاً؟ وإن كانت السماء كتبت له ذلك، فما هي أفضل سبل تحقيق هذا الحلم؟ كوبلاي ينتظر بلهفة ليعرف.

ويعلن الحكيم حكمه: «الشكل الإبداعي ناجح نجاحاً سامياً ويزيد نجاحه بقوة المثابرة».

وأستطيع أن أتخيل رد فعل كوبلاي، فربما أراد أن يقول للحكيم: «ماذا تقول؟».

يلتقط الحكيم أنفاسه ليشرح. عندما يرسم الفرد نبوءته بنفسه، ذلك يعني أن النجاح سيأتيه من أعماق الكون، وأن كل شيء يتوقف على سعيه لتحقيق سعادته، ويتوقف على الآخرين، والمثابرة هي المفتاح في طلب الحق. وأحد صفات هذه النبوءة هو كلمة «يوان» (Yuan)- ومعناها «سامي» أو «الأصل» و«الأول» و«البداية» و«العظيم».

ولم ينته الحكيم من حديثه، فمصير الخان يبقى في إظهار السمات الشخصية الأربع وهي السمو والإمكانات والقوة والمثابرة. ولما كانت حركة السماء قوية جداً، فإن الرجل صاحب المنزلة السامية يستطيع أن يكتسب القوة لنفسه، لأنه يرى بوضوح أسباب الأمور حوله ومسبباتها، والرجل القوي أيضاً قادر على أن يكمل خطواته الست في الوقت المناسب ثم يصعد إلى السماء في الوقت المناسب، وكأنه يمتطي ستة تنانين، يصعد بقوة فوق كل الكائنات، وعندها تتحد الأراضي جميعاً تحت راية السلام.

والرجل القوي أيضاً غامض وروحاني وله من الحكمة الرائعة ما يكفيه، بهذه النبوءة حصل كوبلاي على الطمأنينة بأنه يسير على الطريق الصحيح. وبمجرد أن يتوج، فسوف يسعى لتوكيد وجوده بصورة أكثر حزماً عن طريق اختيار اسم إمبراطوري قوي يصبح فيما بعد اسم السلالة الحاكمة الجديدة. وكان على كوبلاي أن ينتظر، فلو اتخذ هذه الخطوة الآن سيظهر أنه متكبر جداً، لكن النبوءة منحته فكرة جيدة تساعده في اختيار الاسم الإمبراطوري الجديد كلمة يوان (Yuan).

وفي يوم 5 مايو 1260 اتخذ كوبلاي هذه الخطوة الحاسمة عندما أتاه الأمراء المجتمعون في زانادو يتوسلون إليه ثلاث مرات حتى يقبل عرش الإمبراطورية، رفض كوبلاي مرتين حسب تقاليد زمانه، وقال في الثالثة: «أقبل العرش بكل تواضع». وأقسم الأمراء يمين الولاء لكوبلاي ونادوا به إمبراطوراً جديداً، وأصبح للإمبراطورية اثنان من الخانات مثل الكنيسة المسيحية التي أصبح لها اثنان من الباباوات- البابا والبابا المنشق في الانشقاق الكبير بين عامي 1378 و1417. فكان لإمبراطورية المغول الخان والخان المنشق أيضاً، لكن من ينتصر في آخر النفق؟

وعُلّقت العمليات العسكرية في سونغ، وحاول كوبلاي التوصل إلى حل دبلوماسي بإرسال مبعوثين إلى هانغتشو، لكن رد فعل سيداو كان اعتقالهم. وفي صيف 1260 قام الأخوان المتصارعان بمزيد من المناورات، وكلها خطوات انتقامية لزيادة حظوظ كلا منهما. وكان دورشي أحد رجال أريق حاضراً في حفل تتويج كوبلاي وهرب ومعه الأنباء، لكنه طورد ووقع في الأسر بعد ذلك. عاد أريق إلى كاراكوروم ليؤكد أحقيته في الحكم من هناك، وحاول كوبلاي تنصيب أحد تابعيه اسمه أبيشقا، وهو حفيد أحد أبناء عم كوبلاي -

على شقطاي (Chaghadai) في آسيا الوسطى. لكن كوبلاي سمع أن أريق اعتقل البعثة التي ضمت أبيشقا وأميرين آخرين ومئة رجل في صحبتهما، وقام بتتويج مرشحه الخاص على أراضي شقطاي. ثم اندلع أول اشتباك مسلح في مكان مجهول وخسره أريق على ما يبدو، فقام أريق بإعدام أبيشقا واثنين من مرافقيه الملكيين ومئة رجل كانوا بصحبتهم انتقاما للهزيمة.

أغلق كوبلاي طريق التجارة من غوبي، ليحرم كاراكوروم من اللوازم التي كانت تستوردها من الصين، وساعده في ذلك سيطرة ابن عمه خدان على «شي شيا» ومناطق اليوغور الواقعة في أقصى الغرب. واستطاع الاثنان حصار جميع الأراضي الواقعة داخل قوس بالغ طوله 2300 كيلومتر بين بيشباليغ (Beshbaligh) وشقطاي وزانادو، وهو ما أجبر أريق مع قدوم فصل الشتاء على طلب معونة المزارعين والحرفيين في وديان سيبيريا. واقتنص كوبلاي كل فرصة سنحت له، فقام بتجنيد المزيد من القوات واشترى عشرة آلاف فرس جديد، وطلب ستة آلاف طن من الأرز (مؤنة تكفي لعام كامل)، ثم خرج على رأس جيشه إلى الشمال نحو وسط منغوليا. وعلى مسافة ليست بعيدة عن كاراكوروم، علم كوبلاي خبر إعدام أتباعه فأراد أن ينتقم لذلك فأمر بإعدام دورشي.

واضطر أريق إلى التراجع إلى وادي ينسي (Yenisey) مصدر إمداداته في سيبيريا وأصابه اليأس، فاعتذر وقدم فروض الطاعة وقال: «أنا شقيقك الأصغر، ارتكبت جريمة وتجاوزت عن جهل، وأنت الأخ الأكبر.. سأذهب إلى أي مكان تأمرني به».

لكنه لم يفعل، وتواصلت المناوشات حتى أتت المواجهة التالية في الخريف المقبل في مراعي شرقي منغوليا، اندلعت معركتان ووقعت خسائر ضخمة في الأرواح على الجانبين، ولكن دون نتيجة حاسمة، وتعرض أريق لأضرار بالغة. ولأن الخوف والرعب سيطرا عليه ومعه جيشه الجائع الهزيل، حسبما يقول رشيد، فقد انسحب إلى غابات وجبال سيبيريا، وتخلى عنه حلفاؤه. ورفض ألغو حاكمه الدمية في شقطاي أن يمد له يد العون، وقام بإعدام المسؤولين التابعين لأريق. وانهار منصب الخان وسط الغارات والغارات المضادة، وأصبحت الماليغ (Almaligh) موطناً للفقر وللمجاعة. وكان هذا المكان الذي فر إليه أريق فطارد حليفه السابق إلى أعماق آسيا الوسطى، في حين احتل كوبلاي كاراكوروم في

فصل الشتاء. وفي الربيع وجد أريق دعمه ينهار، وتأكد له ذلك عندما هبت زوبعة في شهر مايو في سهوب آسيا الوسطى، تسببت في وقوع خيمته المشدودة بألف وتد وحطمت عمودها الرئيسي وأصيب كثيرون داخلها. وبالنسبة لوزرائه كانت الزوبعة نذيراً بهزيمة وشيكة.

في هذه الفترة – أوائل 1262 – اندلع تمرد ضد كوبلاي في مسقط رأسه، أصبح سبباً في إنقاذ أريق، فقد جاء الاضطراب من مقاطعة شاندونغ (Shandong) قلب شمال الصين، وهي منطقة ساحلية غنية تقع بالقرب من مصب النهر الأصفر. وكان أمير الحرب المحلي «لي تان» (Li Tan) هو زوج ابنة أحد أكبر مسؤولي كوبلاي، ساعد مونخيه في حربه على سونغ، وكان كوبلاي يعتقد أنه حليف قوي وقام بدعم غاراته وضخ الأموال اللازمة لإنجاحها، وكان رهاناً جيداً على ما يبدو، فقد كان ابن «لي تان» رهينة في بلاط كوبلاي. لكن «لي تان» الذي كان يتحكم في صناعات الملح والنحاس المحلية، اهتم أكثر بترتيب بيته الخاص بعيداً عن كوبلاي، فقرر أن الأفضل له باعتباره قائداً صينياً أن يبقى مع سونغ وليس المغول، وقام بالترتيب لفرار ابنه من بلاط كوبلاي. وبعد ذلك أطلق يد جيشه على الأهالي المغوليين، فاستولى على مخازنهم ضمن عزمه الواضح على إقامة مملكة انفصالية خاصة به، واستغرق الأمر عدة أشهر لسحقه؛ لأن عقوبته كانت تخييطه في شوال ووضعه تحت الخيول لتدهسه حتى الموت، وهو المصير المعتاد لذوي المناصب الرفيعة في عُرف المغول. وبعد ذلك أعدم كوبلاي حماه وتحول بعد ذلك لمهمته في التعامل مع أريق.

كان التمرد في شاندونغ حلقة سيئة لكن كوبلاي نجا منها بنجاح، ورغم أنه خشي دوماً وضع ثقته في الصينيين فيما بعد فإنه ظل يستشير مستشاريه الصينيين بعناية، وأصدر تعليمات لقواته باحترام المدنيين. لكنه يرى الآن أنه في حاجة إلى تنظيم أفضل لتشغيل آلة الحرب، فمكتب الشئون العسكرية الذي تم إنشاؤه في عام 1263 صار يميز بشكل واضح ولأول مرة بين الإدارة المدنية والعسكرية. فالحرب ستكون حكراً على المغول مع استبعاد الصينيين، وهي تركيبة يديرها المغول تتكون من وزارة للحرب وجهاز للمخابرات، وبإنشاء هذه الهيئة كان كوبلاي يتخذ خطوة مهمة تبعده عن إمبراطورية جده التي كستها السهوب التي اصطلحت على الولاء الشخصي لجنكيز. وسيصبح المكتب هيئة حكومية متكاملة موازية بها مجموعة من مسؤولي النخبة ولاؤهم ليس لشخص كوبلاي وإنما للدولة.

كان شتاء 1263-1264 قاسياً على جيش أريق الذي وقف تحت الحصار في آسيا الوسطى، فقد شحت إمدادات الغذاء والأسلحة وغاب دعم الأصدقاء، ومات الرجال والخيول جوعاً، وانشق الحلفاء حتى تفسّخ تماسك عائلة أريق، وقام ألغو بتجميع قواته على وجه السرعة لاستئناف القتال من جديد.

وفي عام 1264 واجه أريق ما لا مفر منه، فجاء متوسلاً إلى أخيه طالباً السلام، وحسب وصف رشيد كان اجتماع الأخوين مفعماً بالمشاعر والعواطف. اقترب أريق من قصر كوبلاي المصنوع من خيمة ضخمة بطريقة تقليدية، رفع الغطاء الذي كسا الباب وتركه معلقاً على كتفه في انتظار أمر الدخول. أُستدعي ووقف بين يدي الأمناء كالتلميذ البليد الشقي، نظر الأخوان إلى بعض، وربما عادت بهما الذاكرة إلى سنوات الصبا التي قضيناها تحت رقابة سوركاكتاني الصارمة التي أورثتهم فضائل شتى ليس أسماها ضبط النفس والتسامح والغفران. فرق قلب كوبلاي، وسالت دموع الرجلين، وأشار كوبلاي بإيماءة إلى أخيه وقال له: «أخي العزيز هل تدري من منا على حق في هذا الصراع؟» ولم يكن أريق على استعداد لقبول أنه هو المخطئ الوحيد، فقال: «تلك أيام خلت إلى غير عودة، وها نحن في يومنا هذا»، وكانت إجابة كافية بالنسبة لكوبلاي. لكنها لم تكن شافية لشقيق أبيشقا الذي أعدمه جنرال تحت إمرة أريق اسمه أسوتي، فاحتج وقال منفعلاً: «لقد قتلته بأمر من الحاكم آنذاك - أريق القوي، وكوبلاي خان هو حاكم وجه الأرض اليوم، فإذا أمر بقتلك فسأقتلك أيضا».

وقال زعيم آخر: «اليوم ليس الوقت المناسب لإشعال أحقاد الماضي. اليوم لهو ومرح». وافقه كوبلاي الرأي، وخُوّل لأريق مكانة بارزة بين الأمراء، دون أن يحصل على حريته. وفي اليوم التالي يجري اختبار لمعرفة السبب الذي جعل الأمور تأخذ هذا المنحى. ثم وُجّه اللوم عندما اختلف القادة بشأن الشخص الأكثر نفوذاً على أريق. وكانت المسألة صعبة لأن كوبلاي الذي رغب في تحميل اتهام لأحد، وجد سبباً لإسقاط حكم الإعدام عن شقيقه.

وفي النهاية يُنفذ حكم الإعدام بحق عشرة من المقربين إلى أريق، وينجو أريق وأسوتي رغم بقائه قيد الاعتقال. ما الذي يمكن عمله حيال أريق؟ قام كوبلاي والخانات الثلاثة الأقل رتبة - هوليغو وبيرك وألغو - لمناقشة هذه المسألة، لكن الثلاثة اعترضوا، فلم يزل هوليغو وبيرك في حالة حرب، ولم يستعد ألغو سلطته إلا مؤخراً، ولم يجرؤ أحد منهم على

مغادرة وطنه.

فمن إذاً يخلّص الخان من شقيقه المزعج؟ ليس الأسرة وليس السماء الخالدة بطبيعة الحال فأريق لم يبلغ بعد الخمسين ويتمتع بصحة جيدة. وكان المتعارف عليه دائماً أن سعي كوبلاي لاعتلاء العرش لا يسير في غياب المنافسين والمنازعين. ثم فجأة وفي ظروف غير واضحة - كما يقول رشيد - يُصاب أريق بوعكة صحية ويفارق الحياة. هل قتله أحد؟ البعض شك في ذلك، وآخرون ذهبوا لهذا الادعاء منذ ذلك الحين، ولكن المؤكد أنه كان حلاً مناسباً ورائعاً لمشكلة مستعصية.

ثم تدخلت السماء فعلاً بعد بضعة أشهر من وفاة أريق، فقد توفي هوليغو في بلاد فارس، وبيرك زعيم القبيلة الذهبية والخان ألغو الذي استعاد سلطانه على شقطاي. فما أضيعها تلك السنوات الخمس الماضية كلها كانت نتيجة لمعارضة أريق لشقيقه. وعُلقت المهمة الكبرى الخاصة بغزو الصين وتعرض استقرار الحكم المغولي في جميع أوراسيا للتهديد، قُسم معقل المغول مقابل الأراضي الصينية التابعة له، وقتل حكام ثلاثة خانات غربية بعضهم البعض. ويبدو الآن أن كل شيء قد حُلّ. هذا ناهيك عن أن تتويجه لم يكن قانونياً بشكل كامل، فأصبح كوبلاي يقود الآن وبشكل مباشر منغوليا وشمال الصين وجزءاً كبيراً من آسيا الوسطى، وبعض أراضي سونغ، وأصبح قائداً أعلى للخانات الفرعية التابعة له في بلاد فارس وجنوب روسيا. وتظهره صورة كبيرة له في هذا الوقت وهو في سن الخمسين في أوج مجده في ثوب بسيط لا توجد فيه زينة أو زركشة. وشكله يشبه الحكماء، ولكن تعبير وجهه يدل على أنه رجل يلتزم بشكل لا هوادة فيه بالمهمة التي تكون في متناول يده.

وحان وقت التطلع إلى الجنوب مرة أخرى.

الجزء الثاني

الصيف

الفصل السادس

عاصمة جديدة

بعض العواصم تولد عظيمة مثل روما وباريس ولندن، وقد يحظى بعضها الآخر بشيء من العظمة المستوردة مثل برازيليا وكانبيرا وواشنطن وبكين. فقد تركزت الثقافة الصينية مدة ثلاثة آلاف عام حول نهرين عظيمين شقّا قلب الصين هما النهر الأصفر ونهر اليانغتسى، ولم تكن بكين يوماً مدينة مرشحة للعب دور العاصمة، فهي مدينة نائية ولا تضم أنهاراً مناسبة. وظل هذا الأمر حتى الغزو الذي قام به «الجين» أسلاف المغول في عشرينيات القرن الثاني عشر. ومع سيطرة سونغ على الجنوب صارت بكين واحدة من العواصم الثلاث في شمال الصين، واتخذت اسم «العاصمة المركزية»(1). ومن هنا كان الصينيون الشماليون الذي جاؤوا من خارج البر الصيني هم أول من جعل بكين مقراً للحكومة، وهو ما جذب انتباه جنكيز إليها.

ووفقاً للمعايير الحديثة، كانت المدينة صغيرة حين استولى عليها المغول ودمروها عام 1215، فكانت عبارة عن مساحة مربعة لا يزيد كل ضلع منها عن 3.5 كم، وتقع إلى الجنوب الغربي من «ساحة تيانانمن» (Tiananmen Square)، ويصعب تتبع أي أثر يشير إلى مكانها السابق، فالمدينة لم تسترد سابق عهدها إلا عام 1260 نتيجة للدمار الذي تركه جيش جنكيز. ولا شك أن هناك مشاهد وأصوات من بكين في القرون الوسطى لا تزال باقية في الأزقة، إذ تجد رنين الطبول التي كان يستخدمها الحلاقون الجائلون لتعريف الزبائن بوصولهم، وقرع باعة الشراب للأدوات النحاسية، ناهيك عن الأجراس التي تشير إلى نوبات الحراسة الليلية والنهارية، وصيحات الباعة الجائلين في كل مكان، لكن الحوائط وجدران القصور المحترقة لم تزل في حالة خراب. وربما كان بعض تجار العقارات في ذلك الوقت يأخذون شعب كوبلاي في جولة يتحدثون فيها عن إمكانات المكان، وربما لم ير المشتري المحتمل أي شيء سوى موجة من الفوضى لا سبيل للخلاص منها.

وفي العقد السادس من القرن الثالث عشر، وعندما أصبح شمال الصين مركزاً لصناعة الفخار، صار لدى كوبلاي خيارات عدة فيما يخص بكين، فكان بإمكانه أن يتجاهل بكين ويواصل حكمه من زانادو، لكنه لو فعل لكان ذلك إقراراً بكونه دخيل على هذه الأراضي.

(1) عرفت بكين بالعديد من الأسماء فترات طويلة، كما تم إطلاق اسم بكين (وتعني عاصمة الشمال) على مدن أخرى. لكني فضلت إطلاق اسم بكين على المكان الموصوف أعلاه في هذا الكتاب (المؤلف).

ولما رأى كوبلاي مزايا حكم الإمبراطورية من إحدى القواعد الصينية، ربما قام باختيار إحياء واحد من المقرات القديمة للحكومة، مثل كايفنغ (Kaifeng) أو زيان (Xian). لكن بكين - هي أحد الاختيارات المحتملة لإقامة عاصمة صينية، لقربها الشديد من كل من زانادو ومنغوليا. وبالفعل في سنة 1263 بعد سبع سنوات فقط من البدء في بناء زانادو، قرر كوبلاي اتخاذ بكين عاصمة كبرى له. وبذلك يستطيع كوبلاي إتمام مسيرة تقدمه من المراعي المنغولية إلى الصين، ومن كاراكوروم إلى زانادو ثم بكين. وتخلى كوبلاي عن كاراكوروم تماماً، فصار يتنقل بين قاعدتين هما زانادو صيفاً وبكين شتاء، وهكذا استطاع الربط بين عالميه، وهذا ما جعل بكين العاصمة الحالية للصين.

وهنا سؤال: كيف يمكن التعامل مع بكين، تلك المنطقة المتهالكة؟ فقد كانت الأسر الحاكمة الوافدة إلى بكين غالباً ما تضع بصمتها على المدينة من خلال هدمها وتخريبها كلياً ثم إعادة بنائها (كما فعل مينغ). وربما تردد كوبلاي قليلاً في ذلك، فقد أُصلحت أسوار المدينة القديمة سنة 1261 في خطوة يمكن أن نطلق عليها «بناء حياة جديدة على أطلال الماضي». لكن مستشاري كوبلاي رأوا أن بناء حياة جديدة في أزقة بكين القديمة قد يصبح سبباً في تغذية روح التمرد والغضب الشعبي، ومن ثم قرر كوبلاي إنشاء عاصمة جديدة تماماً.

وكان هناك بقعة مثالية واقعة إلى شمال وشرق عاصمة الجين - منطقة تدفقت بها المياه من التلال الغربية التي غذّاها «بحر الشمال». وقبل 30 عاماً من وصول المغول قام في هذا الموقع المتميز ملعب للأثرياء، وكانت البحيرة التي امتد مسطحها على مساحة 35 هكتاراً والواقعة في قلب الحدائق، قد ظهرت إلى حيز الوجود حسبما تقول إحدى الأساطير التي تحكي عن وجود ثلاثة جبال خيالية عاش بها أناس خالدون على شراب الخلود، وقد بحث الكثيرون عن هذه الجبال وشراب الخلود دون جدوى. وفي القرن الثاني قبل الميلاد أمر إمبراطور الهان «وو دي» (Wu Di) بحفر بحيرة بجوار قصره في عاصمة دولته وثلاث جزر تمثل تلك الجبال الخيالية، وقد أصبح هذا الأمر تقليداً مفضلاً لدى الأباطرة الذين جاؤوا بعده. وكذا فعل سونغ في بكين أواخر القرن العاشر. ونظراً لحُسن منظر هذا الامتداد الشاسع من المناظر الطبيعية الخلابة اختار الجين هذا المكان لإقامة قصر المصيف الخاص

به في القرن الثاني عشر، وأسماه «قصر الهدوء العظيم» (Myriad Tranquillities). وقام ملك الهانز أيضاً ببناء مقر له أعلى قمة «جزيرة اليشم» (Jade Island)، وتعتبر أعلى نقطة في المدينة (الآن يتوجها ما يُعرف باسم «المعبد الأبيض» White Dagoba في بكين، وهو مبني على طراز القرن السابع عشر، وهو نسخة بكين من برج إيفل). وكانت أبنية الإمبراطورية قد نُهبت عندما هاجم جنكيز بكين بين عامي 1213 و1215، لكن البحيرة كانت ما تزال في قلب الحديقة المهجورة، وكان من البديهي أن يختار كوبلاي هذه البقعة مركزاً لمدينته الجديدة.

ومع وجود زانادو التي مثلت امتداداً لإمبراطورية المغول تحت حكم كوبلاي، أصبح واضحاً أن العاصمة الجديدة ستكون صينية حتى النخاع، ولم يكن تحقيق ذلك سهلاً في خريف 1263، عندما وصل الإمبراطور من زانادو لاستصلاح المكان الذي كان منطقة شبه برية اعتراها الإهمال على مدار 50 عاماً. تخيل بحيرة اختنقت تحت كومات الطمي والنباتات، والمنازل الصيفية المتهالكة التي امتدت على أطرافها، والمساكن الصغيرة المتناثرة هنا وهناك، والتي تجرأ المزارعون على بنائها واستيطان منطقة كانت يوماً حديقة إمبراطورية. وفي إطار هذا الخراب الذي ران على قلب العاصمة القديمة، كان الخيار الوحيد أمام كوبلاي هو نصب خيام للإقامة. طُهر المكان من النباتات والأشجار لإقامة معسكر إمبراطوري، مكون من خيام ملكية كبرى، وخيام أصغر للأمراء والمسؤولين، ومئات الخيام لوحدات الحراس والسائسين، وسائقي العربات وصانعي الأسلحة، والحدادين والنجارين، والمهندسين المعماريين وغيرهم من آلاف العاملين.

واضطلع «ليو بينغ زونغ» بالمسؤولية الكاملة عن التصميم، فقد كان العقل المدبر في زانادو، وكان عضواً في فريق المهندسين المعماريين، وقد عمل تحت إشرافه مهندس موهوب ذو حيثية كبيرة لم تذكر المصادر الصينية الرسمية اسمه. كان هذا المهندس عربياً، وكان اسمه قريباً من «اختيار الدين»، وقد علمنا عن هذا المهندس بفضل عالم صيني اسمه «تشن يوان» حصل على نسخة من مخطوط يعود لأحد أبناء هذا المهندس العربي واسمه «محمد شاه»، وقد حصل العالم الصيني على هذا المخطوط بمحض الصدفة في ثلاثينيات القرن العشرين. والمفترض أن يكون «اختيار الدين» أثبت جدارة في بلاد فارس عقب

غزو المغول لها، فاستدعاه كوبلاي، أو ربما استدعاه «ليو بينغ زونغ» ليرأس قسماً بوزارة الأشغال كان مختصاً بتصميم الخيام ونصبها. ولا أحد يعرف ماهية مهمة هذا المهندس تحديداً، فربما كان الأمر يتعلق بصناعة الخيام للأسرة الحاكمة. وبغض النظر عن الواجبات الموكلة إليه، فقد أصبح المهندس «اختيار الدين» أحد خبراء تخطيط المدن بمرور الوقت، ومع تقدم العمر أُختير ليشرف على المخطط الجديد لكوبلاي.

وهذا المخطوط يستحق الاقتباس تفصيلياً لأنه يعطي شعوراً بحجم المشروع ويوضح أهداف كوبلاي السياسية، فضلاً عن تقدير كبير المهندسين المعماريين الذي تولى التنفيذ. ففي خريف 1266 حسب ما جاء في المخطوط، أمر البلاط ببناء أسوار العاصمة الجديدة وقصورها، وجاء فيه:

«ومع انتهاء «المشروع العظيم» [بغض النظر عن ماهيته، والتي ربما كانت تتعلق ببناء زانادو]، اتسعت دائرة النفوذ والتأثير الوطني، فإذا لم تكن القصور والزخارف الموجودة بالعاصمة جميلة ومهيبة، فلن تحظى باحترام الإمبراطورية. وبعد تعيين «اختيار» شرع الرجل في أداء مهامه بلا كلل حتى انتهى من تصميم المخطط العظيم، واختار كبير المنجمين تاريخاً مبشراً بالخير، وقام مدير الإمدادات بتجميع المواد اللازمة للإنشاءات. وأُعدت مخططات تفصيلية للممرات والمداخل وقاعات الاجتماعات والطرق وأماكن السكن وصالات الاستقبال غير الرسمية والقصور المستقلة، فضلاً عن مكاتب الإدارة والمقامات والأضرحة ومساكن الحرس ومخازن الملابس والأطعمة والأواني، ومراكز الضباط الذين يؤدون الخدمة بالبلاط الإمبراطوري. حتى البرك والأحواض والحدائق والبساتين، وأماكن اللهو والأبنية المرتفعة الطوابق، والسرادقات ذات الدعائم والشرفات ذات الإفريز المعلق - كانت حاضرة في المخططات. وفي الشهر الثاني عشر [28 ديسمبر 1266 – 26 يناير 1267]، صدر مرسوم يأمر [ثلاثة من المسؤولين] و«اختيار الدين» بتولي مهام مجلس الأشغال معاً وتنفيذ برنامج بناء القصور وأسوار المدينة. ورُفعت المقاسات للبدء في توفير المعدات اللازمة، ونصبت الأعمدة والدعامات، ونقلت الأحجار والأخشاب والتربة، وشاركت في هذا المشروع جموع كبيرة من الحرفيين. وأقيمت الأساسات والمصاطب على قواعد راسخة، فنالت جميع مراحل العمل استحسان الإمبراطور، الذي ثمَّن خدمات

«اختيار الدين» الذي بدأ يشعر بزحف الشيخوخة عليه».

ولـم يُذكر اسم «اختيار» في التاريخ الرسمي لليوان، في حين ذكر زملاؤه الصينيون الثلاث الذين كانوا تحت إشرافه. وقد قال «تشين» في هذا الصدد: «ربما أُغفل عن قصد، أو أن هذا الحذف كان نتيجة للاهتمام غير الكبير بالهندسة المعمارية فيما مضى». حسناً، إن الأمر يبدو لي وكأنه نوع من العنصرية المتعمدة. وقد كان كوبلاي – تماماً مثل جده جنكيز – يسعد بتعيين المواهب أينما وجدت، لكن بكين كان من المقرر لها أن تصبح قريباً عاصمة الإمبراطورية الكبيرة مع اعتبار كوبلاي نفسه إمبراطوراً صينياً. ولننظر إلى الأمر من وجهة النظر الصينية: كان كوبلاي قد فرض نظاماً طبقياً يتضمن وجود المغول على القمة والمسلمين في المرتبة الثانية، يليهم سكان شمال الصين وأخيراً سكان الجنوب. وقد عين المغول شخصاً عربياً ليوضح للصينيين كيفية بناء مدينة صينية، لذا فلا يتطلب الأمر كثير جهد لتخيل مؤامرة من قبل المؤرخين الرسميين الصينيين ممن رغبوا في الانتقام لهذه الإهانة. لذا فقد حُذف اسم «اختيار» من التاريخ ببساطة، وذلك حتى قيام «تشين يوان» بفك رموز المخطوط الذي كان من شأنه تكريم «محمد شاه» ووالده. وكتب «تشين» في هذا الصدد: «ويشعر زوار بكين هذه الأيام بعظمة القصور وأسوار المدينة، لكن من الذي يتخيل أن الرجل الذي صنع ذلك كان من بلاد العرب؟»

وتعد منطقة «بيهاي بارك» التي تقع في قلب المدينة اليوم بمثابة ملعب للجميع، لكنها كانت يوماً ما ملعباً للأباطرة والأمراء خارج أسوار المدينة، لذا فإن سكان بكين الذين يتنزهون على ضفافها ويجدفون بقواربها يدينون ببعض الفضل لكوبلاي، فهو من حولها إلى رقعة جميلة يقصدها السائحون، وهو أول من بنى جسراً على «جزيرة اليشم» (والذي استبدله لاحقاً بـ «جسر السلام الخالد» (Eternal Peace Bridge) الرخامي ذي التصميم المنحني الانسيابي الجميل الذي يراه السائحون اليوم)، وهو الذي عمل على تزيين منحدراتها بالأشجار النادرة والسلالم المتعرجة، وأطلق أسماء شاعرية على معابدها وسرادقاتها (مثل «الندى الذهبي»، و»قوس قزح اليشم»، و»السعادة الجذابة»، و»الانسجام الخالد»)، وهو أيضاً من جعل من البحيرة وجزيرتها مقصداً يلهث لرؤيته الأجانب. وقد أشار «ماركو بولو» إلى مخزون الأسماك والحاجز المعدني الذي منعها من الهرب إلى النهر

من كلا الجانبين، وبعد ذلك بنحو 50 عاماً، أظهر «فريار أودوريك» من «بوردينون» بشمال شرق إيطاليا إعجابه بأسرابها من البجع والأوز والبط.

وأنشأ كوبلاي قصراً جديداً محل القصر القديم الواقع على قمة جزيرة اليشم، حيث زاد ارتفاع التل مستخدماً الطمي الذي حصل عليه من قاع البحيرة، وربما ظل هذا القصر المقر الرسمي للبلاط على مدار عقد من الزمن (1264-1274) أثناء مرحلة تأسيس المدينة[1]. ذهب ذلك القصر الذي قام على قمة الجبل طي النسيان واختفت آثاره، لكن ذكراه يُحييها نصب تذكاري يقف اليوم شاهداً. وكان في واحدة من القاعات السبع للقصر الكبير قصر ثان صغير به سرير مطلي بالذهب واليشم كان كوبلاي يحب أن يضطجع عليه، وإلى جوار كوبلاي كانت تربض جرة هائلة الحجم وزنها 3.5 طن منحوت عليها مجموعة من التنانين تلهو بين الأمواج. وكان كوبلاي يوزع الخمر من هذه الجرة التي كانت تسع نحو 3 آلاف لتر. وبعد أن تقاذف الزمن هذه الجرة، اكتشفت في القرن الثامن عشر واستقرت مجدداً على قمة التل وقد حُميت داخل سرادق صغير على قاعدة جديدة من اليشم. وتحمل المنصة رمز صليب معقوف. لكنه لا يشبه الصليب النازي. فقد تم وضع أذرع الصليب في عكس حركة عقارب الساعة على الطريقة الزرادشتية الأصلية (الرمز الذي يمثل أحد المعابد على الخرائط الصينية). ويدرك الجميع هناك أن هذه الجرة هي تميمة حظ، وهناك يشتري السياح تعويذات حمراء صغيرة لتعليقها على السور المحيط بها- تعويذات من نمط: «حظاً سعيداً مدى الحياة! الدعاء لجميع العائلة بالسعادة!»

وكان المهندس «اختيار» هو من قام بتخطيط المدينة التي حملت الطابع التقليدي للعواصم السابقة بما فيها زانادو، وكان المقرر أن تضم المدينة ثلاثة عناصر: قصر ومدينة داخلية ومدينة خارجية، وذلك في شكل مستطيلات متداخلة. وكان يتعين أن تستحي صورة العاصمة الجديدة من مجد العواصم الصينية السابقة، وخصوصاً مدينة تشانغان Changan (اسمها زيان في الوقت الحاضر) التي كانت عاصمة التانغ بين القرن السابع والعاشر، وربما كانت أعظم مدينة على مستوى العالم في ذلك الوقت. ولم يكن كوبلاي يعلم شيئاً عن «جيش تيراكوتا» (جيش ضخم من الجنود المصنوعين من الفخار)، الذي اجتذب عشرات

(1) انظر ج. ن. كيتس «تاريخ جديد لأصول المدينة المحظورة».

الآلاف من السياح كل عام إلى مدينة زيان، لكنه كان يدرك قوة القائد الميت لهذا الجيش، الإمبراطور الأول وموحّد الصين في القرن الثالث قبل الميلاد، ومؤسس الطرق والقنوات وسور الصين العظيم. لقد كان ذلك بمثابة تجسيد للقوة والمجد اللذين يطلبهما كوبلاي.

وفي أغسطس 1267 بدأ آلاف العاملين تحت إشراف «اختيار» في بناء أسوار حول التلال وعلى امتداد الأنهار الثلاثة المتعرجة، مستخدمين الطمي لا الأحجار، وحفروا خندقاً مائياً ليحصلوا من خلاله على الإمدادات. كتب المؤرخ الفارسي رشيد الدين عن ذلك يقول: «كان من عادة هذه الدولة وضع الألواح الخشبية وصب الطمي الرطب بينها ودكها بعصي كبيرة حتى تثبت، ثم إزالة الألواح ليخرج السور إلى النور». ولم يكن عملاً يحتاج مهارة كبيرة، ومن ثم أصبح مهنة الفقراء أصحاب المساكن الصغيرة البالغ عددهم 382 نسمة، الذين انتقلوا للعيش في تلك المنطقة بعد أن هُجرت وأقصوا إليها، وقد حصل جميع هؤلاء المقصيين على تعويضات في سنة 1271. وبعد عام من العمل، أُقيمت أسوار من الطين بسمك 10 أمتار عند القاعدة وارتفاع 10 أمتار، وكان سُمك السور يتناقص تدريجياً وصولاً إلى ثلاثة أمتار عند القمة. فأخذ السور شكل المثلث غير مستدق الرأس. وأصبح السور كالمستطيل الممتد على مساحة 5.5 × 6.5 كم، وامتد 28 كيلومتراً على طول الطريق، وكان له 11 مدخلاً. وفي داخل هذا السور، بُني سور ثان لإخفاء «المدينة الإمبراطورية»، التي بُني سور ثالث في داخلها ليعزل القصر الإمبراطوري والأبنية الملحقة به عن الخارج. وتفوق «اختيار» في التصميم الذي وضعه على تصميم مدينة «زيان»، وقام «اختيار» بإنشاء مجموعة رابعة من الأسوار.

وبداية من مارس 1271 شرع 28 ألف عامل في بناء البنية التحتية للمدينة الإمبراطورية مع تأسيس شبكة طرق متعامدة بعضها على بعض، على غرار طرق منهاتن الأمريكية، وكانت كل كتلة تعود ملكيتها إلى أسرة ملكية كبيرة، واستقر القصر إلى يمين بحيرة بيهاي. وقد صممت شبكة الأسوار لتوفير الأمن، لكن الغرض المعلن منها كان سياسياً ونفسياً، تمثّل في زرع المهابة والعظمة في نفوس كل من يدخل المدينة، بالضبط مثل الكرملين الروسي وقلعة همبرا الكندية. تخيل أنك دخلت عبر أحد البوابات، وسرت في الشوارع المزدحمة لتمر بمدخل ثان تمر به في صحبة الحرس وتحصل على تصريح كتابي للدخول إلى مساكن

الأغنياء وذوي النفوذ، أصحاب المنازل الفخمة والحدائق الغناء وجيوش الخدم والحشم. ثم تصل في النهاية إلى حرم الإمبراطورية الداخلي، حيث تجد صندوق الجواهر الذي كان صورة مجسدّة للقوة ولاختيار السماء لحاكم أعظم كيان سياسي في العالم بعد سقوط روما، تلك الإمبراطورية التي أقضت مضجع العرب والروس. وكان لكوبلاي خصوم جعلوه يشعر بغياب الأمن. فقبل السماح لك بالدخول على الإمبراطور، ستذهل حتى ترى مجموعة هائلة من مظاهر العظمة الملكية، كالفخامة والقوة والغموض والثروات التي لم تشاهدها من قبل.

كانت هذه هي المشاعر التي وصفها ماركو بولو عام 1275 عندما قدم إلى المكان الذي عُرف باسمه المغولي-التركي «مدينة الخان» (Cambaluc)، وقد عرف الصينيون المكان بالاسم «دا-دو» (Da-du) أي العاصمة العظيمة. وقد وضع «ماركو بولو» وصفاً خاصاً للقصر وحدائقه المحاطة بأسوار ارتفاعها 10 أمتار تربط بين ثماني قلاع يحتوي كل منها على معدات الحرب كالأقواس وسروج الخيول واللجم والأسلحة. وكانت الغزلان ترعى تحت الأشجار النادرة المجلوبة من أماكن بعيدة بواسطة الأفيال، والتي كانت تطل عليها أرصفة الممشى المنحدرة بشكل معتدل لتعمل على تصريف مياه الأمطار بسرعة قبل أن تلامس الأقدام الأرستقراطية. وكان للقصر سقف من البلاط الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق، وكان عبارة عن مبنى مكون من طابق واحد مزود ببهو مركزي شاسع يتسع لستة آلاف ضيف يتناولون العشاء تحت لوحات جدارية نُقش عليها صور حيوانات مزينة بزخارف الذهب والفضة. وضم القصر عدداً غير معلوم من الغرف الخاصة التي لا يسمح بدخولها إلا لصفوة الصفوة.

وفي نهاية الأمر عندما سقطت الصين بأكملها أمام المغول كان هذا المكان مهد عاصمة الدولة الموحدة بالكامل، وظلت على هذه الصورة، وقد بُني قلب مدينة بكين كما نعرفها اليوم أو «المدينة المحظورة» طبقاً لتخطيطها زمن كوبلاي، حيث يواجه مدخلها الجنوب، شأنها شأن أي خيمة مغولية. وتقع جميع القصور والأبنية الفخمة البالغ عددها 800، وكذا الغرف البالغ عددها 9 آلاف غرفة، والمدخل المتجه من «ساحة تيانانمن» في أماكنها الحالية لأن كوبلاي قد اختار بناء قصره هناك.

ومع بداية تحول خريطة الشوارع والأبنية الجديدة من موقع بناء إلى عاصمة، أصبح على

كوبلاي أن يتخذ قراراً، فحتى يستطيع كوبلاي إتمام سيادته وتحقيق طموحاته التي ورثها عن جده، كان عليه أن يُصدر بياناً عاماً يقول إن السماء منحته الحكم، وأن عائلة حاكمة جديدة قد تأسست. وكانت هذه الأسرة تحتاج إلى اسم، ومن الواضح أن اختيار اسم مغولي ما كان ليخدمه أمام الرعايا الصينيين، خاصة أهل الجنوب الذين سيدينون له إن نجحت خططه، فاقترح عليه مستشاره «ليو بينغ زونغ» اسماً صينياً مثالياً ظهر للنور لأول مرة عندما كان كوبلاي يفكر في اختيار اللحظة المناسبة لتنصيب نفسه إمبراطوراً. كان الاسم مستوحى من كتاب النبوءات العظيم (I Ching)، وورد في نبوءة العراف «تشيان» (Qian) في زانادو. وكانت النبوءة تشتمل على مجموعة من الكلمات أو تعويذة سحرية، ارتبط معناها بـ «طريق المياه» أو «تاو» (Tao)، وهي صيغة تستثير تدفق الحياة.

كلمة «يوان» في القاموس معناها: الأول أو الرئيس أو الأساسي أو الجوهري، وهناك معان كثيرة مرتبطة بهذه الكلمة، وهو ما قاله «ستيفين كراتشر» (Stephen Kracher) عن «اليوان» في كتابه (Total I Ching: Myths for Change): اليوان هو المصدر المطلق والمحرك الأساسي والحركة وراء الأصل المطلق للكون. اليوان قوة الربيع وقوة الشرق. وفضلاً عن أنه كان يتضمن التميز والسيادة، فقد دل أيضاً على مفاهيم «القدم» و»مصدر الفكر والنمو»، وأشار إلى الإنسان الخيّر والتواصل مع الحقائق الجوهرية، وارتبط أيضاً بأداء الطقوس الكبرى وبالعظمة والأعمال الخلاقة.

وصار اليوان الاسم الجديد للأسرة الحاكمة، وقد أُعلن عنه في ديسمبر 1271، وأضفى اختيار هذا الاسم أصالة على كوبلاي حيث لم يسبق لإمبراطور أن اختار اسما لأسرته دون أن يكون اسم مكان، وكانت أصالة الاسم لا تشوبها شائبة، فلم يكن هناك اسم مس شغاف الصينيين أكثر منه. وكان الاسم يحمل صبغة دينية سامية حيث ارتبط باسم إله المغول «تنجر»، وقد لقي اختيار الإمبراطور الجديد للاسم تفضيلاً كبيراً عند جميع رعايا كوبلاي الصينيين والمغول على حد سواء.

وبكين اليوم عبارة عن بحيرة تغزوها مظاهر الحداثة والعصرية، أما تحت سطحها الذي أصبح ضبابياً بسبب المرور والتلوث والإنشاءات الجديدة، فترقد صورة باهتة للمدينة القديمة، وكأنها مستطيل رسمت حدوده أنظمة الطرق والمسارات. وفي أحد أيام الصيف

الحارة قررت أن أحاول جعل الشبح يبدو حقيقياً، فقررت أن أقتفي أثر عالم النبات والطبيب بالمفوضية الروسية والمؤرخ الدؤوب المختص في تاريخ بكين- «إيميل بريتشنيدر» (Emil Bretschneider). ففي سنة 1875 ارتفعت الأسوار المغولية وانتشرت الممرات ومسارات العربات، وبعد أربعين عاماً، عندما أخذ المؤرخ «لين يوتانغ» (Lin Yutang) جولة في المنطقة، وجدها تحولت إلى منطقة «ريفية تماماً تعج بالمزارع وبرك البط».

وقد اكتسبت المدينة مظهراً ساحراً اختفى مع تقدم الزمن، واليوم وعلى مسافة أربعة كيلومترات إلى الشمال الغربي من متنزه «بيهاي بارك»، تقف سلسلة من التلال المكسوة بالأشجار، لتشق مساراً مدهشاً تسير فيه العربات. هذا المشهد هو بقايا أسوار كوبلاي الطينية، ويمكنك الانتقال إليها بالسيارة. فأثناء رحلتي تتبعت طرقات مبطنة بالطوب الرمادي تحيط بها كتل الحشائش حتى وصلت إلى قمة التلال، ومن فوق هذا الارتفاع الشاهق، أصبحت أرى بوضوح طرق السيارات وحركة المرور عبر هواء تلبد بالسحب الكثيفة، وهناك لافتة تقول: «حافظ على العشب لأنه حي يرزق». وليس هناك ما هو على قيد الحياة في هذه البقعة سوى الأعشاب، لا الآن ولا في الماضي. وهناك معبد حديث خلا من أي زائر سوى رجل حليق الرأس جلس يعزف على آلة كمان ذات وتر وحيد، وقد وضعها على ركبته في أثناء العزف، وقد أحدثت حركة المرور أزيزاً في أنحاء المكان. وإذا نظرت ناحية الشمال ستجد سدّاً فوق قناة مائية كانت يوماً أحد الخنادق التي ترسم الحد الشمالي لدولة كوبلاي الجديدة. سرت بموازاة هذه القناة حتى وصلت إلى متنزه «يوان دادو بارك» (Yuan Dadu Park)، التي تحمل اسم أسرة كوبلاي والسلالة المغولية في بكين، حيث شاهدت القوارب الصغيرة المزركشة وقد رست في انتظار المتنزهين. وقد طرأت عمليات رصف حديثة على أسوار المدينة السابقة غيرت معالمها، ولم يتبق منها اليوم سوى مجموعة من الأشجار النحيلة والممرات الضيقة.

وهناك نصب تذكاري يعرض نحتاً غائراً لجنكيز وحوله ورثته وأوركسترا محمولة على السحاب. هذا النصب ليس عملاً تاريخياً وإنما قطعة فنية، وقد صُنع عام 1987. وهذا لا يعني عدم بقاء شيء من القرن الثالث عشر، فهناك سلحفاتان حجريتان تحملان أعمدة مستطيلة الشكل. وقد أحب الصينيون رموز القوة، ولم يختلف المغول معهما في ذلك.

وخلفهما تقع أراضي القصر التابعة لكوبلاي التي امتلأت بالمباني، وإن أردت الاستمتاع بنكهة مدينة بكين التي أسسها كوبلاي، تجنب الشوارع وابحث عن شيء ما يحرر خيالك.

وفي عام 1274 أصبح القصر المجاور لـ «بيهاي» على وشك الاكتمال بما يجعله مناسباً لكوبلاي ليعقد فيه لقاءه الأول في القاعة الرئيسة (رغم أن العمل في الأسوار والقصور تواصل على مدار فترة حكم كوبلاي). وصار لديه في ذلك الوقت مسرح يشهد تمثيل دراما سلطته.

ولعل أحد أسرار القوة يكمن في استعراضها، وقد صار العالم الحديث قليل الاهتمام بمسألة استعراض القوة. وتشعر الحكومات الديمقراطية بنوع من الحرج تجاه هذه المسألة، فالملكية نجدها مغرقة في التقاليد التراثية الجميلة لكنها خالية من محتوى القوة. غير أن الأنظمة المستبدة - وأحياناً الشخصيات القيادية التاريخية سواء من الذكور أو الإناث - عرفت دوماً ذلك السر وعملت على استعراضه. فمن فارس القديمة إلى ألمانيا النازية، كان إظهار الهيمنة السياسية يكون عبر الرموز والطقوس والاحتفالات التي عكست المثل العليا، التي رمز بها الحكام إلى أنفسهم وأكدوا هويتهم من خلالها. ولدى مختلف المجتمعات وسائلها الخاصة في استعراض القوة، فقد أصبح الأباطرة الرومان آلهة في جنائزهم، وأكد ملوك نيبال أنهم تجسيد الإله فيشنو من خلال ممارسة السخاء والكرم، وفي بالي الإندونيسية أظهر الملك قوته من خلال التمثيل في المهرجانات، في حين حوّل هتلر نفسه إلى بطل ملحمي من خلال الأسلوب المسرحي الذي مثله أمام الحشود في مدينة نورمبرغ. يقول المؤرخ «ديفيد كانادين»: إن الملوك استفادوا في حكمهم بالطقوس الدينية بالدرجة نفسها التي استفادوا بها من ادعاء الإلوهية. وفي جوهر الشعائر والطقوس المختلفة ظهرت تشابهات جوهرية كثيرة أثارت خلافات كبيرة بين علماء الأنثروبولوجيا والمؤرخين.

وتؤكد هذه الطقوس والاحتفالات عدة أمور :

- استقرار الدولة.
- سلطة الدولة على الفرد.
- أهمية هيكل القوة: التسلسل الهرمي للحاكم والأسرة والبلاط والشعب.

• شرعية الحاكم: صفات الحاكم التي تفوق بقية البشر، وربط خصال الحاكم بصفات الآلهة.

وتعتبر مسرحيات الصيد الشعائري إحدى الأعمال الفنية المنتشرة في عدد من المجتمعات، إذ كان الصيد الشعائري واحداً من أهم الفعاليات في إمبراطورية شارلمان الفرنكشية، بعد تتويجه إمبراطوراً عام 800. وهي نتيجة طبيعية لاجتماعات كانت تحل الأزمات السياسية الكبرى، فقد «كان الصيد عبارة عن ممارسة لفضائل التعاون وعرض تجسيدي لها»[1]. وكانت المأدبة التي تعقب رحلة الصيد تؤكد مزايا العمل الجماعي والتعاون العسكري والسياسي.

وكان لدى كوبلاي ما يكفي من الذكاء لمعرفة فوائد الطقوس، لكنه افتقر إلى الخبرة بالطريقة الصينية لأدائها، فشكل فرقاً من المستشارين لإرشاده، وكانت هناك ذخيرة هائلة من السجلات المكتوبة التي شرحت باستفاضة كيفية أداء الطقوس الإمبراطورية، سجلت خلال عهد سلالة تانغ (التي حكمت بين عامي 618 و906)، عندما كانت الصين موحدة وغنية ومستقرة[2]. ويعتقد علماء تانغ أن هذه الطقوس ظهرت في العصور القديمة قبل الميلاد بألفي عام تقريباً، ثم عُدلت بإدخال ممارسات كونفوشية في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد. وكان هناك 150 طقساً مثّلت الجوهر الرمزي للحكومة، جمعت بين علم الكونيات والأخلاق والكونفوشية ومزيج من العقيدة البوذية والطاوية. وكانت هناك قواعد لتقديم القرابين لآلهة السماء والأرض وللاتجاهات الخمسة وللمحصول والشمس والقمر والنجوم والقمم المقدسة والبحار والأنهار العظيمة، وللأسلاف وكذلك لكونفوشيوس. وكانت هناك شعائر للطقوس المتكررة وغير المتكررة تُستخدم على «جبل تاي» المقدس حيث يلتقي عالم الإنسان بعالم الروح، وكذا طقوس السيادة لمن يتولون منصباً سيادياً، وطقوس استقبال المبعوثين واستضافتهم، وإعلان النصر، وزواج كبار الشخصيات، وتقديم التهاني الملكية، وتقلد المناصب، واحتفالات بلوغ الحُلُم لدى الأبناء (لجميع شرائح الناس

(1) «جانيت نيلسون»، «تتويج من قبل الرب واختيار من قبل الشعب: الطقوس الملكية الكارولنجية»، في «ديفيد كانادين» و«سايمون برايس»، المحررين، «طقوس الملكية».

(2) «ديفيد مكمولين»، «البيروقراطيون والكوزمولوجيا: طقوس أسرة تانغ»، في «ديفيد كانادين» و«سايمون برايس»، المحررين، «طقوس الملكية».

حتى أبناء المسؤولين في الدرجة الوظيفية السادسة)، وإرسال المذكرات من قبل مسؤولي المقاطعات، وتحضير إجراءات ما بعد مواسم الحصاد المجدبة، وللأمراض والأحزان... وهناك أشكال مختلفة من هذه الطقوس. وكانت طبيعة هذه الطقوس تتغير إن مارسها الإمبراطور عنها إن قام بها أحد نوابه، وكذا حسب مرتبة المسؤول، بدءاً من الإمبراطور وحتى موظفي الدرجة التاسعة. وأمابالنسبة لطقوس التبشير بالخير، فكانت تتطلب التقشف على مستويين: أحدهما تقشف طويل وآخر مكثف، تتنوع بين سبعة وخمسة وثلاثة أيام، حسب مستوى الطقوس، سواء كانت كبيرة أو متوسطة أو صغيرة. وهناك قواعد تحدد الخيام والآلات الموسيقية وأماكن وقوف المشاركين ونصوص الصلوات. وكانت هناك تعليمات عن كيفية تقديم القرويين للحوم المطبوخة واليشم والحرير لآلهة التربة والغلال. وكانت لهذه الطقوس بيروقراطية خاصة معقدة، فقد تعاقبت أربع إدارات على تقديم القرابين والمآدب الإمبراطورية والاحتفالات الخاصة بالأجانب، بالإضافة إلى مجلس الشعائر التابع لإدارة شؤون الدولة. وعمل بهذه الإدارات مئات المتخصصين في إقامة الطقوس، وكان على جميع موظفي الحكومة البالغ عددهم 17 ألف مسؤول في جميع الإدارات الأخرى - اكتساب معرفة وثيقة بمجموعة من الطقوس تخص مجالات عملهم.

وكانت جميع هذه العملية الهائلة والمكلفة للغاية والمرهقة تشكل دوراً بالغ الأهمية في طريقة عمل الدولة، نظراً لأنها كانت توفر إطاراً للقيام بأعمال البشر وربطها بالكون. وكان من شأن ذلك الحفاظ على التسلسل الهرمي الاجتماعي، وضبط شهوات الإنسان التي لا يمكن السيطرة عليها. وكانت تظهر أهميتها في القضايا التي لم يتشعب إليها القانون الجنائي؛ لأنها لم تكن تُكره الناس أو تعاقبهم. وكانت تؤكد الخير في النظام الكوني، ودور الإمبراطور في التوسط بين الأرض والسماء. وفضلاً عن ذلك كانت، كما ينبغي لها، بمثابة الجيروسكوب[1] الاجتماعي الواسع الذي عمل على بقاء المجتمع في حالة من الاستقرار (وكان ذلك أحد الأسباب التي جعلت من الأسر الحاكمة تمارسها في كثير من الأحيان حتى أثناء الاحتضار إلى أن تأتي النهاية التي كان يبدو أنها تأتي فجأة). وقد حذت الأسر الحاكمة

---

(1) جهاز لحفظ التوازن أو حفظ الاتجاه يستخدم لقياس الاتجاه أو المحافظة عليه، ويقوم على مبادئ المحافظة على الزخم الزاوي، من تطبيقاته حفظ توازن «الطائرات - مركبات الفضاء - السفن.....»، وغيرها من التطبيقات العلمية.

اللاحقة حذو تانغ، وعملت على إقامة قواعد الطقوس الخاصة بها، وما دام كوبلاي يريد أن ينظر إليه بوصفه حاكماً صينياً، فقد صار لزاماً عليه إقامة قواعد للطقوس الخاصة به.

لذلك أظهر كوبلاي جميع ممتلكاته، وهي ثروة فاقت أي ملك آخر في عصره. فإذا كنت تحكم ثلث قارة آسيا مع تولي الأسرة الحاكمة بقيتها، وإذا كان مطلبك الأصلي الخاص بالسلطة يعاني من بعض الهشاشة، وإن كنت تتقدم في العمر وتعاني زيادة الوزن وانقطاع النفس والنقرس، فمن الطبيعي أن تتمنى تقديم أكبر عرض ممكن. وفي السنوات التي تلت 1274 كان لدى كوبلاي ثروة أكبر من أي ملك آخر في التاريخ، وعلم كوبلاي كيف يستعرض قوته ويعززها، لكنه لم يتظاهر بأنه صيني، ولم يقلد أسلاف سلالة تانغ الصينية في الاحتفالات والطقوس. بل كان هدفه ولم يزل هو تحقيق التوازن بين المغول والصينيين، فاتبع أساليب ووسائل مجربة لزرع الخوف من خلال الطقوس والاستعراض، مما رفعه من مكانة الرجل إلى مكانة الملك ثم إلى نصف إله.

وكانت قاعدة سلطته في البلاط الذي كان ينشر نفوذه من خلاله عبر الصين وخارجها، والذي كان يتألف من 12 ألف فرد من الأسرة والمسؤولين والضباط؛ وكان لكل فرد من هذا الحشد ما لا يقل عن 3 مجموعات مختلفة من الثياب، كانت أقل فخامة من ثياب كوبلاي الخاصة، تُرتدى طبقاً لكل مناسبة من المناسبات الرئيسة الثلاثة في الدولة وهي: عيد ميلاد الخان في نهاية سبتمبر، ويوم رأس السنة الجديدة، والصيد السنوي في فصل الربيع[1].

فكان يوم رأس السنة الجديدة مثلاً بمثابة مهرجان لتأكيد مؤهلات الإمبراطور الصينية والمغولية معاً، وهو أحد أكبر المهرجانات الصينية. وكانت له أهمية مزدوجة في زمان كوبلاي، لأن لقبه الخاص بالأسرة الحاكمة وهو «اليوان» معناه «الأول»، وخاصة الشهر الأول من التقويم القمري. (واليوم التقويمان القمري والميلادي يسيران بالتوازي معاً). وكان رأس السنة أيضاً أحد أهم المهرجانات المغولية، ففي اليوم الأول من الشهر الأول (يوم «الشهر الأبيض») يستيقظ الناس في وقت مبكر ليرتدوا أفضل ما لديهم من ثياب ويخرجوا من خيامهم، فينحنوا تجاه الشرق ثم تجاه النقاط الرئيسة الأخرى. ويرشوا اللبن أو

(1) لقد ازداد عدد هذه المناسبات في المصادر بمرور الوقت، وغالباً ما كان يصل إلى 4 مناسبات، وأحياناً 12 أو 13 مناسبة (وكان العدد 3 هو الشائع في إصدارات «بولو»).

الفودكا تحت السماء «السماء الزرقاء»، ويُلقوا بعضها في الهواء الطلق، ثم يعودون لتمجيد الصور البوذية، أو صور أفراد عائلاتهم الذين فارقوا الحياة (وهذه الممارسة موجودة اليوم في منغوليا). ثم يقذف رب الأسرة بعض حليب الفرس المتخمّر في الهواء صوب السماء الزرقاء، ويقدم الأبناء أوشحة الحرير هدية إلى الوالدين. ويقومون ببعض الانحناءات والترتيلات والصلوات، ثم يشربوا الشاي ويتزاورون ويقص بعضهم على بعض التقاليد القديمة، وتكون مناسبة مهمة لتوطيد العلاقات الاجتماعية.

مزج الحفل المقام في بلاط كوبلاي بين الطقوس البسيطة القديمة والاحتفالات الصينية، بهدف خلق احتفالية تدل على جدارة كوبلاي بمكانته، والتأكيد على قوة شخصيته وسلطة الدولة. ذكر ماركو بولو ذلك في كتاباته، فقد اجتمع نحو 40 ألف رجل، رغم أن كوبلاي كان دائماً يرتاب من الحشود الكبيرة. اصطفت هذه الجموع في ملابس بيضاء خلف أفراد الأسرة الحاكمة كما هي العادة، وتدفقوا من القاعة الكبرى إلى المناطق المحيطة. وصاح أحد كبار المسؤولين- كبير الكهنة البوذيين أو كبير الحجاب حسبما ذكر بولو: «لينحني الجميع توقيراً وإجلالاً!» فسجد الحشد أجمعين سجدة لا تلمس الجباه فيها الأرض أربع مرات. ثم انطلقت ترانيم الصلوات على لسان أحد الوزراء: «السماء العظيمة تتمدد على رأس كل الوجود! والأرض تحت توجيهات السماء! ندعوك ونرجوك أيتها السماء أن تتغمدي الإمبراطور والإمبراطورة بالرحمة والبركات! أطيلي أعمارهم إلى عشرة آلاف سنة أو مئة ألف!» ثم يذهب كل وزير إلى المذبح ويؤرجح المبخرة على لوح نُقش عليه اسم كوبلاي. ويخرج المسؤولون من كل صوب حاملين هدايا الذهب والفضة والمجوهرات، وكان كثير منها يأتي وعدده 81، فهذا الرقم ميمون عندهم وهو ناتج ضرب الرقم 9 في 9، ويتم عرضها في خزائن الكنوز المحملة على وحدات من الأفيال والإبل المزينة زينة فاخرة.

ثم حل وقت المأدبة فجلس كوبلاي إلى طاولة مرتفعة على منصة عالية، ويليه في المجلس الأمراء وزوجاتهم، وعلى الجانب، استقر بوفيه (مطعم) ضخم تزين بنقوش للحيوانات، وتوسط الطاولة وعاء خمر ذهبي في حجم البرميل عليه أربعة أوعية يأخذ منها الخدم النبيذ ويضعونه في أباريق ذهبية. وتستقر في القاعة موائد أصغر لكل منها مرتبة خاصة يربو عددها على المئات، ويحيط بها السجاد الذي يجلس عليه الحراس وضباطهم. وعلى

أحد جانبي المنصة تقف الأوركسترا التي يولي قائدها وجهه شطر الإمبراطور طوال الوقت.

ويذكر «بولو» عنصراً غريباً في هذا المشهد، يُعَد أحد التفاصيل المهمة التي تشير إلى جذور كوبلاي البدوية وأي مسافر في دولة منغوليا في الوقت الحاضر سيفهم ما الذي نعنيه هنا. فعندما تدخل أحد المساكن يجب أن تحرص على المرور فوق العتبة دون أن تلمسها، ولا يعلم أحد أصل هذه الخرافة التي تتمتع بقوة الحضور والتأثير؛ فإذا وطئت العتبة دون قصد فهو فأل سيء، أما إذا وطئتها متعمداً فذلك بمثابة إهانة متعمدة. والآن فإنه من المستبعد أن القاعة الكبرى الخاصة بكوبلاي بها عتبات بالفعل ليطأها المارة، ومع ذلك فأمام كل باب يقف حارسان ضخمان يحملان هراوتين لمراقبة أي تجاوزات. ولنعد بالحديث إلى منغوليا، فقد يتم قتل أحد العبيد إذا حدث أن وطأ بقدمه على عتبة أمير، ولا يمكن أن يحدث شيء بهذه الوحشية في المأدبة الرسمية التي يقيمها كوبلاي، لكن الأمر ما زال لا يحتمل المزاح. فلدى الحراس أوامر بمعاقبة من ينتهكون هذه القاعدة، وذلك من خلال تجريدهم من حليهم أو توجيه بعض الضربات الخفيفة إليهم بإحدى الهراوات. ولتجنب ذلك الأمر فيجب أن تكون أحد الأجانب الجاهلين بهذه القاعدة، وفي هذه الحالة سيهرع إليك أحد كبار المسؤولين ليشرح لك آداب البلاط، وما إن يجلس الجميع، حتى تبدأ المأدبة، ويعتني الخدم بالموجودين حول الموائد. ويلجأ الخان مرة أخرى لطقوس تؤكد مكانته، حيث «توضع كمامات من الحرير والذهب على أفواه الخدم وأنوفهم حتى لا تلوث أنفاسهم أو أي رائحة تنبعث منهم الطبق أو القدح المقدم للإله».

ويتكرم الإله بقبول القدح من الخادم، وتعلن عندئذ الأوركسترا أهمية هذه اللحظة، ويركع حملة الأكواب والطعام. ويبدأ الإله الشرب، وعندما يبدأ الإمبراطور تناول الطعام يحدث الأمر نفسه. وتجري هذه الطقوس طوال المأدبة وحتى نهايتها، وذلك عند إزالة الأطباق، وعندها يحين الوقت للتسلية حيث يقدم الممثلون والسحرة والبهلوانات والمشعوذون عروضهم.

وكانت بكين الجديدة التي صنعها كوبلاي بمثابة مركز للصيد الذي تم على نطاق واسع وبكميات تجارية، فتحت إشراف 14 ألف صياد، جُهزت منطقة الريف في دائرة قطرها 500 كم رحلة مقدارها 40 يوماً، وفقاً لما ذكره «بولو» حول المدينة، وتخصص لأعمال

الإمدادات الخاصة بالبلاط. وكانت جميع الطرائد الكبيرة حكراً على الإمبراطور: الخنازير البرية والغزلان والدببة والأيائل والحمير البرية (والتي لا تزال موجودة في أقصى غرب منغوليا حالياً) والقطط البرية من مختلف السلالات. وقد حظي كوبلاي بحديقة حيوانات من القطط والفهود والنمور المدربة على صيد الفرائس الكبيرة وقتلها. ومنذ زمن طويا احتُفظ بالفهود باعتبارها حيوانات صيد لدى الملوك في أنحاء آسيا. إلا أن استخدام النمور– وخاصة نمور سيبيريا – كان أمراً جديداً، فقد نعتها «بولو» الذي لم يعرف شيئاً عن النمور من قبل، بأنها أسود «بجلود ملونة فائقة الجمال تزين جوانبها خطوط سوداء وحمراء وبيضاء». واستُخدمت الصقور التي درّبها الكازاخستانيون على صيد الأرانب والثعالب والغزلان والماعز البري والخنازير البرية، حتى الذئاب هاجمتها الصقور بمخالبها ومناقيرها، وكانت الصقور تضرب الفريسة بجناحيها لتخديرها (لا يزال الصيد بالصقور شائعاً في كازاخستان وغرب منغوليا)، وتزدهر عمليات الصيد هذه في فصل الربيع.

ويقول ماركو بولو عن ذلك: «في أول مارس مع أفول الشتاء واقتراب الربيع، يستعد البلاط لموسم الصيد السنوي في فصل الربيع، ومع ما يصاحب موسم الصيد من ترف شديد يصير من السهل نسيان هدف الصيد الأساسي الذي ينبع من الجذور المغولية المخبأة تحت الثروات الصينية، والمتمثل في التصور القديم للعشائر المتباينة المتحدة تحت إمرة قائد واحد. وفي هذه الطقوس كان كوبلاي، حفيد الرجل الذي ادعى أنه سيظل بدوياً بسيطاً من داخله، يلعب دور البدوي نفسه. فكانت القصور وجزء كبير من بكين تُخلى وتُنقل في مئات العربات وآلاف الخيول. وبالنسبة لكوبلاي نفسه كان يُخصص له أربعة أفيال معاً تحمل هودجاً هائلاً عبارة عن غرفة مصنوعة من الخشب ومبطنة من الداخل بصفائح من الذهب ومغطاة من الخارج بجلود الأسود. وفي جوار كوبلاي يركب أكثر من عشرة من كبار مساعديه لتولي خدمته. ويصطحب الموكب 2.000 من مدربي كلاب الصيد و10 آلاف مدرب صقور، كل معه صقره الخاص، حسب ماركو. ولا ينبغي لنا أن نعتمد على دقة هذا الرقم، فهناك أيضاً 10 آلاف خيمة، وهو عدد مهول. ولكي لا يحدث انسداد في المداخل والطرق، كانت هذه الحشود تغادر المدينة في مجموعات يتكون كل منها من مئة شخص.

ويحكي بولو أن الصيادين كانوا يتجهون ناحية الجنوب، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فإن

الحشد الكبير سيلتف في اتجاه الشرق عبر السهول والأنهار التي تفصل بكين عن البحر.

«كان الإمبراطور يسير في موكب فخم راكباً الفيلة، يقطع 30 كيلومتراً يومياً حتى يصل في المساء إلى موقع للتخييم، مما جعل موكب الإمبراطور مدينة من الخيام. وعلى طول الطريق انتشرت أنواع عدة من الطيور، وأثناء سير الموكب وانهماك الإمبراطور في الحديث مع البارونات من غرفته، قد يصيح أحدهم: «مولاي! انظر طيور الكركي!» فيأمر الإمبراطور برفع الجزء العلوي من غرفته ليرى الطيور، ويأمر بإطلاق أحد الصقور. وعادة ما شاهد الإمبراطور انقضاض الصقر على فريسته بعينيه... لا أعتقد أنه كان أو سيكون لرجل في العالم أن يستمتع بهذه الرياضة كما فعل كوبلاي. وفي بعض رحلات الصيد التي شاركت فيها الكلاب الضخمة المدربة على يد المدربين المعروفين باسم «مدربي الذئاب» (استخدم بولو الاسم المغولي الصحيح). وأثناء ممارسة الإمبراطور للصيد في السهول، تشاهد كلاب الصيد تمزق فرائسها وتلاحق مجموعة منها الدببة هنا، وتطارد غيرها الظبية وحيوانات أخرى هناك».

ويواصل الموكب سيره قاصداً الرقعة التي يمتد فيها الآن «السور العظيم» من الهضاب إلى المحيط الهادئ، ولم يكن هناك سور حينها؛ فلم يكن ثمة خطر من البدو والأرض جميعها مِلك لكوبلاي. ثم يتقدم موكب الصيد عبر الشريط الضيق بين التلال والبحر حيث تقع الأراضي العشبية في منشوريا. وبعد أسبوع من الرحلة يصل كوبلاي إلى المخيم الذي سيمثل مقر البلاط لثلاثة أشهر مقبلة. وكانت هذه البقعة هي المكان التقليدي الذي أُختير لثرائه بالمساحات الشاسعة ووفرة الطرائد، فانتشر الصقارون المتأهبون بصافراتهم وطيورهم مغطاة الرؤوس الرابضة على معاصمهم عبر الأراضي المنحدرة عدة كيلومترات في كل الاتجاهات. وتُعدّ خيام الإمبراطور الثلاثة: خيمة ضخمة تستوعب بلاطاً مكوناً من ألف شخص، وثانية للنوم، وثالثة صغيرة للقاءات. ولم يقل ماركو بولو الكثير عن أشكال هذه الخيام، إلا أن كل خيمة كانت مكونة من ثلاثة أعمدة، وربما كانت هذه الخيام دائماً ما تذكّر كوبلاي بأصوله العائدة إلى تلك الأراضي العشبية.

لكن ما أثار إعجاب بولو هو مستوى ترف تلك القصور المتنقلةإذ جُهّزت الخيام لمقاومة الطقس، وهي مغطاة بجلود النمور - ولم تكن النمور السيبيرية في هذه المرحلة

مهددة بالانقراض – ومبطنة بفراء القاقم والسمور، أثمن أنواع الفراء في سيبيريا. تخيل خيمة تستوعب ألف شخص محيطها 125 متراً تقريباً، كيف ستبدو؟ وكانت تغطية حوائط الخيمة الواحدة تتطلب 16 ألف قطعة جلد، كلفة القطعة الواحدة بين 50–100 دولار، أي إن التكلفة الإجمالية تساوي حوالي مليون دولار بمقاييس اليوم. هذا لمجرد تبطين الخيمة الرئيسة، ودون احتساب ثمن جلود النمور المقاومة للمياه. ثم تُنصب خيام العائلة الملكية في المكان: خيام «شابي» زوجة كوبلاي الأساسية، وزوجاته الثلاث الأخريات، والأمراء، والفتيات من قبيلة أونغراد (Ongirad) (القبيلة المغولية التي كانت تزود عائلة جنكيز بالسراري) والذين أُحضروا للحريم، وكذا تنصب خيام كبار الوزراء والخدم والصقارين والسائسين والطهاة ومدربي الكلاب والطاقم الداخلي والأمناء، وجميعهم مع أسرهم. وطبعاً هناك وحدات من الجنود لحماية قاطني تلك الخيام. بدت الأجواء أشبه بمدينة من الخيام، سكانها أكثر من آلاف يعتمدون على الصيد. فكل يوم تقوم الصقور بإحضار طيور الكركي والبجع والبط والأوز والأرانب والغزلان، التي تتتبعها الكلاب وتأتي بها. وكانت الأرانب البرية والظباء والوعل واليحمور هي طرائد خاصة للصيد الملكي، حُظر على العامة صيدها لضمان توافرها أثناء حملات الصيد الإمبراطورية على سهول شمال شرق الصين.

وفي هذه الأثناء تستمر أعمال البلاط، فتُعقد الاجتماعات واللقاءات ويبعث الرسل ويُستقبل السفراء من الخارج. ووسط هذه الحشود يجلس الإمبراطور الذي يعاني من زيادة الوزن والنقرس، لكنه لا يزال حريصاً على التواصل مع جذوره من خلال الركوب عبر السهول. وقد رسم له فنان القصر «ليو جوان داو» بورتريه يظهره وهو جالس بثقل على صهوة حصانه وهو ملفوف بمعطف من فرو القاقم، وزوجته «شابي» إلى جانبه، وكان بصحبته اثنان من الخدم. إنه مشهد من العفوية المصطنعة، مثل لقطة لـ «كارتييه بريسون»، حيث كان انتباه الأربعة منصباً على شيء ما خارج نطاق الكاميرا، وربما مع صيحة شخص ما يقول: «يا صاحب الجلالة! طيور الكركي! بالأعلى هنا!» ولكن ليس ثمة صقر ملكي على معصم الإمبراطور،في حين يقف كلب الصيد في انتظار الأوامر.

وتستمر الحال هكذا مدة شهرين ونصف حتى انتصف شهر مايو، عندئذ يعود هذا الموكب الهائل أدراجه، ويرجع الإمبراطور والحاشية المرافقة له إلى العاصمة مع مطلع

الصيف، وتبدأ حينها الاستعدادات لتغيير الاتجاه صوب زانادو في الشمال.

الفصل السابع

اعتناق البوذية والتبت

أصبح إقليم التبت جزءاً من الصين، وهو أمر مؤسف للداعين إلى غير ذلك. وقد تعرض التبت للتهديد والهيمنة والغزو والاستعمار والاحتلال، وعاش فترة نمو في غياب كل احتمالات استعادة استقلاله، فالصين تقول إن التبت كانت جزءاً منها منذ قديم الزمن.

لكن حل المسألة التبتية يتوقف على الفترة الزمنية التي تشير إليها الصين، فلو نظرنا إلى حال التبت قبل 750 عاماً - الفترة التي ظهر فيها كوبلاي - نجد جذوراً للتدخل الصيني في شئون التبت، لكن هناك جذوراً أعمق يمكن العودة إليها، وبالتحديد قبل خمسمئة عام من عهد كوبلاي. وهذه الحقبة القديمة جديرة بالدراسة والبحث، لأنها تلقي الضوء على دور كوبلاي في تاريخ التبت، ومن ثم تساعدنا في فهم وجود القوات والمستعمرين الصينيين في التبت حالياً.

سوف نذكر أولاً بعض الخلفيات التاريخية لإثبات أن إقليم التبت تمتع باستقلال تام في فترة ما، فكان الإقليم في القرن السابع عشر إمبراطورية ممتدة من المرتفعات الداخلية وصحاري الشمال الغربي التي امتدت بين حدود أوزبكستان ووسط الصين وبين وسط شيانغ يانغ وخليج البنغال، وهي مساحة طولها 2.250 كيلومتراً من الشرق إلى الغرب و1.750 كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب - أي أكبر من مساحة منطقة قلب الصين.

استولى جيش التبت في عام 763 على العاصمة الصينية تشانغان (اسمها زيان حالياً) مدة قصيرة، وقد ثارت القلاقل في الفترة نفسها تقريباً عندما أصبحت البوذية الديانة الرسمية للدولة، فقد أحرزت البوذية تقدماً ضد عقيدة «بون» التبتية الشامانية التي كانت تمثل العقيدة الأصلية للتبتيين. وتصاعدت التوترات عندما أصبح أحد ملوك القرن التاسع عشر تابعاً متعصباً للبوذية، وشكل الرهبان البوذيون الذين استمدوا ثروتهم وسلطانهم من أديرتهم الحديثة التأسيس، تحدّياً للحكام التقليديين، وثار نبلاء عقيدة البون، وقتلوا الملك في عام 838 بكسر عنقه، ونصّبوا أخاه الأصغر الذي تعرض للاغتيال بعد خمس سنوات، وتعرض البوذيون للاضطهاد ودُمرت أديرتهم، وانهارت الإمبراطورية لتتحول إلى خليط متناحر من الملوك الصغار وأمراء الإقطاع. وعلى المستوى السياسي وقعت التبت في فجوة تاريخية لا قاع لها، حيث لم يتوافر سوى القليل من السجلات في ظل غياب الحكم المركزي في الإقليم. وبسبب الدمار الذي شهدته الأديرة ووسط هذا الحطام، عادت البوذية للظهور من

خلال عدة طوائف أهمها تيار ماهايانا[1] الذي اشتهر بالدعوة إلى الإيمان الروحي بمظاهر بوذا المتعددة والكينونات المتعالية.

واعتنقت كل الطوائف البوذية مذهب التانترية[2] (Tantrism) بما فيها من تعاويذ وتمتمات ورسوم غامضة، حيث اعتبروها أسمى الممارسة الدينية، وبدأ الجميع في ممارسة أنماط تتميز بها التبت دون سواها عن طريق نقل التراتيل والشعائر والآلهة الخاصة بعقيدة بون[3] (Bon) التبتية. ونمت بذرة هذه العودة في الشرق من خلال عمل ثلاثة من علماء البوذية عُرفوا فيما بعد بـ «الرجال الثلاثة» الذين هربوا من ممارسات الاضطهاد، وفروا بكتبهم إلى «أمدو»[4] وهناك عاش الثلاثة في كهف مكرسين حياتهم لإعادة تأسيس الحياة الرهبانية.

ومنذ عام 950 تقريباً قاد راهب من أمدو اسمه كلوميس[5] النهضة البوذية عندما نقل الديانة غرباً إلى قلب الأراضي التبتية. فتم ترميم الأديرة القديمة وبناء أديرة جديدة فيما يعرف بـ «التقدمة الثانية للديانة البوذية». وفي أقصى الغرب حدثت عودة مشابهة للبوذية، حيث فرّ أحد أفراد العائلة الملكية إلى الغرب بعد سقوط الإمبراطورية، وأسس هو ونسله ثلاث ممالك صغيرة في أعالي نهر سولتيج قرب حدود الهند حالياً، وأصبحت إحدى هذه الممالك - وتحديداً مملكة غوغي - الحاضنة الأهم والمركز الأبرز لعودة البوذية إلى الحياة في غرب جبال الهيمالايا التي كان التبتيون يسكنونها حينذاك، وأصبح «الراهب الملك» (اسمه باللغة المحلية «يي - شيس - أود» أو «ييشي») ملكاً على مملكة غوغي.

وقام «الملك الراهب» بالترتيبات اللازمة لإرسال 21 من شباب التبت للدراسة في الهند، حيث لقي تسعة عشر منهم مصرعهم، وعاد أحد الناجيين بعد سبعة عشر عاماً وباشر عمله إلى أن أصبح أشهر عالم تبتي في العصور الوسطى، وهو المترجم العظيم «رينتشين زانجابو» الذي عاش بين عامي 958 و1055، وأسس مجمع الرهبان في «ثولينج»، ذلك

---

(1) الماهايانا هو واحد من فرعي الديانة البوذية وقد نشأ في الهند (المترجم).

(2) التانترية (Tantrism) هي أحد مذاهب البوذية يدمج المبادئ البوذية مع الشعائر الهندوسية (المترجم).

(3) ديانة بون هي أقدم الديانات التبتية على الإطلاق.

(4) التي هي حالياً محافظة» تشينغهاي» «الصينية على منابع النهر الأصفر.

(5) أو «كلو - ميس» وهي أحد الأشكال التي يمكن أن يكتب بها اسمه.

المجمع الذي ظل مستخدماً حتى دُمِّر جزء منه خلال الثورة الثقافية في عام 1967.

وقد شهد القرنان العاشر والحادي عشر برامج مكثفة لبناء وترميم الأديرة وترجمة النصوص السنسكريتية، منها النص الذي وُضع على أساسه التقويم الستيني[1] لإقليم التبت بدورته التي تتكون من 12 حيواناً وخمسة عناصر تقويمية. وكان أعظم الخبراء العارفين بهذا النظام هو أستاذ هندي اسمه «أتيشا». وقد وجه «الراهب الملك (يي- شيس- أود) الدعوة إلى أتيشا الذي وصل إلى مملكة غوغي سنة 1042، وكان في الستين من عمره، لأنه مثّل القاعدة التي تأسس عليها التقويم الشمسي للتبت.

مكث أتيشا في دير ثولينج (Tholing) ثلاثة أعوام، ثم واصل الانتقال داخل حدود التبت حتى أدركه الموت عام 1054. وفي هذه الأثناء وضع أتيشا الأسس لعملية إحياء كاملة الأركان للبوذية، أسس ترسخت في عام 1076 بإنشاء المجلس العظيم في غوغي ليربط بين البوذيين في الشرق ونظرائهم بالغرب. وتسارعت ترجمة الأدبيات البوذية إلى اللغة التبتية، وهو دليل على تواصل العمل الدؤوب لإحياء ديانة كانت على وشك الاندثار في الهند تحت زحف الإسلام. أما جهود أتيشا والترجمات وعودة نظام الرهبنة فقد كفلوا جميعاً للتبت أن تصبح الوريث الأكبر لبوذية الهند، غير أن هذا الميراث لم يمنح التبت الوحدة السياسية على الإطلاق. فقد تواصل الصراع بين عقيدة بون والديانة البوذية حتى القرن السابع عشر، عندما قتل أفراد من طائفة غيلوغبا آخر المطالبين السياسيين بالعرش، مما فتح الطريق أمام ظهور الملوك الروحانيين والمؤقتين الذين عرفوا بلقب «الدالاي لاما».

كل هذا يبين أن الصين تاريخيّاً - وحتى أوائل القرن الثالث عشر - لم يكن لها أية مطالب بحكم التبت، بل العكس صحيح، فإن التبت حكمت نصف أراضي الصين الحالية، لكنها كانت تتطلع باتجاه الغرب وتحديداً إلى الهند بسبب تأثيرها الأهم المتمثل في البوذية، إذاً ما أساس مطالبة الصين بضم التبت إليها؟ وما مبرر ما حدث في خمسينيات القرن التاسع عشر، والتحرير على يد جيش «ماو» عندما سحق 30 ألف جنديّ شيوعي مدرب أربعة آلاف

(1) نظام تقويم قمري معمول به في إقليم التبت، طول الدورة الواحدة 60 سنة، أدخله إلى التبت عالم بوذي هندي وبدأت أول دورة في سنة 1027 (المترجم).

مواطن تبتي؟ وما مبرر الاحتلال العسكري وسحق انتفاضة عام 1959 وهروب الدالاي لاما وموت مئات الآلاف من التبتيين؟ البعض يقول إن عدد القتلى تجاوز «المليون» وقد قُصف أكثر المعاهد الدينية التبتية قداسة ونهب ما زاد عن ستة آلاف دير وتدمير الدولة عن بكرة أبيها.

وكان المبرر بطبيعة الحال أن التبت أصبحت صينية عندما وقعت في أيدي المغول، لكن كيف أُستولي على التبت؟ الإجابة أنه لم يحدث بالطريقة التي ادعتها معظم الكتب. فتقول الروايات الشائعة: إن «تتويج جنكيز كان كافياً لتشجيع التبت على عرض الإذعان الطوعي». والمسألة ليست كذلك طبقاً للباحث «لوتشيانو بيتيك» في أحدث تحليل موثوق[1] لهذه المسألة، فقد وصف هذا التفسير المقترح بأنه «تركيبة متكاملة من السخافات»، وقال ليس هناك دليل على أن سوركاكتاني قدمت طلباً بذلك في عام 1215، وهو العام المفترض أنها ولدت فيه كوبلاي في مدينة تشانغيه الصينية.

وأول صلة يمكن تأكيدها حدثت في عام 1239 على يد ابن «أوقطاي الثاني» كوتين ابن عم كوبلاي، الذي مُنح إقطاعية في الأراضي الحدودية للتبت[2] بعد قيامه بحملة في إقليم سيتشوان. وبعدها بعام قام كوتين باجتياح وجيز للتبت دمّر خلاله أحد الأديرة. وأجّلت وفاة أوقطاي إمكانية حدوث تقدم في هذه الحملة، حتى جاء عام 1244، وأرسل كوتين دعوة عاجلة إلى رئيس دير ساسكايا التبتي - وكان عمره 62 عاماً - وكان يعيش على الجانب الآخر من منطقة لاسا التي لا تبعد كثيراً عن حدود نيبال الحالية.

كلمات رسالة كوتين أوحت بأنه أدرك أن البوذية مفتاح الهيمنة السياسية، حيث قال: «أحتاج إلى مرشد يدلني على الطريق الذي يجب أن أسلكه، وقد قررت أن تكون أنت المرشد. أرجو أن تحضر بنفسك بغض النظر عن وعثاء الطريق، وإن كنت تخشى كبر سنك وتراه عذراً عن عدم الحضور، فأولى بك أن تخشى من إرسال قواتي إليك رداً على تمنُعك عن المجيء؟». ولم يكن لدى رئيس الدير البوذي خيار سوى الخروج في رحلة طويلة من

---

(1) علاقات التبت بالصين في عهد «سونغ» وبالمنغوليين في كتاب «الصين بين نظرائها: المملكة الوسطى وجيرانها» طبعة «موريس روسابي».

(2) تتركز في «ووي» حالياً.

أرض التبت المرتفعة بصحبة اثنين من أبناء إخوته، عمر الأول تسع سنوات والثاني سبع سنوات[1].

تصور طول المسافات عند وقوع هذه الأحداث فالمسافة كانت تصل إلى 1700 كيلومتر من ساسكايا إلى «ووي» عبر بعض المناطق التي تحتوي على أكثر التضاريس وعورة على وجه الأرض. ووصل رئيس الدير إلى قاعدة كوتين في عام 1246 ليفاجأ بغياب الملك المغولي الذي ذهب لحضور المجمع العظيم الذي انتخب جويوك إمبراطوراً جديداً، وعند عودة كوتين اتفق مع رئيس الدير البوذي على أن يكون الأخير وكيلاً عنه في التبت، وكتب رئيس الدير البوذي إلى مختلف القادة التبتيين مقترحاً عليهم التعاون قائلاً في خطابه: (لا يوجد سوى مخرج واحد وهو الخضوع للمغول).

ولتوثيق المعاهدة تزّوج ابن أخي رئيس الدير - وكان عمره سبع سنوات - من بنت كوتين، وبهذا الاتفاق - كما يقول الباحث بيتيك - وضع كوتين أسس النفوذ المغولي في التبت، ذلك النفوذ الذي سترثه الصين يوماً ما. ثم وقعت ثلاث وفيات الواحدة بعد الأخرى في تتابع سريع: وفاة الإمبراطور الجديد جويوك، ووفاة كوتين ثم رئيس الدير الكبير.

وبعث الإمبراطور الجديد الذي أراد تأكيد حقوقه في المنطقة جنوده إلى التبت، وتولى هو وعدد من الأمراء رعاية مجموعة من الطوائف التبتية، ومن بين هؤلاء الأمراء كان كوبلاي الذي وجد نفسه يتنافس على امتلاك النفوذ في التبت مع إخوته مونخيه وهولاكو وأرتق وآخرين.

وقام كوبلاي بتحرك بسيط ذي مغزى كبير، وكان مجرد أمير تحت سيطرة أخيه مونخيه، لكنه طموحات كوبلاي تخطت نفوذه في شمال الصين، وأدرك أنه احتاج إلى إيجاد توازن بين مستشاريه الصينيين الكونفوشيوسيين والطاويين من خلال تعيين مستشار بوذي قوي. ولحُسن الحظ كان أحد أبناء أخي رئيس دير ساسكايا التبتي بلا عمل في مقر كوتين، وكان اسمه صعباً نطقه وهو «بلو- جروس رجيال- متشان»، لكنه اتخذ لنفسه لقب الـ «فاغز- با» (ومعناه «المرشد النبيل»)- وأصبح التاريخ يعرف هذا الرجل بلقبه الشهير.

(1) وأحدهما سيكون له أهمية خاصة في قصة كوبلاي.

دعا كوبلاي «المعلم النبيل» - وكان عمره ستة عشر ربيعاً - إلى بلاطه، ويبدو أن المسألة راقت لكليهما، فامتن الفتى الصغير لأنه وجد راعياً يحميه في عالمه المضطرب. وكان «فاغز-با» نصف مغولي، وكان مستعداً لقبول أي عرض في إمبراطورية كوبلاي المترامية، في حين كان كوبلاي على دراية كاملة بأن مفتاح الدولة برمتها ربما يكون في يد هذا الكاهن الشاب وريث رئيس الدير البوذي الذي تتبعه أقوى طائفة في التبت. وكان الغلام لا يزال صغيراً بدرجة لا تثير أية مخاوف في نفس مونخيه.

وفي عامي 1251 و1252 بدأ كوبلاي يغدو ويروح في مناطق غرب الصين كصحراء أوردوس (Ordos) ومدينة تشانغيه و»ووي» تحضيراً لغزو يونان، وظلت مشكلة تواجهه، فقد احتاج لمبرر للغزو أقوى من ذلك الذي ورثه عن جده وأبيه. فجنكيز خان وورثته الذين جاؤوا من بعده مباشرة كان لديهم فكرة قوية عن السبب في قيام الإمبراطورية، لكنها كانت فكرة محدودة. فكانوا يعتقدون، بل ويعلمون علم اليقين الذي يميز المؤمنين الصادقين، أن السماء سلّمت إليهم العالم، وقد تجاوز جنكيز نفسه درجة الوحشية في إدارة إقطاعياته، لكن مبرر الغزو ظل كما هو: «غزو بأمر إلهي».

وبالتأكيد يزعم الحكام دوماً حصولهم على دعم إلهي، وهذا بلا شك ما فعلته كل الأسر الصينية الحاكمة بدعوى أن الحقيقة المؤكدة وراء حدوث تغيير ناجح للأسرة الحاكمة هي أن الإمبراطور الجديد حصل على تفويض إلهيّ، وأنه هو وورثته وحدهم المؤهلون لتطبيق قواعد الحكم الرشيد تطبيقاً صحيحاً، والحكم الرشيد هو النظام العتيق المكون من الأخلاق والبيروقراطية الكونفوشيوسية.

لكنّ المغول كانوا مختلفين كما يشير «هربرت فرانكي» في تحليله القيّم لهذا الموضوع، فبعيداً عما قد يكون تسرب إلى عقل جنكيز عبر جيرانه الصينيين، لم يكترث جنكيز بأي هراء حول وجود تفويض إلهي له مظهر كونفوشيوسي خدّاع يكرّس الفضيلة المصطنعة، وكان ما يهمه ويهم ورثته هو أن السماء منحتهم حُكم العالم، وبناءً عليه فإن مهمة المغول كانت السيطرة على العالم الممنوح لهم، وعلى سكان العالم الإذعان والرضوخ لهذه السيطرة.

وظهر هذا جلياً في «التاريخ السري» الذي قال: إن «السماوات والأرض اتفقتا على أن

يصبح تيموجين[1] ملكاً على الأرض.. والأرض تتهيأ له...» ويظهر ذلك في أقوال أوائل الأوروبيين الذين تواصلوا مع المغول، فذكر جون بلانو كاربيني في عام 1247 أن المغول أرادوا غزو العالم بأسره، وحسبوا أنهم إن فعلوا ذلك فسيحل السلام على العالم، وكانوا ينظرون إلى جنكيز على أنه «ابن السماء الجميل الجليل» و«الرب الوحيد على الأرض ما دام الله في السماء».

وذكر راهب روبروك ويليام النقطة ذاتها قائلاً: «على وجه الأرض سيكون هناك رب واحد فقط هو جنكيز خان». لاحظ أنه اختار وضع الجملة في زمن المستقبل، لأن جنكيز ظلّ حيّاً بروحه وسيظل كذلك. وقد اتضحت ديمومة جنكيز بجلاء لكل من زار ضريحه في منغوليا الداخلية، أو من شاهد فتنة الناس في الاحتفالية التي أقيمت لتكريم المئوية الثامنة لتتويجه حاكماً للمغول، والتي أقيمت في عام 2006. وحتى في حياة جنكيز كان هناك فرق واضح بين الغزو والحكم، لكن جنكيز تجاوز حدود الغزو ووضع القوانين المكتوبة والمخطوطة، ونظاماً بيروقراطيّاً ومجموعة من قواعد الإدارة، وسار ورثته في معظم فترات حكمهم في الاتجاه نفسه غير آبهين بأية اعتراضات أو انتقادات.

ولكن المفاجأة تبقى في أن إيمان المغول الأساسي بإله السماء «تنجر» كان مرناً إلى حد كبير، فكل من الإسلام والمسيحية يعترفون بالسماء، وهذا سبب التسامح الديني لدى جنكيز وسبب الهدوء النسبي الذي صاحب دخول حكام فارس ووسط آسيا من المغول في الإسلام. وليس من الصعب - كما يقول هيربرت فرانكي - تصور أن المغول كانوا سيعتنقون المسيحية إن بقوا في المجر بعد سنة 1242.

الأمر نفسه حدث مع كوبلاي عندما تطلبت دواعي الحكم في الصين منه أن يرتدي مسوح الكونفوشيوسية، لكن مظاهر التدين لم تكن كافية، فقد كانت نظرة كوبلاي تتجاوز الأراضي الصينية التقليدية إلى يونان والتبت، وكان عليه أن يضفي الشرعية على حكمه في نظر المغول والصينيين على السواء، وأي ثقافة أخرى ستصبح جزءاً من الإمبراطورية المغولية التي دفعته إلى بنائها السماء، ووجد كوبلاي ما كان يبحث عنه في البوذية. وقد يظن البعض أن البوذية ديانة مسالمة ومن ثم لا تصلح لبناء إمبراطورية هدفها غزو العالم،

(1) الاسم الحقيقي لجنكيز خان.

لكن الأمر ليس كذلك بالضرورة، ففي البوذية اللامية مثلاً هناك تجسيد لأحد الملوك الآلهة الأربعة الذين سيطروا على أركان الأرض الأربعة، واسمه فايزرفانا حاملاً رمحاً أو هراوة يهزم بها غير المؤمنين. وكان فايزرفانا - كما يمكن أن يطلق عليه - إله الحرب في البوذية.

وليس هناك شيء في البوذية اللامية لا ينسجم مع الإمبريالية المغولية، وكان الفتى «فاغز-با» هو من دلّ كوبلاي على أن البوذية يمكنها أن تخدم أغراضه؛ لأنها قدمت شيئاً غير موجود لا في النظرة الصينية للتاريخ ولا في الإسلام ولا المسيحية. فهي لم تدّعي أنها دين عالميّ فحسب، وإنّما احتوت على نموذج «الإمبراطور العالمي» المعروف باسم «كاكرافارتين - راجا» الذي يحكم شعباً يتكلم عدة لغات دون أن تتأثر مسيرة القانون في هذا البلد بهذا التنوع اللغوي العريض.

وقد جرّب الحكام السابقون هذه الفكرة ووضعوا أنفسهم على قدم المساواة مع الإله بوذا. فقد أطلقوا على أنفسهم لقب بوديستافا (المستنير)، فأصبح اسم الحاكم «الإمبراطور المستنير» أو «منقذ العالم المستنير». وقد أصبحت البوذية باختصار أفضل طريقة يلصق بها كوبلاي نفسه بديانة أقوى من الصينيين وتوفر له أيديولوجية موثوقة تستطيع تبرير غزو العالم وفرض السيطرة عليه، حيث سيصبح كوبلاي فيما بعد القيصر والبابا ورئيس الدولة ورأس الكنيسة، وينبوع الرفاهية الأرضية ومصدر الخلاص الروحي في آن. وبدأت هذه العملية في سنة 1253[1]، عندما قام «فاغز- با» ذي الثمانية عشر ربيعاً بتكريس كوبلاي وتقديمه للناس ضمن طقوس عبادة الإله هيفاغارا أبرز آلهة اللامية، والذي تركزت عبادته في معبد ساسكايا حيث ترعرع «فاغز- با». وبعد غزو يونان عاد كوبلاي إلى شانادو بصحبة «فاغز- با» الذي يُعتبر مفتاح التطور الأيديولوجي لكوبلاي وبوابة السيطرة على التبت.

وأنهى «فاغز- با» دراساته وأصبح راهباً اكتملت مؤهلاته وأدواته، وفي عام 1258 أصبح ذلك الراهب الشاب الذي بلغ الثالثة والعشرين من عمره - المرشد البوذي لكوبلاي. واحتاج كوبلاي الذي كان يستعد لإعلان نفسه إمبراطوراً، إلى أن يوثّق أوراق اعتماده رسميّاً كحاكم عالمي، وترسخت مكانة «فاغز- با» عنده عندما شارك في العام نفسه في المناظرة الثالثة والحاسمة التي عقدها كوبلاي بين البوذيين والطاويين، والتي منحت «فاغز-با»

(1) () هناك غموض طفيف يكتنف التاريخ بسبب ضلوع كوبلاي في غزو يونان في نفس الوقت.

موقفاً قويّاً عندما نصّب كوبلاي نفسه خاناً في عام 1260. وفي الحرب الأهلية مع أرتق التي أعقبت تنصيب كوبلاي، دارت شبهات حول وقوف طوائف متناحرة في التبت مع أرتق وأُسكتت هذه الطوائف[1].

وفي عام 1261 خلع كوبلاي على «فاغز-با» لقب «المعلم القومي»، ونصّبه رئيساً أعلى لرجال الدين البوذيين في مقاطعاته الصينية. وبعدها بثلاث سنوات، منح كوبلاي حواريه ما يُسمى «وثيقة اللآلئ» التي كانت تمنح الرهبان البوذيون إعفاء من الضرائب ومزايا أخرى عدة. وبعدها بفترة قصيرة أرسل كوبلاي «فاغز- با» إلى وطنه وعيّنه رئيساً لدير ساسكايا الرئيسي إلى جانب أخيه الأصغر. وبينما كان كوبلاي يرسل جنوداً متفرقين لتهدئة الأركان البعيدة للتبت التي لم تزل خارج سيطرة المغول، كان من المفترض أن يرسخ «فاغز- با» وأخوه لنفوذ كوبلاي المعنوي في البلاد بأسرها، ولم يكن ذلك الأمر سهلاً، إذ عارضه السكان المحليون الذين لم يروا في «فاغز-با» على ما يبدو ذلك العقل الشاب الألمعي، واعتبروه مرتدّاً لبس زي المغول وتبنى أخلاقهم.

وانهار المشروع بأكمله عندما توفي أخوه في عام 1267 في عمر التاسعة والعشرين؛ ولذلك سار جيش من شنغهاي وأخضع المعارضة، وأسس إدارة تهدئة لتدير البلاد إدارة مباشرة، وعلى المستوى السياسي تعرض «فاغز-با» للتهميش وقضى السنوات القليلة التالية في مهمة سنأتي إليها بعد قليل، وكلّف أحد المغول ويدعى «داشمان» بمهمة إقامة نظام بريدي يضم 27 محطة متتالية، وبمهمة إعلان سيادة كوبلاي على المنطقة، وبحلول عام 1269 أصبحت التبت جزءاً لا يتجزأ من إمبراطورية كوبلاي، وبقيت كذلك ثمانين عاماً حتى سقطت إمبراطورية المغول.

وفي هذه الأثناء كان لدى كوبلاي نظرة ثقافية مدهشة، فقد وضع يديه على مشكلة ناجمة عن طبيعة الإنجازات المغولية، وعن طموحه الشخصي، وطلب من «فاغز-با» أن يقدم حلاً لهذه المشكلة، فقد نشأ كوبلاي في عالمين أحدهما مغولي والآخر صيني، فهو يتحدث المغولية يجد صعوبة في تحدث الصينية، لكنه يرى الآن شانادو تنهض من حوله وأنه محاط بمستشارين صينيين، وأن الغالبية العظمى من رعاياه صينيين، وقريباً إذا سارت الأمور على

(1) () بشكل مؤقت كما تبين بعد ذلك.

ما يرام سيزداد عدد هؤلاء إلى ملايين.

وكانت مشكلته هي: كيف يشكل إدارة تشمل العالمين؟ يمكن بطبيعة الحال كتابة المراسيم المغولية باللغة المغولية والمراسيم الصينية باللغة الصينية، لكن النظامين متنافران، فالمغول لديهم كتابة رفيعة رأسية أدخلت بناء على أوامر جنكيز بواسطة أتباعه الجدد الإيغور[1] سكان غرب الصين حالياً.

وكانت الكتابة كتابة أبجدية مما يعني أنها تستطيع تجسيد معظم الأصوات الخاصة بأي لغة تقريباً بصورة جيدة[2]، لكن الكتابة الرأسية بها عدد من الأخطاء منها عجزها عن التقاط بعض الأصوات الصينية، لأنها ابتُكرت بالأساس من أجل الإيغور وليس من أجل المغول. كما أن معظم الحروف في هذه الكتابة لها ثلاث صور هي: «استهلالي ومتوسط وختامي»، مما يجعل حروفها تصل إلى 80 حرفاً[3]. ومع ذلك أبلت هذه اللغة بلاء حسناً يكفي لاستمرارها، فهي تدخل حالياً في الاستخدام اليومي لأهل «منغوليا الداخلية»، وهي شائعة إلى حد بعيد في منغوليا نفسها وبين الأوساط الأكاديمية، باعتبارها مهرباً أنيقاً من اللغة السيريلية[4] (Cyrillic) الفصيحة الغريبة.

أما الكتابة الصينية فأكثر تعقيداً لأنها تحتوي على آلاف الحروف، كل حرف منها يمثل مقطعاً، وهناك قاعدة عامة تقول: «كل مقطع يجب أن يبدأ بساكن وينتهي بمتحرك أو بصوت النون (ن)» وما يصب في مصلحتها هو:

- أنها معبرة بالنسبة للصينيين مثلها مثل أي كتابة أخرى.
- أنها كتابة جميلة ذات شكل فني قائم بذاته.

---

(1) جماعة عرقية ذات أصول تركية تعيش في وسط وشرق آسيا.

(2) مثلما تفعل الكتابة اللاتينية عند كتابة اللغة الصينية بالحروف اللاتينية فيما يعرف بكتابة البن- ين.

(3) اللغة الإنجليزية تحتوي على 52 حرفاً إذا عددنا الحروف الكبيرة والحروف الصغيرة كل على حدة.

(4) أبجدية أُبتكرت في القرن العاشر الميلادي في بلغاريا واكتسبت شيوعاً كبيراً فأصبحت تكتب بها اللغات السلافية (Slavic) لدول مثل روسيا البيضاء والبوسنة وبلغاريا وروسيا وصربيا ومقدونيا والجبل الأسود وأوكرانيا، واللغات غير السلافية أيضاً مثل الكزخية والأوزبكية والمنغولية وغيرها (المترجم).

- أنها تمتلك زخماً ثقافياً هائلاً حيث ظهرت للوجود قبل 4000 عام[1].
- أن الصينيين لا يرغبون في تغييرها[2].

وكانت محاولة فرض الكتابة المغولية على الصين مستحيلة بالنسبة لكوبلاي مثلها في ذلك مثل محاولة استخدام الكتابة الصينية لكتابة اللغة المغولية؛ لذلك ظهر نظام تكتب بموجبه الوثائق باللغة المغولية ثم تترجم بعد ذلك، لكن كوبلاي كان حذراً من منح الكتبة الصينيين سلطة أكثر من اللازم؛ ولذلك فلم يكن يسمح لهم بتعلم اللغة المغولية؛ فاضطر إلى الاستعانة بمترجمين غير صينيين، فكانت العملية بطيئة ومملة.

وساءت الأمور إذ كان جنكيز خان قد غزا قبل ذلك «شي شيا» التي تحدث سكانها لغة التانغوت (Tangut)[3]، وكانت لغة لها أبجديتها الخاصة التي اختُرعت بناء على أمر من مؤسس الدولة «لي يوان هاو» في القرن الحادي عشر. وقد اختار «لي يوان هاو» أبجدية الثقافة السائدة في الإقليم وهي الثقافة الصينية، لكنه أراد أن تمتلك التانغوت أبجدية خاصة لا تتصل باللغة الصينية، فأصدر تعليماته إلى عالم اسمه «يلي رينرونغ» ليقوم بابتكار كتابة جديدة تماماً.

وبسبب التدمير الفعلي الذي تعرضت له ثقافة التانغوت على يد جنكيز خان سقطت هذه اللغة في النهاية من التاريخ، ونتيجة لذلك لم تحل رموز التانغوت إلا مؤخراً، ولا تزال التانغوت تواصل عملية نهوضها من الظلام الذي أرسلها جنكيز خان إليه. وكان لكوبلاي آلاف مؤلفة من الرعايا التانغوتيين، وكانوا هم أيضاً بحاجة لقراءة هذه المراسيم، وكان هناك أيضاً في ذلك الوقت كتابة «خيتان» وهم الحكام الذين سبقوا المغول في شمال الصين، وكان هناك أيضاً اللغة السنسكريتية، وهي اللغة التي ينظر إليها رعاياه الجدد من التبتيين على أنها ينبوع ديانتهم وأصلها، فضلاً عن اللغة التبتية نفسها التي كان عمرها قرابة 600 عام.

ولا تنس كوريا التي هاجمها المغول مرة في عام 1216 والتي سيعود إليها كوبلاي قريباً، ومن بين هذه اللغات ما اللغة التي تحدثتها غالبية الشعب الفارسي الذي كان تحت

(1) عدد قليل من الحروف يمكن تعقب تاريخه وصولاً إلى الجذور العائدة إلى عصور تشانغ قرابة 2500 قبل الميلاد.

(2) ذات مرة دارت برأس «ماو» فكرة محاولة تغييرها، ولكنه تراجع عنها.

(3) لغة قديمة تحدثها سكان التبت وبورما وفي غرب إقليم شيا (Xia)- (المترجم).

إمرة هولاكو (أخي كوبلاي)؟ تلك اللغات هي التي كان كوبلاي يتعامل معها تعاملاً مباشراً في عام 1261، وإذا سارت الأمور كما يبتغي، ووقع جنوب الصين في يد المغول فسيتصل المغول بالبورميين والفيتناميين واليابانيين، ومن يدري بعدد الثقافات الأخرى التي يمكن أن يتصلوا بها، ومن ثم ظهر كابوس بيروقراطي في الأفق، وإذا سارت الأمور على هذا النحو فستختنق إدارات الإمبراطورية بأعمال الترجمة من لغات عدة وإليها.

وبمجرد أن وجد كوبلاي المشكلة وجد أيضاً حلاً فوريّاً، فاللغة الصينية قد وحدت الصين وجمعت بين اللهجات المختلفة في كتابة عامة، وأراد كوبلاي ابتكار كتابة توحد العالم، وكانت شانادو جاهزة بعد أن تم سحق ثورة أرتق، وفكّر كوبلاي بالفعل في إقامة عاصمة جديدة فيما يُعرف الآن باسم بكين، إضافة إلى تخطيطه لغزو جنوب الصين الذي تأجل كثيراً. وكان كوبلاي في حاجة لترسيخ وضمان أعلى مستوى ممكن من الإدارة أساساً للتوسع.

ولم يكن أمامه سوى رجل واحد وهو الشاب «فاغز–با» الذي عاد لتوه من رحلته الفاشلة إلى التبت. وفي عام 1267 أمره كوبلاي بابتكار الأبجدية الجديدة لتصبح مجموعة حروف يمكن كتابة أي لغة على ظهر الأرض بها. فقام «فاغز–با» الذي كان يتحدث اللغة التبتية والمغولية والصينية بطلاقة، وكان على إلمام جيد بلغة الإيغور واللغة السنسكريتية؛ بتحليل هذه المطالب الصوتية، وتعديل أبجديته التبتية إلى أبجدية صوتية دولية تحتوي على نحو 60 رمزاً، معظمها يمثل الحركات والسواكن المستقلة، وبعض المقاطع الشائعة.

وكانت اللغة التبتية تُكتب من اليسار إلى اليمين، لكن «فاغز–با» صمم أبجديته لتُكتب رأسيّاً خلافاً للنظام الإيغوري الذي أدخله جنكيز العظيم، وتكونت الحروف من خطوط مستقيمة وزوايا قائمة، ولذلك تسمى في اللغة المغولية «الكتابة المربعة». ولأن هذه الكتابة تعكس اللغة المغولية وغيرها من اللغات، فهي تعتبر تطوراً كبيراً في اللغة الصينية، فمثلاً: كلمة جنكيز كانت تُكتب بالصينية «تشينغ جي سي» لكن في كتابة «فاغز–با» تُكتب «جينك كيز».

وبعد عامين من العمل انتهى «فاغز–با» من ابتكار كتابته الجديدة، ثم عرضها على سيده

في عام 1269، وسُرّ كوبلاي لذلك، وخلع على «فاغز-با» لقب «المعلم الإمبراطوري» ومنحه دخلاً يناسب هذا اللقب، وأمر كوبلاي بتدوين كل وثائقه الرسمية بالكتابة الجديدة - «كتابة الدولة» كما أسماها - وأنشأ مدارس لتدريسها.

واستخدمت هذه الكتابة في الأختام والتصاريح المعدنية أو الخشبية - «بايزا» كما كانت تسمى - مما منح كبار المسؤولين سلطة طلب البضائع والخدمات من المدنيين، وورد نص أنه كُتب على أحدها: «بقوة السماء الخالدة، وبحماية القدس الأعظم جنكيز يُدان ويُعدم كل من لا يحترم هذه الكتابة». وكانت هذه هي ذروة التأثير العالمي لـ «فاغز-با» الذي عاد بعد ذلك بفترة قصيرة إلى التبت وتولى رئاسة دير ساسكايا التبتي والطائفة التابعة له التي مارست سلطاناً غير سلمي على الآخرين، وقد وافت «فاغز-با» المنية فجأة في عام 1280 ولم يتجاوز عمره الخامسة والأربعين، ودارت شكوك قوية حول موته مسموماً، واتجهت الشبهات نحو المدير المدني للتبت، لكن لم يكن هناك دليل على ذلك، لكن العدالة لم تكن رحيمة به؛ حيث إن كوبلاي وهو في منصب الإمبراطور كان ليعدمه على أية حال.

ويمكنكم رؤية المعضلة التي وقع فيها كوبلاي والحل الذي استطاع أن يصل إليه، وذلك على أحجار أهم مزار سياحي صيني، سور الصين العظيم. فخلف السور هناك قنطرة قديمة اسمها «يون تاي» (شرفة السحاب) بُنيت سنة 1342 لتكون بوابة مرور، وتظهر في أرضيتها المبلطة مسارات متوازية لعدد لا متناه من عجلات العربات، ما يجعلها تبدو مثل خطوط السكك الحديدية المهجورة. وإذا وقفت تحت القنطرة ونظرت إلى أعلى، فستجد نفسك محاطاً بخمسة أسطح مستوية مطرزة بنقوش بارزة تجسد ملوك الحرب وتماثيل «بوذاً وأفيال وتنانين وأفاع ونباتات، وكلها تحيط بنص بوذي مكتوب بست لغات هي: السنسكريتية، والتبتية، والمغولية، والتانغوتية، والصينية، ثم «كتابة الدولة»، ذلك النمط اللغوي الذي حل به كوبلاي هذه البلبلة، وكان «فاغز-با» هو مبتكر كتابة الدولة.

ويضفي هذا الأثر على الكتابة الجديدة أهمية افتقرت إليها في الواقع، فهي تبدو جيدة على الأختام والألواح الحجرية والعملات والخزف الصيني، وما زلنا نراها على الأوراق النقدية المغولية والتماثيل التذكارية. لكنها للعرض فقط، وبسبب الروتين لم تسر هذه الكتابة أبداً، فقد كرر كوبلاي أمره أربع مرات في 15 عاماً بعد إعلانه الأول مستنداً إلى

إنشاء أكاديمية لتدريس الكتابة، لكن مسؤوليه تعاملوا مع مطالبه ببيروقراطية صعّبت المهمة، فوافقوا عليها ولم ينجزوا شيئاً، وكانت المدارس الخاصة تفتقر إلى المعلمين بسبب عدم الرغبة في تعلم هذه الكتابة.

وعلى أي حال فقد رفض المسؤولون إرسال أطفالهم إلى تلك المدارس، ولم يكن للمتاعب التي مرت بها كتابة «فاغز-با» أدنى علاقة بجودتها، ولكن المشكلة تكمن في الطبيعة الإنسانية، فتعلم الكتابة أمر له متطلبات كثيرة رغم سهولته.

ولم تظهر الكتابة من العدم إلا أربع مرات في التاريخ في كل من: بلاد الرافدين، ومصر، والصين، وأمريكا الوسطى. وكل كتابة استغرقت قروناً عديدة حتى تُنقح، وبمجرد وصولها إلى مرحلة النضج تبدأ في الانتشار إلى ثقافات أخرى، لأنها مسألة حيوية بالنسبة للمجتمعات المعقدة. فبعد نضوجها تكتسب الكتابة تماسكاً مدهشاً، وتصبح عملية تغييرها بمثابة إعادة زرع لفرع جديد. وهناك أمثلة على تغيير الكتابة قام بها بعض أصحاب النفوذ:

- ففي تركيا أجبر كمال أتاتورك المواطنين على تغيير الكتابة من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية في عشرينيات القرن العشرين.
- واستبدل حكام منغوليا الذين اتبعوا النمط الروسي في الكتابة (نظام الكتابة الرأسية) التي أدخلها جنكيز خان، بالكتابة السريلية في عام 1941.

وفي كلتا الحالتين سيطرت الحكومة سيطرة ساحقة على صغار البيروقراطيين والمجتمعات غير المعقدةن، واستطاع كوبلاي تسخير مسؤوليه للتحكم في الضرائب والجيوش والسجلات، لكنه عجز عن التحكم في عقولهم. وكانت محاولة كوبلاي التغلب على القصور الثقافي لدى موظفيه الصينيين أشبه بالتحدث إلى جبل من جليد، ولم يتحقق له ذلك، لكن الأمر لم يكن ذا أهمية كبيرة، إذ إن تغلغل كوبلاي في التبت حقق لإمبراطوريته مكاسب أكثر بكثير مما كانت الكتابة الجديدة ستحققه. فعندما قام كوبلاي بتنصيب «فاغز-با» استطاع أن يضم إقليماً شاسعاً إلى أملاكه، وأقام رابطة بين الصين والتبت أصبحت هي أساس كل العلاقات فيما بعد وحتى يومنا هذا.

وتحت حكم المانشو كان الدالاي لاما هو من يحكم البلاد محافظاً على الاستقلال

الاسمي بدعم من المانشو وتدخل منهم أحياناً حتى أعاد سقوط الأسرة الحاكمة في سنة 1911 الاستقلال الذي فقدته التبت قبل سبعة قرون، ولكن لفترة وجيزة. فبعد ثورة 1949 استطاع ماو والمروجون له أن يدّعوا - بل ويثبتوا - أن التبت جزء لا يتجزأ من الصين، وأن استقلال هذا الإقليم في الأربعين سنة السابقة لعصره كان مجرد وهم انبنى على ضعف الصين، وأن الشيوعيين لم يفعلوا شيئاً سوى إعادة الأمور إلى ما كانت عليه.

ولم تكن لتلك الحجة أي أساس أخلاقي، فلو سرنا على هذا المبدأ لكان من حق بريطانيا المُطالبة باسترجاع إمبراطوريتها، بل إن المطالبة الصينية في الواقع بها نقاط ضعف أكثر من مطالبة بريطانيا بحقها في الولايات المتحدة أو الهند. فعلى الأقل الهند والولايات المتحدة ظلتا تحت سيطرة بريطانيا، أما مطالبة الصين فتنهض على حقيقة أن أول احتلال للتبت كان على يد جيوش أوقطاي بن جنكيز خان ومن بعده حفيده كوبلاي، وكلاهما مغولي. وبالنسبة للمغول كانت منغوليا هي التي غزت الصين، وهي التي احتلت التبت، وهي التي أسست الإمبراطورية المغولية،وهو ما يؤكده المغول حتى هذه اللحظة.

ومن حُسن حظ الصين أن كوبلاي قرر تأسيس أسرة حاكمة صينية جاعلاً جده مؤسساً لها بعد وفاته وهو ما قلب التاريخ رأساً على عقب. فقد سمح ذلك بظهور إعلانات رسمية كالإعلان التالي الذي جاء في أحد الكتب الحديثة ويقول: «كان الإمبراطور الصيني يتمتع بسلطة عليا في مناطق سيادته ومنها إقليم التبت»[1].

ويرى الصينيون أن جنكيز وكوبلاي صينيان وكذلك التبت.
انتهت القصة.

---

(1) () «وانج جياوي» و«نيما جيانكاين» في كتاب الوضع التاريخي للتبت الصينية.



الفصل الثامن

مفتاح النصر

كانت فكرة غزو إقليم سونغ من الأمور المسلّم بها لدى كوبلاي، الذي لم يكن سعيه تكلل بالنجاح في هذا الجانب، لكنه مثل جده جنكيز خان لم ينل الفشل من عزمه يوماً، فكان لا يألو جهداً في سبيل تحقيق مآربه، وعندما كانت جيوشه منهكة بسبب القتال في أريق شمالاً، لجأ إلى أسلوب الرفق في الحوار، والبذل مع أهل الجنوب أملاً في تحقيق النصر بالسياسة فيما تعجز قوته عن تحقيق النصر فيه. وفي عام 1260 أرسل كوبلاي مبعوثاً إلى هانغتشو (Hang Zhou) أملاً في عقد اتفاق معه، لكن مبعوثه باء بالفشل أمام تعنت إقليم سونغ، واعتُقل مدة 16 عاماً تقريباً حتى قامت جيوش كوبلاي الفاتحة بإطلاق سراحه.

وإزاء اعتقال سونغ لرسول كوبلاي يتبادر إلى الذهن تساؤل حول تفسير هذا التصرف. مال المؤرخون إلى إبراز اعتقال مبعوث كوبلاي بوصفه مبرراً لغزو كوبلاي للسونغ، ويكشف لنا هذا الاعتقال عن العالم الخفي للجاسوسية والجاسوسية المضادة، فالمبعوث «هاو جينغ» (Hao Jing) كان جنرالاً من شمال الصين سبق أن انضم إلى المنغوليين عقب غزو الجين (Jin) في عام 1234م[1]، وقد أهلته جنسيته الصينية وساعده عدم ولائه في أن يصبح جديراً بمهام العميل السري. وفي المقابل جنّد القائد الذي عينته سونغ على جبهة القتال العديد من الجواسيس الناشطين الذين نجحوا في معرفة فحوى ما بعثه «هاو جينغ» إلى كوبلاي، يرشده فيه إلى الطريقة المثلى للنيل من أهل إقليم سونغ، وقد جاء في رسالته:

«ثمة طريقان لفتح البلدان: القوة والدبلوماسية، فإن لم تفلح القوة لا بد من اللجوء إلى الدبلوماسية، وهو ما يتطلب الكثير من الصبر، ومن ثم علينا كسب الوقت وثقة أهل إقليم سونغ، ثم مطالبتهم بالتخلي لنا عن بعض الأراضي ودفع الجزية السنوية. وعندما تتحين لنا فرصة الغزو، لا بد أن نباغتهم».

كما رسم «هاو جينغ» في رسالته خطة للهجوم المحتمل حظيت برضا كوبلاي، ويتضح من تلك البنود المقترحة في الرسالة أنها كانت مجرد إستراتيجية تأجيل، فلم يكن في نية كوبلاي التزام بنهج السلام طويلاً، وكانت همته تنصرف إلى الغزو إنفاذاً لمشيئة جنكيز والسماء. ولما انكشف زيف الهدف من ابتعاث «هاو جينغ»، فقد صار رهن الاعتقال، ولم

(1) اقتبست هذه الفقرة من كتاب «التغير في السلالات الحاكمة: الولاء في الصين خلال القرن الثالث عشر» لمؤلفته جنيفر دبليو جاي.

يُطلق سراحه خشية أن يخبر كوبلاي بانكشاف مخططه. وإزاء قلة الخيارات المتاحة أمام كوبلاي - نظراً لانهماك قواته في الحرب ضد أريق - اضطر كوبلاي إلى كظم غيظه واستمر في استرضاء سونغ، وأمر بإطلاق سراح 172 تاجراً، اعتقلهم بتهمة التجارة السرية عبر الحدود المنغولية مع سونغ. وأغدق بالأراضي والأقمشة والماشية على العائدين إلى سونغ وكانت أعدادهم بالآلاف، إلا أن معرفة كل طرف بنوايا الآخر جعل هذه العطايا بلا طائل، وظل كوبلاي يسعى قدر استطاعته لفتح الجبهة الجنوبية.

وكانت الحملة السابقة للمغول قد برهنت على عدم كفاية تجهيزاتهم للاضطلاع بهذه المهمة الشاقة، وقد كان إقليم سونغ مليئاً بالأنهار والمدن على عكس منغوليا وغالبية شمال الصين، وكانت المدن هي القبلة الحقيقية للمغول نظراً لتمركز الأثرياء بها، فضلاً عن إداراتها القوية، ولم يكن ثمة قلاع كالتي كان يملكها نبلاء أوروبا أو ضياع تتعرض للسلب، ومن ثم كانت هذه المدن تمثل حصوناً منيعة مزودة بالمتفجرات التي تتوافر خاماتها على ضفاف الأنهار، فضلاً عن قدرة سكانها الفائقة على توفير الطعام وتنشيط التجارة فيما بينهم لمدد طويلة.

وكان فرسان المغول يتميزون بسرعة الحركة في الساحات المفتوحة، وقد كشفت هجماتهم السابقة على جبلي فيشنغ (Fishing) ووتشنغ (Wutcheng) عن صعوبة تحقيق النصر على العدو في المدن الممتدة على ضفاف الأنهار والجبال، ومن ثم كان على المغول مهاجمة نظام سونغ حسبما تقتضي الطبيعة، أي عن طريق: (أ) تجهيزات أفضل للاستيلاء على المدن، و(ب) توفير السفن.

ورغم سابق خبرة المغول بمبادئ الحصار العسكري منذ عهد جنكيز، فقد أدركوا أنهم في هذه المرة بحاجة إلى تعزيز تجهيزات الحصار، ولم يكن المغول يعرفون سوى القوارب المستخدمة في عبور الأنهار، لذلك كان عليهم البدء من الصفر في بناء سفن حربية تستطيع نقل الجيوش والأسلحة عبر نهر الصين.

وكان الحل هو عبور النهر العظيم الذي تخلل العاصمة هانغزو من الغرب إلى الشرق، ولم يكن أمام جيوش كوبلاي سوى الغزو من الشمال، وكان رافد نهر «هان» العملاق يقطع

حدود منغوليا مع إقليم سونغ قبل أن يتجه جنوباً، ومن ثم كان مسار النهر يمر مباشرة إلى وتشانع وهانغزو.

وكان مفتاح نهر الهان هو مدينة شيانغ يانغ[1] التي تقع عند ملتقى النهر مع نهرين آخرين، اليوم صارت «شيانغ يانغ» جزءاً مع مدينة «فانشينغ» (Fencheng) الممتدة عبر النهر، واتخذت اسماً مستقلاً هو مدينة «زيانغ فان» الكبرى، المعروفة بأنها ملتقى الطرق وخطوط السكك الحديدية. وتعتمد «زيانغ فان» على الصناعة وحركة السائحين القاصدين جبال ودانغ جهة الغرب المعروفة بقبابها الاثنين والسبعين ومعابدها الطاوية وملاكميها أصحاب المهارات المذهلة التي تضارع مهارات مصارعي «تاو جي» القدماء الذين يرجع تاريخهم لأزمان سونغ التليدة. وعلى عهد كوبلاي، كانت «شيانغ يانغ» مدينة حصينة مليئة بالخنادق، ومحوراً تجارياً مهماً لما يربو عن مائتي ألف شخص؛ لأنها ارتبطت بمدينة فانشينغ عبر جسر عائم من القوارب الراسية في مواقع ثابتة بعرض نهر الهان[2]. وكان نهر الهان يفيض في موسم الأمطار الصيفي فيتزايد مسطحه عرضاً وطولاً، ويتحدر جنوباً بين «ينغ» وتلال داهونغ (Dahong)، ثم يتعرج حتى يبلغ المنخفضات ذات البحيرات المتناثرة حول مدينة ووهان (Wuhan). ولذا كانت «شيانغ يانغ» عرضة للغزو على يد أي جيش يأتي من الجنوب عبر النهر.

وقد عرف سكان المدينة وغزاتها على السواء هذه الحقيقة، فتعرضت المدينة للغزو على يد حملة «ين» في عامي 1206 و1207، وحملة أوقطاي خلال ستة أعوام (بين 1235 و1241)، ولم تسقط المدينة حتى هذا التاريخ. كما حاصرها المغول عام 1236، وسيطروا عليها قبل العودة إلى الشمال، لكن «شيانغ يانغ» بدت في الغالب وكأنها مقبرة للغزاة. وانشغلت المدينة على الدوام بإعادة بناء دفاعاتها منذ أن اكتشف أهلها رسالة هاو، فقد توارت «شيانغ يانغ» وراء أسوار حجرية شديدة البأس امتدت على طول 6 كيلومترات، وبارتفاع بين 6 و7 أمتار. وكان الأسوار تغلف المدينة التي بعدت إلى الداخل مسافة تزيد

(1) هناك العديد من النماذج المختلفة لهجاء كلمة «شيانغ يانغ» - فنجدها تُكتب على سبيل المثال سيانافو في ماركو بولو، وكذلك سايان-فو في رشيد، أو سيانج- يانج في العصور الأحدث، وبالأخص تلك التي تسبق عهد بنيان.

(2) نهر هام في كوريا الجنوبية ورابع أكبر نهر في شبه الجزيرة الكورية برمتها (المترجم).

عن كيلومتر كامل. وكانت ثلاثة مداخل من بوابات «شيانغ يانغ» الستة تؤدي مباشرة إلى النهر، وهو طريق طويل يحتاج الكثير من الإمدادات وتوافر وسائل الاتصال، فضلاً عن زيادة اتساع النهر إلى كيلومتر تقريباً في موسم الفيضان، وكان عمق النهر يتزايد أيضاً في هذه الأثناء بما لا يسمح بالخوض فيه. أما في فصل الشتاء ومع انخفاض منسوب النهر، فكان يتحول إلى ما يشبه الممرات ذات القنوات والمرتفعات النهرية، ويصير خندقاً مائياً ضحلاً على امتداد 90 متراً، مما أتاح للغزاة الوصول إلى أقرب مسافة ممكنة ومهاجمة الأسوار عبر السلالم والأبراج وإلحاق الضرر بها.

يتناول هذا الفصل إشكالية فتح مدينة شيانغ يانغ، وهي إشكالية ساعد حلها كوبلاي في إعادة بناء الدولة الصينية الموحدة، وهي أعظم إنجازاته على الإطلاق. ونستطيع أن نقول إن مفتاح الصين هو الجنوب أو مملكة سونغ، ذات الثقل السكاني الكبير والمدن المتعددة والثروت الزراعية الطائلة. ومفتاح الجنوب هو نهر اليانغتسي، ومفتاح اليانغتسي إذا جاء الغزو من الشمال هو نهر الهان، ومفتاح النهر هو مدينة شيانغ يانغ التي استطاع المغول فتحها عن طريق... لن أقول حتى لا أحرق بقية القصة. لكن سأقول إن مفتاح اللغز لم يكن في يد فرسان المغول التقليديين.

وقبل الولوج إلى تفاصيل القصة علينا أن نعرف أن الموضوع له روايات عدة متشعبة ومختلفة فيما بينها- ما بين مصادر تروي التقدم الإجمالي للحملة وصعوباتها وقوة حصارها وتحكي عن مهندسيها الذين نجحوا في حل المعضلة ومهدوا لنتائج بالغة الأهمية. وكان تفكيري يعتمد دوماً على المنطق التدريجي الذي يؤدي إلى استكشاف نتيجة أقرب إلى الصواب، وهذه النتيجة هي أن الصين الحديثة تدين بوجودها إلى الطريقة التي تم بها كسر حصار شيانغ يانغ الذي لم يكن مسبوقاً في الصين والعالم.

ولم يكن في ذهن كوبلاي من تفاصيل إستراتيجية الحصار سوى القليل في بداية الأمر، فقد انشغل بإعادة بناء قواته بعد الانتصار على أخيه أريق. واستغرق الأمر أربع سنوات حتى أعلن قادة جيشه أنهم على أهبة الاستعداد للقتال أي بعد قرابة تسعة أعوام من اضطرار كوبلاي لسحب هجومه عن إقليم سونغ. وربما يتصور القارئ أن فترة تسع سنوات قد تكون طويلة بالنسبة للاستعداد لقتال، لكن كوبلاي لم يكن يعرف إلى أي حد قد يستعصي عليه

فتح «شيانغ يانغ»، ومن ثم لم يعرف كيف يتعامل معها.

بدأت الأحداث بتوجه جحافل المغول صوب المدينة أوائل عام 1268 تحت لواء القائد الشاب الشهير أجيو الذي اشتهرت عائلته بأنها من أصحاب الأمجاد العسكرية، فوالده هو «يوريانغ كاداي» الذي كان قد انتصر على يونان عندما كان قائداً لجيوش كوبلاي قبل 15 عام، أما جده فكان الأسطورة «سوبيداي» الذي خطط للحملات الغربية ضد جنكيز ومونخيه. وقد شعر أجيو منذ بداية تقدمه بالحاجة إلى المساعدة، فكتب إلى الإمبراطور: «تضم القوات التي أقودها خيرة وحدات من فرسان المغول، لكنني إذا واجهت عوائق الجبال والأنهار والقلاع والحصون بدون قوات الجيش الصيني فإنني فاشل لا محالة»[1]. فأمده كوبلاي بقوات من المشاة وبناة القوارب الحربية؛ فتوافرت لأجيو القوات البرمائية التي كان بحاجة إليها.

وفي طريقه إلى حصار المدينة لم يجد أجيو وجيشه كثيراً من الأسلاب، ففي إطار الاستعداد للحصار كان الحكام يصدرون أوامر عرفية بإخلاء المدن المجاورة من أي شيء يمكن للعدو أن يستعين به، كالأبنية المرتفعة والشجر والحجارة والمعادن والقرميد والخضروات والقش والحيوانات والغلال. التي يُنقل كثير منها إلى مخازن داخل الأسوار. وفي هذا الصدد يسرد كتيب عسكري (أسس الاستعداد العسكري) الأشياء التي يجب تخزينها بالشكل التالي: المصابيح والزيت، والفئوس والفحم، والكبريت والجير، والعوارض الخشبية والمسامير، والإبر والحواشي وخيوط القنب والجاروف، والمدقات والأحجار، والأوعية والفرش، والحبر وأنابيب الحبر ومناضد الكتابة، وغيرها الكثير والكثير. كما يخضع المدنيون لتدريبات عسكرية، وتقسم النساء إلى مجموعات مسؤولة عن الطهي وتدريب الأطفال على توصيل الطعام والأدوات اللازمة للجنود.

وتحظى المخاطر التي تصدر عن الفقراء والمعدمين، ولاسيما أعمال التجسس والتخريب بإجراءات وقائية خاصة، تشمل تجنيبهم سوء المعاملة، وقد ذكر كتيب الأساسيات: «إن الفقراء هم أطفالنا الذين يمكنهم حمل السلاح ومواجهة العدو بكل ما أوتوا من قوة». ثم يورد الكتيب اقتباساً من كلمات الحكيم «زو دونغ»: «متى وقعت مدينة

(1) كان ذلك في عام 1830 تقريباً لكن الأحداث التي يسردها كانت في فترات أسبق.

تحت الحصار، فلابد من التركيز على السلام الداخلي قبل مجابهة العدو الخارجي». ويجب اجتماع أهل المدن على قلب رجل واحد؛ فمن الضروري أن يكفل أصحاب الحانات زبائنهم وأن يحرص الأساقفة على رعاية كهنتهم. ويُحمل لموسيقيون المتجولون والسحرة على أعمال التجسس، وتجتمع الأسر بالعشرات فتتعهد كل أسرة بكفالة باقي الأسر. ويُحتفظ بالموظفين ذوي فترات الخدمة الطويلة مع الاستغناء عن الجدد منهم. كما تنظم الدوريات، ويكون لكل حي سكني كتيبة حربية خاصة به، تستعين بأواني المياه الضخمة والسلالم والخطافات والبكرات لمواجهة المتفجرات. ويكون على الرماة المتخصصين تجهيز أقواسهم الثنائية والثلاثية التي يمكنها قذف سهام طولها مترين لما يربو عن 200 متر، وفي ذات الوقت يتفحص المهندسون آلات المنجنيق.

والآن جاء دور الكلام بتركيز عن المنجنيق. فـ «منجنيق السحب» شغل مكانة محورية في تقنية الحصار الصينية، وكان المنجنيق النموذجي يتكون من:

- إطار ارتفاعه قرابة 4 أمتار، يحمل دعامة طولها ما بين 11- 12 متراً.
- تثبت الدعامة على مركز محوري بحيث يزيد طول أحد أجزائها عن الآخر.
- في نهاية الطرف الطويل مقلاع، يعمل على زيادة طول الدعامة وقوتها دون زيادة الوزن.
- وفي نهاية الطرف الأقصر حبال تتصل عادة بقضيب معدني على شكل حرف T.
- تثبت أحد الأطراف برأس الدعامة، ويوصل الطرف الآخر بخطاف صغير.
- عند تحرير الخطاف، يبدو كسوط يرتفع لأعلى كالخطاف الموجود بطرف صنارة الصيد.
- تحدث بهذه الحركة قوة طرد مركزي تجعلها تتحرك في شبه دائرة.
- مع وصول المزلاج إلى نهاية الدعامة، تحرر قوة اندفاعه الطرف السائب.
- فتتحرر القذيفة وتندفع في الهواء.

ويعمل على كل منجنيق فريق مكون من 5-15 شخصاً وفقاً للحجم، وتوضع في المقلاع صخرة لا يزيد وزنها عن 2 كلم، أو يتم حشو المقلاع بمواد قابلة للاشتعال، ثم يقوم الفريق بسحب الطرف الآخر - من هنا تجيء تسمية السحب - ثم ترتفع الرافعة ويتحرك المقلاع في حركة شبه دائرية، وينزلق الخطاف فتتحرر الكتلة. وتستغرق هذه العملية ما لا يزيد عن 15 ثانية (تظهر العمليات الحديثة لبناء نماذج المنجنيق أن الفريق الجيد كان بإمكانه قذف 5 أو 6 قذائف في الدقيقة الواحدة). ورغم بدائية هذه الآلة فقد كانت مفيدة عند إطلاقها من مدى قريب، مثل إطلاقها على أسوار مدينة أو أي شيء في محيط 100 متر. وكان هذا الأسلوب خلال القرن الثالث عشر بمثابة تقنية الحصار النموذجية، وكان منجنيق السحب يوضع على مرمى البصر من الهدف أو تحمل أجزاءه الجياد أو تحملها العربات. وكانت قوة الجيوش تقاس في ذلك الوقت بعدد آلات المنجنيق، والتي ربما بلغت المئات.

وكان لسلاح المنجنيق كتيبة كاملة تشكل خلال الحصار تماثل كتيبة المدفعية في الجيوش الحديثة، ولعل سبب ذلك صعوبة تشغيل المنجنيق واحتياج الفرق القائمة عليه للراحة مقارنة بتجديف القوارب مثلاً. كما كان المنجنيق يتطلب لنقله من مكان لآخر عدداً كبيراً من الخيول والثيران والعربات، فكان لكل منجنيق مجموعة من الفرق لتشغيله على نوبات متعاقبة. وكانت هذه الفرق بحاجة إلى طعام خاص ودروع وجياد، فصار لزاماً توفير مجموعة كبيرة من الرجال لتشغيل المنجنيق - على بساطته - قد تبلغ أحياناً 200 رجل، فضلاً عن تجهيزات هائلة تتمثل في التخطيط والمعسكرات والمؤن ولوازم الحصار والانسحاب، وكان وضع المنجنيق على الأرض غالباً ما يتطلب صيانة دورية؛ فلنا أن نتصور إضافة فصائل من النجارين إلى الجيش لتتولى صيانة المنجنيق. وكانت حبال المنجنيق إما من الخيوط وإما من الجلود تبعاً للظروف المناخية، إذ تنكمش الجلود في الطقس الرطب بعكس الخيوط. وكان المنجنيق سلاحاً تقليدياً في الدفاع والهجوم، وكانت شيانغ يانغ تملك 114 منجنيقاً أثناء محاصرتها ما بين عامي 1206- 1207. وكانت فرق المنجنيق تعمل بأمان نسبي داخل الأسوار، في ظل وجود مراقب أعلى كل منها لتوجيه القذائف نحو الهدف، وكان المدافعون يقومون قبل الحصار بجمع كميات ضخمة من الحجارة من المناطق المجاورة لتوفير ذخيرة المنجنيق، ولحرمان العدو من استخدامها ذخيرة له.

وكان المنجنيق في الدفاع والهجوم يُحشى بالحجارة وغيرها من المقذوفات، وكانت الجيوش الصينية تستعين بخبراء في المقذوفات والكيماويات القاتلة. وانشغل الكيميائيون القدامى قرابة 700 عام في تجاربهم كي يطوروا هذه التقنيات القائمة على الاستخدام الأولي للبارود في أوائل القرن العاشر - تقنيات قذف اللهب - وسرعان ما ظهرت مجموعة كاملة من الأسلحة البارودية، كالسهام المتفجرة (الألغام) والقنابل المقذوفة بالمنجنيق. وفي واحدة من هذه الأسلحة يُحشى خشب البامبو بالبارود، ويُحاط بقطع البورسلين، وقد كان هذا السلاح أحد إرهاصات قذائف الشظايا. ومع بداية أولى الغزوات المغولية في القرن الثالث عشر، تطور هذا السلاح إلى «القنبلة الرعدية» الأشد فتكاً آنذاك، والتي تشتعل داخل وعاء معدني أو سيراميك بسمك 5 سنتيمترات. وكانت أول معرفة للمغول بهذا السلاح عند السيطرة على كايفنغ عاصمة إقليم «ين» بين عامي 1232 و1234.

«وتعد القنبلة الرعدية التي تشق الهواء إحدى أبرز الأسلحة الدفاعية، وهي تتكون من البارود المحاط بوعاء حديدي، وكانت تُحدث انفجاراً هائلاً عند إشعال الفتيل وإطلاق القاذف، وكان صوتها يشبه صوت الرعد مع إمكانية سماعها على مسافة 50 كلم تقريباً، وكان دخانها يقضي على الحياة النباتية على مسافة تتجاوز 400 متر مربع. وأثناء الدفاع كان المغول يحفرون لأنفسهم خنادق يغطونها بجلود الأبقار، في حين كانت القنابل توضع في (ين) على هيئة سلاسل: «عندما يصل الأعداء إلى الخنادق...... كانت القنابل تنفجر؛ مما يؤدي إلى تدمير جلود الأبقار والجنود المهاجمة إلى قطع صغيرة دون ترك أي أثر».

وكان يُصنع من هذه القنابل كميات هائلة، فقد ذكر أحد مسؤولي إقليم سونغ في عام 1257 أنها تبلغ «ألفاً أو ألفي» قنبلة. واشتكى هذا المسؤول من انخفاض إنتاج القنابل قائلاً: «لقد اعتادوا إنتاج عشرة أو عشرين ألفاً في وقت الغزو على شيانغ يانغ و»ينغ شو»، ولكن لم يعد هذا الإنتاج وافياً بالغرض. وكان من المفترض أن تسعى الحكومة في هذا الوقت لأخذ احتياطيها للدفاع عن مدنها الحصينة.. لكن ذلك هو كل ما يعطونه لنا». يا له من تشابه كبير!

وسنتطرق إلى الأسلحة المسمومة المتفجرة التي تمثل الخطوة الأولى في تصنيع الأسلحة الكيميائية والجرثومية، وقد توافرت أنواع كثيرة منها، وكان أكثرها إثارة للاشمئزاز سلاح القذارة الفطرية أو القنبلة البرازية. وأميل شخصياً إلى تسميتها: قنبلة «الغائط

والجراثيم»، بسبب مكوناتها الشاذة[1].

وتتكون القنبلة من:

- 7 كجم من البراز البشري المسحوق، حيث يتم أولاً جمع حوالي 70 كجم من الغائط البشري ثم تجفيفها وسحقها إلى مسحوق دقيق، وعند انفجار هذه القنبلة تثير غباراً كثيفاً ساماً يسد الرئة ويلوث الدم بدخوله عبر الجراح المفتوحة. ويضاف إلى ذلك:
- 400جم من جذور البيش، وهو نوع من الزهور يشبه غطاء الرأس وتنتج جذوره أشد أنواع السموم فتكاً. وعندما تمس السموم الجلد يفقد الإحساس، ويسبب استنشاقه أو ابتلاعه الغثيان وصعوبة في التنفس فضلاً عن التشنجات والأزمات القلبية.
- 200 جم من زيت حب الملوك، وتنمو شجرة حب الملوك في الهند وإندونيسيا، ويؤدي زيت هذه الحبوب إلى تقرح الجلد، في حين يؤدي إلى التهاب المعدة والإسهال الشديد في حالة ابتلاعها.
- 400 جم من الزرنيخ الأبيض (As_2O_3) والمركب المشتق منه كبريتيد الزرنيخ. وعند انفجار هذا المركب ينتج عنه ما يشبه المبيد الحشري، والذي يسبب الإسهال الطويل الأجل وآلام المعدة وتلف الدم والكليتين والموت.
- 100 جم من الخنافس من نوع «ميلابريس» (Mylabris)، وهي أغرب عناصر هذا المزيج الشاذ.

وعندما شاهدت هذه الخنافس ذهب خيالي بعيداً، فهل كانت هذه الخنافس حية؟ هل يمكنها أن تتحمل انفجاراً بما يخلفه من سموم؟ بحق السماء ما جدوى سحابة من الخنافس المسمومة في الحرب؟ واستعنت بعالم الحشرات (لي روجرز) من متحف التاريخ الطبيعي في توجيهي نحو الصواب. حيث عرفت منه أن هذا النوع من الخنافس كان مستخدماً في

---

(1) مقتبس من كتاب عبقرية الصين لمؤلفه روبرت تيمبل (London: Prion - 1999)، ويعتبر خلاصة كتاب العلوم الكمية والحضارة في الصين.

الطب الصيني القديم، لأن كمية صغيرة من المادة الكيميائية التي يفرزها تحتوي على حمض الكانتريس الذي يحفز أعضاء معينة بالجسم منها الأعضاء الجنسية. ويعتبر الحمض هو المادة الفعالة ضمن المنشط الجنسي المعروف باسم «الطائر الإسباني». وقد اكتشفت من خلال البحث في جوجل على شبكة الإنترنت وجود اهتمام كبير في الوقت الراهن بهذه المادة في الصين نظراً لأهميتها كمضاد للمواد السرطانية. إلا أن الجرعة الكبيرة من المادة خاصة في حالة امتصاصها عن طريق الجلد تتحول إلى سم يؤدي إلى تقرح الجلد. ومن هنا جاءت تسمية هذه الكائنات باسم «حشرة الذُراح». وتصنع القنبلة بجمع 100 جم من الحشرة ثم يتم سحقها وتجفيفها وإضافة المسحوق إلى وعاء السموم.

وتُجمع هذه المكونات في صورة البارود المزود بفتيل، ثم تُوضع الكتلة داخل قرطاس من الورق السميك، مع ربطها بخيط وتغطيتها بطبقة من الصمغ الذي يُشبه الشمع مع ترك جزء من الفتيل يمتد للخارج. وكانت قنبلة الغائط والحشرات التي تزن ما بين 10-15 كجم توضع في قذيفة للمنجنيق وتصبح جاهزة للاشتعال والإطلاق. وكانت القنبلة تعتبر سلاحاً خاصاً يحتاج إلى منجنيق ضخم ونحو 12 رجلاً لإطلاقها، حيث كانوا ينصبون القنبلة على مسافة 100 متر من الهدف وتجنباً لخطر السموم المتركزة بالقنبلة.

وكانت كل الجهود من الجانبين تجري لتحقق توازن القوى، حيث مثلت أسلحة المنجنيق عقبة كبيرة خاصة بالنسبة للجانب المدافع. فإذا أرادوا استخدام الصخور على اعتبار أنها أرخص أنواع الذخيرة، فإنهم بذلك يقدمونها هدية إلى الطرف المقابل. وعندما كانت هذه الحجارة تلقى على جانبي الأسوار، كانت تتسبب في شج الرؤوس وكسر الأذرع وتهشيم الأسطح. كما كان إطلاق القذائف بهذا العدد يؤدي إلى تصادمها معاً في الهواء. ولو فكرنا في عدد الصخور اللازمة لمهاجمة مدينة ما لوجدنا أن كل سلاح يطلق قذيفتين في الدقيقة، بإجمالي 100 سلاح، نحصل على 12000 قذيفة حجرية في كل ساعة على مدار أيام المعركة. وكيف تصل القوات إلى هذا العدد من القذائف؟ كم يلزم من الرجال والجياد للبحث عنها وتقطيعها لتناسب المنجنيق ثم نقلها؟ ومن هنا صار هناك دافع لتطوير مزيد من القاذفات الفعالة- المتفجرات التي بإمكانها نشر السموم والكيماويات والشظايا. وكانت هذه الأسلحة تفيد في حالة تبادل الإطلاق المدفعي فقط، لكنها نادراً ما كانت تتجاوز مدى

100 متر.

واستُخدمت هذه الأسلحة في الحصار الأول على «شيانغ يانغ» عام 1268 فضلاً عن وقف تقدم أجيو، وأصبح الحصار الذي امتد على

حوالي خمس سنوات تقريباً شبيهاً بحرب طروادة ولكن على الطريقة الصينية، من خلال الهجمات المتكررة والاقتحامات والأعمال البطولية. كما انتهي الحصار بنهاية درامية مشابهة لحرب طروادة باستثناء أنها لم تكن في صورة خديعة بل بالهجوم الشامل. وللأسف نظراً لأننا في استعراض للتاريخ وليس ما قبل التاريخ، لم نجد شعراء يتغنون بمآثر أبطال موقعة شيانغ يانغ أو حماماً زاجلاً يتناقل الشعر الملحمي. ولذا - بالنسبة للسنوات الثلاثة الأولى من الحصار التي لم يكن بها أي بطولات تُذكر - سنصف أحداثها خلال الفقرة التالية:

احتاج الحصار إلى 500 قارب تقريباً، أشرف على بنائها الأدميرال «ليو شينغ»، الذي كان قائداً بقوات سونغ، فانشق عنها وانضم إلى جيش كوبلاي. وتطلّب بناء السفن عدة أشهر، فاستغرق المغول فصل الصيف كاملاً في بناء التحصينات على ضفتي نهر الهان، لاعتراض طريق القوارب المحملة بالإمدادات القادمة من إقليم سونغ. ومع عودة الشتاء وسّع أجيو نطاق حصاره عبر النهر ليشمل فانشينغ. وقد نزلت بالصينيين كارثة مدوية بعد إحدى محاولاتهم كسر حصار المدينة، فقد وقع المئات منهم في الأسر وقُطعت رؤوسهم، مما أدخل الصينيين في حالة من التحفظ الشديد في انتظار ما يكفيهم من المؤن للبقاء على قيد الحياة. وقام كوبلاي في ربيع 1269 بإرسال قوات إضافية ضمت 20 ألف جندي، لتعزيز القوات المحاصرة. وفي أغسطس أي بعد 18 شهراً من الكر والفر، هاجم 3000 قارب من قوات سونغ التحصينات المغولية الجديدة في نهر الهان، مما أسفر عن فقدان ألفي جندي و50 قارباً منهم. فصار المغول على اتصال بتحصيناتهم على جانبي النهر من خلال سلسلة من الجسور، لكن ذلك لم يكن كافياً. فقد احتاج قادة المغول إلى إرسال مزيد من القوات، تقدر بنحو 70 ألف جندي وخمسة آلاف قارب، فكانت زيادة رهيبة بالمقاييس العسكرية. ولا شك أن قادة المغول ادعوا - شأنهم في ذلك شأن الجنرالات على الجبهة الغربية أو فيتنام - أنهم كانوا يرون بارقة أمل تتطلب توفير دفعة إضافية من الإمدادات لضمان

النصر الشامل. وكان المدافعون الصينيون أكثر صلابة وثباتاً على المقاومة، وساعدهم في ذلك التأكيدات المتكررة من جانب ضباط الخدمة السرية الذين كانوا يتبادلون الأوامر والأموال والمراسلات مع إقليم سونغ من خلال كرات الشمع، بأن المغول سيتراجعون لا محالة. وقد حاول الصينيون في العديد من المرات مهاجمة المغول لكسر الحصار، وفي إحدى المحاولات التي وقعت في مارس 1270، شنت إحدى الكتائب التي ضمت 10 آلاف جندي من المشاة والفرسان بصحبة 100 قارب، هجوماً برمائياً في محاولة لاقتحام التحصينات النهرية. لكن هذه الكتيبة اضطرت في النهاية إلى الانسحاب من جديد إلى حصونها الصينية بعد أن تكبدت خسائر فادحة. واستمرت المحاولات الفاشلة الواحدة بعد الأخرى، حتى فقد الصينيون ألف جندي في أكتوبر 1270 و2000 في أغسطس 1271 و3000 آلاف من صفوة القوات في الشهر التالي.

ولكن ما السبيل للخروج من هذا المأزق؟ لقد كشف أحد قادة المغول «علي هايا» لكوبلاي أن المغول ينقصهم استخدام السلاح المناسب. ورغم أن المغول خلال هذه الفترة تحصلوا على كثير من أنواع الأسلحة – المنجنيق وقاذفات السهام – بعد معرفة هذه التقنيات وتوفر الجنود المتخصصة في استعمالها بعد حصار بكين في السنة نفسها التي وُلد فيها كوبلاي. لكن مشكلتهم الرئيسة تكمن في الخنادق والأسوار الصخرية التي تحصن شيانغ يانغ. وكانت القذائف المغولية–الصينية لا تتسم بطول المدى أو القوة الكافية لتخطي هذه الدفاعات، ولم يكن في منغوليا أو الصين من يملك الخبرة الكافية لتصنيع أسلحة أكبر وأقوى.

استطاع كوبلاي بفضل معرفته الكافية بأبعاد المشكلة أن يتوصل إلى حل، إذ سعى إلى التوصل إلى أفضل مصممي آلات دك الحصار في أنحاء الإمبراطورية، حتى وجد ضالته في فارس التي كانت على مبعدة 6000 كيلومتر– أي ثلثي طول الإمبراطورية. كان ذلك بعد استلام كوبلاي تقارير عن حصار بغداد من أخيه هوليغو في عام 1258. فماذا لو لم يكن لدى هوليغو السلاح الذي سمح له باختراق الأسوار؟ وقد عكست التقارير التي وجدت في أرشيفات كوبلاي عبارات منها: «لقد نصبوا المنجنيق أمام برج أعجمي واخترقوه». إلا أن هذا المنجنيق كان له نظام خاص يختلف عن منجنيق قذف الحجارة التقليدي الذي عجز

عن اختراق الأسوار.

ولكن حتى هذا السلاح السري الجديد لم يضمن النجاح، فما دامت شيانغ يانغ خارج نطاق السيطرة، سيظل الانتصار على إقليم سونغ معلقاً، ولكن هاجس الفشل لم يرد على ذهن كوبلاي. فما هي أفضل وسيلة كان يستطيع بها كوبلاي تنفيذ إرادة السماء؟ لقد أرشده «فاغز-با» (Phags-Pa) إلى ما يجب فعله من طلب العون من عالم الأرواح، وكان لابد من الاتصال بالأرواح المساعدة على النحو الصحيح وباستخدام الطقوس السليمة التي تجري في حرم مقدس لتحضير الآلهة وممارسة الإمبراطور لسلطاته كزعيم روحي.

فأمر كوبلاي بتشييد معبد لم يُر له مثيل واسماه «بايتا سي»، أي المعبد الأبيض، وهو ما يزال شامخاً وسط بكين غرب المدينة المحرمة (لا توجد صلة بينه وبين المعبد الأبيض الموجود في متنزه بيهاي). وقد زرت هذا المعبد في سنة 2005 لأتحسس ذكرى كوبلاي، فوجدت المعبد يجسد ذكراه فعلاً، وطرح سؤال نفسه في ذهني: «لمن كان كوبلاي يصلي في هذا المعبد؟ ووجدت الإجابة عن سؤالي دون أن أذهب بعيداً. ولم يكن وقع الإجابة عليّ مخيفاً، وإنما كان مفاجئاً. كان الموقع الذي شيد فيه المعبد الأبيض موقعاً لأحد الأبراج، وكان الناس يتجنبون هذا البرج بسبب ادعاء قال بوجود كرات من اللهب تتدفق من التربة المبني عليها (ربما هي أضواء متوهجة انطلقت من الأرض بسبب وجود الغاز بوفرة في هذه المنطقة). أمر كوبلاي بحفر الأرض للتعرف على ما في باطنها، وكان من حسن الطالع أن اكتشف أحد الأشخاص آثار وعملات وألواحاً حجرية منحوتاً عليها رسومات التنين. فكان فألاً حسناً لكوبلاي، ويبدو أن المكان كان في عصر مما واحة للتنين، ما جعله موقعاً مثالياً لتشييد معبد إمبراطوري.

وجاء بعد ذلك دور رسم حدود المعبد، وقد تمت عملية الرسم طبقاً لأسلوب مغولي قديم في تخطيط القواعد الجديدة، حيث قام كوبلاي أو أحد جنوده بإطلاق السهام على محاور البوصلة الأربعة، فكان محيط مائتي متر يحدد مسافة السور، ومن ثم صار المعبد الأصلي مجموعة من المباني في محيط 400 × 400 متر، إلا أن عوامل الزمن أتت على المباني الخارجية والأسوار، فتقلصت مساحة المعبد إلى حجمه الأصلي. لكن المعبد نفسه الذي يأخذ شكل برج عظيم على هيئة قرطاس الآيس كريم الذي يعلو مجموعة من الغرف

والمكاتب، احتفظ بكثير مما كان عليه في أيام كوبلاي.

ويقصده السائحون اليوم لمشاهدة التماثيل البوذية العملاقة وجميع الرموز الرسمية التي ترمز إلى استعداد الصين لاحتواء الجميع في عائلة واحدة كبيرة. وتعتبر القاعة الكبرى التي تضم عشرة آلاف تمثال بوذي واحدة من أعظم المقتنيات في العالم، حيث تضم تماثيل بوذية مصغرة تبرق مثل الذهب وتمثل جميع القرى والمدن البوذية. أما قاعة التماثيل البوذية السبعة فأصبحت لا تضم الآن إلا ثلاثة تماثيل بعد اختفاء أربعة منها خلال الثورة الثقافية. وفي قاعة بوذا العظيم المستنير، توجد مخطوطات الإمبراطور (كيان لانغ) التي كتبها في القرن الثامن عشر لتذكر الزوار بأن: «عقل بوذا يشبه في استنارته اللؤلؤة الساطعة».

وفي قلب المكان يقف المعبد نفسه، وكان كوبلاي قد اعتمد في بناء المعبد وما يحيط به على مهندس معماري ورسام نيبالي في السابعة والعشرين من عمره اسمه «أرنيكو»، كان بوذياً بطبيعة الحال. وكان قد اكتسب سمعته الطيبة منذ الصبا في إقليم التبت ثم وفد إلى الصين بوصفه من أتباع «فاغز– با»، وقد وضع بصمته مع كوبلاي عام 1265، وكان في الحادية والعشرين عندما أعاد بناء تمثال من البرونز يرمز إلى مواضع الوخز بالإبر، كما واصل ابتكار العديد من المعابد والتماثيل الأخرى في أنحاء الصين حتى فارق الحياة سنة 1306 عن عمر 62 سنة. وكان الجميع يشعر بالفخر الشديد بأرنيكو بسبب نجاحه خلال القرن الثالث عشر في تشييد المعبد البالغ ارتفاعه 374 متراً، والذي أصبح أطول مباني الصين على الإطلاق. وهناك تمثال له على هيئة شاب نحيف حسن الملامح - بجوار «جمعية أرنيكو» في نيبال - أزيح الستار عنه في سنة 2003 بحضور كبار شخصيات الحكومة النيبالية.

وعندما أردت أن ألقي نظرة على المعبد من الداخل بصحبة المرشدة سيلفر، مشيت بضع خطوات بجوار تمثال أرنيكو، لكني وجدت الطريق مغلقاً بسياج حديدية لوجود أعمال التحسينات بالمكان. ووجدت بوابة مفتوحة في الجدار. ودهشت دهشة كبيرة حينما شاهدت راهبين يرتديان الزى الأحمر - أحدهما قوي البدن كالمصارعين والآخر خفيف الوزن - يضعان لافتات الصلاة، ويبدو أن الطقوس كانت مستمرة في هذا المكان. وعندما رآني الراهبان بدت عليهما ملامح الخجل، ولم أشأ أن أزعجهما بأسئلتي، لذا تجولت في الجانب الآخر من المعبد ممعناً النظر في المنحنيات السميكة في الجدران الملساء البيضاء

التي داعبت بخجل أشعة شمس الخريف الساطعة. وتعجبت من عدم وجود نوافذ وأبواب، حتى سمعت ترانيم يؤديها أصحابها بصوت خفيض، وكان الراهبان يمارسان نوعاً من الطقوس، وعندما عدت مسرعاً إلى الجزء الأمامي من المبنى، وجدتهما أغلقا باباً يشبه الدولاب وشرعا في حرق البخور والأرز، في هذه المرة تواصلت معهم بعيني ثم ابتسم كل منا للآخر. فتشجعت وطلبت من سيلفر أن تقدمني إليهما، وكان الراهبان من التبت، وكان اسم الراهب الضخم «تيو دان»، أما النحيف فاسمه «جانجا». وأعربت لهما عن تعجبي من استمرار استخدام هذا المكان، فكانت إجاباتهما متحفظة دائماً تدور حول تدعيم أواصر العلاقات بين الصينيين والمغول وسكان التبت. وانضم إلينا حينها رجل ذو ملامح هادئة مستديرة من بكين اسمه «بنجامين لي»، وكان يتقن الإنجليزية، لأنه رجل أعمال تخرج في إحدى الجامعات الإنجليزية، وكان سبب زيارته للمكان إعجابه بالمعبد ووجود صداقة بينه وبين الراهبين. وأدهشني أنه قدم نوعاً من التبرعات، وقال لي إنهم يعتمدون كلياً على التبرعات. ومن ثم قدمت مساهمة صغيرة مني ودعوته للغداء ونحن نتبادل ابتسامات مهدت لي طريقاً لمواصلة الحوار معه.

كان بنجامين من عشاق المعبد فقال لي: «هو مكان ممتاز وأعتبره أهم البقاع في بكين وربما في الصين كلها». ونظر باهتمام إلى العجب على وجهي وقال: «مكان جيد فعلاً. حتى الدالاي لاما كان يأتي إلى هنا ليتعبد». وأردت أن أعرف المزيد عن الهدف الأساسي من المعبد، فقال لي إن المعبد كان سبباً في إخضاع إقليم سونغ وتوحيد دولتنا، ولم يكن المعبد الوحيد الذي أسهم في ذلك، فهناك معبد آخر بناه أرنيكو في «زهو هيبي» على بعد 75 كيلومتراً جنوب غربي بكين اسمه المعبد حامي البلاد». وبقي لدي سؤال لم أعرف الإجابة عنه: ما الذي أكسب هذا المعبد وقرينه هذه الخصوصية الحاسمة منذ هذا الوقت وحتى يومنا هذا؟ وماذا كانت عبادة كوبلاي تحديداً؟

فقال بنجامين: «تم إنشاء هذا المعبد من أجل كوبلاي خصيصاً حتى تتعبد به الأسرة»، وشعرت بلا شك أنه يحاول إخفاء شيء ما عني، لكن سرعان ما ظهرت حقيقة المكان، عندما قال لي: «كان هذا المعبد لعبادة إله حارس اسمه ماهاكالا».

فأجبته: «ماهاكالا؟ من هذا؟».

فقال: «ماهاكالا هو واحد من... آلهة الحرب».

وبذلك اكتشفت أن هذا الإله هو الذات التي حاول كوبلاي التيمن بها لمساعدته في صراعه مع سونغ، ولا أخفي أنني لم أكن أعلم بهذه الحقيقة من قبل، إلا أن ملايين البشر في آسيا من الهند إلى اليابان يعرفونه باسم «الإله الأسود العظيم»، وكان الهندوس يعتبرونه صورة من الرب «شيفا» المدمر. وكان هذا الإله في التبت يستوي هؤلاء الذين لا يُظهرون الاحترام المناسب لبوذا. ولم أكن أعرف شكل هذا الإله.

وشاء لي الحظ أن التقيت بعدها بأيام في العاصمة «أولان باتور»، بأحد طلاب العلم المنغوليين وبباحث بارز في التاريخ المغولي له الكثير من المؤلفات، عرفت منهما أن ماهاكالا كان إلهاً حارساً يرتبط بطريقة ما بالإله هيفاغرا المعبود الذي حظي بتمجيد خاص من دير «ساسكيا» التابع للإله فاغز- با، وهو أول الآلهة التي دان لها كوبلاي بالطاعة بتشجيع من «فاغز-با» سنة 1253 . وبعد مرور 18 عاماً من السلطة الإمبريالية، نضج خلالها كوبلاي وأصبح مؤهلاً كآلهته الخاصة. أو كما يقول الباحث التاريخي (بيرا) في إحدى مقالاته التي كان يعدها للنشر: «إن الإمبراطور من سلالة خان الذي يدخل في اتصال روحاني مع معبوده المقدس ماهاكالا – باعتباره أقوى المدافعين عن الين - يمكن أن يتظاهر بأنه أصبح مالكاً لجميع القوى الخفية التي تؤهله لحكم إمبراطوريته، وبهذا استطاع الخان المغولي الاستحواذ على قوة الرضا وغضبة الآلهة المقتدرة معاً».

ولم يكن كوبلاي هو الوحيد الذي تعبد إلى الإله «ماهاكالا»، بل قال لي بنجامين: «بالنسبة لكوبلاي خان وفاغز- با وجميع الحكماء، مروراً ببانشين لاما العاشر اليوم، يعتبرون أن ماهاكالا بمثابة الروح الحارسة».

فقلت له: «وهل لا يزال هذا الاعتقاد سائداً؟».

فقال: «ما زال كما هو. وهو موجود هنا أيضاً. انظر خلفك!».

ثم فتح تيو دان الباب الذي رأيته يغلقه من قبل، لأرى مذبحاً كنسياً يعلوه لوحة براقة ومشرقة للإله ماهاكالا: وجه أسود، وثلاثة عيون محملقة، وتجاعيد شرسة وأنياب، وغطاء رأس من الجماجم أعلى شعر أصفر. هذا ما كان يفعله الراهبان أثناء تجوالي حول المعبد،

لقد كانا يقيمان الطقوس الدينية للإله ماهاكالا.

ولاحظت على الرف الموجود أمام الضريح مباشرة طبقاً فضيّاً صغيراً يحتوي على نوع من السائل، وعلمت من بنجامين أن هذا السائل هو كحول. وأضاف قائلاً: «مع الآلهة البوذية الأخرى يمكن تقديم الزهور والفاكهة لا كحولاً. ولكن بالنسبة للأرواح الحارسة وبخاصة القوية منها مثل الإله ماهاكالا تُقدم الكحول. ويطلق عليها في الصلوات الصحيحة اسم.. اسم- قام حينئذ بطباعة كلمة في قاموس إلكتروني للغتين الصينية والإنجليزية وهو نوع من الأشياء التي اعتاد الطلبة والمرشدون السياحيون حملها معهم- ثم قال: «رحيق». والطعام مثل الأرز والبخور الذي ينبعث منه الروائح المغذية للأرواح. إننا نسعد بمذاق الطعام، أما الأرواح فكيف يتسنى لهم أن يرضوا بها؟ من خلال رائحتها! وبتقديم هذه القرابين يصبح الإله ماهاكالا حارساً لك فهو يجلب الحظ السعيد».

فقلت لهم: «إنه لا يبدو مثل جالبي الحظ السعيد بل هو أشبه بالكابوس».

وعندما ترجم بنجامين لهم عبارتي الأخيرة، أخذ الثلاثة في الضحك.

وأجابني بنجامين: «إذا كان هذا هو شعورك، فمرحى به لأنه سيخيف جميع الأرواح الأخرى».

ثم أطرقت على أمل مزيد من الإيضاح ثم قلت: «هل يمكننا مشاهدة المعبد من الداخل؟».

أجابني بنجامين: «ليس ممكناً. فلن يكون جاهزاً قبل عدة أشهر، ولكن يمكنك التجول حوله مجدداً. اذهب هذه المرة يميناً في اتجاه عقارب الساعة».

قلت له: وماذا بالداخل؟.

فقال: ماهاكالا الإله! ماهاكالا الحق.

ووعدت نفسي أثناء التفافنا حول القداس شبه المستدير أن أعود من جديد لزيارته وجهاً لوجه. ربما يكون مجرد تمثال، لكن على أي حال لا يجب أن أضيع الفرصة، وطبعاً سأجد صلوات كهنة أمثال «تيو دان» وجانجا، والكحول يُحتسى في أنحاء المكان. وسوف أتأكد

من وقوفه إلى جواري كما كان إلى جوار كوبلاي عام 1271 إذا مرت الأحداث على ما يرام. وفي إطار محاولة فهمنا للمشكلة التي كانت تمثلها أسوار شيانغ يانغ، اسمحوا لي أن أستعرض معكم العالم الغريب الخاص بسلاح المنجنيق ذي الوزن المقابل. لقد كانت هذه الأسلحة بمثابة المدفعية الثقيلة في تلك الفترة، ويقابلها منجنيق السحب اليدوي الذي كانت نتائجه ضعيفة بالمقارنة مع أنواع المنجنيق الأخرى. وكانت تستبدل القوة البشرية المُشغلة لمنجنيق الوزن المقابل بصندوق يملأ بالذخيرة (الصخور أو التراب أو الرصاص)، وكانت الميزة وراء استخدام هذا السلاح إمكانية زيادة وزن الذخيرة المستخدمة وتطويل ذراع القذف وزيادة مدى القذيفة (دون حتى الحاجة إلى زيادة الوزن)، وكانت دقة تصويب المنجنيق تتحسن إذا ظل الوزن المقابل والقاذف ثابتاً بين القذائف.

وكان حجم المنجنيق يحتاج إلى خبرة تحتاج وقتاً طويلاً لاكتسابها، فقد ظهر منجنيق الوزن المقابل في وقت متأخر جداً، وظهر في العالم الإسلامي خلال القرن الثاني عشر لينتشر منه إلى أوروبا بعد أن سيطرت عليها الجيوش الصليبية في سنة 1200. ولا يعرف أحد على وجه الدقة متى بدأ هذا السلاح في الانتشار، فقد أطلق الصينيون على الأسلحة الجديدة اسم «المنجنيق الإسلامي»، في حين أشار المؤرخ المسلم رشيد الدين إلى أن هذه الأسلحة «إفرنجية». وبغض النظر عن بداية الفكرة، سرعان ما انتقلت معرفتها بين الجانبين حيث تطورت الأسلحة في أوروبا والعالم الإسلامي إلى أسلحة متخصصة، استطاعت دك الأسوار، إذ ظهر أثرها على الإستراتيجيات العسكرية وأصبح مهندسوها نجوماً.

ومع نهاية القرن الثالث عشر، خسرت هذه الأسلحةُ المعركة أمام زحف البارود، ذلك لأن المنجنيق كان يُصنع من الخشب ويشغل مساحة كبيرة. أما مع انتشار أسلحة البارود، فصارت هذه الأسلحة عديمة القيمة تماماً. واختفى منجنيق الوزن المقابل تماماً في القرن العشرين. وعُثر على أحدها في تسعينيات القرن التاسع عشر في كنيسة بمنطقة كان اسمها «شرق بيروسيا» (الآن هي جزء من بولندا)، وعندما طلب أحد المتاحف ضمها، أشعل السكان المحليون النار فيها. ولم يُعثر عن خطط دقيقة عن كيفية بناء هذا المنجنيق (ربما بسبب تحفظ المصممين في تدوين أسرار صناعته)، كما أن جميع الرسومات الخاصة به هي مجرد تصورات حُذف منها تفاصيل مهمة.

وبمرور السنين أولى عدد قليل جداً من المتخصصين في التاريخ العسكري هذه الأسلحة اهتماماً، ولابد من التنقيب في هذه المحاولات إن أردنا فهم طبيعة هذا السلاح جيداً. فقد صار لدينا الآن ثقافة شبه دولية تجمع بين «محبي المنجنيق». وقد تناولت المنجنيقَ مجموعةٌ من العلوم النظرية والدراسات التاريخية والعلوم العملية، بعضها اتسم بالتحفظ الشديد، وبعضها بالإفراط وبعضها بالانحراف عن المسار العملي. وتأتي معظم هذه الدراسات في سياق إعادة إحياء الآثار المندثرة، وهي تدرس مجموعة هائلة من الأسلحة. وفي سنة 1991 ابتكر المخترع والمؤرخ العسكري الإنجليزي «هيو كينيدي» آلة أطلق عليها اسم «ليوناردو دافنشي»، استطاعت قذف حصان ميت لمسافات بعيدة. واصطنع منجنيقاً وزنه 30 طناً استطاع قذف ست سيارات و60 بيانو وعدداً كبير من الخنازير النافقة، وحقق بذلك شهرة واسعة. وتشتهر آلات البيانو لسبب ما بكونها ذخيرة للقاذفات ربما لأن خيوطها تجعل وضعها مناسباً في القاذفات، كما أنها تُحدث صوت اصطدام هائل لتناثر مفاتيحها الموسيقية. وقد أظهرت القنوات التليفزيونية التي تميل إلى مزج القوةَ بالدراما والغرائب اهتماماً كبيراً بهذا الأمر. حيث قام برنامج «العرض الشمالي» بالتليفزيون الأمريكي بتصوير منجنيق صممه عاشق المنجنيق «جون واين كيرا» يستطيع قذف آلات البيانو التي يصل وزنها إلى 200 كجم عند وضع 9 منها على الجهاز ليقوم بقذفها الواحد تلو الآخر.

وقد بث البرنامج على الهواء مباشرة في شهر أكتوبر 1992، حيث قُذفت مجموعة من آلات البيانو لمسافة 100 متر على ألحان «الدانوب الأزرق». وانضم «رون تومس» من ولاية تكساس إلى عالم محبي المنجنيق منذ صباه، حيث قام ببناء منجنيق مستخدماً نفسه كذخيرة، إذ قذف نفسه باستخدامه لمسافة 30 قدماً في الهواء ليسقط أخيراً في أحد الأنهار. واستمتع رون مع أصدقائه بممارسة هذه اللعبة، حين ربطوا أنفسهم في المنجنيق وألقوا بأنفسهم في الأنهار واحداً بعد الآخر. وتوصّل رون إلى تقنية استطاع من خلالها زيادة الوزن المقابل في المنجنيق، وتمكّن من الإلقاء بنفسه على مسافة أبعد. يقول رون: «كانت الآلة تتعطل في منتصف الرمية». فقرر تومس بناء منجنيق ضخم صُوِّر في أحد البرامج التليفزيوني الشهيرة. أُطلق على هذا العملاق الحديدي الجديد اسم «تي ريكس» نسبة إلى ديناصور خرافي، وكان يقذف بالسيارات بعيداً. وهناك مواقع على الإنترنت تحدثت عن خطط تصميم «المنجنيق

ثور»- الذي وصل طول ذراعه إلى مئة قدم تقريباً ووزنه المقابل 25 طناً. ويفترض أن يقوم بقذف سيارات البويك (Buick) كما كان إله الحرب ثور يقذف بالصواعق، إلا أن ثور ما زال حلماً حتى الآن.

وقد وقعت أنا في غرام المنجنيق بعد زيارة قمت بها مؤخراً إلى قلعة «كاير فيلي» (Caerphilly Castle) في جنوب ويلز. فالقلعة تضم أربعة نماذج من المنجنيق أُعيد بناؤها، أحدها منجنيق يعمل بالوزن المقابل. وقد شاهدت يوم أحد الفصح عام 2005 فريقاً من الرجال أقوياء البنية يرتدون ملابس العصور الوسطى، ويجهزون إحدى الآلات لرمي قذائف في خندق مائي أمام حشد من السُياح. وكان ذلك تحت إشراف العين الخبيرة لـ «بولديني» وزوجته جولي، صاحبي الأبحاث المهمة في آثار المنجنيق وأهميته. ولم تكن الآلة ضخمة، فوزنها الكلي 10 أطنان ووزنه المقابل قرابة طنين اثنين. وأثناء إطلاق المنجنيق احتاج الأمر إلى رجلين لإدارة العجلة، وستة رجال آخرين لإطلاق القذيفة. ومع كل هذا الوزن والطاقة المخزنة، كانت هذه الآلة هي وحش يتم كبح جماحه،وكانت القذيفة كرة أسمنتية وزنهاكيلوجرامين تقريباً. أما بول ديني فاستخدم صخرة وزنها 5 كجم في هذا الاختبار الاستعراضي.

«أتريد سحب القاذف يا جون؟»

«إشعالها؟ بالتأكيد».

«ليس إشعالاً، نحن لم نقل ذلك، ولا توجد أية نيران. هذا ما يحدث مع مدافع البارود. يجب أن نقول حرر القذيفة أو أطلقها».

لذلك فقد فعلت.

وهناك استمتاع كبير بما يحدث عند تحرير الطاقة الكامنة لأنها تشمل التحكم في العناصر الطبيعية فقط، مثل الخشب والحديد والصخور والحبال والجاذبية. ويوجد مكباح على القاذف لتحرير الذراع. وعند إسقاط الوزن المقابل على المنجنيق، ترتفع الذراع ويليه المقلاع بالذخيرة التي يحملها. وتعتبر الأصوات الوحيدة الصادرة عن المنجنيق أصوات هادئة تشبه صوت زفير الهواء القوي: حيث يصدر صوت همس من المحور المشحم

وصوت حفيف المقلاع. ولكني توقعت أن يكون صوت المنجنيق كصوت ضربات السوط القوية ولكن بالحركة البطيئة. ثم يعقبها صوت طيران القذيفة بعيداً. ثم يسترخي المنجنيق محدثاً صوتاً ضعيفاً يشبه الزفير بسبب تأرجح الوزن المقابل للخلف والأمام، وصوت الحجارة الثقيلة أثناء إعادة ترتيبها داخل المنجنيق، وصوت إعادة وضع المقلاع الفارغ من حمولته في الجزء المقابل لذراع الرفع. وتُحدث الصخور صريراً ضعيفاً في الهواء، ويطير في حركة دائرية لمدة سبعة ثوان تقريباً (قمت بحسابها بنفسي) وتتوجه إلى الخندق المائي على مسافة 80 متراً.

واستمرت الصمت الرهيب لفترة، إلا أني كنت مستمتعاً وأردت المزيد من المتعة، لكني لم أحبذ إطلاق البيانو أو سيارات بويك، لأن القذيفة تكون في هذه الحالة من المعدن وهو ما أعتبره زائفاً. وكان كل ما أردته هو إجابة عن السؤال التاريخي: ما حجم وقوة منجنيق الوزن المقابل المصنوع من الخشب الذي كان يُستعمل في العصور الوسطى؟ وهو تساؤل ربما يعيدني إلى موضوعنا الأصلي - غزو كوبلاي لإقليم سونغ.

وكانت إجابة سؤالي لدى الملك إدوارد الأول (أو إدوارد لونجشانكس)؛ لأنه كان المسؤول عن أحد أكبر أسلحة المنجنيق الأوربية. فقد هاجم إدوارد الأول في سنة 1304 قلعة ستيرلنغ التي كانت واسطة عقد المقاومة الاسكتلندية، ولم يعلم جيشه شيئاً عن صلابة أسوار الحصن وحسن استعداد السكان الذين نجحوا في تخزين مؤن تكفيهم فترة الحصار. فأمر الملك مهندساً اسمه «رينالد» ببناء أضخم منجنيق، فاستعان المهندس بخمسة نجارين وخمسة مساعدين للعمل على مدى ثلاثة أشهر استطاعوا خلالها إنتاج منجنيق ضخم عُرف باسم «ذئب الحرب». ورغم عدم توافر المزيد من التفاصيل عن هذا المنجنيق، فإنه استطاع دك أسوار ستيرلنغ. وتقول إحدى الروايات إن القلعة أعلنت استسلامها، لكن إدوارد رفضه حتى يجرب سلاحه العملاق ويثبت كفاءته.

وقد بُني منجنيق خشبي ليحاكي هذا الحجم من تخطيط المصمم الفرنسي «رينولد بوفيتي». واستوحى المصمم بناء المنجنيق من الواقع وفقاً لمخطط تصميم المنجنيق المعروف الذي صوره فنان فرنسي اسمه «فيلارد دي هونكورت» الذي لم يشتهر بأي شيء آخر سوى مجموعة رسومات المنجنيق. وكان المنجنيق الذي صوره بوفيت عملاقاً ويعمل

بوزن مقابل يبلغ 10 أطنان، ويمكنه إطلاق القذيفة لمسافة 100 متر و220 متراً.

ها قد عرفنا الآن ما يبحث عنه كوبلاي، وأن الخبرة لم تكن موجودة في الصين، ومن ثم فعليه جلبها من فارس، وليس أفضل لذلك من إمبراطورية تحكمها أسرة واحدة ترتبط معاً بشبكة من التواصل عبر القارات، وقد ساعد ذلك على سرعة توصيل رسالته بالجياد السريعة. وبعد ستة أسابيع ومسافة 6000 كلم، وصلت رسالته إلى تبريز شمال فارس تحديداً إلى قصر عباقة (Abaqa) حيث ابن أخت كوبلاي الذي كان من أتباع خان منذ موت أبيه هوليغو في عام 1265 . وكان تحت يد عباقة العديد من المصممين ذوي الخبرة في بناء منجنيق الوزن المقابل الذي استُخدم من قبل في حصار بغداد وأليبو ودمشق والحصون الصليبية في سوريا. وكان من أبرز مصمميه إسماعيل ومساعده علاء الدين[1]، وقد بلغا مع أسرتيهما زانادو عام 1271 وحصلا على مسكن رسمي لفصل الشتاء. وخلال الربيع التالي بعد بناء نموذج للمنجنيق لعرضه على الإمبراطور، بلغ الرجلان - فضلاً عن ابن إسماعيل الذي دربه والده ليسير على خطاه - ساحة المعركة لينظرا إلى جدران شيانغ يانغ الصلبة والخنادق المائية والنهر الواسع وفانشينغ المجاورة لـ «شيانغ يانغ» على النهر.

لنضع أنفسنا مكان إسماعيل، فمهمته قذف كرات صخرية وزنها 100 كجم على أسوار شيانغ يانغ مع مراعاة وجود الخنادق المائية التي تفصله عن أسوار المدينة بـ 100 متر. وحجم الآلة يعوق إخفاءها، ومن ثم يجب البقاء مع المعدات على مسافة أبعد من نطاق وصول السهام والقنابل السامة والمتفجرة التي تقذف عبر الأسوار. أي يجب التمركز على مسافة 200 متر تقريباً عن الأسوار. ولعل تصميم المنجنيق العملاق الذي وضعه روفيتي، لو كان موجوداً وقتها لكان مناسباً تماماً لهذا الغرض. ولا بد أن يكون تصميم المنجنيق الذي وضعه إسماعيل يزن 40 طناً وارتفاعه 20 متراً تقريباً[2].

---

(1) يمكن أن نحصل من خلال البحث على أسماء مختلفة تماماً لرشيد: طالب وأبنائه الثلاثة الذين يبدون كأسرة أخرى مختلفة على الإطلاق. ولكني لم أعثر على معلومة قاطعة في هذا الشأن، ويمكن الاطلاع على المصادر الصينية في كتاب «تاريخ يوان» لمزيد من التحقق.

(2) يمكن الإطلاع على مستلزمات اقتحام أسوار «شيانغ يانغ» بمطالعة موقع الويب الخاصة بشركة جراي التابعة لأحد الجماعات الأسترالية. وسوف تجد على الموقع رابط لصفحة «الإتقان اللوغاريتمي للمنجنيق» والذي يسمح لك بالإضافة إلى برامج كمبيوترية ذات القدرة على حل العمليات الحسابية الصعبة بأن تصبح مهندس منجنيق.

وثمة عناصر أخرى يجري تقييمها مثل كتلة الوزن المقابل في حالة تبلل المنجنيق بالماء، وما يطرأ على خصائص ذراع الرفع الذي يُصنع من أخشاب الأشجار، وكذلك لحظة فك المقلاع (وتعديله ليناسب الأهداف المرتفعة أو المنخفضة) وتأثير الحرارة على الشحم المستخدم في تقليل احتكاك المحاور الخشبية مع الأجزاء الحاملة (وفي بعض الحالات قرر المهندسون المسلمون كسوة الحوامل بالبرونز والمعدن لتقاوم الاحتكاك والتآكل). وكان إسماعيل ماهراً في تقييم كل هذه الحقائق والتعامل معها. لكن بقيت بعض الأمور التي لم يعرفها قبل وصوله، مثل جودة الأخشاب الممكن استخدامها في ذراع الرفع، لأن الأشجار مختلفة في وزنها وقوتها بطبيعة الحال، وتتباين سرعة جفافها وتصلبها بعد اقتلاعها من الأرض.

وإذا تحولنا إلى الذخيرة المستخدمة في المنجنيق، نجد أن الدقة كانت من العناصر الأساسية. فلم يعد قطع صخور قديمة وزن الواحدة منها 100 كجم مفضلاً، لأن الاختلافات البسيطة في شكل ووزن الذخيرة ربما تسبب في إخطاء الهدف. ذلك لأن الصخور غير منتظمة الشكل تتحرك حركة مضطربة في الهواء ولا يمكن تحديد مسارها بدقة. فإن أردنا ضرب حصن أو برج أو قطعة محددة من السور لعدة مرات متتالية، يجب استخدام قذائف لها نفس الوزن ومنتظمة الشكل، ويُفضل أن تكون مستديرة.

لذا كانت هناك حاجة إلى استخدام كتل صخرية خاصة، وفريق من المحللين للبحث عن هذه الصخور واستخدام الوسيلة المناسبة في نقلها. وكان عنصر السرعة حاسماً أيضاً، ففي شهر يونيو من ذلك العام استطاع مئة قارب من إقليم سونغ - محملة بثلاثة آلاف جندي - دخول المدينة بعد معركة ضارية على مسافة 50-60 كيلومتراً من النهر. وكانت الخسارة الوحيدة في هذه المعركة هي مقتل قائد جيوش سونغ الذي عُثر على جثمانه بعد بضعة أيام من المعركة، وقد أُسجي على الجسر العائم بطول النهر ممسكاً بقوسه. وقاد إسماعيل وعلاء الدين فرق العمل المكلفة بجمع الأشجار الصالحة للاستعمال من غابة قريبة واستخراج الصخور. وإذا كان منجنيق إسماعيل يحاكي منجنيق ذئب الحرب، فإنه يمكن القول إن العمل استغرق ثلاثة أشهر- في قطع الأشجار وتسويتها وتشكيل الأطر الخشبية وقطع الصخور على هيئة كرات مستديرة وجمع كتلة عشرة أطنان لتُستخدم كوزن مقابل.

وقد صُممت الآلة بحيث يمكن تفكيكها باستخدام ترس رفع، ويمكن إمساك الصخور بها وتحريكها.

ما هي أنسب أماكن الهجوم؟ قرر القائد المغولي «أريق-خايا» اتباع طريق غير مباشرة بمهاجمة فانشينغ، وقد جاء ضمن سيرته الذاتية: «لقد اعتبر العلاقة بين فانشينغ و»شيانغ يانغ» مثل العلاقة بين الشفاه والأسنان، فطلب الإذن من كوبلاي لتحويل وجهته إلى المدينة التابعة. فكان أول ما يجب القيام به عزل فانشينغ بتدمير الجسر المائي لمنع الإمدادات عن المدينة». وتلخص السيرة الذاتية لـ «أريق-خايا» القصة على النحو التالي: «اقترح إسماعيل - وهو رجل من الغرب - طريقة جديدة لصنع المنجنيق، فاصطحبه معه «أريق-خايا» إلى المعركة، وخلال الشهر القمري الأول (ما بين يناير وفبراير 1273، رغم أن كتاب تاريخ اليوان ذكر أن الهجوم وقع في ديسمبر 1272) تمكنوا من صنع المنجنيق واقتحام فانشينغ».

فإذا كان هذا التوقيت هو الأول الذي استخدم فيه إسماعيل سلاحه الجديد، فلا بد أنه قد برع في تصميمه ليصبح مثل المدفع الذي يمكنه إطلاق قذيفتين إلى مسافة معينة ثم تعديل طول المقلاع أو تجهيز وعاء المقلاع ليستوعب إطلاق كرة صخرية جديدة على الأسوار، وتُعرف هذه العملية في مجال المدفعية باسم الكتيفة. ومن بين عناصر الأمان الأخرى بالمنجنيق وضع ما يشبه العقدة لمنح ذراع الرفع مساحة سنتيمترات أقل في قوة الدفع، ومن ثم تصل القذيفة الثالثة إلى الهدف تماماً. وربما شاهد حراس فانشينغ الكرة الصخرية تتحرك ببطء نحوهم ثم تدك الحصون في صورة انفجار صخري يؤدي إلى حدوث ثقب كبير في الجزء العلوي من الأسوار. وقد جاء ضمن سيرة «أريق-خايا» الذاتية: «استطاع المنجنيق الإسلامي الذي صممه إسماعيل اختراق الأسوار..... ولاسيما مع انقطاع وصول التعزيزات من شيانغ يانغ إلى الحصن؛ مما أدى في النهاية إلى سقوط المدينة».

ونأتي إلى ذكر موقف مدهش، فقد ظلت فانشينغ تقاوم للنهاية رغم علم الجميع بما كان يحدث للمدن التي ترفض التسليم: القتل الجماعي للسكان بهدف إرهاب المدن الأخرى ودفعها إلى سرعة الإذعان. وكان كوبلاي يرفض هذه الأساليب، ومع ذلك ظلت مشكلة شيانغ يانغ قائمة. من وجهة النظر المغولية كان هناك شبه اتفاق بين «أريق-خايا» وأجيو على عدم وجود خيار آخر سوى القتل العلني. وكانت الحملات الإسلامية القديمة تبقي

على الشيوخ والنساء والأطفال لاستخدامهم عبيداً. ولكن في حالة فانشينغ لم يكن هناك أي إشارة للبقاء على حياة أي من هؤلاء إذ لم يُفرّق بين الصغير والكبير وبين الجندي أو المدني وبين الرجل أو المرأة أو الطفل. ومن ثم حصدوا رقاب ثلاثة آلاف جندي ونحو سبعة آلاف آخرين مثل الشياه مع صلب جثامينهم على تبة عالية للتأكد من مشاهدة أهالي شيانغ يانغ للمجزرة. وقد قال ريتشارد ديفيز: «ما كان هناك شيء يثبط همم المدافعين عن شيانغ يانغ حتى هذا المنظر البشع والرسالة المخيفة التي عكست وحشية الأعداء».

ثم جاءت الأوامر إلى إسماعيل بتوجيه سلاحه الجديد صوب شيانغ يانغ، ولابد أن هذه العملية كانت شاقة للغاية بسبب تفكيك الآلة وسحبها ونقلها عبر النهر، ثم إعادة تجميعها على مسافة مناسبة من شيانغ يانغ في «الركن الجنوبي الشرقي من المدينة»، حسبما جاء في كتاب تاريخ اليوان. وقد أصبح إسماعيل البارع في صنعته معروفاً بقدرات آلته الدقيقة، وأتصور أنه أراد من خلال نصب المنجنيق بزاوية مثلثة، أن تكون المسافة بينه وبين أبراج المراقبة في شيانغ يانغ هي المسافة نفسها في حالة فانشينغ. وكانت الآلة كما أشرنا تزن 100 كيلوجرام تقريباً. وجاءت النتيجة مدهشة فوصفتها السيرة الذاتية لأريق-خايا بالقول: «ضربت القذيفة الأولى برج المراقبة، فرجّ صوت القذيفة المدينة بالكامل كعاصفة رعدية، فغرق كل ما هو داخل المدينة في فوضى عارمة».

وانتشرت حالة من الجدل في الجانب المغولي بين القادة حول إتباع هذه الضربة بهجمات شاملة تنتهي بحمام من الدم وآلاف الجثث بطبيعة الحال. ولكن هدفه كان أقل إستراتيجية ويعتبر رد فعل مفهوم من جانب العناصر المغولية القادرة المرابطة حول النهر. وكان لدى أريق- خايا رأي آخر، فذهب بنفسه سيراً على الأقدام إلى السور ونادى على زعيم المدينة ليو-وين-هوان (Lu Wen-huan) قائلاً له: «لقد سيطرت على المدينة بجيش أعزل سنوات طويلة». وصرخ قائلاً (ربما كان هذا النداء عن طريق مترجم): «ولكننا الآن نجحنا في قطع المدد عنكم حتى من طيور البحر. وإن سيدي الإمبراطور معجب بحسن بلائك، وإذا استسلمت فسوف يخلع عليك منصباً كبيراً ومكافأة سخية. تأكد من ذلك وثق أننا لن نقتلك».

فتردد ليو الذي كان متشككاً كالثعلب، فاضطر أريق-خايا إلى كسر أحد السهام وتكرار

وعوده أربع مرات. وأخيراً اقتنع ليو بكلامه وسلم المدينة في 17 مارس 1273، وكانت وعود أريق-خايا سيفاً على رقبته. ومن ثم فقد وافق ليو-وين-هوان على أن يجعل من نفسه خائناً في عيون أهالي إقليم سونغ ووافق على الحصول على منصب كبير مع كوبلاي، وأتصور أنه كان له أهمية كبيرة في الحملة التالية.

ومن الصعب إغفال أهمية هذا الانتصار، فإذا كان إقليم سونغ قلعة فإن شيانغ يانغ هي برج مراقبتها، وقد ساعد سقوط شيانغ يانغ ليس على فتح الطريق عسكرياً إلى قلب سونغ فحسب، بل أيضاً مهّد إلى نسف مصداقية حكومة سونغ وصلابتها. ففي هانغزو، صار رئيس الوزراء جيا سيداو في مأزق، بعد أن كان عدواً لدوداً لكوبلاي منذ حصار واتشونغ (Wuchong)، فكان سيداو سياسياً ثرياً عشق الكريكيت والأساليب الماكرة، وشريكاً في الخطأ والإثم عندما أخفى حقيقة الحصار عن إمبراطور سون، أو هكذا اعتقد الناس.

وتقول القصة إن الإمبراطور سأل جيا عام 1270 عن استمرار الحصار على مدار ثلاث سنوات، فأجابه: «القوات الشمالية انسحبت بالفعل. ولكن من أخبر سموك بذلك؟». فرد الإمبراطور: «صديق مقرّب».

ويشير التاريخ الرسمي لإقليم سونغ إلى أن جيا عرف الفتاة التي أفضت بذلك الخبر إلى الإمبراطور من بين مئات الفتيات اللائي حضرن للمحاكمة، فوجه إليها تهمة لا سند لها هي الخيانة، وأجبرها على الانتحار. ويبدو أن الإمبراطور لم يشعر بالشفقة على الفتاة المسكينة، لكن القضاة أعلنوا براءتها وبدأ الغوغاء في تبادل النكات عنها وألفوا الأغاني الساخرة. وتروي لنا سجلات التاريخ أنه لم يجرؤ أحد بعد ذلك على التحدث في شيء بخصوص جبهة القتال، مما يعني أن الأنباء عن سقوط شيانغ يانغ نزلت على الإمبراطور وحاشيته كقذيفة منجنيق.

امتلأ كوبلاي سروراً وخلع على إسماعيل 250 قطعة من الفضة- أو قرابة تسعة كجم، وهو ما يبلغ قيمته في الوقت الحالي ألفي دولار فقط، ولكنها كانت في ذلك الوقت تعادل دخل عشر سنوات للفنان، أي ما يكفي لشراء ضيعة إذا كان لديه الوقت الكافي لذلك. ولكنه لم يفعل ذلك أولاً لأنه عُيّن قائداً للمدفعية الإسلامية المحلية، وثانياً لأنه تعرض لوعكة

صحية في السنة التالية ومات. إلا أن أعماله ما تزال تشهد على براعته، كما ورث ابنه أبو بكر منصبه وخبرته التي تناقلتها الأجيال واستمرت حتى نهاية عهد (يوان). وأصبح ابتكاره العظيم منذ ذلك الحين معروفاً ليس بصفته منجنيقاً إسلامي الصنع فحسب ولكن أيضاً بصفته منجنيق شيانغ يانغ.

كان هذا الحصار هو الأشهر على مر التاريخ الصيني، وبلغ من شهرته أن ماركو بولو سمع عن القصة وأحب سردها. لكن المشكلة أنه في الوقت الذي بدأ فيه سرد مغامراته، تناول عصوراً كثيرة صنع لنفسه ولأبيه وعمه فيها أدواراً عظيمة. إلا أن روايته حول حصار «سيانفو» كانت ضعيفة للغاية، فقد اعتبرها كثير من الباحثين نوعاً من تحسين الصورة، بل كانت بصراحة شديدة أكذوبة.

ونعرض فيما يلي ما سجله المؤلف الرومانسي روستيشيللو الذي كان رفيقاً لماركو كظله، بطريقته العذبة عما أخبره به ماركو عندما كانا في السجن بجنوة بعد نحو 25 عاماً من الحدث (هذا النص مقتبس من إصدار يول-كورديار لعام 1903):

«يجب أن نعرف أن هذه المدينة استعصت على الخان العظيم مدة ثلاث سنوات بعد استسلام بقية مناطق إقليم مانزي (هذه المعلومة غير صحيحة، حيث سقط إقليما مانزي وسونغ في عام 1279 أي بعد 6 سنوات من انتهاء الحصار). وقد بذلت جيوش الخان العظيم محاولات مضنية للاستيلاء على المدينة، لكنهم فشلوا بسبب عمق المياه المحيطة بها، ولم يتمكنوا من الاقتراب إلا من جانب واحد فقط - جهة الشمال (حيث امتد نهر الهان جهة الشمال، وجعل أي اقتراب للقوات نوعاً من المستحيل). واعلم أنهم ما كانوا ليتمكنوا من الاستيلاء عليها إلا للظروف التي سأسردها فيما يلي».

يجب أن تعلم أنه عندما امتد حصار الخان العظيم للمدينة على مدى ثلاث سنوات دون أن يتمكن من السيطرة عليها استشاطوا غضباً. ثم قال السيد نيكولو بولوم والسيد مافيو والسيد ماركو: «يمكننا أن نجد طريقة تجبر المدينة على الاستسلام بسرعة». فأعرب القادة عن سعادتهم بسماع هذه الطريقة. كان ذلك في حضرة الخان العظيم....ثم تحدث لي الأخوان والسيد ماركو فقالوا: «يا مولانا العظيم، من بين أتباعنا رجال قادرون على بناء

منجنيق تستطيع به سحق تلك الأحجار الهائلة التي سيعجز الحصار عن تخطيها، ولسوف تخضع المدينة بمجرد تصويب المنجنيق وإطلاقه».

وأعرب لهم الخان عن رغبته الشديدة في سرعة إنهاء المنجنيق بأسرع ما يمكن، فأمر السادة نيكولو وأخاه وابنه على الفور بسرعة إحضار الأخشاب بالشكل الذي حددوه والبدء في العمل. وكان من بين أتباعهم رجلان أحدهما ألماني والآخر نسطوري مسيحي من ذوي البراعة الشديدة في هذا المجال، وأمروهم ببناء وحدتين أو ثلاثة من المنجنيق ذات القدرة على حمل أوزان من الحجارة يتعدى وزنها 300 باوند أو أكثر. وكم كانت سعادة الإمبراطور والقادة عند رؤية وحدات المنجنيق وتجربتها أمامهم، فزادت سعادتهم أكثر وأكثر وأثنوا على العمل، وأصدر الخان أوامره بضم الآلات الجديدة إلى جيشه الذي حقق انتصاراً كبيراً في سيانفو.

وعندما وصلت الآلات إلى معسكر الجيش بدؤوا في تجميعها مما أثار إعجاب التتار. ماذا يمكنني أن أخبرك؟ فعند تجميع الآلات ووضعها على الترس المخصص لها، أُطلقت قذيفة من كل منها على المدينة. وكانت هذه القذائف ذات تأثير كبير على المباني، حيث حطمت وهشمت كل شيء وأحدثت جلبة واضطراب شديدين. وعندما رأى سكان المدينة هذا السلاح الجديد والغريب أصابهم الذهول وتسرب التوتر إليهم فلم يعرفوا ما يفعلون أو يقولون. وانعقدت الاجتماعات، ولكن لم تكن الاجتماعات سبيلاً ملائماً للهروب من تلك الآلات، ورأوا أن الموت مصيرهم إذا واصلوا مقاومتهم، لذا فقد أعلنوا استسلامهم.... وقد جمعت هذه الرواية من اجتهادات السادة نيكولو ومافيو وماركو ولم يكن ذلك بالأمر اليسير».

قصة جيدة حقاً إلا أنها مليئة بالبطلان، فلم يستطع ماركو الصغير - وكان عمره وقت هذا الحدث 21 عاماً - دخول بلاط كوبلاي حتى عام 1275، أي بعد مرور عامين من انتهاء الحصار العظيم. ومن ثم فمن المستحيل أن يكون هو أو أبوه أو عمه قد أسهموا بشيء في تصميم المنجنيق، ولم يكن هناك وقتها أي داعٍ للاعتماد على عائلة بولو والتخلي عن جهود إسماعيل وعلاء الدين. ويبدو الأمر برمته مجرد تخيلات واجتهادات ذاتية، إذ لا توجد أي تفاصيل حول المنجنيق، علاوة على عدم تحديد أسماء الأتباع الذين صمموه، ولم يظهروا

بعدها أبداً، وليس ثمة إشارة لغزو فانشينغ، ناهيك عن التلميحات الغامضة الخاصة بـ «شيانغ يانغ».

حاول ماركو بولو - أو رفيقه الملازم له - إضفاء نوع من الدراما على الحدث، ويشهد على ذلك الادعاء العاري من الصحة عن مدينة «يانغ زو»: «حتى السيد ماركو نفسه الذي يتحدث عنه هذا الكتاب حكم هذه المدينة ثلاث سنوات كاملة بأوامر من الخان العظيم». لكن الحقيقة أنه لم يحكم؛ لأن المصادر المختلفة التي أفردت صفحاتها لسرد أسماء حكام المدينة لم تذكر ماركو. وهي ليست المرة الأولى - ولن تكون الأخيرة - التي يحاول فيها كاتب مغمور الخروج عن الحقيقة ما لم يكن هناك من يستطيع كشف هذا الحيود.

وهناك أمران رئيسان يجب توضيحهما في حق ماركو: أولاً يعتقد كثير من الكُتاب الذين انتقدوه تحريفه للحقائق أنه ادعى أنه كان موجوداً في وقت الحصار، لكن هذا لم يحدث. فمن المعروف أن فكرة المنجنيق وتصميمه تمت في عهد كوبلاي في زانادو، حيث اعتقد أنه سمع فيها القصة للمرة الأولى ونسبها إلى نفسه. ثانياً يبدو ادعاء ماركو أنه كان حاكماً لمدينة يانغ زو في إصدارين فقط من إصداراته الخمسة الرئيسة، والتي تعتبر نسخاً غير دقيقة عن النص الأصلي المفقود، ومن ثم ربما كان ضمير ماركو متيقظاً أثناء كتابة هذه الإصدارات.

وعندما ترددت أنباء سقوط شيانغ يانغ في هانغتشو، سيطرت حالة من اليأس والامتعاض على أهلها، وفجأة استيقظ علية القوم على تهديد مطبق على حياتهم الرغدة والمتمدنة، كما خيم القلق على مناقشات المثقفين خلال رحلاتهم إلى البحيرة الغربية وطقوسهم المقدسة وأعمالهم الفنية التمجيدية. وما كان ذلك الأمر ليخطر على بال أحد، إذ لم يحدث من قبل في تاريخ الصين أن هدد بربريون جنوب البلاد. وقد أصر البلاط الإمبراطوري على إلغاء أحد الأحداث القومية وأعلن عن ضرورة توفير الأموال لتدعيم الدفاعات على نهر اليانغتسي. وللحفاظ على المعنويات مرتفعة صدرت الأوامر بعدم تنفيذ حكم الإعدام في المسؤولين عن الهزيمة مع الاكتفاء فقط بعزلهم من مناصبهم، وحتى أقارب ليو وين-هوان القائد الذي سلم مدينة شيانغ يانغ وانضم إلى المغول، صدر العفو عنهم والتأكيد على عدم التشكيك في ولائهم، وكانت هذه المؤشرات هي علامات ضعف النظام وتهاوي أركانه.

ثم تعاقبت الكوارث الواحدة تلو الأخرى، ومات الإمبراطور ديوزونغ فجأة عن 34 عاماً فقط، ثم حدثت ثورة بركانية بجبل على مسافة يوم من غرب هانغتشو محدثة انزلاقات أرضية مدمرة وفيضانات من المياه. وفي اللغة الصينية تحمل ألفاظ الانزلاق الأرضي والموت المقدس معاني مختلفة لنفس الصفة. وعلى مستوى القادة تولى حكم سونغ وريث ديوزونغ الذي كان عمره حينها 4 سنوات تحت وصاية من جدته الطاعنة السن الإمبراطورة «دواجر» ورئيسة الوزراء المشكك في ولائها جيا. كانت الكوارث متلاحقة تماماً مثل الدموع في الحرير القديم، ولم يكن هناك أحد يستطيع جمع شتات سونغ. لقد أصدرت السماء حكمها ليُسدل الستار على هذا العصر.

الفصل التاسع

الطاغوت

لم يرغب كوبلاي في أن يترك أي مجال للخطأ في حملته القادمة التي ستتسم بالاتساع والحيوية في آن، ورأى ضرورة الإبقاء على القائد آجو الذي حقق انتصاراً في حصار «شيانغ يانغ»، لكنه وضعه تحت قيادة القائد والسياسي المتمرس والنشيط بيان الذي تمتع بخبرات واسعة في فنون القتال.

وعن طريق تعيين القائد بيان أصبح كوبلاي يلعب بورقتين ملكيتين هما: الإمبراطورية والعائلة، لأن أسلافه لعبوا أدواراً قيادية في واحدة من أكثر حكايات كتاب «التاريخ السري» إثارة، قبل أن يصبح جنكيز خاناً بخمس سنوات، وبالتحديد عندما كان اسمه تيموجين، وكان يحارب لتوحيد القبائل المغولية. فعندما كان تيموجين (جنكيز) شاباً اعتقله زعيم إحدى العشائر المنافسة، وهو شخص اسمه «تاركوتاي كيريلتوك» (الجزء الأول من اسمه معناه «البدين»)، لكن تيموجين استطاع الفرار من قبضته وشن غارة انتقامية عليه، فانهزم كيريلتوك واختبأ، لكن رجلاً وابنيه كانوا من رعاياه في السابق ألقوا القبض عليه ووضعوه في عربة لأنه لفرط بدانته لم يستطع ركوب الخيل، وتوجهوا لتسليمه إلى جنكيز. لكن أبناء كيريلتوك لحقوا بهم لإنقاذه، فقفز الأب شيريجيتو على أسيره البدين ووضع سكيناً على رقبته وصرخ قائلاً: «ابتعدوا!»، ثم قال لكيريلتوك (حسب كتاب «التاريخ السري»): «إذا هاجموا فسوف تصل معي إلى عالم الموت في نفس اللحظة التي سأموت فيها». فصرخ البدين: «نفذوا ما يقوله. تيموجين لن يقتلني لأني لم أفعل به ذلك عندما سنحت لي الفرصة». فتراجع أبناؤه، لكن هذا الكلام جعل الخاطفين يفكرون: «تيموجين يحب الوفاء لكننا نخون الخان الذي يحكمنا. فلا شك أن تيموجين سوف يقتلنا جزاء على خيانتنا ولن يكافئنا». فتركوا كيريلتوك وشأنه. وعندما وصلوا إلى تيموجين أكد لهم ظنهم به: «اعتقادكم بعدم جواز التخلص من حاكمكم الشرعي صحيح». وأبدى امتنانه لهذه الأسرة وخلع عليهم من الشهرة والمال الكثير، فقد تخلد ذكر شيريجيتو الأب العجوز في الأسطورة. وعندما أصبح جنكيز خاناً في عام 1206 جعل ابني شيريجيتو، نايا وآلاك، قائدين على ألف رجل، وأصبح «نايا» واحداً من أفضل ثلاثة قادة في قوات جنكيز.

الآن نعود إلى نقطة البداية: الرجل الذي وضع السكين على حلق كيريلتوك (شيريجيتو) هو الجد الأكبر لبيان، والقائد «نايا» هو عمه الأكبر. وقد قاد جده آلاك الحملة ضد إيران في

عامي 1219–1220 وأصبح حاكماً على إحدى مدنها. وكان والد بيان مع هولاكو عام 1256 حيث توفي أثناء القتال عندما كان عمر بيان لا يتجاوز 20 عاماً. وقد بقي بيان نفسه يعمل مع هولاكو لعقد من الزمن أو نحو ذلك، ثم جاء إلى الصين للانضمام إلى كوبلاي باعتباره أحد كبار مسؤوليه المدنيين. وخلال خمس سنوات حصل بيان على سمعة كبيرة لهدوئه وتفكيره الرزين حتى مع وجود الضغط (إضافة إلى ذكائه حيث تمكن من تعلم اللغة الصينية)، فاختاره كوبلاي بعد ذلك لإدارة مكتب الشؤون العسكرية تحت السلطة الاسمية لرئيسها الابن الأكبر لكوبلاي. وعندما بلغ بيان من العمر 34 عاماً وجد نفسه مسؤولاً عن مهمة القيام بخطوة عملاقة نحو تحقيق المصير الذي رسمته الأقدار لعائلته التي شاركت فيه عن كثب خلال أربعة أجيال.

وكانت تلك خطوة كبيرة؛ لأن العصر الذي تحقق فيه النصر بفضل سلاح الفرسان المغولي كان قد مضى منذ مدة طويلة. وأصبح سلاح الفرسان لا يشكل سوى جناح من ثلاثة أجنحة. وكان عدد أفراد الجيش الذي حشده بيان وآجو حول «شيانغ يانغ» في صيف 1274 قرابة 200 ألف مقاتل مشاة، أكثر من نصفهم من شمال الصين، مدعومين بأسطول نهري قوامه 800 سفينة حربية حديثة البناء وخمسة آلاف قارب صغير تنقل 70 ألف بحار– بواقع قارب واحد لكل 14 بحار. وتمتعت هذا القوة البرمائية بالمرونة وتعدد الجنسيات، وكان ذلك ضرورياً لأن سونغ كان ما زال لديه 700 ألف رجل تحت تصرفه، وألف سفينة حربية في نهر اليانغتسي.

ولم يكن من النصر بُد، وكان على هذا النصر أن يخدم غرضاً ما على المدى الطويل كما حدث مع كوبلاي في حملة يونان. فقد نصحه أحد مستشاريه بضبط النفس، فأصغى إليه ثم قال: «أستطيع القيام بما أخبرتني به عن تورّع تساو عن قتل الناس». وكان يعرف بخبرته أن النصر العسكري يجب أن يُقابل بنصر من نوع آخر عن طريق كسب قلوب عامة الناس وعقولهم، وإذا أراد لنصره على سونغ أن يستمر، فعليه أن يمارس نظام حكم جيد لتخفيض معاناة المدنيين، لذلك قال لبيان: «قلّد تساو بن!».

وكانت المهمة الأولى لبيان في خريف 1274 إيصال جيشه على طول نهر الهان إلى اليانغتسي على مسافة 250 كيلومتراً. لكن النهر كان مسدوداً من خلال 100 ألف رجل

نصبوا خيامهم حول حصنين مرتبطين ببعض عبر النهر. فأمر بيان قواته بتجاوز تلك المنطقة من النهر لتفادي الوقوع تحت حصار جديد. وحملت القوة الرئيسية القوارب براً على أعمدة من الخيزران واحتمت بعشرة آلاف عمود، وبدأت تتقدم بالتوازي على جانبي النهر وسارت عشرات الكيلومترات يومياً وهي تصد الهجوم المضاد عليها بطول الطريق، ولذلك كان التقدم بطيئاً. وبحلول ربيع 1275 قاد بيان وآجو قواتهما للخروج من وادي الهان إلى سهول فيضان نهر اليانغتسي.

ظل كوبلاي يتابع أخبار الحملة باهتمام كبير، لا لأن نتائج الحرب تتوقف على استمرار نجاح قواته وحسب، وإنما لأنه هو نفسه عبر نهر اليانغتسي قبل 15 عاماً عندما تسببت وفاة مونخيه وتمرد أخيه آريق في عكس اتجاه تقدم قواته. وكان كوبلاي يعرف جيداً تخطيط المدن الثلاث التي تتكون منها ووهان حالياً، وهي حصن «يانغ لو» الكبير الواقع عند المصب، ومتاهة البحيرات والخلجان الضحلة. وكان كوبلاي أيضاً يعلم أن تمشيط المناطق الشاسعة الواقعة إلى جوار نهر اليانغتسي مهمة صعبة جداً، وهو الذي عبره النهر في مهمة باءت بالفشل في محاولته الاستيلاء على ووتشانغ.

وكان على بيان أن يتغلب بطريقة أو بأخرى على قلعة يانغ-لو التي تبدو غير منيعة والتي يحرسها أسطول أكبر بكثير من أسطوله حيث تكمن فرصته الوحيدة للتفوق على خصومه في عبور النهر الذي يخضع لحراسة مشددة وإقامة قاعدة على ضفته الجنوبية. ولأن الهجوم المباشر قد يفشل فقد حاول أن يقوم بخدعة، فقسم قواته وخصص جزءاً منها لمهاجمة الحصن، مما اضطر القائد الصيني لطلب التعزيزات من المناطق الواقعة عكس مجرى النهر. ثم أرسل في ليلة مثلجة من ليالي يناير آجو مع النصف الآخر من قواته على بعد 20 كيلومتراً من منبع النهر وهم يحملون بعض القوارب معهم، فخاضوا النهر المتجمد واحتلوا بعض أجزاء الضفة. وبحلول الفجر بنوا جسراً عائماً وتغلبوا على مقاومة قوات العدو وشكلوا نقطة هجوم على الضفة الجنوبية. ثم استولوا على أسطول سونغ وانتصروا بطريقة أو بأخرى، إذ لا توجد لدينا تفاصيل، ففر القائد وأبحر أسطول سونغ المنهزم بعيداً باتجاه مجرى النهر واستسلمت القلعة.

وشهد الشهر التالي تقدماً سهلاً باتجاه مجرى النهر بفضل معونة قائد «شيانغ يانغ»

السابق لي ون-هوان الذي كان أيضاً قائداً للعديد من الحاميات باتجاه مجرى النهر؛ إذ بكلمة منه استسلم القادة، مما أتاح للجيش المغولي التقدم بسهولة.

بدأت مدينة هانغتشو تنزلق نحو الشعور باليأس بسبب تعالي سمعة بيان في كل انتصار يحققه، فأطلق عليه الصينيون لقب «المئة عين» (وترجمتها الحرفية بالصينية «باي يان»). وعلى النقيض بدأت مكانة جيا تتراجع يوماً بعد يوم بسبب تنديد مسؤولي البلاط وعامة الشعب بحبه للترف وجمعه الكنوز وحفلاته الفارهة. فقرر تولي قيادة الجيش بنفسه ليستعيد سلطته. وقاد في شهر فبراير قوة زاد قوامها عن 100 ألف رجل خارج المدينة، احتشدوا على بعد 40 كيلومتراً غرباً لاعتراض تقدم بيان باتجاه مجرى نهر اليانغتسي، فأمست العاصمة خالية من القوات التي اشتدت حاجتها إليها.

وفي هذه المرحلة أصبحت شيه - أرملة الإمبراطور - مصدر إلهام لشعبها. وهي امرأة غير جميلة قاتمة البشرة غريبة الشكل، عانت من مرض الساد (الماء الأبيض) في إحدى عينيها، وبقيت لسنوات لا تطمح لبسط سلطتها خارج حدود قصرها. لكنها في تلك المرحلة بدأت تتكلم وتحث الشعب على الانضمام إلى المجهود الحربي وقالت في مرسوم لها: «رغم كبر سني وتهالك عافيتي.. توليت على مضض مسؤولية شؤون الدولة. كيف وصلنا إلى هذه الحالة الراهنة التي تحيد عن ثوابت السماء والأرض؟ لقد ترك حكمنا الفاضل - طوال ثلاث مئة سنة - على الشعب أثراً حميداً بكل تأكيد... وقد تقدم هؤلاء الرجال الأفاضل ذوو القلوب الصالحة وقاتلوا القوى التي تتهدد العرش وبذلوا الغالي والنفيس في سبيل ذلك». فأتى هذا المرسوم بنتيجة طيبة، فقد تقاطر 200 ألف رجل من أنحاء البلاد في شهر مارس 1275 لينخرطوا في صفوف الجيش.

وبعد شهر - وعلى بعد 250 كيلومتراً - بدأ جيا بنشر جيشه قرب تونجلينج في المقاطعة التي تسمى اليوم أنهوي ليعيق مجرى النهر، وهي مهمة صعبة للغاية فكما يظهر جسر تونجلينج الجديد الذي أقيم عام 1995 عبر نهر اليانغتسي فإن عرض النهر في تلك المنطقة يبلغ 2.6 كيلومتراً، كما أن التلال التي يخترقها مسار النهر المتعرج منخفضة وبعيدة. غير أنه يوجد في تونجلينج ارتفاع طفيف يجعل النهر يأخذ مساراً مقوساً تقوساً واسعاً، كما توجد جزيرة في منتصف النهر يمكن أن تشكل قاعدة للهجوم. وانضمت إلى جيا 2500 سفينة

حربية معظمها من الأسطول الذي انهزم في «يانغ لو» بانتظار وصول بيان.

غير أن بيان كان يشعر بالزهو بانتصاراته السابقة، حيث كانت قواته البحرية مزودة بجميع أنواع الخدمات المسلحة المجربة من قبيل سلاح الفرسان المغولي (مع قوات الاستطلاع في الجانبين والأمام)، والمشاة الصينيين، والعديد من القادة المنقلبين على سونغ الذين لديهم الكثير من المعلومات المفيدة حول الدفاعات الموجودة تجاه مجرى النهر، وسلاح مدفعية رائع من ضمنه «منجنيقات شيانغ يانغ» التابعة لإسماعيل، والتي لا ضرورة لحملها وإنما يمكن جعلها تطفو على صفحة الماء بمعاونة الصنادل.

إذاً ماذا أقول لكم (هذه العبارة شائعة جداً في كتاب ماركو بولو)؟ للأسف لا أستطيع أن أقول الكثير لأنه ليس ثمة تفاصيل كافية في هذا الجانب. نصّب رجال المدفعية منجنيقاً عملاقاً ذا مدى كبير بلغ مئات الأمتار في حال استخدام قذائف أقل وزناً، فانهمرت الحجارة على القوارب، وهاجم سلاح الفرسان الساحل، وهبط المشاة على الجزيرة، فتشتتت قوات جيا الذين انهارت معنوياتهم، وتركت وراءها ألفي قارب في أيدي المغول.

فر جيا مهزوماً مهاناً، فطلب خصومه في البلاط إعدامه، لكن الأرملة شيه التي صلّبتها تجربة نصف قرن لم تنحن أمام هذه الضغوط فأجابت قائلة: «لقد كدح جيا سيداو دون كلل خلال العهود المتعاقبة لثلاثة أباطرة، فكيف يمكن أن نتخلى عن اللياقة التي يستحقها هذا المسؤول الكبير بسبب خطأ واحد؟». لذا فقد قامت بدلا من إعدامه بتجريده من منصبه ونفيه إلى تشانغتشو على الساحل على بعد 800 كيلومتر جنوباً. لكن أين المفر؟ فقد أمر القائد جينج هوجين حراس جيا بالتهكم عليه بالأغاني التي تهينه والتي سمعوها في هانغتشو. وعندما اقتربوا من وجهتهم قتله جينج. وبموته لم يعد يُذكر إلا من خلال أخطائه وصار يُذم بالقول إنه «آخر حاكم سيئ من حكام سونغ».

وفي هذه الأثناء واصل بيان تقدمه وانتصاراته باتجاه مجرى النهر، فاستسلم كل من ووي وهيه شيان، وهي العاصمة المحلية لمنطقة نانجينج، مما جعل أكثر من خمسة قادة مدنيين يستسلمون أمام المغول، وتسبب بحالتي انتحار (شكلتا البداية لحالات انتحار كثيرة كما سنرى). وفي نانجينج تذكّر بيان مخطط كوبلاي الرامي للفتح والحكم على المدى

الطويل. لذا أوقف تقدمه مدة أربعة أشهر وأقام حكماً محلياً للثلاثين مدينة التي غزاها، والتي تضم مليوني نسمة ونصب دفاعات على جانبي النهر. وبعد ذلك فتح مفاوضات مع هانغتشو، لكنها تعرقلت بسبب العداء الذي يكنه العامة والمسؤولون للمغول. وقد شكل ذلك فيما بعد مشكلة متزايدة لأن الناس العاديين خارج المؤسسة العسكرية والمناصب الحكومية الرفيعة يتمتعون بولاء هائل لأرضهم وثقافتهم. وقد شكّل ذلك بالفعل بداية لحرب العصابات التي استعادت عدة بلدات في فترة وجيزة، ففي أبريل قُتل رسولان لبيان من قبل السكان المحليين قبل دخولهما هانغتشو، ثم لقي رسوله اللاحق المصير نفسه.

وعندما حل الصيف ازداد التوتر بين المغول وشمال الصين مع زيادة الحرارة، وكان بيان يسعى لمواصلة الغزو لكنه اضطر إلى تأجيل ذلك بسبب مواجهة كوبلاي لتمرد آخر في أرض الوطن، وهو موضوع الفصل التالي، حيث كان يريد الاستفادة من مشورة بيان. وقد أتاح هذا التأخير لآجو تجديد القتال مع سونغ واسترجاع عدة مدن أخرى من أهمها يانغتشو وميناء «تشينغ يانغ» النهري القريب منها. وقد قامت سونغ باعتراض مجرى النهر من خلال ربط السفن الحربية المبحرة بالسلاسل، لكن سفن المغول أضرمت بها النار، فانفجرت وتحولت إلى كارثة عسكرية أخرى حيث سقط 10 آلاف قتيلاً وأسر 10 آلاف أسير (وهذه الأرقام أيضاً هي مجرد تخمينات). فأصبحت قوات المغول على بعد 225 كيلومتراً من مصب نهر اليانغتسي في شبه جزيرة شنغهاي، لذا لم يبق أمام المغول إلا بذل القليل من الجهد.

وفي سبتمبر قرر بيان أن يقوم بهجومه النهائي على ثلاث جبهات بحراً وبراً حيث قاد قوات المنتصف في هذا الهجوم الثلاثي ضد القناة الكبرى. وقد أحرزت القوات البرية والبحرية تقدماً سريعاً، لكن القوات التي قادها بيان واجهت مقاومة عنيدة وغير متوقعة من المدينة القديمة والمزدهرة تشانغتشو؛ لأنها تعززت بخمسة آلاف جندي من جنود سونغ. وتتميز المدينة بعلمائها وبأنها تشكل المفتاح إلى الجزء الجنوبي من القناة الكبرى، لذا فقد منحها بيان فرصة للاستسلام من خلال إطلاق سهام ملفوف عليها رسالة كُتب فيها: «إذا واصلتم هذه المقاومة العنيدة التي لا معنى لها فإنه حتى الأطفال لن يسلموا من القتل وحمّام الدم. عليكم أن تعيدوا النظر في موقفكم على وجه السرعة كي لا تندموا لاحقاً». لكن سكان

المدينة لم يعيدوا النظر في موقفهم؛ بل إنهم لم يعيشوا طويلاً كي يندموا على قرارهم لأن المغول ارتكبوا في هذه الحملة مجزرتهم الثانية، فقد اقتحم بيان المكان وأمعن تقتيلاً بالجنود والمدنيين وتدمير كل شيء مدة يومين حتى بلغ عدد القتلى 10 آلاف شخص. وكما حدث في فانشينغ تكومت أعداد هائلة من الجثث وغطت مساحة تقارب الفدان بالقرب من البوابة الشرقية للمدينة. ثم غُطيت الجثث لاحقاً بالتراب، لكن بعض العظام بقيت تظهر أحياناً كلما حُفرت المنطقة لأكثر من 600 سنة حتى فترة متأخرة من القرن الماضي.

وقد وقعت هذه المذبحة على مقربة من العاصمة بهدف دفع الناس على الاستسلام فوراً، فنشرت الذعر بين الناس وبدأ المغول يشعرون بجنون العظمة، لذا تمرد الجنود وفروا هاربين، وقام الشخص الذي حل محل جيا بضرب ضابط كبير بهراوة حتى الموت. وبذلت الإمبراطورة الأرملة قصارى جهدها لتأخير ما هو محتم وحشد همة جموع الناس ودعمهم من خلال العواطف حيث قالت: «إن الإمبراطورية تتعرض للأسف لخطر وشيك وهو أمر محتم بسبب تدني مستوى الفضائل الأخلاقية لدينا». ولفتت نظر الناس إلى أنه عليهم أن يتذكروا الحكم الأخلاقي والخيري الذي دام أكثر من 300 عام قبل أن يأتوا إلى العاصمة «للتعاون مع عدو أميرهم». وقد أعطى هذا النداء لرفع همم الناس أثراً إلى حد ما، فقد تقاطر الناس من التلال والسهول المجاورة بعشرات الآلاف، لكن ولاءهم لم يقدم أو يؤخر لأنه كان غير موجه، فقد كان القادمون الجدد مجرد مجموعة متنافرة من الميليشيات الصغيرة التي زادت من الارتباك والذعر.

فأرسلت الأرملة شيه - على مدار ستة أسابيع - الرسول بعد الآخر، سعياً للتوصل إلى تسوية من أي نوع، ورغم رفض الشخص - الذي حل محل جيا - مساعيها، فقد عرضت عليه دفع الجزية أو تقسيم البلاد أو تكريم كوبلاي بصفته عمّاً للإمبراطور الشاب في سونغ. لكن بيان الذي استقر حول هانغتشو رفض مناقشة الشروط وخيّرها بين الاستسلام التام واستمرار الحرب. لكنه أعطاها ضمانات بأنه لن يمارس أعمالاً انتقامية، وأكد لها أن الاستسلام سيشتري للشعب السلام وللعائلة الملكية الأمان، وأرسل نسخة من مرسوم لكوبلاي بهذا المعنى. واقترح بعض رجال البلاط مواصلة القتال حتى آخر رجل، في حين رأى البعض الآخر أن التخلي التام عن العاصمة هو الحل الأمثل. لكن الأرملة شيه كان

لديها رأي آخر، وقد احتشدت قوات بيان البرية والبحرية وطوقت العاصمة بالكامل، وكانت العاصمة تزداد ضعفاً يوماً بعد يوم بسبب فرار الجنود والمدنيين جنوباً.

وجاءت النهاية السريعة لهذا الفصل عندما فرّ رئيس الوزراء الجديد تشن يي تشونغ طالباً السلامة، وفي يوم 26 يناير 1276، أرسلت الإمبراطورة الأرملة خطاباً إلى بيان في مقره الرئيسي الذي يبعد 20 كيلومتراً شمال المدينة، اعترفت فيه بسيادة كوبلاي على أرضها قائلة: «أنحني باحترام مئة مرة لصاحب الجلالة إمبراطور اليوان الكبرى الألمعي الروحاني الشجاع، محب الخير والسلام». وبعد أسبوع قام محافظ المدينة - الذي يمثل البلاط - بتسليم ختم سلالة سونغ ورسالة تنص على رغبة الإمبراطور بالتخلي عن لقبه لكوبلاي وتسليمه جميع أراضيه. فدخل بيان إلى المدينة منتصراً مع قادته العسكريين ووحداته، وارتجفت مئات المحظيات الجميلات مما قد يحدث لهن، وانتظرن تقييدهن مع الخصيان وعازفي الموسيقى لبدء مسيرة طويلة نحو الشمال. فانتحر عدد كبير من المحظيات غرقاً حتى لا يواجهن مصيراً يجهلنه. وفي يوم 21 فبراير أقيمت مراسم الاستسلام الرسمية والنهائية عندما قاد الإمبراطور تشاو زيان - وكان عمره خمس سنوات - بنفسه مسؤولي حكومته وانحنوا إجلالاً وإكباراً في حضور بيان نحو الشمال - وهو اتجاه وجود كوبلاي.

وقد وفى بيان بوعده ووعد كوبلاي، فعندما استولى المغول على بكين عاصمة الجين في سنة 1215، عاثوا فيها تدميراً وتقتيلاً. لكن الاستيلاء عليها كان مختلفاً للغاية فقد سُلمت المدينة سلمياً، وفُرض حظر صارم على دخول القوات غير المرخص لها للمدينة، وتعهد الغزاة بسلامة العائلة الملكية وحماية المقبرة الملكية، ولم يحاولوا زعزعة استقرار العُملة أو أنماط الزي واللباس السائدة فيها. وقام الضباط المغول والصينيون بجرد القوات والمدنيين والأموال وإمدادات الغذاء قبل مصادرة الكنوز لنقلها شمالاً. وحُلّت الميليشيات وأُدرج أفرادها بين صفوف جيوش بيان. وبطبيعة الحال، استُبدل جميع المسؤولين بالمغول والصينيين الشماليين وعناصر سونغ المنشقين، لكن من نواح أخرى وكما قال بيان لكوبلاي بفخر: «لم ننقل أماكن الأسواق من طرقها التسعة وبقيت روائع العصر بأكمله كما كانت في القديم».

وطلب كوبلاي في مرسوم له من الجميع مواصلة حياتهم كالمعتاد، ولم يتعرض

المسؤولون لأي عقاب، وحُميت المواقع الشهيرة وقدمت المساعدة للأرامل والأيتام والفقراء من الأموال العامة. وفي 26 فبراير غادرت أول قافلة من قوافل الغنائم إلى بكين وعلى متنها 300 موظف وثلاثة آلاف عربة محملة بالغنائم والأختام الرسمية. وبعد شهر ترك بيان هانغتشو - أو جنوب الصين بالكامل - في يد مرؤوسيه، واتجه شمالاً مع القافلة الثانية التي ضمت أفراد العائلة المالكة: الإمبراطور السابق ووالدته ومحظياته وأقاربه، وترك الأرملة شيه المريضة حتى تستعيد عافيتها وتستطيع السفر.

وبعد ثلاثة أشهر وفي يونيو بالتحديد وصل هذا الحشد الهائل إلى العاصمة، فرحب به كوبلاي الذي غمرته سعادة بالغة، ولم يعرف كيف يكافئ بيان، فمنحه 20 «ثوباً ذا لون واحد». وقد كان الحصول على ثوب واحد منها شرفاً رفيعاً، وأكد الثقة فيه في منصبه بصفته مدير مشارك لمكتب الشؤون العسكرية، فأصبح بيان بطل الإمبراطورية العبقري المنقذ، وكأنه القائد الأسطوري سوبيدي يعود إلى الحياة من جديد.

بعد ذلك استقرت الإمبراطورة الأرملة وحفيدها في بكين حيث حصلوا على ممتلكات معفاة من الضرائب، واعتنت بهما تشابي زوجة كوبلاي. وصارت السيدة العجوز تتقاضى راتباً صغيراً رسمياً طيلة ما تبقى من حياتها وعاشت وهي محاطة بالخدم حتى توفيت بعد ست سنوات. وهكذا انتهت رسمياً سلالة سونغ بسلام ورحمة دون دمار أو خراب.

وكانت هناك نهاية مختلفة أخرى اتسمت بالفوضى واليأس والمعاناة والحسرة، وصفها ريتشارد ديفيس في دراسته المهمة عن غزو سونغ بأنها «مأساة لا يمكن للإنسان تصور شدتها». بدأت المأساة قبل الاستسلام النهائي بفترة وجيزة عندما أرسل البلاط إلى أقصى الجنوب الأميرين الصغيرين المتبقيين: تشاو شيا (وكان عمره أربعة أعوام)، وتشاو بينغ (ثلاثة أعوام)، وهما أخوا الإمبراطور الصبي تشاو زيان الذي اتجه إلى زانادو. فحمل الأميران معهما روحاً مختلفة عن تلك التي تميزت بها مراسم الاستسلام العادية - روح الغضب والمقاومة وعدم الرغبة في المساومة على السيطرة الأجنبية، وقد تجلى كل ذلك ببطولة عبّرت عنها كلمات هوراشيوس في أناشيد روما القديمة لماكولاي:

كيف للإنسان أن يموت قرير العين

بدلاً من مواجهة احتمالات مخيفة

تطال رماد آبائه

ومعابد آلهته؟

ترافق ذلك مع مأساة أخرى حين اختارت ثقافة عظيمة أن تغض بصرها وتغلق أسماعها، وفضّلت الموت بعد أن أصبح الرفض أمراً مستحيلاً، فبعد فرار الأميرين تقدم المغول وانتشرت رائحة الموت - موت اختاره أصحابه ولم يُفرض عليهم. ويحكي «ريتشارد ديفيس» عن تلك المرحلة الصعبة ويتعرض لحكاية 110 رجال بارزين من أصحاب المراتب المتوسطة. وكانت هناك أيضاً عدة مئات من أشخاص آخرين من المستويات الأدنى من الحكومة، وآلاف البشر من الجنسين وجميع الطبقات. ولنأخذ مثالاً على ذلك: في يناير 1276 واجه «أريق-خايا» مقاومة شديدة من مدينة «تانزو» الصينية (اسمها الآن تشانغشا) التي تبعد 750 كيلومتراً إلى داخل مقاطعة هونان. وبطبيعة الحال تغلبوا على المقاومة، وقام زعيم المدينة «لي فو» بترتيب عملية انتحار جماعي لأسرته وخدمه، فسكروا جميعاً وقام أحد مساعدي «لي فو» بقتلهم جميعاً بالسيف، وقتل زوجته ثم جز عنقه. وقام مستشار عسكري بإغراق نفسه مع زوجته وصاحبته. وأحرق عالم محلي منزله الذي عاش فيه مع شقيقه وابنيه و40 من الخدم. وكما يقول كتاب تاريخ سونغ: «أباد الناس في أنحاء المدينة أسرهم عن بكرة أبيها ولم يخل أي بئر في المدينة من جثث القتلى، وتعلقت الجثث المشنوقة بمجموعات كثيفة على الأشجار». وزادت لزوجة مياه نهر شيانغ بسبب جثث القتلى التي انتشرت به. لكن هل كل هذه الأقاويل مجرد مبالغات؟ أم أن الكثير من تلك الوفيات حدثت نتيجة لاعتداءات وممارسات عدوانية؟ ربما يكون ذلك صحيحاً. لكن المدينة عندما سقطعت لم يجد «أريق- خايا» مبرراً لمعاقبة المدينة التي انتحرت بالفعل.

لكن ما الذي حصل للأميرين الصغيرين ومرافقيهما؟ لقد توجهوا جنوباً وقاموا على الطريق بتجنيد أناس لنصرة قضيتهم. ولم تكن مسألة تجنيد أفراد مشكلة بالنسبة للأميرين لأن مرافقيهم كانوا يحملون كميات هائلة من الأموال، ثم حصلوا على سفن وتنقلوا من ميناء لآخر باتجاه فيتنام. والمدهش أنهم لم يجندوا عصابة صغيرة العدد من الموالين، بل

بنوا جيشاً قوامه 200 ألف شخص على متن ألف من سفن البحرية. وفي الطريق تعرضت السفن لعاصفة هوجاء، وأوشك الأمير الأكبر سناً «تشاو شيا» على الموت، لكنه نجا ليموت بعد ذلك على جزيرة لا تبعد كثيراً عن فيتنام. وتراجع الأسطول بقيادة الأمير الوحيد المتبقي «تشاو بينج» على طول الساحل حتى وصل إلى الخليج الذي يتوسع فيه نهر اللؤلؤ «تشو شيانغ» غرب هونغ كونغ، وهي منطقة تضم عدداً كبيراً من الجزر التي توفر حماية كبيرة لسكانها.

وهكذا وجد أفراد الجيش جزيرة شكلت قاعدة جيدة للاستعداد للعودة من الجديد، وكان ثمة امتدادات من المياه الضحلة إلى شمال الجزيرة، ولم تكن غير مناسبة لإبحار سفن العدو، في حين أن التلال الواقعة إلى طرفها الجنوبي شديدة الانحدار نحو البحر، ومنها أخذت الجزيرة اسمها «يايشان» الذي يعني باللغة الصينية «تل الجرف». وفي صيف 1278 أقام الأمير الذي أصبح عمره ست سنوات، قاعدة له على تلك الجزيرة مع المخلصين من أتباعه، وهم زوجة أبيه الأرملة جوليانغ يانغ، ووالدته الأصلية وهي إحدى المحظيات التي انتمت إلى طبقة دنيا من المجتمع، وكبير المستشارين «لو زينوفو»، وعدد من أفراد الجيش الذين عاشوا على متن السفن، في حين قام البعض الآخر منهم ببناء منازل وتحصينات بسيطة على الشاطئ.

وكانت قوات المغول على بعد 80 كيلومتراً عكس مجرى النهر في المدينة التي كانت تسمى كانتون، وهي الآن جوانجتشو. وفي أواخر فبراير 1279 كان أسطول سفن سونغ البالغ عددها ألف سفينة قد تزود بما يكفي من الغذاء والماء واستعدت للمعركة. وقد أثارت السفن إعجاب أحد الشهود العيان، حيث غطيت جوانب السفن بالحصر والطين وأضلاع البراميل لحمايتها من السهام المشتعلة والقنابل الحارقة والنار الحربية. وقد رُبطت سفن الأسطول بالسلاسل إلى بعضها استعداداً لهجوم وشيك بقيادة الأمير الشاب من على متن السفينة الرئيسية للأسطول وفقاً لإحدى الروايات.

واقترب أسطول المغول الذي لا يتجاوز عدد سفنه 300 سفينة باتجاه مجرى النهر حول الساحل. ونظراً لقلة عدد السفن لم يكن المغول على عجلة من أمرهم للهجوم، لذا أرسل قائدهم رسالة يعطي فيها سونغ فرصة للاستسلام، لكن لم يصل إلى اتفاق. عندئذ اكتشف

المغول أن لديهم ميزة التنقل بعكس سفن عدوهم المقيدة بالسلاسل والراسية. لذا أقاموا حاجزاً بين سفن سونغ والشاطئ لقطع إمدادات المياه واستقروا في أماكنهم انتظاراً للحظة الهجوم. وبقوا هناك مدة أسبوعين مع بعض محاولات الهجوم أحياناً وهم يراقبون الطقس وحركة والمد والجزر، في حين أن مخزون المياه لدى سونغ بدأ ينفذ.

وفي صباح يوم 9 مارس الممطر قام نصف الأسطول بغارة على أحد جناحي أسطول سونغ الذي ضعف وتدنت روحه المعنوية، وبعد ست ساعات هاجم النصف الآخر من الاتجاه الآخر مع حركة المد.

وكانت النتيجة كارثة على أسطول سونغ، حيث قالت الروايات إن مياه البحر قد أصبحت حمراء بسبب مقتل 100 ألف شخص. ويتفق الباحثون على أن هذا الرقم يحمل مبالغة كبيرة، لكن العدد الحقيقي للقتلى مروع أيضاً، إذ ربما يتراوح بين 30-40 ألفاً. وكان الشاهد الوحيد الذي سجل تفاصيل الحدث هو أحد أنصار سونغ ون تيانشيانغ الذي كان أسيراً في واحدة من سفن المغول، فقد روى لاحقاً الأهوال التي رآها في قصيدة له قال فيها:

فجأة أظلمت السماء هذا الصباح

وتمخضت الرياح والأمطار عن الشر،

فأومضت المنجنيقات والرعد؛ وانهمرت السهام.

فانتشرت الجثث البشرية مثل ألياف القنب.

وضربت أمواج الرائحة الكريهة قلبي ففتته.

وعندما رأى الجنود ما يحدث انتحر الكثير منهم بالمئات، وربما بالآلاف بالقفز في البحر وهم معلقون بأثقال. وكان من بينهم لو زيوفو، مستشار الإمبراطور الصبي، حيث قفز وهو يحمل على ظهره الأمير البالغ من العمر ست سنوات. وقد كان هذا الأمير من الجيل الثالث عشر من سلالة سونغ الحاكمة، وهو آخر هذه السلالة حيث توفي وهو يرتدي ثوبه الأصفر الملكي مع الأختام الإمبراطورية الذهبية المربوطة حول خصره.

وهكذا انتهى آخر فرد من سلالة سونغ. وبالنسبة لـ «تيانشيانغ ون»، فإن الهزيمة واليأس

لم تنسياه ما تتميز به حضارة سونغ التي تستحق التضحية من أجلها لأنها ذات مثل عليا خالدة حيث يقول:

استُبدل الملجأ الجبلي بقبر في البحر،

فكون المرء دون إمبراطورية شبيه بكونه دون عائلة.

وبالنسبة للرجال الذين يتمتعون بإرادة عمرها ألف سنة،

لا حدود لحياتنا.

وتتخطى أهمية «ون تيانشيانغ» كونه شاهد عيان على نهاية سلالة سونغ؛ لأنه كان نموذجاً للموالين الذين رفضوا كلياً قبول النظام الجديد. فقد يظن المرء من تسلسل الأحداث أن نصر كوبلاي كان سهلاً ومستمراً، لكن الواقع ليس كذلك، فقد كانت هناك مقاومة من قبل أنصار سونغ على جميع المستويات وبعدة طرق: من خلال الانسحاب، وحرب العصابات، والاغتيالات، وحتى الانتحار.

ولنرى أولاً ما تعنيه المثل العليا لـ «ون» من الناحية العملية. كان ون عالماً ثرياً ولامعاً، وشاعراً مشهوراً عُرف عنه حسن مظهره، وهو شخصية مهمة في البلاط حيث شارك في المفاوضات مع بيان. لكن عدم مرونته لم تمكنه من أن يصبح رجل سياسة مرموقاً، فقد كان عاطفياً غير متسامح ومتعجرفاً، وكان التعامل معه مرهقاً. حتى قبل المعركة النهائية، عندما كانت عائلته تفر من المغول الذين كانوا يتقدمون جنوباً أدى ولاؤه الراسخ إلى وفاة والدته وثلاثة من أطفاله، والقبض على زوجته واثنتين من محظياته وثلاثة أطفال آخرين. وبقيت زوجته رهن الاعتقال لمدة 30 عاماً، وتوفي أحد أولاده، في حين أن الاثنين الآخرين بقيا في المنفى إلى الأبد. وقد وصف الوالد أولاده بحزن قائلاً: «السنونوات الصغار بدون أعشاش ترتجف من قسوة برد الخريف».

وبعد المعركة أمضى «ون» أربع سنوات في الأسر، بعدها عرض عليه كوبلاي إطلاق سراحه إن وافق على الانضمام إلى المغول، فرفض رغم أن أسرته تعرضت لعواقب أليمة بسبب رفضه، فماتت بناته ولم يستطع جمع عظامهن، وماتت أمه ولم يستطع تنظيم جنازة لها فأصبح من منظور المثل الكونفوشيوسية عاقاً لأمه. لكنه لم يرضخ وقال: «التابع الوفي

لا يخدم سيدين» . وكان موقفه بمثابة انتحار؛ لأنه طلب الموت ليبرر أفكاره كما فعل الشهداء على مر العصور. وفي يناير 1283 نُقل على عربة إلى سوق الحطب في بكين حيث أُعدِم على أعين حشد غفير من الناس.

وأصبح ون شهيد سونغ ومثالاً للخادم الوفي الحقيقي الذي لا يبالي بالروابط العائلية، ويعتبر قائده همه الأول والأخير. وقد كتب ون: «عندما تتحول الحياة إلى قضية، يصبح العيش بلا جدوى». وقد يرى البعض في هذا النوع من إنكار الذات نوعاً من التلذذ بالألم، لكن المؤمن الحقيقي يراه شرفاً ومجداً.

واختار آلاف آخرون الموت على الاستسلام فانتحروا، وكانت هذه الوقائع مثيرة للدهشة في الأيام الأولى من حُكم كوبلاي، فقد كان الانتحار السمة الأبرز في ردة فعل من جانب العسكريين الشرفاء مفضلين ذلك على الهزيمة، ذلك لأن المدنيين والقوات المسلحة لم يروا في عمرهم فترة شبيهة بما حدث بعد انتصار المغول على سلالة سونغ. ولا يستطيع الكلام وصف قوة وعمق ثقافة عصر سونغ، الذي عاش فيه الناس من جميع مستويات المجتمع على مدار 300 عام في استقرار نسبي وازدهار متزايد تحت حكم مسؤولين يعملون في إطار من التفاني في الخدمة وسلوك غارق في المثالية مهما كانت أخطاؤهم. ثلاث مئة سنة! وعندما يتكلم الغربيون عادة عن هذا الاستقرار والوحدة الثقافية والثروة المتنامية والتطور الفكري، فإنهم يتذكرون الإمبراطورية الرومانية. وبسبب ذلك لم يتأثر عامة الناس بضعف حكومة سونغ المتزايد والمتمثل في انتشار الكماليات المفسدة في هانغتشو، لكن هذا الاتجاه الجديد أصبح علامة على اقتراب موعد كارثة وشيكة، بدأت بالحرب في الشمال التي راح فيها الملايين وشردت ملايين آخرين على مدى السنوات الخمس والأربعين التي سبقت سقوط حكم سونغ، ثم دمرت الجنوب. وما يثير الاهتمام والفضول أنه رغم أن حروب الشمال كانت الأسوأ، فإنها لم تشهد عادة الانتحار، ربما لأن المعاناة على أيدي البربر أصبحت روتيناً اعتاده السكان الجين، أو ربما لأنه كان بمقدور الشعب دائماً الفرار إلى الجنوب. لكن في جنوب الإقليم استمد الكثير من السكان المحرومين معنى الحياة من ثقافتهم، وبسبب عدم وجود أي مكان يمكن الفرار إليه، لم يجد آلاف الناس سوى طريقة واحدة لتأكيد إرادتهم الحرة، من خلال اختيار ما اعتبروه موتاً مشرفاً على عيش حياة فارغة

من المعنى والشرف.

وبقي شخص واحد من عائلة سونغ الحاكمة هو «تشاو زيان» حفيد الأرملة، وكان عمره خمس سنوات عندما سلم نفسه رسمياً لكوبلاي، وعندما اشتد عوده أصبح مصدر إحراج متزايد لكوبلاي، لكن المصادر لا تذكر سوى أنه أُبعد في الأخير إلى التبت ليعمل بها راهباً، وأنه تُوفي بها سنة 1323.

غير أني سمعت رواية أكثر إثارة عن مصيره في معبد بوذا العملاق في مدينة تشانغيه بإقليم كانسو- إحدى بوابات التبت التقليدية. فقد حكى لي مدير المعبد «وو لي» قصة تقول: «ذات يوم رأى كوبلاي في منامه تنيناً يطير محلقاً من بقعة معينة في القصر. وفي اليوم التالي أتى تشاو زيان لرؤية كوبلاي، ولسوء حظ تشاو، ظن كوبلاي أن الفتى وقف في المكان الذي طار منه التنين، وأن تشاو خطر على الدولة، وأنه سيحاول يوماً قلب نظام حكم سلالة اليوان، فأبعده إلى التبت، وهناك اشتغل تشاو راهباً في معبد بوذا العملاق الذي دُفنت فيه والدة كوبلاي، وبقي عدة سنوات قبل أن ينتحر عند عمر 53 سنة».

وإذا صحّت هذه الرواية فإنها حاشية غريبة لنهاية سلالة سونغ، فقد احتجز الإمبراطور الأخير في دير بعيد فنسيه العالم الخارجي لعقود من الزمن، وعمّر فترة أطول بكثير من الرجل الذي أبعده إلى أن اختار الموت للهروب من القنوط شأنه شأن العديد من رعاياه.

الجزء الثالث

الخريف

الفصل العاشر

تحت حُرقة الشمس الساطعة

أصبح كوبلاي على مشارف تحقيق سيادة فعلية أو صورية على جزء شاسع من أوراسيا، ورأى قادته جيوشه يبنون السفن الحربية ويمخرون بها عباب نهر اليانغتسي. وبينما كان جيش كوبلاي يجري الاستعدادات النهائية لملاحقة ما تبقى من فلول مقاومة سونغ حتى مسافة 1500 كيلومتر على الحدود الساحلية، وجد كوبلاي نفسه في وضع يجعله يرنو إلى الخارج عبر المحيط، وتحديداً إلى اليابان.

لم تكن لليابان على المستوى الرسمي علاقات مميزة بالصين على مدار 400 عام، وبالتحديد منذ قامت الصين باضطهاد البوذيين وتعذيبهم في منتصف القرن التاسع. غير أنه لم تنشأ أية نزاعات بين الدولتين في هذه الفترة ولم تتوافر أي أسباب لنشوب أي حرب بينهما، بل وعلى النقيض ازدهرت العلاقات التجارية بين البلدين ولأمد طويل، فكانت الأزياء الصينية الأكثر رواجاً في اليابان بين الطبقات الحاكمة، وظل الذهب والسلع المطلية والسيوف وأخشاب البناء تتدفق من اليابان إلى الصين في مقابل الحرير والخزف الصيني والعطور والعملات النحاسية. وكان الرُهبان الذين قدمُوا إلى اليابان استجابة للزيادة السريعة في بوذية زن، يجلبون معهم الشاي، وأنشؤوا جزءاً حديثاً من دراسات مذهب زن البوذي على يد راهب شهير اسمه «إيساي» في عام 1200 تقريباً.

لكن هذه المظاهر لم تعكس طبيعة السياسات الرسمية بين البلدين، فقد تواصلت العلاقات في عهد سونغ الذي أصبح على وشك الاستهداف من كوبلاي. ولم يعد الموقف يحتاج إلى كثير من الذكاء من جانب الإستراتيجيين في زانادو ليتوقعوا قيام اليابانيين بإرسال مساعدات إلى حكومة سونغ، وكانت الحاجة ملحة إلى هذه المعونات، فقد كان لدى كوبلاي - مثله مثل جميع الإمبرياليين في كل العصور - دافع طاغٍ للإغارة على إقليم سونغ. وتوافرت أسباب هذه الحملة عندما قال له راهب كوري كانَ يعمل مترجماً في بلاط كوبلاي: إن اليابان خصم ضعيف يحكمه إمبراطور صوري وقادة عسكريون تشتتهم الخلافات والمنافسة أكثر مما يجمعهم غيرها، وإن محاربي الساموراي منشغلون بقوانين الفروسية أكثر من انشغالهم بتعزيز دفاعاتهم الساحلية البالية. وقال له الراهب: إن اليابان لا تمتلك جيشاً ميدانياً كبيراً ولا قادة عسكريين محنّكين يضاهون جيش المغول وقوادهم.

على الجانب الآخر كان لكوبلاي جيش مجرّب مبرهن على قوته، وقادة عسكريون

من ذوي الحنكة منقطعة النظير، فضلاً عن أسطوله البحري الجديد واستحواذه على نقطة انطلاق مهمة هي كوريا التي لا يفصل ساحلها الجنوبي عن اليابان سوى 200 كيلومتر. وكان المغول على دراية وخبرة كبيرتين بكوريا منذ غزوهم الأول لها سنة 1231، حين أثبتت كوريا أنها خصم قويّ في أيدي عُصبة عسكرية استولت على السلطة من الملك منذ 60 عاماً لصد البربر القادمين من منشوريا.

وبينما ظل الملك ملكاً صوريّاً لقرابة 30 عاماً فيما بعد، قام الجنرالات العسكريون بمحاربة المغول بفضل مهاراتهم البحرية المتميزة التي سمحت لهم بالاختباء في جزيرة بعيدة عن الشاطئ وإمداد أنفسهم بالغذاء اللازم عن طريق البحر، مما جعلهم ينظرون إلى سلاح الفرسان المغولي بشيء من السخرية والازدراء.

وفي المقابل أعمل المغول يد السلب والنهب والذبح وحرقوا الممتلكات على أوسع نطاق، وفي غزو سنة 1254 أسر المغول 200 ألف مقاتل، خربوا ودمروا جزءاً كبيراً من الدولة. وفي سنة 1258، نظّم الملك وموظفو الدولة انقلاباً مضاداً، واغتالوا الزعيم العسكري قبل أن يلتمسوا السلام، وسافر ولي العهد بنفسه إلى الصين لعرض الاستسلام على كوبلاي، وهو ما حدث بعد ذلك عندما كان مونخيه الأخ الأكبر لكوبلاي مشغولاً في حملاته في مجموعة من المناطق الغربية.

صارت الأمور على ما يرام وتوفي الملك الكوري ومات مونخيه، وتبقى لكوبلاي إقطاعي جديد هو ولي العهد السابق والملك الحالي فونغونغ. وفي عام 1271 قامت قوة كورية مغولية مشتركة بإعادة تنصيب فونغونغ على العاصمة الكورية القديمة كايسونغ، وتخلصت مما تبقى من المعارضة العسكرية، وأصبح لكوبلاي أعداء أشداء هم عامة الشعب الكوري وإقطاعي واحد اسمه فونغونغ.

وقد زوّج كوبلاي إحدى بناته لابن فونغونغ كي يرث حفيده العرش في نهاية المطاف، وتبادل الاثنان الهدايا والعطايا، وأرسل كوبلاي حزاماً من اليشب والأدوية إلى فونغونغ الذي ردّ عليه بإرساليات الجزية كل عام، كإرسال الصقور إلى أراضي الصيد الملكية، وقشور الأسماك التي كان كوبلاي المصاب بالنقرس يصنع منها أحذية.

وهكذا أصبحت كوريا مستعمرة مغولية صينية يجري فيها حماية المفوضين الساميين بواسطة وحدات مغولية صينية عسكرية، ويقوم على خدمتهم فيلق من المترجمين المجيدين للغة المغولية. ولم يكن كوبلاي محبوباً لكنّه كان ممثلاً للسلطة الفعلية القائمة وراء العرش. ولما وجد كوبلاي أنه بحاجة إلى أسطول سفن، بدأت تتدافع إليه السفن من الترسانات البحرية الكورية تشجيعاً له على احتلال إقليم سونغ ثم نقل الجيش المغولي الصيني إلى اليابان.

وفي بداية سبعينيات القرن الثالث عشر اصطنع كوبلاي مبرراً للحرب، وفي سنة 1266، أي بعد فترة وجيزة من القضاء على ثورة أريق (Ariq)، لم تغب خطط كوبلاي لشن حملة ضد إقليم سونغ، فأرسل سفيره الأول إلى اليابان مطالباً هذا البلد الصغير بالاستسلام فوراً، وانطلقت الرسالة سريعاً منذ دخولها من جنوب اليابان في منطقة هاكاتا (التابعة لمدينة فوكوكا، وكانت على بُعد 800 كيلومتر جهة الشمال الشرقي من المقر الرئيسي للحاكم العسكري «الشوغون»[1] في مدينة كاماكورا) ثم إلى مدينة كيوتو، مقر إقامة الحاكم الصوري للبلاد: الإمبراطور أو «السيد الأعلى».

وقد أفرزت هذه الرسالة حالة من الاضطراب والغضب ممزوجة بمشاعر الرعب والهلع في هذا البلد الصغير، فأعد الإمبراطور مسودة خطاب يعرض فيها التفاوض، وهي فكرة رفضها فوراً الشوغون مستخدماً حق النقض آنذاك. وبعد ستة أشهر أمر الرسل بالعودة إلى بلادهم دون أي ردّ منه على الرسالة، وكان الحاكم العسكري الياباني يراهن على عنصر الوقت متمنياً أن يحالفه الحظ في هذا الرهان، وانشغل بلاط الإمبراطور - الذي لم يكن له أي فائدة عملية في أي ساحة - بالابتهال والصلوات والدعاء.

ويبدو أن الصمت نجح في هذه المرة، فلم يسمع اليابانيون أي رد آخر من كوبلاي لعدة سنوات، ذلك لأن قواته انشغلت بأمور أخرى، عندما ضربت حصاراً على «شيانغ يانغ»، التي ربما تصبح فيما بعد مفتاحاً لغزو الجنوب. وحتى سبتمبر 1271 لم يصل أي مبعوث كوري آخر إلى اليابان يطالبهم بالاستسلام رسميّاً أو التأهب لهجوم وشيك، ولم يصدر عن

(1) الشوغون (Shogun): هو دكتاتور عسكري كان يحكم اليابان من خلال نظام توريث الحكم، وظل معمولاً بهذا النظام حتى ثورة 1867.

اليابان أيضاً أي رد رسمي. لكن الحكومة اليابانية أصدرت أوامرها إلى الإقطاعيين بالعودة إلى إقطاعياتهم، وبدأ كبار الموظفين والجنود في تقوية القلاع الساحلية البالية التي بلغ عددها 30 قلعة.

واشتعل حماس المصلين المتوسلين في البلاط الملكي، وعلت حرارة الدعاء، وتجددت الروح العسكرية لدى الشعب من جديد عندما وصل إلى أرض اليابان في عام 1272 سفير مغولي جديد حاملاً خطابات يطلب تسليمها إلى الإمبراطور على وجه السرعة. وكان الحاكم العسكري في ذلك الوقت، وهو الأخير من سلالة عائلة هوجو (Hojo) الحاكمة، شاباً فتياً شجاعاً لم يتجاوز 22 عاماً واسمه توكيمون، فأرسل «صُرة» إلى السفير المغولي، فاعتبر كوبلاي هذه البادرة بمثابة إهانة له ودعوة سافرة إلى الغزو.

وفي سنة 1273 أعدّ كوبلاي العدة سريعاً، وبعد أن سقطت «شيانغ يانغ»، أصبحت احتياطيات كوبلاي العسكرية جاهزة لشن معارك أخرى في بقعة جديدة، وحلّ السلام في كوريا أخيراً، وباتت السفن الراسية في الموانئ الكورية، وموانئ إقليم سونغ كافية لشن هجمات جديدة. وفي أواخر أكتوبر أو نوفمبر [1]1274 غادرت 300 سفينة حربية و400-500 مركب أصغر حجماً، مدينة «ماسان» على الساحل الجنوبي لكوريا، مزودة بأطقم ملاحية قوامها 15 ألف فرد، وقوة قتالية قد تصل إلى 40 ألف جندي[2]. عبرت البحر بطول 50 كيلومتراً إلى جزر تسوشيما التي كانت انطلاقة مهمة في عصور ما قبل التاريخ للراغبين في الوصول إلى اليابان عبر البر. وعلى الشاطئ أعد السكان المحليون دفاعات مذهلة. وأصبحت مشاعر اليأس الجياشة فيما بعد مادة خام لأساطير أفاضت في وصف الفروسية اليابانية والبربرية المغولية، عن المحاربين اليابانيين العُزّل الذين تقدموا بتضحيات مهيبة، وأسهم المغول السامة التي تطايرت كقطرات المطر في الربيع، والبحر الذي تحول إلى لون الدم، وانتحار الحاكم الياباني المهزوم بكل شرف.

وتقول الروايات إن المعركة أوقعت ستة آلاف قتيل، وأن المغول حملوا معهم ألف رأس عند عودتهم إلى سفنهم للمغادرة إلى الانطلاقة التالية، وهي آيكي على بُعد خمسين

---

(1) المصادر تختلف حول التاريخ المحدد للواقعة.

(2) المصادر مختلفة أيضاً حيال هذا الرقم.

كيلومتراً. ومع انتشار أخبار تقدم المغول، أوفد حاكم آيكي دفاعاً باسلاً إلى اليابسة للمساعدة قبل الهجوم الساحق، لكن هذا الدفاع فشل ونتج عنه الكثير من المآثر التي خلدت نفسها في ذاكرة هذا الشعب:

- كتهريب ابنة الحاكم خفية بواسطة زورق لكي تلقى حتفها في البحر تحت وابل من أسهم المغول.
- واستسلام الحاكم النبيل وأسرته للموت في قصرهم الذي غطاه لهب الحريق.
- وتسمير السجناء من كفوف أيديهم على امتداد مقدمات السفن الحربية المغولية.

وكان ساحل كيوشو معضلة الغزاة على الدوام رغم جاذبية شواطئه الرملية. ففي داخل الساحل امتدت تلال شديدة الانحدار كستها أشجار الغابات التي جعلت سرعة تقدم أي قوات نوعاً من المستحيل. ولم يناسب مهمة كوبلاي سوى ميناء واحد على ساحل كيوشو هو ميناء هاكاتا، وكانت تحميه مجموعة من الجزر عملت كحواجز أمواج طبيعية، ولسانان ممتدان إلى ناحية الغرب كأنهما يدان مفتوحتان للترحيب بالسفن القادمة من أنحاء آسيا إلى تلك المياه الضحلة والشواطئ الرملية الناعمة والأراضي النائية عن صخب المدن.

تقدم القادة العسكريون اليابانيون من المركز الإداري المحلي لمدينة دازايفو الواقع على تلال تبعد 10 كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من مدينة فوكوكا الحالية، وأقاموا قاعدة لهم قرب الساحل. في حين رسا المغول بسفنهم في البداية رسواً تجريبياً عند الطرف الغربي من ميناء هاكاتا، وكانوا مترددين في هذا الرسو. وربما كانوا يُفكرون في التوجه إلى أعلى النهر، ثم عدلوا عن رأيهم واستقروا بالجيش على الشاطئ في منتصف الخليج تماماً، وهناك تنقلوا بسهولة بين ثلة من اليابانيين غير المنظمين.

وتقول إحدى الروايات اليابانية إن المغول ضحكوا جميعاً عند إطلاق حفيد أحد اللواءات العسكرية اليابانية أسهمه مشيراً ببدء المعركة، واستمروا في قرع الطبول والأجراس دون توقف، جاعلين خيول اليابانيين تقفز في جنون وهلع. وفقد اليابانيون السيطرة على ركائبهم، ولم يُفكر أحد منهم في مواجهة المغول. وتقدم المغول كيلومتراً واحداً داخل اليابسة، لمحاصرة تلة صغيرة منحدرة الجوانب ذات أهمية إستراتيجية، منحتهم ميزة مشاهدة

المكان بوضوح. فأصبح هذا التل (يُطلق عليه اسم جبل سوهارا) متنزهاً عامّاً يضم مجموعة من المماشي الوعرة، وقد انتشرت اليوم المباني الجديدة في أنحاء المكان مما أعاق الرؤية من قمة الجبل، ولكن بعد ظهر ذلك الصيف تمكن الكشافة المغول من رؤية سفنهم تطفو عند المرسى في الخليج،في حين لاحت مدينة دازايفو في جهة الجنوبي الشرقي، وعلى مسافة 5 كيلومترات ناحية الشرق ظهر المعسكر الياباني الذي انطلق منه الفرسان اليابانيون خلال ساعتين.

وكان بين المدافعين اليابانيين في ذلك الوقت محارب شاب اسمه «تاكيزاكي سويناغا» من مقاطعة هيغو، وكان قائداً (جوكينين) إقطاعياً مباشراً للحاكم العسكري، واكتسب فيما بعد ثروة كافية لتمويل رسم سلسلة من اللوحات أُلصقت معاً لتشكل لفافتين من الورق توضحان بالرسم هذه الغزوة والغزوة اللاحقة لها في عام 1281. وتقول بعض الاحتمالات إن اللفافتين الورقيتين صنعتا في فترة ما بعد سنة 1293، عندما أصبح سويناغا مالكاً لمجموعة من الأراضي وقيّماً على العديد من المعابد والأضرحة المقدسة.

بذل المحارب الشاب سويناغا شيئاً من النضال حتى تمكن من انتزاع اعتراف رسمي بشجاعته بعد أن رسا غبار الغزو، ويبدو أنه تمنى تسجيل دوره في المعركة وتكريم الرجل الذي ساعده في الحصول على التزكية الرسمية التي أصبحت فيما بعد سبب ثرائه ونفوذه.

تنقلت اللفافات من يد إلى يد، وضمنت البقاء بفضل الحظ وعناية القابضين عليها، حتى سقطت في البحر وتحلل الصمغ الذي يُمسك ألواحها معاً، مما ألقى ببعض الشك على بعض تفاصيلها الدقيقة. وفي أواخر القرن الثامن عشر أُلصقت هذه اللفافات مرة أخرى ورُممت ونُسخت، بعد إضافة العديد من التفاصيل التي أضفت بعداً تحليلياً على الأحداث.

ومنذ ذلك الحين، أصبحت هذه اللفافات مشهورة بكونها تصويراً فريداً وحيّاً للغزوات، ويتفق معظم الباحثين على أنها تصوير حقيقي وموثوق به. وقد صحب اللفافات 69 وثيقة تنوعت بين الخطابات والابتهالات والفرمانات وتقارير المعارك، تصدى مؤخراً الباحث توماس كونلان من جامعة بودوين- برانسويك، إلى ترجمتها وتحليلها في كتاب رائع.

ومن هنا فإن صفحات النص تُقرأ باتجاه عكسي والرسوم التوضيحية تسير من اليمين إلى

اليسار تماماً مثل اللفافات نفسها. وتعد تجربة قراءتها شبيهة بالغوص في الأحداث بوصفها تقاطعاً بين الرسوم الهزلية والرواية. ويرسم أحد فصول اللفافة الذي يصف غزوة سنة 1274: الشاب سويناغا الذي لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره، وهو يتباهى بشاربه المشذب ولحيته الصغيرة، في حين يتقدم بين أشجار الصنوبر وخلفه خمسة تابعين. وكان سويناغا وأتباعه يحملون أقواساً طويلة بشكل مدهش مقارنة بمقاييس المغول وكان سويناغا وأتباعه يستخدمونها بمهارة عالية، ويطلقونها أثناء عدوهم السريع على ظهر الخيول، وكما يغطون أجسامهم كاملة من الرأس إلى الأصابع بدروع مصفّحة من قشور المعدن المتشابكة.

وكان سويناغا شخصية عنيدة، فقد التقى أحد قوات المغول، وهي على الأرجح قوة جاءت من جبل سوهارا، ولم يستطع الانتظار، فقال: «انقضضت عليه وأنا أصرخ صرخة الحرب، وعندما أصبحت على وشك الهجوم، قال لي خادمي: «انتظر التعزيزات، فالمزيد من رجالنا في الطريق إلينا، واحصل لنفسك على شاهد، ثم اشرع في الهجوم». فأجبته: «إن طريقة القوس والسهم سوف تفعل شيئاً يستحق المكافأة انقض عليهم. وكان حامل راية الحرب يتقدم الصفوف، ثم أصيب حصانه ووقع على الأرض، وجُرحت أنا وسويناغا وثلاثة من الخادمين. ولم تكد الإصابة تنزل بحصاني وأسقط أنا أرضاً إلا وهاجمني «ميتشياسو» (وهو قائد (جوكينين) من مقاطعة هيزين) بفرقة هائلة من الفرسان، فتقهقر المغول، ولولاه لأصبحت في عداد الموتى. لكن رغم كل الصعاب نجا القائد ميتشياسو أيضاً، واتفقنا على أن يكون كل منا شاهداً على الآخر».

تُبين إحدى الصور سويناغا ملقى من على حصانه المصاب، تسيل منه الدماء، في حين تنفجر إحدى قذائف المغول بالقرب منه، وكانت هذه القذيفة مثار العديد من الجدل. ورغم أن «كونلان» يعتقد أن الصورة أُضيفت في القرن الثامن عشر لزيادة الدراما، فإن بعض الباحثين يؤمنون بأن محتوى الصورة صحيح. ونحن لا نميل إلى وجهة نظر بعينها في هذا الجانب.

وقد عُرف المغول كما رأينا منذ وقت طويل بمتفجراتهم التي حصلوا عليها بعد حصار بكين عام 1215، وتصور إحدى اللوحات قنبلة تنفجر إلى جانب القائد سويناغا، وهي قنبلة أُطلق عليها «قنبلة ضجيج الرعد». وكانت قذيفة خزفية نواتها شديدة الانفجار، سُجّلت لأول

مرة في سنة 1221 عندما كانت سلاسة الجين التي هُزمت جزئياً على يد جنكيز، تحاصر مدينة كيزهو على نهر اليانغتسي. وربما يكون حصار كيزهو هو الموقعة الأولى التي استخدم فيها اليابانيون هذه الأسلحة المتفجرة.

أما عن طريقة إلقاء هذه القذيفة فالراجح أن الإلقاء لم يكن عن طريق مقاليع حربية ثقيلة، لأنها كانت تتطلب أطناناً من الحصى وأذرع ضخمة مثل صاري السفن لإلقائها، وهذه المقاليع لم تكن من أنوع الأسلحة التي يمكن وضعها على سفينة. لكن على أية الحال فإن المغول لم يخططوا لتحطيم جدران القلعة، فقد كانت قنابل «ضجيج الرعد» موجهة للعدو البشري فقط. وكانت تزن 3-4 كيلو فقط، ويمكن إلقاؤها بواسطة مقلاع حربي جرار، وقد شاع استخدام هذه المقاليع في تلك الفترة وعلى مدار قرنين. ونحن نعلم أن المغول كان معهم قنابل ضجيج الرعد، فقد وجدنا فيما بعد العديد منها في بقايا واحدة من السفن الكورية المغولية (وسنناقش هذه التفاصيل لاحقاً).

وسواء كان هذا المثال بعينه أُضيفت إلى اللفافة لاحقاً أم لا، فإنه يُصور حقيقة واقعة في جميع الأحوال، وباستخدام مقلاع حربي جرار، كان بإمكان نصف دستة رجال على مقدمة سفينة قذف قنبلة ضجيج الرعد بسهولة إلى مسافة 100 متر كجزء من الانقضاض لإخلاء الشاطئ. وحتى الآن فقد أظهروا شجاعة رائعة، كما يتضح لنا أيضاً من هذه الحادثة الصغيرة أن سويناغا مثل أي ساموراي صالح، يُسيطر عليه المجد الفردي ولا يهتم على الإطلاق بفقدان القيادة المركزية.

وفي هذه الظروف كان لفنون تنظيم المعارك بعض الأثر، إذ وُضع رماة السهام في مكانهم المناسب، وتمكن أحد المحاربين وكان اسمه «يامادا» من بناء صيت لنفسه عن طريق تنظيم فريق رماة الأسهم الأقوياء لإطلاق سهام طويلة المدى على المغول المعزولين، فقتل ثلاثة من المغول، وفجّر ضحك اليابانيين وهتافهم،في حين أطلق محارب آخر النار على أحد قادة المغول في وجهه وأسر فرسه. لكن البسالة الفردية وحدها لا تكفي. فقد استطاع بعض المغول الذين تحركوا بسرعة لافتة بين رأس الشاطئ وجبل سوهارا، إغراق خليج هاكاتا في اللهيب والحرائق.

ومع انتهاء هذا اليوم اتخذ اليابانيون لأنفسهم ملجأ بعيداً عن الشاطئ، فاحتموا بشواطئ مدينة دازايفو المحمية بالتلال الشاهقة، وكاد هذا التحصن يكفي لإيقاف جيش المغول الذي أصبح خبيراً في أعمال الحصار. لكن المغول لم يسبق لهم الرسو في منطقة برمائية، وكانوا بحاجة إلى الغذاء والإمدادات ومزيد من السهام. ولم يكن لديهم منجنيق ثقيل يخدمهم في الحصار المتوقع أن يستغرق بعض الوقت. وزاد على ذلك أن عاصفة قوية كانت على وشك الهبوب، ومن ثم كانوا في انتظار ليلة بؤس على الجميع، وأسوأ بالنسبة للمغول والكوريين إذا علقت زوارقهم في المياه الضحلة، ووقعت فرقهم العسكرية في الفخ على الشاطئ دون أية وسيلة للتراجع.

وقد حثّ القباطنة الفرق العسكرية على العودة إلى السفن للنجاة من سوء الطقس في البحر، والذهاب بعيداً عن الأمواج المتكسرة، والتأكد من أنهم يستطيعون الرسو من جديد في الغد، وتحقيق اختراق يؤدي إلى النصر. ولم يكن الأمر بهذه السهولة، فقد ازداد الطقس سوءاً، وزحف أسطول صغير مكون من 300 زورق ياباني إلى الساحل باتجاه أسطول المغول. وكانت بعض الزوارق اليابانية تحمل مجموعات من الجنود المدججين بالأقواس والسيوف، وحملت زوارق أخرى كتل من التبن الجاف لاستخدامه في حرق السفن. تسللت هذه السفن الصغيرة بين أهدافها الضخمة بسرعة عالية حتى لا تُصيبها قنابل المقاليع الحربية أو الرماح الثقيلة، واقتربت من أمتان السفن، وأشعلت النار في العديد من سفن كوبلاي. ثم توجه المجدّفون اليابانيون نحو الخلجان والشواطئ التي عرفوها خير معرفة، تاركين الجزء الأكبر من أسطول المغول في عهدة العاصفة والنيران.

وجاء بزوغ الشمس كاشفاً عن مشاهد أليمة في صفوف المغول، وارتفعت معنويات اليابانيين حين تناثرت سفن المغول تحت الرياح واحترقت أبدانها بالنيران، فقد أنتجت هذه الليلة جيشاً مغولياً منهاراً، وفر الناجون المغول بعدها بوهن وبطء إلى كوريا طلباً للأمان، وقد رصدت السجلات الكورية غرق 13 ألف جندي في تلك الليلة.

ولم يأخذ كوبلاي هذه الهزيمة مأخذ الجد، ونسبها برمتها إلى الطقس، وليس إلى حماسة اليابانيين، ورأى أن الوضع سيختلف في المرة التالية. وبالفعل كانت هناك مرة تالية اتضح فيها التفوق الطبيعي للمغول، وكان حاكم «هوجو» العسكري توكيمون (والإمبراطور

في كيوتو) يعلمان جيداً ما يجب عمله للتعامل مع هذا الموقف. فقد دوّن أحد رجال الحاشية الملكية في مذكراته: «سوءُ الطقس - رغم أنه لم يكن أسوأ من هبوب الرياح العكسية - كان حماية إلهية. يا له من إعجاز رائع علينا أن نتهلل به ونسبح بحمد الآلهة بلا كلل أو فتور. وما كان لهذه الحماية العظيمة أن تحدث لولا الصلوات والدعوات والقرابين العدة التي قدمناها إلى الأضرحة المقدسة في أنحاء البلاد».

فسرعان ما انخرط الإمبراطور في الصلوات والدعاء، وحثّ الجميع على ذلك، مما أثار فيضاً من المشاعر في الشنتوية[1] والبوذية، لكن الآلهة تُساعد من يساعد نفسه فقط. وسرعان ما أصدر توكيمون أوامره للمقاطعات الساحلية في كيوشو ببناء جدار، وتزويده بالجنود، وجعل التهرب من الواجب العسكري عملاً جنائياً. وسواء أكانت تلك الفكرة فكرة توكيمون أو أحد مستشاريه، فقد أثبتت براعتها وفائدتها الكبيرة؛ لأن اليابانيين لم يسبق لهم بناء التجهيزات والتركيبات العسكرية، ولم يكن هناك ما يكفي لإجبار عشائر اليابان وحكام المقاطعات المتخاصمين على التعاون مع بعض سوى ذلك الإلزام الذي أفرز روح مقاومة جديدة.

وعندما أرسل كوبلاي المزيد من الرُسل في شهر مايو 1275، أُخذوا إلى مدينة كاماكورا وأُعدموا بعد أربعة أشهر[2]، فكانت صفعة من الحاكم العسكري لوجه كوبلاي. وواصل قادة البلاط الملكي والقادة المدنيون حملة تقشف بهدف تكريس ثروة الوطن لصالح عمليات بناء الدفاعات. وجرى التفكير في تنفيذ ضربة مفاجئة و أُخذت التدابير اللازمة لذلك من بناء سفن جديدة وتدريب أطقم ملاحة جيدة، وكان الدفاع هو النهج الذي اختاره القادة العسكريون في هذه المعركة، فقد ركزوا على بناء الزوارق الصغيرة القادرة على المناورة بسهولة، والدوران في حلقات حول السفن الحربية الكورية العملاقة.

وتجمعت جميع العشائر حول خليج هاكاتا لبناء الجدار، ولأنه لم يمكن توقع موعد ضربة كوبلاي التالية، ظل اليابانيون في عجلة من أمرهم، ولأنهم لم يعتادوا التعاون أو البناء على هذا النطاق الواسع من قبل، كان عليهم ممارسة الابتكار والإبداع أثناء سير العمل.

---

(1) ديانة يابانية لم يُكتب لها التطور كثيراً خارج اليابان.

(2) يمكنك رؤية مقبرة قائدهم ذي الحظ العاثر دو شيزونغ في معبد في فوجيساوا بالقرب من كاماكورا.

وكان ساحل خليج هاكاتا رملياً، مدعوماً بالكثبان وأشجار الصنوبر، ومن ثم لم تكن الأرض مؤهلة للبناء على الإطلاق ومن ثم استُخدمت الحجارة في بناء الجدار.

وما تزال النتيجة - أو جزء منها - مرئياً حتى اليوم، حيث تجذب الأجزاء الصغيرة المتبقية من جدار «جينكو بوروي» (السور الدفاعي) العديد من السياح. وقد سدت مدينة فوكوكا المداخل الصغيرة المنتشرة في أنحاء المكان، إذ تشرف على الشاطئ نائية عن الميناء. ويمكنك أن تتخيل نفسك على صهوة فرس سويناغا القائد، وسترى الامتدادات الرملية نفسها والجبال على الجانبين والكثبان الرملية وأشجار الصنوبر. وقد تجمعت الرمال على مر قرون وانتُزعت الأحجار منها لاستخدامها في البناء. وحُفرت الرمال بعمق 50 متراً وأُعيد بناء مقاطع جديدة من الجدار، وما يزال بأمكانك رؤية كيفية استجابة الأهالي المحليين قليلي التجربة للتحدي الذي واجهوه.

يمكنك ذلك إذا نظرت بعيني عالم الآثار الخبير «سوميتاكا ياناجيدا» والذي له هيئة «إنديانا جونز» الصغيرة النحيلة القوية بشعر أبيض متطاير وفك بارز، وبانشغاله بمسألة الحائط على مدار 40 عاماً، فقد أشرف على ذيوع صيته بصفته رمز للاستقلال الياباني والشجاعة. فرمزياً يُعد ذلك الأمر عظيماً ولكنه ليس جداراً عظيماً، فكان الغرض الأساسي منه احتجاز الجياد على الشاطئ، وبذلك لم يكن ضرورياً أن يزيد ارتفاعه على مترين. وكان ثمة مشكلة في الأسلوب الفني، فبناء الجدران الحجرية احتاج بنائين بارعين، وخبراء البناء بالأحجار الجافة وخبراء الجدران الأسمنتية (لاحقاً). ولم يكن لدى اليابانيين أي من هذه العناصر، أو أي مخطط قياسي معتمد للبناء، لكن كانت لديهم كميات كافية من أحجار الجرانيت والحجر الرملي، بعضها تم نحته من الجبال، والبعض الآخر من الشواطئ على الجانبين، والتي امتدت بها الرمال لمساحات شاسعة، ومُنِحت كل عشيرة مسافة من الجدار لبنائها حسب ثروة العشيرة، ثلاثة أمتار هنا وعشرة أمتار هناك وهكذا.

ويبدو أن كل عشيرة قد جمعت أحجارها الخاصة لتبني بها حصتها في الجدار، فتقوم بتمشيطها ورصفها ثم وضعها في مكانها، فكان كل مقطع ينتهي بطرف شديد الانحدار تكدست عنده الأحجار بصورة رأسية بدلاً من أن تتداخل بطريقة البناء الحجري الصحيحة، وكان بإمكان المرء أن يسمع قائد هذه العشيرة أو تلك يقول باستهزاء: «حذار أن تضعوا

حجراً واحداً في الجزء الخاص بهم[1]».

لقد كان جداراً ضعيفاً بالفعل يمكن أن تفككه قذيفة واحدة من المنجنيق، فعند إحدى النقاط كان الجدار مزدوجاً، ولكن أمام محاولة الاعتداء الأولى انهارت أساساته، فقامت العشيرة المسؤولة عن الجزء المنهار بتكديس مزيد من الحجارة فوق الجدار بدلاً من إعادة بنائه من جديد، وقد كان الجدار مدعوماً بمنصة للمدافعين للوقوف عليها، وفي موقع آخر بُني ممشى محميّ بجدار ثانوي، وفي موقع ثالث لم يكن الجدار بالصلابة الكافية بل كان مجوفاً وله وجهان محشوان بالتراب.

تخيل أن هذه الاختلافات في البناء كُرّر على مسافة 20 كيلومتراً، وتخيل المجادلات التي دارت حول التصميم والأسلوب الفني والمواد المستخدمة في البناء، وتخيل أيضاً الشعور بالاستعجال الذي سيطر على الجميع، والذي أجبر الخصوم على حقن خلافاتهم، وبناء جدار يستحيل على سلاح الفرسان دخوله من خلال هجوم أمامي خلال فترة لا تزيد عن ستة أشهر.

وفي أواخر سنة 1276 أصبح اليابانيون على أهبة الاستعداد، وبات لديهم خمس سنوات للراحة.

(1) () يعني الجزء الخاص بالعشيرة المقابلة.

الفصل الحادي عشر

إعلان التحدي من قلب البلاد

ستلاحظ عندما تلقي نظرة على خريطة العالم، أن الصين تتمدد فوق وسط آسيا، وأن حدودها الغربية تقع على امتداد الحدود الغربية للهند، وهو أمر مثير للدهشة، لأن هذه الحدود تتجاوز أبعاد الأراضي الصينية التقليدية. فأول «سور عظيم» بناه «الإمبراطور الأول» في القرن الثالث قبل الميلاد امتد إلى قلب آسيا الوسطى، لكن حدود الصين اليوم تتخطى ذلك السور التليد بمسافات شاسعة. فكيف اكتسبت الصين كل هذه المساحة؟

يعود اتساع مساحة الصين - وهو الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب - إلى عهد جنكيز خان وحفيده كوبلاي، وإليهما يرجع الفضل في ذلك. لكن هذا يؤدي بنا إلى مشكلة أخرى؛ فإمبراطورية كوبلاي امتدت لتتجاوز الحدود المعروفة اليوم، وهو ما يغري بالتساؤل: كيف عادت الصين عن حدود كوبلاي؟ ولماذا لم تتسع خلف حدود كوبلاي في قلب آسيا الوسطى؟

الإجابة هي أن كوبلاي كان مقيداً بمدى القوة التي يستطيع استخدامها مع أقاربه الذين أبدوا نزعة استقلالية، أحد هذه الأسباب أن هؤلاء الأقارب استطاعوا الحصول على خيول جعلت السيطرة عليهم أمراً بالغ الصعوبة. ولم تكن هناك حاجة إلى بذل جهد كبير فيما يخص الأجزاء النائية عن الإمبراطورية مثل فارس والقبيلة الذهبية (Golden Horde) في جنوب روسيا. أما آسيا الوسطى - وإن كانت بعيدة عن قلب الصين - فكانت على حدود منغوليا، وكانت كازاخستان وعدد كبير من الدول التي ينتهي اسمها باللاحقة «ستان» والواقعة إلى الجنوب، جزءاً من ميراث جنكيز خان، ومن ثم أصبحت جزءاً من إرث كوبلاي، مما يعني ضرورة بقائها في كنف الصين. إلا أن كوبلاي كان قد بلغ الحد الأقصى الممكن في هذا الاتجاه عندما عاد من حدود ما وراء السور إلى داخل السور. وقد عانى كوبلاي من قيود المسافة، ومن عجز قواته عن إخضاع الخصوم الذين يتقلبون مثل حركة الزئبق.

وبهذا نصل إلى واحدة من النقاط الغامضة في التاريخ، وهي التنافس بين كوبلاي وأحد تابعيه. هذه الجزئية على غموضها تحتل أهمية كبيرة لأنها تكشف جانباً من أهمية الصين في الوقت الحالي، فالمعارضة التي تعرض لها كوبلاي فرضت عليه حدوداً لا يمكن

تجاوزها، كما أن توقف كوبلاي عند نقطة معينة يعكس لنا طبيعة الحدود الغربية للصين التي مرت بفترة تراجع في عهد خلفاء كوبلاي (أسرة المانشو) عندما عاد المغول ليحكموا هذه المناطق من جديد. وقد ظهر ذلك مجدداً في القرن الثامن عشر في منطقة «شينغ يانغ» (Xinjiang) عندما استعاد المانشو (سكان منشوريا) سيطرتهم ووسَّعوا تخومهم وصولاً إلى الحدود التي رسمها كوبلاي.

أما المنطقة الشديدة التنوع الممتدة بين صحارى أوزبكستان والأراضي العشبية في جنوب كازاخستان وبين مرتفعات «تيان شان» (Tien Shan)، وكذلك البقع المترامية الأطراف الواقعة في غرب الصين، فلم تتمتع بوحدة وطنية على مر التاريخ، لكنها مارست نمطاً غريباً من السلطة بهدف نشر القلاقل، فقد شهدت هذه المنطقة تزايد انتشار الإسلام حتى في عهد كوبلاي ذاته، وكان من الصعب على العالم الإسلامي أو الصين أن يفرضا سيطرة دائمة على هذه المنطقة.

ولنفس هذه الأسباب التاريخية بدأت اليوم القلاقل نفسها تظهر من جديد، حيث يسعى الإسلاميون الساخطون هناك إلى إقامة دولة جديدة في أقصى غرب الصين. وهي فكرة ليست بالجديدة، ويجدر بنا هنا إلقاء نظرة على الأب الأول المؤسس لهذه الفكرة، والنظر في فشل كوبلاي في التعاطي مع هذه المعضلة.

فقد كانت آسيا الوسطى هي الخطر الحقيقي الذي واجه كوبلاي، وهو خطر حقيقي جاء من داخل أسرته، وبالتحديد من أحفاد أوقطاي: ولي العهد الذي نصّبه جنكيز. وكانت سوركاكتاني - أرملة تولوي وأم كوبلاي - قد قامت بتنحية ذرية أوقطاي عن الخلافة حتى تتيح المجال أمام أبنائها. وكان خطر أحفاد أوقطاي على كوبلاي لا يُستهان به، ذلك لأنه خطر جاء من مسقط رأس كوبلاي، ولأن معارضة في هذه الحالة كانت قادرة على منع تدفق البضائع المتجهة غرباً من الصين إلى الهند والعالم الإسلامي وأوروبا. وإذا تصاعدت هذه المعارضة، ستصبح قادرة على عزل كوبلاي عن الثروات التي تمثل محور ارتكاز قوته، وعندها يصبح كوبلاي مثل أي إمبراطور قديم واهن في وجه جحافل القبائل البربرية التي اكتسحت أصقاع صحراء غوبي. وربما يأتي اليوم الذي ينهار فيه إمبراطور مغولي أمام أحد قادة البربر، وربما يكون هذا القائد هو أحد أبناء العم الأباعد، وربما يكون أحق بالعرش من

كوبلاي.

وابن العم المذكور هو كايدو حفيد أوقطاي، وهذه قصته التي قد تكون غريبة بعض الشيء، لأنها وقعت طوال حياة كايدو المديدة وعلى مدار فترة كبيرة من حياة كوبلاي. فقد انخرط الخصمان غير المتكافئين في حروب طويلة الأجل دامت 40 سنة تقريباً على بعضهم في صراع أشبه ما يكون بحلبات الملاكمة. وكان كايدو خفيف الوزن يلقي بالضربات من الحدود الشمالية والغربية، فيخطف أحياناً انتباه منافسه الثقيل الوزن الذي كان مشغولاً بمنافسين آخرين أيضاً.

ولم يحلم كايدو في واقع الأمر بالانتصار، لكن النجاحات التي حققها سلطت الضوء على موضوع آخر شاع بين العديد من الحكام العظماء. فالغزو نتيجة بسيطة لعمل مضن يتم بشق الأنفس، لكن الإدارة مسألة معقدة. والغزو يوحد صفوف التابعين في مغامرة كبرى، في حين أن الإدارة تسمح للشخصية والطموح باللعب الحر وبتشكيل جماعات متنافسة، والأوضاع تصبح قابلة للانهيار خصوصاً إذا كان الأطراف يعيشون على بُعد مسافات كبيرة تصل إلى 3 آلاف كيلومتر من المقر. فإذا أراد مسؤول أن يسافر إلى كايدو كان عليه أن يقطع نفس المسافة التي يسافرها مسؤول إنجليزي للوصول إلى أميركا خلال ثمانينيات القرن الثامن عشر. ومن يدري عندما يصل هذا المسؤول إلى كايدو ماذا يكون قد حدث؟

ولد كايدو في عام 1235 وقد نجّاه صغر سنه من عمليات التطهير التي شنها مونخيه على أنصار أوقطاي في سنة 1251، لكنه لم يُحرم من مزرعته عندما توصل مونخيه إلى اتفاق سلام مع الناجين في العام التالي. ولما بلغ كايدو السادسة عشرة، أصبح مالكاً لمجموعة من الأراضي مساحتها ألفي كيلومتر في غرب مدينة كاراكوروم (Karakorum)، يشقها وادي نهر إيلي (Ili) الخصيب، وهو أحد الطرق الرئيسية التي تربط الصين بالمنطقة الغربية. وأصبح وسط آسيا - هذا الامتداد الجغرافي الميت - هو قاعدة انطلاق كايدو، ومن هذه المنطقة بلغ كايدو مبلغ الرجال، بعيداً عن عالم كوبلاي الذي غلب عليه الطابع الصيني، وبدأ في بناء إمبراطوريته الخاصة كطفل صغير يكافح لكي يصنع المجد.

ومن الآن فصاعداً لن تكون القصة بهذه السهولة؛ لأننا سنكون بصدد تفسير أحداث

غامضة وتوضيح أهمية مراجع معينة في مصادر غامضة تتصدى لسرد مشاحنات تافهة. فقد واجه ماركو بولو المشكلة نفسها واستطاع حلها كما هي عادته غالباً عن طريق تخطي المناطق الصعبة في التاريخ وتقفي أثر المناطق الأجود. وهي فكرة جيدة لأن المحادثات والقيل والقال الذي جمعه ماركو بولو في كتاباته ساعدتنا في الحصول على أخبار ذات أهمية عن كايدو وعن طبيعة التمرد الذي قام به. ولم ينس ماركو بولو ذكر كايدو بسبب ابنة الأخير (كوتولان) إحدى السيدات الرائعات اللاتي تركن بصمة على تاريخ منغوليا، فكانت كوتولان (Kutulun) معروفة ليس لمهاراتها السياسية وإنما لقدراتها القتالية ونزعاتها الاستقلالية.

تحدث ماركو بولو في افتتاحيته عن كوتولان: إنها كانت «فتاة رائعة الجمال، لكنها شديدة البأس والشجاعة، ولم يتوافر في نطاق حكم أبيها رجل يغلبها في مفاخر القوة. فكانت طويلة القامة مفتولة العضلات قوية البنية جميلة القوام، بحيث يمكن تشبيهها بالعمالقة». أشفق كايدو على ابنته الأمازونية، وأراد أن يزوجها، لكنها كانت ترفض دائماً وتقول إنها لن تتزوج إلا من رجل يغلبها في مباراة مصارعة، وفرضت قاعدة تطالب المنافس بتقديم مئة جواد لدخول المنافسة. وبعد مئة مباراة ومئة فوز، أصبحت كوتولان تمتلك عشرة آلاف جواد. وبعد كل هذه المحاولات يظهر الأمير النبيل - ويكون مثل جميع القصص الخيالية - نجل ملك غني قوي، ويكون الملك ونجله مجهولين. ويكون لدى الأمير ثقة بالنفس زائدة عن الحد فيعرض خيولاً أكثر مما تتطلبه المسابقة. ويطلب كايدو الذي يتمنى زوجاً مناسباً لابنته، منها أن تخسر له المعركة طوعاً، لكنها ترفض وتطلب أن يتغلب عليها بطريقة عادلة. ويتجمع الناس لمشاهدة المباراة التي تنتهي بذروة غير طبيعية، «فيشتبكان مع بعض بالأذرع ويتصارعان باستخدام طريقة وأخرى دون أن يستطيع أحدهما صرع الآخر، حتى تُسقط كوتولان منافسها على حين غرة. فيشعر بالخزي ويعود لمنزله تاركاً وراءه أربعة آلاف جواد، ويبتلع والدها غضبه بعد خسارة عريس مناسب، ويصطحبها معه في حملاته، لأنها أثبتت أنها محاربة عظيمة. فأصبحت تخترق صفوف العدو لخطف رجل - مثلما ينقض الصقر على طير - وتحمله إلى والدها».

هل يمكن تصديق هذا؟ نعم بعضه وليس كله. فكوتولان فتاة حقيقية حسبما ذكر رشيد

الذي ألمح إليها مستهجناً امتناعها عن الزواج. وقال إن الرفض جاء من والدها وأن «الناس تشككوا في وجود علاقة من نوع ما بين الرجل وابنته». ونسخة بولو من القصة تذكرنا كثيراً بغيرها من النساء. والشيء المقنع هو ما تلقيه كوتولان من ضوء على أبيها كايدو والفضائل التي أُعجب بها: الفضائل التقليدية للرعاة والقبائل الرحل من فخر وشجاعة وقوة وروح قتالية واستقلال. ولم يكن كايدو محباً للعلماء أو الفنانين أو المسؤولين، وكان كما يقول المؤرخ موريس روسابي رجلاً له صفات وضعته دائماً في صدام مع كوبلاي.

كيف إذاً كانت حال الإمبراطورية في مطلع ستينيات القرن الثالث عشر؟

لم تعد الإمبراطورية موحدة، وإنما أصبحت أرض قتال على الميراث. ففي آسيا الوسطى انخرطت ثلاث قوى مغولية في القتال لتعزيز حظوظها من الميراث: القبيلة الذهبية في جنوب روسيا، والخانات في فارس، وورثة تشاغاداي بين بحر الأورال وغرب الصين. (في واقع الأمر كان عدد القوى «ثلاث ونصف قوى»، حيث شاركت في النزاع «القبيلة البيضاء» (White Horde) التي حكمها أقارب القبيلة الذهبية والذين حرصوا على إقامة دولة منفصلة لهم). وسط هذه المعارك، واصل كايدو التوسع في المنطقة الحدودية، حيث تلتقي أراضي شقطاي (Chaghadai) وأراضي القبيلة الذهبية وأراضي الصين. وأقر جميع المتنافسين بأن أصولهم تعود إلى الأسرة التي أنشأها جنكيز. لكن من هو الرجل المناسب لتولي ميراث الجد الأكبر؟ كانت المسألة برمتها مشحونة بالتوتر وتحكمت في الأمر قوات لم يكن للساعين إلى العرش سيطرة عليها. ففي الغرب استقطب الإسلام حكام المغول فقاومه بعضهم وآمن به البعض. وسعى المؤمنون باتجاه عدو قديم هو مصر للحصول على دعم،وفي الوسط بقي بعض المستمسكين بالفضائل البدوية التقليدية محتقرين المدن والثقافات التي كانوا يحصلون على دخولهم المادية منها في الوقت نفسه. وفي شرق البلاد امتد حكم كوبلاي حيث اعتبره البعض الحاكم الأعظم في حين نظر إليه البعض الآخر على أنه خائن اختيار لنفسه الهوية والصبغة الصينية.

وتحرك كايدو القوي الداهية- كما وصفه رشيد- بثبات نحو التمرد، وفي العشرينات من عمره قال إنه يؤيد أريق في معارضة كوبلاي، ورفض استدعاء كوبلاي له لتتويجه عام 1260 بحجة واهية حين قال: إن المراعي قليلة جداً على خيوله. وبعد فترة وجيزة توفي

قادة المغول الثلاثة في آسيا الوسطى: هولاكو في فارس، وألغو في أراضي شقطاي، وبارك في القبيلة الذهبية، وتركوا فراغاً في السلطة في أنحاء آسيا الوسطى. واستحوذ كايدو على مزيد من الأراضي ليصل غرباً باتجاه فارس وشرقاً حتى الصين معتمداً على التحالف مع حاكم القبيلة الذهبية الجديد. وحاول كوبلاي إعادة النظام إلى عائلته المتنازعة عن طريق إرسال ممثل له هو باراك الذي عيّنه مسؤولا عن ممتلكات شقطاي، وخاض باراك وكايدو معركة على ضفاف سيرداريا، انتهت بانتصار كايدو انتصاراً مدوياً وعرضه إحلال السلام باسم جنكيز.

وفي عام 1269 انعقد مؤتمر للسلام في تاراز على الحدود بين كازاخستان وقرغيزستان بحضور جميع الحكام الجدد للدول الثلاث المنشأة في منغوليا الداخلية الآسيوية، ورابعهم كايدو. وأعرب ثلاثة من الحكام المؤتمرين عن عدم وجود مصالح لهم في هذا الشأن المحلي، وقد قصدوا بذلك تقسيم بلاد ما وراء النهر بينهم وبين باراك وكايدو، وأبدوا موافقتهم على المشاركة في التجارة من سمرقند وبخارى. وأكد الاثنان المعاهدة من خلال القسم العظيم الذي جعلهم إخوة دم بشراب «الذهب» كما يُقال، ويعني تبادل كؤوس الخمر الذهبية وشربها نخب الاتفاق.

لاحظ ما يحدث، باراك الذي أرسله كوبلاي أساساً والمغرور كايدو يتصرفان كأنهم ملوك مستقلون، لا أحد يستشير السيد الأعلى كوبلاي باستثناء - وفقاً لاقتباس من «تاريخ اليوان» - إرسال رسالة بها شيء من التجرؤ: «الضرائب القديمة من أسرتنا ليست من قوانين الهان. واليوم وأنت لا تزال في أرض الهان تبني عاصمة وتشيد المدن وتتعلم طريقة القراءة والكتابة وتستخدم قوانين الهان، ما موقفك من العادات والتقاليد القديمة؟ بعبارة أخرى أرادوا أن يعلنوا أنهم مستقلون عن كوبلاي الذي تحول عن أساليب جنكيز خان من وجهة نظرهم.

وسرعان ما ظهر أن مؤتمر السلام ليس سوى خدعة، فلا أحد يثق في أحد، والجميع على استعداد للانجراف لمزيد من القتال. لكن حاكم القبيلة الذهبية مونخيه تيمور تجنب هذا الوضع، تاركاً الحكام الثلاثة الآخرين في دائرة مفرغة من الاعتداءات والتحالفات والمغالطات التي يمكننا تلخيصها في السطور القادمة. تغلّب أباقا خليفة هولاكو والمعروف

بلقب الخان الحادي عشر، على باراك، وأرسل كايدو جيشاً لمساعدة باراك وبهدف الاستفادة من الهزيمة. وتوفي باراك وحوّل قادته ولاءهم إلى كايدو، ومعهم 30 ألف جندي. نتيجة لهذه التطورات،جرى في أواخر صيف 1271 تتويج كايدو خاناً للدولة في تاراز التي بلغت المساحة بين حدودها على الجانبين 2500 كيلومتر، وتضم ما يُعرف اليوم باسم جنوب كازاخستان وأوزبكستان وجميع أراضي قرغيزستان تقريباً. ولم يكن لهذه المنطقة اسم محدد وأشار إليها ماركو بولو باسم «تركيا العظمى» وسماها آخرون تركستان (رغم وجود المغول بها) أو أمة شقطاي، وهو كيان لم يتطابق مع طبيعة عالم كايدو. فهي تمتد من نهر أموداريا في الغرب حتى مدينة تشينغ يانغ في شرق البلاد، ومن بحيرة بلخاش شمالاً إلى تيان شان، على مساحة إجمالية 1.25 مليون كيلومتر مربع، أي كمساحة فرنسا وألمانيا وإيطاليا معاً، وهذا إنجاز لا يمكن الاستهانة به. أثبت كايدو أنه ذكي بما يكفي لاستغلال نقاط ضعف خصومه، وتحرك كوبلاي إلى قلب الصين. فقد كان قائدا بتقاليد جنكيز نفسه: صعب المراس لا يقرب الكحوليات متسامحاً مع الأديان الأخرى خلافاً لعقيدته الشامانية (Shamanism)، وحرص على فرض القاعدة الضريبية التي تمثلت في كبرى مدن طريق الحرير العظيم كسمرقند وبخارى. وقام كوبلاي – من خلال مستشار كفء – بفرض عملته الخاصة به (عُثر على مسكوكات نقدية ذات معدل فضة مرتفع في عشرات المدن). ويعود إليه فضل بناء مدينة أنديجان التي أصبحت في ثمانينيات القرن الثالث عشر مفترق الطرق التجارية في وادي فرغانة. وبدا عليه تمسكه بالتقاليد، واقتدى بجنكيز في ضرورة الوعي بالمهارات الإدارية. فأنشأ مجموعات من سلاح الفرسان باستخدام هيكل «أوراماند» (Oramand) العشري الذي بدأه جنكيز، لإصلاح الوحدات القائمة على أساس الولاءات القبلية. واستطاع بذلك دمج العديد من القبائل المغولية والتركية التي تناحرت في كثير من الأحيان، وبدأ الفرسان الذين استخدموا الأقواس والسهام فيما مضى في استعمال السيوف والرماح أيضاً. وجرى تعزيزها بوحدات من المشاة و»رماة النفتا»، وهي فرق ماهرة في استخدام المنجنيق وغيره من آلات فرض الحصار. ما مدى قوة جيوشه؟ تتراوح المصادر حول رقم 100 ألف مقاتل، وربما يكون هذا التقدير مبالغاً فيه مثل كثير من الأرقام، رغم أن هذا العدد كان أقل من أعداد القوات المتناحرة في بلاد فارس و«القبيلة الذهبية» (Golden Horde) والصين في عهد كوبلاي. ولكن ما عز عليهم من حيث

الكم عوضوه كيفاً. وقد أبلت هذه القوات بلاء متميزاً في غارات التقدم السريع والضربات الثابتة والتراجع الخاطف.

لكن الانتعاش الاقتصادي لم يدم طويلا، وسرعان ما تحطمت أحلام توسيع الإمبراطورية، ففي نفس عام تتويج كايدو، اتخذ كوبلاي إجراءات بهدف إذلال القائد المتوج حديثاً، فأرسل وفداً من ستة أمراء برئاسة ابنه الرابع نوموخان إلى الماليغ (Almaligh) داخل أراضي كايدو لإقناعه بالحضور إلى البلاط في زانادو أو بكين، وبدا هذا وسيلة جيدة لإجبار أبناء العم من داخل العائلة المالكة على التعاون. لكن رد الفعل كان معاكساً وكارثياً، ولم يأبه كايدو، فقام بحفظ جيشه من أي أذى محتمل واجتهد في تأمين حدوده الغربية. ولم يكن لدى نوموخان سلاح فرسان كاف لشن هجومم، فقد أخبره أبرز جنرالاته أن الأمر يحتاج إلى 110 ألف جواد لمطاردة كايدو.

أصبحت هذه المشكلة في صميم التحديات التي واجهت كوبلاي، فالصين لم تنتج في العادة خيولاً بهذا الحجم. وتشير سجلات اليوان إلى أنه - منذ عهد أوقطاي فصاعداً - أصدر حكام الإمبراطورية مراسيم متتالية ومتواصلة تتناول كيفية الاستيلاء على الخيول[1]، يقول أحدها: «أما بالنسبة لخيول الشعب، هناك نظام النسبة المئوية. عندما يصل العدد إلى 100 فرس، يجب الاستيلاء على واحد منها». وهناك مرسوم آخر يعود إلى عهد كوبلاي (صدر في سنة 1293) تناول المأزق الذي واجه نوموخان في منتصف سبعينيات القرن الثالث عشر: «لأن الأمراء المتمردين (يقصد كايدو وغيره من الأمراء) لم يتسلموا، فإن الوقت قد حان لشن عمليات عسكرية. يتعين جمع مئة ألف فرس من جميع المحافظات ودفع سعرها». وبالفعل بدأت القطعان تتدفق من الصين عن طريق ممر كانسو، غير أنه لم تسنح فرصة حقيقية للحصول على العدد الكافي من الخيول. وبطبيعة الحال استغرق الأمر فترة طويلة ليتمكن نوموخان من تدريب جيشه على استخدام هذه الخيول، وقام نوخومان بإنشاء بلاط وأصبح أحد أمراء الحرب الجدد.

استمرت هذه الأزمة خمس سنوات دون جدوى، وهو وقت كاف لإشعال مشاعر

(1) سيشين جاكشيد وسي آر بودن «ملاحظات على تربية الخيول في أسرة يوان».

الاستياء والغضب بين أبناء عمومته المرافقين له، وكانت النقطة المحورية هي طوخ تمير - ابن الابن التاسع لتولوي - المشهور بشجاعته ومهارته في الرماية. وكان تمير يمتطي حصاناً رمادياً يظهر عليه بشكل جيد، وكان متهوراً. يقول عنه رشيد الدين: «شجاعته الفائقة ملأت دماغه بالتمرد». وأقنع طوخ تمير ابن عم آخر له اسمه شيريجي وهو ابن مونخيه أنه أحق بالعرش من كوبلاي. وفي إحدى الليالي قام طوخ وشيريجي باعتقال نوموخان وأبرز جنرالاته، وأرسلوا الأمير كمسجون إلى القبيلة الذهبية كهدية، وأرسلوا الجنرال إلى كايدو برسالة تقول: «علينا ألا نسيء الظن ببعضنا، ولكن علينا أيضاً توحيد جهودنا لطرد العدو». ولكن مثل جميع المتهورين، قام طوخ تمير وشيرجي بتدمير الوحدة التي سعيا لتحقيقها، فقد تحول جيشهم إلى عصابة من اللصوص، واختلف الرجلان على الخلافة وحارب أحدهم الآخر وتعرضا لانشقاقات عدة، ليتجها في نهاية المطاف شرقاً إلى داخل منغوليا، حيث احتلوا كاراكوروم (Karakorum)، فأرسل كوبلاي قوات لطردهم وانتهى هذا التمرد. إلا أن مهمة فرض كوبلاي لإرادته على عائلته الجامحة كان أبعد من قدراته، فكان كوبلاي غارقاً حتى أذنيه في الحرب على إقليم سونغ التي تواصلت حتى عام 1279، وفي غضونها تنازل عن محاولاته للسيطرة على مناطق كايدو النائية.

«وماذا عن نوموخان ذي الحظ العاثر؟ لقد نجا في الرحلة الطويلة إلى شبه جزيرة القرم كأسير ليجد نفسه بطبيعة الحال وسط أبناء العم، الذين أبقوه عشر سنوات لديهم، لأنهم اعتقدوا أنه ربما يفيدهم كرهينة. وعندما عاد إلى الصين في عام 1284 تولى منصب رئيس القسم المسؤول عن رعاية الحدود الشمالية، ولكنه لم يعد في سلسلة الخلافة وتوفي في العام التالي».

كان هذا خبراً سعيداً بالنسبة لكايدو، فبعد إعادة احتلال الماليغ (Almaligh)، كانت له حرية التعامل مع الغارات المستمرة عبر الحدود القادمة من بلاد فارس وانتفاضات ثلة من المستائين من أبناء عائلة شقطاي. ولأن كايدو أحكم سيطرته على طريق الحرير القديم، فقد ترأس فترة انتعاش لم تكن بالقوة الكافية. وعززت القطعة النقدية الفضية الاستقرار الاقتصادي، واتضحت إستراتيجيته على مدى السنوات القليلة التالية، فقد شيد شبكة دعم في أنحاء أطراف الإمبراطورية تصل جنوباً إلى التبت وتصل شرقاً في نفس الوقت حتى

منشوريا (Manchuria). وقام من الماليغ بتكوين قوس من التابعين والحلفاء يطوقون الإمبراطورية الصينية في عهد كوبلاي، وحيث كان دوا ابن باراك ساعده الأيمن، فقد عزز من ادعائه أنه الوريث الحقيقي لجده أوقطاي الذي عينه جنكيز خليفة له.

وفي أحد الأيام انتظر الجميع مواجهة أخيرة تأخرت أكثر من 20 عاماً، ولم تأت في حياة كوبلاي، لكن سيطرة كوبلاي على آسيا الوسطى في أواخر عهده أصبحت رمزية ليس أكثر!

الفصل الثاني عشر

صين الخان.. بلد جديد

تمتع كوبلاي بمهارات إدارية رائعة، ورغم أنه لم يكن عبقرياً من الناحية الفكرية، فإنه حظي بمواهب جعلته من أعظم من تمتعوا بحس الإدارة التنفيذية، فكان قاضياً رائع الشخصية متجرداً من أي تحامل شخصي، وكان ذا موهبة في توظيف أشخاص يفوقونه ذكاء. وكان مثل جده يحب توظيف الموهوبين، فصار لديه فريق دولي من المستشارين، وتنافس التجار المسلمون في تقلد المسؤوليات المالية في دواوينه. فقد عُين 66 من اليوغور الأتراك: 21 منهم مفوضون مقيمون أو مسؤولون محليون لإدارة المقاطعات الصينية، وأسند إلى العديد منهم مهمة تعليم أمراء الأسرة المالكة. وكان كوبلاي مثل جده جنكيز ناجحاً في معالجة المشاكل التنظيمية، حتى تلك المشكلات المستحدثة الناجمة عن تطورات غير مسبوقة للأحداث، وكان يستنبط لها حلولاً واقعية. فقد كان الجد جنكيز يستولي على القبائل ويحطم هياكلها ثم يقيم أمة متجانسة، ثم يوسع نطاق ذلك على مستوى جميع الثقافات التي احتلها، حتى يقيم إمبراطوريته. أما كوبلاي فأراد أن يطوّر ما بدأه جده، فكانت مهمته تحقيق الانتصارات والفتوحات ثم إقامة الحكومة. وكان الشعب المغولي غير مؤهل للحكم لسببين: أولهما عدم وجود حكومة فعلية للبلاد قبل عهد جنكيز، وثانيهما: أنه رغم أن الفاتحين السابقين غير الصينيين استحوذوا على شمال الصين، لم يستطع أحد أن يفرض سلطته على كامل أراضي الصين، فهل تعرف أي سابقة تاريخية حكم فيها رهط صغير من الناس هذه الامتدادات الشاسعة، وكُتب لهم النجاح؟

وتمثّل خطأ كوبلاي الرئيس في عدم القدرة على الإقناع، وكيف يستطيع الإقناع وهو المؤمن برسالة جده الداعية إلى توسيع حدود الإمبراطورية إلى حيث يعترف العالم أجمع بتفوق المغول؟ فإيمان كوبلاي بهذه الرسالة أورثه شدة بأس وصلابة. ولأنه رأى في الصين مفتاح حكمه الإمبراطوري، كان عليه تحقيق الاستقرار والازدهار فيها.

ولكي يقدم كوبلاي نفسه لرعاياه بصفته حاكم صيني أصيل - إذ لم يكن يستطيع بسط سلطانه على الصين بنفس الطريقة التي حكم بها المغول حين قال إنه «الحق الإلهي»، وكون كوبلاي بوذياً ليس كافياً بالطبع - فكان عليه أن يصبح أو يدعي أنه كونفوشيوسي؛ ذلك لأن هذه الديانة كانت على الدوام تكريم لأجداد الصينيين. فأمر كوبلاي عام 1277 ببناء «معبد

سلفي عظيم» (Great Ancestral Temple) ليثبت لرعاياه في شمال وجنوب صحراء غوبي أنه مواطن مغولي وصيني صالح. وكان هذا المعبد يعلو الحافة الجنوبية الشرقية من مدينة «دا دو» (Da-du) الجديدة، واحتوي على ثماني غرف، كل منها نسخة محلية من الخيام الثماني البيضاء التي أُنشئت سابقاً كمزارات يزورها جنكيز في أسفاره في أنحاء منغوليا، والتي وصلت بعد قرون لاحقة لمثواها الأخير (إدسون خورو، سياج الرب) جنوب دونغ شنغ بمنغوليا الداخلية. وفي خمسينيات القرن العشرين، اسُعيضت عن هذه الخيام بمزار جديد هو المعبد المعروف باسم ضريح جنكيز خان. وكان معبد كوبلاي الأصلي الكبير ذو الثماني غرف تخليداً لذكرى أجداده: جنكيز وأبناء جنكيز الذين بلغوا العرش قبل كوبلاي. وحصل جنكيز على اللقب الصيني «تايتسو»، وهو اللقب نفسه الذي حمله مؤسسو عدد من السلالات الحاكمة في الصين مثل سونغ ولياو وجين ومينغ. وبذلك يصبح كوبلاي هو الرجل الذي أكسب جده جنكيز الجنسية الصينية عندما أسس معتقداً انتشر بين الصينيين اليوم يقول: إن جنكيز كان مواطناً صينياً، وبالتبعية فهو مغولي أيضاً.

وكان طموح كوبلاي آنذاك أن يحكم العالم انطلاقاً من الصين - حجر أساس إمبراطوريته، ونتج عن هذا الطموح الكبير «شيء كبير مثله»: ليس دكتاتورية قاتمة وإنما إحياء كثير من المظاهر التي اختفت من المجتمع الصيني أثناء الاضطرابات التي ضربت البلاد قبل قرن من الزمان، وامتدت إلى وقت قريب - قرابة عقدين - فمرت الصين بشيء من النهضة. ولم يكن كوبلاي مقبولاً لكونه أجنبياً، لكنه كان الرئيس بلا منازع: ويمكن القول إن التغييرات التي أحدثها «حسنت أوضاع الكثير من رعاياه الجدد. وأصبح الكثير من المواطنين على استعداد للاعتراف بأن السلام الذي تحققه وحدة وطنية مع المغول أفضل من شقاق يشعل الحرب الأهلية، وقد يكون العزاء المناسب لكوبلاي أنه حاول أن يكون حاكماً صالحاً.

وهذا حكم يتعارض بشدة مع الآراء الشائعة الذي اعتبرت حكم المغول مجرد «سلسلة من الانتهاكات» على النحو التالي:

ظلت المناصب العليا من نصيب المغول تماماً، وكان المغول ينظرون إلى السكان على أنهم ملاك الأراضي الجدد والنخبة الأرستقراطية الجديدة. وتسبب النظام الطبقي الجديد

في ظهور أساليب إذلال جديدة، فقد قبع المغول على قمة الهرم الاجتماعي، يليهم العرب والفرس واليوغور والأتراك القادمون من بلاد المسلمين - وكانوا خبراء في التجارة - ثم 40 مليون صيني مع الأقليات التي عاشت في شمال الصين وعلى أطراف الدولة كالتتر والخيتان والكوريين. وفي القاع الرعايا الجدد - وهم 70 مليون صيني جنوبي - تحولوا فجأة من ورثة الحضارة الأغنى والأكثر تطوراً في العالم إلى خدم ورعايا، أُستبعد الكثير منهم، وازدهرت تجارة الرقيق. فإن تورط مواطن مغولي في جريمة قتل، كانت عقوبته النفي عن البلاد، أما إن فعلها رجل صيني كان يُعدم. ويستطيع الرجل المغولي أن يضرب رجلاً صينياً ويفلت من العقاب، ولم يستطع الصيني الدفاع عن نفسه. وكان محظوراً على الرجل الصيني حمل السلاح والصيد أو المشاركة في التدريبات العسكرية أو تربية الخيول أو الصلاة في جماعة، كما فرض حظر تجول على الصينيين، ومُنعت الأضواء وتوقف العمل بنظام الاختبارات المؤهلة للمناصب الأكاديمية. ووضع المغول عشر مستويات لتصنيف الرعايا الصينيين، جاء العلماء الكونفوشيوسيون في المرتبة التاسعة، وسبقتهم بائعات الهوى، وكان المتسولون في المرتبة العاشرة.

هذا صحيح ولا خلاف عليه، لكن هناك حقائق أخرى. فالعلماء والمسؤولون الأرستقراط لم يمثلوا سوى شريحة صغيرة من المجتمع الصيني. فكانت أغلبية المجتمع من الفلاحين وسكان المدن الذين تكسبوا من العمل الزراعي والتجارة المتواضعة المستوى والوظائف المتواضعة. وفي وجود هذا العدد الهائل من السكان والمدن المكدّسة بالبشر، والقشرة الرقيقة من الطبقة العليا المغولية، لم تظهر أية تغييرات على المجتمع، ولم يتغير روتين الحياة اليومية لعامة الشعب ولم يتحسّن. وكان تحقيق الاستقرار يتطلب أكثر من مجرد ممارسة السلطة بالأساليب العادية، فأدرك كوبلاي - الذي أصبح أقوى رجال العالم في عصره - أن توكيد سلطته توقف على تدفق السلطة من أعلى إلى أسفل، ومن مسؤولي الحكومة إلى الجماهير. واعتمد كوبلاي على الدعم المتدفق من أسفل إلى أعلى، وآمن بضرورة أن يشعر عامة الناس السعادة والأمان، وإلا تفاقمت الاضطرابات والقلاقل. وكان شمال الصين لا يزال يتعافى من حمى الحرب على مدار نصف قرن من الزمان، حروب بدأها جنكيز سنة 1211، والجنوب في حالة غليان، فكان الجميع في حاجة إلى التعافي.

تمثل أساس الاستقرار في جموع الفلاحين الذين وفروا الغذاء للشعب. وأنشأ كوبلاي لرعاية مصالحهم ديواناً لتنشيط الزراعة يضم ثمانية مسؤولين وفريقاً من الخبراء قاموا بتنظيم تقديم المعونات وشيدوا 58 مخزن غلال لتخزين تسعة آلاف طن من الحبوب. وقاموا بترتيب الإعفاءات الضريبية وحظروا على المغول رعاية قطعانهم الهائمة في الأراضي الزراعية. وساعدت المجالس المحلية في تسيير أمور الرعية، وتكفّل كل مجلس محلي بأحوال خمسين أسرة من إنتاج زراعي وري وتعليم وغير ذلك. وهي فكرة رغم أنها ثورية بمعايير عصرها، ثبت صعوبة تطبيقها، لكنها أظهرت أن الإمبراطور لم يكن مجرد بدوي بربري. ولم تعد الضرائب تذهب مباشرة إلى ملاك الأراضي الذين كانوا مغوليين في الغالب، وإنما ذهبت هذه الأموال إلى الحكومة، وقُسمت إيراداتها بين الحكومة وأصحاب الأراضي. وظل الفلاحون يدفعون الضرائب، لكن كوبلاي حاول الحد من إساءة استعمال هذه الأموال. وأصر كوبلاي على تخفيف وطأة العمل القسري، الذي ظل شديد الأهمية للمشاريع العمومية العملاقة.

دعونا نر كيف مارس كوبلاي الحكم. لقد كانت بدايته جيدة تحت رعاية مستشار جنكيز العظيم «يه لو تشوتساي» الذي نجح في إقامة نظام عمل حكومي لائق رغم معارضة بعض الفصائل المتمسكة بالتراث. لكن كوبلاي واجه مشكلة أكبر. كان عليه أن يُخضع لقبضته سهول المدينة والأراضي الزراعية والحياة البدوية والحضارات المستقرة، أي يجمع بين القليل والكثير. فلم يكن كوبلاي على استعداد للتخلي عن حضارة (أمدته بقوته وقيمه الأساسية) ويعتمد على أخرى. وكان عليه أيضاً أن يأخذ بالاعتبار رعاياه المسلمين، فهم جزء حيوي لا يتجزأ عن الإمبراطورية وقد حكم أخوه هولاكو جزءاً كبيراً من بلاد المسلمين، وكان للمسلمين هيمنة بسبب المناصب الرفيعة التي شغلوها من قبيل حكام ولايات وجباة ضرائب ومستشارين ماليين وشركاء تجاريين. كان كوبلاي يواجه هذا التحدي ذا الأوجه المتعددة أينما ذهب. وكان أحياناً يجد حلولاً في تصرفات أسلافه في الحكم، وأحياناً أخرى يبتكر حلوله الخاصة. فعلى مدى أكثر من 30 عاماً قام كوبلاي بتأسيس شكل من أشكال الحكومة أغلب مسؤوليها من الصينيين، لكنها اكتسبت طابعاً معقداً وعالمياً متفرداً.

وتمتّع كوبلاي بميزة كبرى، إذ لم يكن مقيداً بأي من أسلافه، فالأباطرة السابقون حكموا

من خلال عدة هيئات تنفيذية، لكن كوبلاي رأى هذا النهج كارثياً، وبذلك لم يؤسس سوى هيئة واحدة - الأمانة المركزية - وعيّن نفسه على قمتها. وضمت هذه الهيئة كبار المستشارين (عددهم عادة اثنان أو ثلاثة وأحياناً خمسة) وأعضاء المجالس الاستشارية والمساعدون ونحو 200 من المسؤولين ومئات الموظفين، ضمن 18 رتبة وظيفية تتحدد على أساس الأسبقية والألقاب والدخل والمزايا[1].

وكانت الأمانة تشرف على ست وزارات: شئون الموظفين والإيرادات والطقوس والحرب والعقوبات والأشغال، وداخل كل وزارة عشرات الإدارات. ففي وزارة الأشغال مثلاً 53 إدارة، بالإضافة إلى الهيئات التي تعاملت مع الرموز البوذية والشمع المفقود ومسبك البرونز وعمال العقيق واليشم والنجارة والطلاء والنسيج والصباغة وصناعة السجاد والخيام والأفران وأعمال الجلود. وكانت الهيئة الرقابية (Censorate) تراقب جميع الوزارات والإدارات وهذه الهيئة الرقابية عبارة عن مكتب مراجعة وطني يله ثلاثة مقار على مستوى البلاد.

وكان مكتب الشؤون العسكرية منفصلاً تماماً عن الإدارة المدنية، ولم يكن على صلة بالهيئة المدنية باستثناء وزارة الحرب. وكان كوبلاي قد أنشأ هذا المكتب بعد تمرد لي تان (Li Tan) في شاندونغ (Shandong) عام 1262 ليضمن بقاء سلطته. وظل المكتب حكراً على المغول وبقيت أعماله سرية للغاية، ولم يُسمح لغير المغول بالعمل به. واُستبعد جميع الصينيين حتى لا تتسرب إليهم أية معلومات عن قوام القوات أو حركة التسريحات أو التسلح. وكان لمكتب الشؤون العسكرية سلطة التحكم في القوات المسلحة،ومن ثم حركة تعيين الضباط وتدريب الوحدات الصينية ووحدات آسيا الوسطى، والاحتفاظ بالسجلات وإجراء جميع إجراءات المراجعة ذات الصلة. ولعل هذا كان أكثر إنجازات كوبلاي عبقرية في الجوانب الإدارية. فبينما أنشأ جنكيز نظاماً غير قبلي يدين له بالولاء، أدرك كوبلاي أن هذه المؤسسة الضخمة ستكون بعيدة تماماً عن شخصه، ولذلك كان ينبغي أن يصبح أفرادها - ومعظمهم موظفون إداريون لا جنرالات - موالين لكيان مختلف هو الدولة، وليس للإمبراطور الذي سيموت يوماً ما حتماً.

---

(1) يعتمد هذا الجزء بشكل أساسي على كتاب موت (F. W. Mote) «الصين الإمبراطورية» 900-1800.

ثم ظهر البلاط، فصار هناك موظفون متخصصون يهتمون بالطقوس والمراسيم والبروتوكول والمطابخ ومخازن الغلال والمستودعات والملابس والطعام الخاص. وقامت فرق من الحرفيين بتوريد الذهب والفضة والخزف والأحجار الكريمة والمنسوجات. وتأسست إدارات خاصة بمستلزمات الصيد ومزارع الخيول، أصبحت فيما بعد عالماً متكاملاً يضم موظفين ومديرين، وأخصائيي ترفيه، ومؤرخين ومترجمين، وفلكيين وأطباء، وأمناء مكتبات، وأمناء مزارات، وموسيقيين ومعماريين.

ولم تكن المؤسسات الأخرى تحت السيطرة المباشرة لأي من الهيئات المذكورة أعلاه، فكانت هناك ثلاث أكاديميات مخصصة للدراسات المنغولية. وكان المكتب الإسلامي لعلوم الفلك يقدم للمسلمين تسهيلات بحثية خاصة. وكانت لجنة الشؤون التبتية والبوذية - التي كانت تعتبر إمبراطورية «فاغز-با» (Phags-pa) الخاصة - تمثّل نمطاً من الحكومة التبتية النائية، المعنية بالإشراف على مكتب التهدئة في التبت والمصالح البوذية المتزايدة في أرجاء الصين - المعابد والأديرة وغيرها من الممتلكات.

أما مكتب الشؤون العسكرية فتمثلت وظيفته في معالجة التحول من الفتح إلى الإدارة العسكرية الدائمة. وكانت التداعيات المحتملة لهذا التحول تدّخر بعض الاضطرابات والقلاقل إلى المستقبل. فتحت حكم جنكيز وضع النظام المغولي كل أسرة في آلته العسكرية، مما أوجب مساعدة الأسر بأكثر من راتب (وهو ما لم يكن معمولاً به في الأيام الأولى من الإمبراطورية). وفي بداية الأمر كانت المكافآت تقدم من الغنائم، وعند الاستيلاء على إقليم جديد كانت المكافآت تأتي في صورة أراض، وكانت المكافآت هي الطريقة المتبعة لدى قادة مئات أو آلاف الجنود. ثم نشأ نظام جرى بموجبه منح أمراء الجيش وقادته ضيعات (إقطاعيات). ولكن في ظل النظام الإمبراطوري لم يكن الإقطاع مجدياً. فكان الكثير من المغول يفتقرون إلى الطموح أو موهبة إدارة مزارع. وقد غاب معظم ملاك الأراضي وتركوا أراضيهم ليديرها موظفون مستعبدون لا عائد لهم من التفاني في عملهم، واتجه النظام للانهيار ذاتياً ليترك الضيعات أطلالاً والناس معدمين. وتوقف كوبلاي عن منح الإقطاعيات، وقام ملاك الأراضي من المغول ببيعها حتى وجدوا أنفسهم مطرودين من المنظومة العسكرية وليس لديهم أي مهارات أو مؤهلات علمية أو مكان يعودون إليه

في وطنهم الأم، رغم أنهم ما زالوا جزءاً من النخبة. فكانت مكانتهم في الإمبراطورية تعادل مكانة الفقراء البيض في الجنوب الأمريكي، هذه الأوضاع ستصبح فيما بعد الداء العضال الذي سيلحق بورثة كوبلاي.

بعد ذلك أصبح نظام المحافظات أحدث إبداعات كوبلاي. فتزامناً مع اندياح الغزو المغولي في الخارج، جرى منح المناطق المفتوحة حديثاً نسخاً مصغرة من الأمانة المركزية، وظلت هذه النسخ المصغرة فروعاً للحكومة في الإحدى عشرة محافظة التي حصلت بعد ذلك على فروع لجميع الإدارات الأخرى، ولكنها لم تكن حكومات محافظات. فكان كوبلاي يريد أن يحكم مسؤوليه من المركز لتجنب قيام أية إمبراطوريات محلية، لكنه بهذا أقام جوهر مفهوم «الإدارة الإقليمية»، الذي ظهر في عهد تشينغ[1] ثم الشيوعيين في عام 1949، إذ تدين أقاليم «يونان» وشنشي (Shaanxi) وسيتشوان (Sichuan) وكانسو (Gansu) بوجودها لكوبلاي. وجرى تقسيم المحافظات إلى مديريات وأشباه مديريات ومقاطعات، انقسم كل منها إلى طبقتين حسب المساحة، وكان لكل منها مجموعته الخاصة من المسؤولين المرموقين بداية من تصنيف «3A» الذي مُنح لـ «أكبر مديرية» (يجب أن تضم أكثر من 100 ألف أسرة) نزولاً إلى «7B» أصغر المقاطعات (أقل من عشرة آلاف أسرة).

وبوصفه الرئيس التنفيذي كان كوبلاي ملتزماً تجاه منغوليا التي تبوأت مرتبة عالية في مجال التجارة، فمنح الحرفيين حصصاً من الغذاء والكساء والملح واستثناهم من أعمال السخرة. وكان يُنظر للتجار في السابق بوصفهم طفيليات فصاروا يلقون تشجيعاً في هذا الوقت. وازدهرت التجارة خصوصاً مع أراضي المسلمين، وتدفقت المنسوجات والسيراميك وطلاء اللك الصيني إلى الخارج عن طريق الموانئ، وتدفقت الأدوية والبخور والتوابل والسجاد لداخل البلاد.

وكان كوبلاي راعياً مثالياً للفنون، ولم يطمح إلى أن يكون خبيراً فيها، لكنه علم أهميتها في كسب ود رعاياه، فشجع الفنانين دون تمييز على أساس العرق أو العقيدة، وكان ذلك

(1) أسرة تشينغ (معروفة أيضاً باسم أسرة المانشو) هي آخر الأسر الحاكمة في الصين قبل إعلان الجمهورية، حكمت بين عامي 1644 و1912، وجاءت بعد أسرة مينغ. (المترجم).

قوة دافعة له باتجاه التغيير والتطوير. هل تذكر المهندس النيبالي أرنيكو صديق «فاغز-با»، ومصمم المعبد الأبيض (White Pagoda)؟ هذا الشاب نجح وبرع حتى صار رئيساً للحرفيين على مستوى الإمبراطورية، وصار له قصر وزوجة ثرية وجدتها له تشابي - زوجة كوبلاي نفسها. وبفضل هذا الشاب اكتسبت بعض المباني في يوان والتبت الصبغة النيبالية الخالصة.

خذ مثلاً آخر- السيراميك الذي اشتهرت به الصين. أنشأ كوبلاي عشرة قمائن رئيسة في شمال البلاد، و14 في جنوبها. وبعدما أتت الحرب على كثير من إنتاج السيراميك في شمال البلاد، عندما وصل كوبلاي إلى السلطة لم يظهر أي اهتمام بالمواد السيراميكية المستخدمة على موائد الطعام. وقد يظن المرء أن عدم اهتمامه أدى إلى القضاء على الصناعة بأسرها، لكن العكس حدث، إذ ظلت القمائن في جنوب البلاد تشحن العربات المتجهة إلى ميناء كوانزهو الكبير في الجنوب، ذلك الموقع الذي أطلق عليه «ماركو بولو» اسماً عربياً هو «الزيتون»[1] (Zayton). فيقول بولو عن الميناء:

«كانت ترتاده جميع السفن من الهند [آسيا] التي تجلب أواني التوابل والأنواع الأخرى من الأواني الثمينة. وكان الميناء مقصداً لتجار مانزي [جنوب الصين] حيث يتم استيراد أكبر كميات من السلع والأحجار الكريمة واللؤلؤ، ومنه يتم توزيعها على جميع أرجاء مانزي (Manzi). وأؤكد أن مقابل كل حمولة باخرة من الفلفل كانت تذهب إلى الإسكندرية أو أي مكان آخر من العالم المسيحي، كان الميناء يستقبل 100 باخرة أو أكثر».

ومقابل هذه الواردات تدفق السيراميك مشحوناً في السفن المتوجهة إلى جنوب شرق آسيا والهند والعالم الإسلامي. ولنتذكر أن نصف هذه البلدان كان تحت سيطرة المغول الذين سرعان ما قلدوا رعاياهم في أذواقهم العالية. وكانت كوانزهو أو الزيتون في واقع الأمر منفذاً لتصدير أهم السلع تحت قيادة التجار الفرس. ومن خلال مساندة كوبلاي أصبحت قمائن الجنوب قادرة على التركيز على الصادرات وعلى تجارب تطوير الصناعات ما ساعدها في توفير منتجات ذات جودة عالية لعملائها. ونتيجة لذلك، حسبما تقول الخبيرة مارغريت

(1) محتمل أن تكون كلمة «زيتون» أصل كلمة إنجليزية هي «satin»؛ وهي فكرة تداولتها العديد من الكتب، لكنها ليست صحيحة،فكلمة «satin» ظهرت قبل ظهور كلمة «زيتون».

ميدلي: «كانت يوان بداية الانتقال من الأواني الحجرية التي تُحرق في درجات حرارة عالية بأشكال تختلف من حيث اللون، إلى خزف البورسلين الأبيض الصلب والمزجج والشفاف الذي يقترن اليوم تلقائياً باسم الصين. وكان هناك مزيد من الثورة، فالكوبالت الموجود في الشرق الأوسط - وهو معدن نادر واستثنائي استُخدم بكثرة لإضفاء مسحة زرقاء على التماثيل وخرز القلائد. ويبدو أن أحدهم جلبه لصناع الخزف الصيني ليرى ما يمكن فعله به، فأثمر ذلك منفعة عظيمة، واكتسب سيراميك الكوبالت شهرة واسعة، وانتعشت صادراته ووصلت الضرائب المفروضة على القمائن والحرفيين والإنتاج لخزانات كوبلاي. ومن المفارقة أن لا مبالاة كوبلاي كان عاملاً في إنتاج تقنيات ومنتجات كالأواني البيضاء في فوجيان (Fujian) والخزف في إقليم «تشي شيانغ» (Zhejiang) والزجاج الأزرق، وكلها أدت إلى نمو اقتصاد بلاده، وكان قطعة واحدة منها تخطف آلاف الدولارات من جيوب جامعي التحف والنوادر.

عمل التجار في جماعات للاستفادة من ثرواتهم وصاروا مصرفيين يقرضون أموالاً مقابل فائدة وصلت 36٪ سنوياً. وكانوا شركاء لحكومة كوبلاي: فالقوانين أجبرت التجار على تحويل العملات المعدنية إلى عملة ورقية، ما منح الحكومة احتياطياً مهماً من العملات المعدنية استُخدم في دعم القروض الممنوحة إلى جماعات التجار مقابل فائدة 10٪، وصارت هذه الجماعات التجارية وحوشاً تلتهم قروض الحكومة. الجميع استفاد من التجارة حتى الفلاحين! نعم استفاد الفلاحون. فلا شك أن كوبلاي - ومعه مستشاره المالي - قالوا بضرورة ترجمة ثروة التجار إلى ثروة للحكومة تمول الأشغال العامة وتخفف الضرائب عن المحتاجين. وبطبيعة الحال إذا اختار الفلاحون الحصول على دين من أحد «قروش» القروض، فعليه أن يتحمل المسؤولية، فالحكومة لن تتحمل المسؤولية عن كل تاجر مُقرض. وكانت عادة هؤلاء المقرضين إرسال محضرين للضغط على المقترضين المتخلفين عن سداد الدفعات الشهرية. لكن في العموم الغالبية استفادت من هذا الوضع، وظهر «اقتصاد التقطير» (trickle-down economics)[1] قبل أوانه.

---

(1) نظرية اقتصادية تقول إن منح تسهيلات ضريبية للشركات ومؤسسات الأعمال العاملة في دولة ما يعود بالنفع غير المباشر على عامة الشعب (المترجم).

تمثل النجاح الاقتصادي الكبير لكوبلاي في توسيع نطاق استخدام النقود الورقية، وأثبت استخدامها واقعيته، فقد اكتشفها الصينيون قبل 300 عام تقريباً، عندما قامت أسرة سونغ بتوحيد البلاد وأحدثت ثورة اقتصادية فيها. وكما رأينا فيما سبق، فقد فتح توحيد البلاد والثروة وحالة الاستقرار، الطريق إلى إصدار عملة واحدة استخدمت النقود النحاسية التي كانت ترهق من يحملها، حيث جرى جمعها في سلاسل معدنية وكانت السلسلة الواحدة تحمل آلاف العملات. ولأن التجار الأغنياء الذين باشروا أعمالهم التجارية في أنحاء البلاد لم يحبوا التعامل بنقود بهذا الوزن الضخم، أصدرت الحكومات المحلية شهادات إيداع (أطلق عليها اسم «الأموال الطائرة») كان يأخذها التاجر من بلد ويستردها في صورة عملات معدنية في الوجهة التي يتاجر فيها. وكانت العملات الورقية (اُخترعت سنة 105 ميلادية) تُصنع من لحاء شجر التوت، وتمت الطباعة عليه باستخدام كتل الخشب المحفور (في القرن الثامن). وفي عام 1023 قامت الدولة بطباعة أول ورقة نقدية، وكانت قيمتها أعلى من قيمة ورق الطباعة. لكنها مسألة ثقة وكان الداعم لقيمة العملة هو اقتصاد البلاد ومعايير أخرى. وفي أوائل القرن الثاني عشر أصبح هناك 70 مليون سلسلة من الأوراق النقدية المتداولة. فأصبح من غير الممكن دعم هذه العملات بالمسكوكات النقدية، مما أدى إلى اندلاع أول تضخم اقتصادي عرفه التاريخ. وظهرت مشكلة أخرى تمثلت في التزوير تصدى لها كوبلاي بعمل تصاميم شديدة الدقة لا يستطيع طباعتها سوى مؤسسات العملة، وأمر بإعدام من يتورط في أعمال تزييف العملة.

ونجح كوبلاي بفضل المشورة الصحيحة في التغلب على المشاكل الاقتصادية التي واجهته وهو أمر عندما يحدث اليوم يفاخر به وزراء المالية في حكوماتنا. وأدت الركائز الاقتصادية الأربع - وهي الوحدة الوطنية والاستقرار الداخلي والثقة العالية والنمو الجيد - إلى قيام نظام نقود ورقية أكثر فاعلية من نظام سونغ. فقد جرب كوبلاي ثلاثة أنظمة دعم: أحدها باحتياطيات الحرير، ودعم الاثنين الآخرين بالفضة، وآخرها نظاماً عالمياً أثار دهشة ماركو بولو، فكانت فكرة غريبة أن يمنح المجتمعُ قيمة لخليط مصنوع من لحاء أشجار التوت. ويصف ماركو بولو تصنيع الورق وتحويله إلى نقود ومهره بخاتم رسمي من مسحوق الزنجفر (Vermilion) ثم إدخاله في التداول. وقد استطاع أي شخص أخذ

هذه الأوراق بسهولة حيثما ذهب داخل إمبراطورية الخان العظيم ليجدها مقبولة ومتداولة فيمكنه بيع البضائع وشراؤها، وكأن هذه الأوراق قطع من الذهب الخالص. وقد استخدم كوبلاي نقوده الخاصة لشراء سلع من التجار الأجانب، فكان يشترى كمية من هذه الأشياء الثمينة كل عام، فصارت كنوزه لا تعد ولا تحصى، في حين أن ما يدفعه لم يكن يكلفه شيئاً على الإطلاق. فيمكن القول إنه كان يملك سر الكيمياء بأكملها.

ولم يستطع بولو أن يفهم كيف تمكن كوبلاي من صنع هذه الثروة من الورق، فقد تجنب كوبلاي الطرق غير الواعدة، واتبع الطرق التي توقع أن تؤدي لنجاح؛ مما يعني أنه تبنى المبادئ الاقتصادية لجون ماينارد كينز الذي أكد أن الحكومة تستطيع تحفيز الاقتصاد عن طريق الاقتراض من نفسها واستثمار أموالها في تكوين فوائض مالية تدفعها لنفسها مرة أخرى. وكان الاقتراض شديد الشيوع في الصين في القرن الثالث عشر، فكان على الإمبراطور أن يضمن الاستقرار ويحافظ على الثقة في عملته الخاصة، وهو ما فعله دائماً بالسماح بالتبادل الحر بين العملة والفضة وعدم الوقوع في الخطأ الذي ارتكبته سلالة سونغ: من طباعة الكثير من الأوراق النقدية التي أغرقت البلاد في التضخم. وهي حيلة متقنة لم تنجح في الاستفادة منها الحكومات التي تلت كوبلاي (وكثير من الحكومات الحديثة). وبعد وقت قصير من سقوط اليوان في سنة 1368، سقطت العملات الورقية وخرجت من التداول مدة 400 عام.

وهناك عنصر آخر في ثورة كوبلاي تمثل في بناء نظام قانوني جديد[1]، فلأن كوبلاي قدم من الخارج في حقيقة الأمر، أصبحت كل القوانين القديمة والأعراف القانونية التي يرجع تاريخها لألفي عام- باطلة فجأة. وكان جنكيز هو المنظّر القانوني للمغول، فوضع قائمة بالقوانين التي سجلها له قريبه شيجي، لكنها لم تزخر بالحنكة اللازمة لإدارة مجتمع واسع ومعقد مثل الصين. لكن سرعان ما بدأ المستشارون القانونيون في العمل من جديد وقاموا بجمع العناصر الصالحة من النظامين، ولا نعرف بالضبط كيف قاموا بذلك؛ لأنه لم يبق سوى عدد قليل من الوثائق العائدة إلى هذا العصر. وحسبما كتب أحد الخبراء في مذكرة له سنة 1266، فإن هذه العملية استغرقت 30 عاماً لإعادة النظر في جميع الإجراءات والمراسيم والأحكام السابقة. وحتى بعدما حصل ذلك لم يكن ثمة قانون موحد يطبق

(1) يعتمد هذا الجزء أساساً على كتاب بول هينغ تشاو شن «التقاليد القانونية للصينيين تحت حكم المغول».

بالتساوي على المغول والمسلمين والصينيين، فولدت وماتت مشاريع قوانين عدة. وفي الوقت ذاته اعتمد القضاء اليومي - مثلما حدث في الصين على مدار أكثر من 700 عام من تاريخ الصين - على عقوبات خمس هي الموت وقطع الرأس والنفي مدى الحياة على بعد 3 مسافات (هي 1000 أو 1250 أو 1500 كيلومتر) حسب خطورة الجريمة، فضلاً عن الأشغال الشاقة لمدة تصل إلى 3 سنوات، والضرب بعصا غليظة من 60 إلى 100 ضربة، وبعصا خفيفة من 10 إلى 50 ضربة. وخلال حكم كوبلاي، جرى إدخال تعديلات شتى على هذا النظام، فكان مسؤولو الخان تعتريهم شكوك في جدوى تطبيق قطع الرقبة على الجرائم التي لم تتضمن إراقة الدم، وكان استعمال هذه العقوبة تقليداً مغولياً لمعاقبة المجرمين شديدي الخطورة. أما فيما يخص أخطر جريمة وهي، الخيانة فقد أحيا كوبلاي سابقة نادراً ماجرى استخدامها وهي القتل بالتقطيع البطيء. ومن هذه العقوبة نشأت فكرة «القتل بالتقطيع إلى ألف قطعة، ولم تكن ألفاً بل كانت ثماني قطع في البداية: الوجه واليدان (2) والقدمان (2) والثدي والمعدة والرأس ويمكن زيادتها إلى 24 أو 36 أو 120 قطعة، حسب درجة الألم المطلوب إلحاقها. ولم يُعتبر المنفى عقوبة؛ كافية لأن النفي لم يمثل مضرة كبيرة للبدو الرُحل الذين لم يكن لهم مسكن ثابت. ولذلك استُبدل النفي بالأشغال الشاقة في مناجم الملح أو أعمال الحديد أو القواعد العسكرية النائية. وجرى دعم العقوبة بالضرب بالعصا لفترة تراوحت بين سنة واحدة بالإضافة إلى 67 ضربة وبين 3 سنوات و107 ضربات. ويجري توقيع الضرب على أساس 6 درجات بالعصا الخفيفة (7 و17 و27 و37 و47 و57 ضربة) و5 درجات بالعصا الغليظة (67 و107 ضربة)، وكان كثير منهم يموت من الضرب حسبما يقول ماركو بولو.

ويبدو هذا شيئاً قاتماً إلا أن قانون اليوان كان معروفاً بالتساهل. فبينما ضم قانون سونغ 293 جريمة عقوبتها الإعدام، اشتمل قانون اليوان على 135 جريمة فقط، وهو خلاف الرأي الشائع الذي يقول إن المغول استعملوا الوحشية ضد جميع المجرمين. وفي الواقع فإن الأسرة التالية - مينغ (Ming) - رفعت العدد مرة أخرى حسبما قال أحد المسؤولين مشتكياً من جُبن كوبلاي. فكان العدد الفعلي لعمليات الإعدام منخفضاً بشكل ملحوظ، فجرى إعدام 2743 مجرماً بين عامي 1260 و1307 (رغم تسرب تسع سنوات من

التسجيل)، أي بمتوسط قدره 72 حالة إعدام سنوياً من إجمالي عدد السكان البالغ 100 مليون نسمة. وهو نصف عدد عمليات الإعدام في الولايات المتحدة عندما كان بها نفس عدد السكان في سنة 1930. لكن الأمور تغيرت الآن، فقد وصل معدل الإعدام بين عامي 2002 و2004 نحو 60 نسمة سنوياً في المتوسط، وهو نصف معدل عصر كوبلاي خان. يبدو أن أشياء كثيرة تتحسن بمرور الزمن.

وكان متوقعاً من المجرم أن يدفع تعويضات لضحاياه، وهي ممارسات مستمدة من التقاليد المنغولية التي سمحت بدفع التعويضات للخروج من المآزق. ففي القانون المنغولي مثلاً تقول إحدى النصوص: إن مرتكبي جريمة القتل يمكنهم النجاة من الموت إذا دفعوا غرامات هي: للمسلم 40 قطعة نقد ذهبية، وللصيني حمار واحد. وعلى عهد كوبلاي أيضاً كان هناك تخفيف على فئات عمرية معينة مثل الرجال فوق السبعين والأولاد دون 15 سنة، باستثناء الجرائم الجنسية المرتكبة ضد الفتيات القاصرات (عشر سنوات أو أقل). إلا أن معظم المحاكمات شهدت توقيع العقوبة ودفع التعويض معاً. على سبيل المثال، إن قام رجل بضرب أخت زوجته حتى الموت، كان يُضرب 107 ضربات بالعصا الثقيلة ويتكفّل بتكاليف الجنازة.

وفي عهد كوبلاي كان أي مسؤول يحاول اغتصاب زوجة مرؤوسه ويفشل يُعاقب بالضرب 107 ضربات بعصا غليظة ويُفصل من الخدمة المدنية. وفي نواح أخرى كان كوبلاي يميل إلى التساهل، فكان بعض المجرمين يحصل على ما يعادل أوامر مراقبة. وفي جرائم السرقة والعنف التي يرتكبها صاحبها للمرة الأولى، كان المجرم يوصم بوشم على ذراعه الأيمن يُكتب عليه: 'ارتكب السرقة لمرة واحدة'، ويؤمر بتسجيل اسمه لدى السلطات المحلية أينما ذهب ويعمل مساعداً لرجل شرطة خمس سنوات. وهي مجموعة من الأحكام العقابية التي تمثلت في خدمة المجتمع وبعض أعمال المراقبة التي أدت إلى تعزيز أواصر المجتمع.

لكن السؤال هو كيف استطاع أقوى رجل في العالم في عصره وحاكم اشتهر بقبضته الحديدية أن يسيّر نظامه بهذا التساهل النسبي؟ الإجابة هي لأن شعب كوبلاي كان ينفذ ما يطلبه منه الحاكم، ولأن كوبلاي أدرك أن العدل هو العدل، وأن للقسوة ارتداداتها وتبعاتها.

ففي عام 1287 صدر حكم بإعدام نحو 190 شخصاً، فأمر كوبلاي بتخفيف العقوبة، لأنه رأى أن السجناء ليسوا مجرد قطيع من الأغنام. كيف يعدمهم فجأة؟ والأنسب أن يستفيد منهم عبيداً أو عمالاً، وذلك يشير إلى أنه كان رجلاً يعرف كيف يحقق أفضل استفادة من رعاياه.

هنا يبرز سؤال آخر: بوصف كوبلاي فاتحاً طموحاً وطامعاً في توسيع إمبراطوريته - تسبب في وفاة ملايين الصينيين - كيف يمكن النظر إليه على أنه صاحب نوايا حسنة إلى جانب مآربه السيئة؟ أقول إنه حتى من وجهة النظر الصينية، فإن كوبلاي له بعض الفضائل. وجهة النظر هذه تسببت في مشكلات للرعايا الصينيين الذين تمتعوا بحرية الاختيار، وكانوا قليلين بطبيعة الحال، وهي دائماً نفس مشكلة الشعوب المهزومة: هل نعارض الغزاة حتى الموت أم نتبنى سياسة العصيان؟

بالطبع ليس هناك إجابة سهلة عن هذا السؤال، لكن مرور الزمن يساعدنا في معرفة الإجابة. فما يبدو أنه تعنت اليوم يصبح عناداً غداً، وما يبدو خيانة هذا العام يصير حساً سليماً العام القادم، لكن ليس هناك إجابة قاطعة على هذا السؤال حتى الآن، حتى لو ادعى كوبلاي انتماءه لأسرة صينية. ورغم أن الصين قبلت ولا تزال تقبل هذه الحقيقة، فإن غزواته على الصين حقنت في شعبها فيروس المرارة الذي أصاب ورثته غير المؤهلين فيما بعد.

دعونا نرى كيف بذل رجل واحد جهوداً كبيرة للخروج من هذه المتاهة الأخلاقية، فهو لم يكن حاكماً نموذجياً لكنه كان رساماً مهماً وعبقرياً، وربما رجلاً مثالياً كما يقول البعض، إنه «تشاو منغ فو» أحد الأقرباء الأباعد للعائلة المالكة في سونغ. بدأ عمله موظفاً صغيراً في سن 25 عاماً عندما فوجئ العالم بالغزو المغولي. ومثل الكثير من المسؤولين، فُزع «تشاو منغ فو» من نظام الحكم الجديد وفظاظته وطبيعته الطبقية التي وضعت أهل الجنوب في ذيل القائمة. أصبح «تشاو منغ فو» أحد الرافضين للنظام الجديد وكره التواطؤ معه. وعاد إلى مسقط رأسه في مدينة ووشينغ (Wuxing)، واسمها اليوم هوتشو (Huzhou) وهي مشهورة حتى اليوم بأجوائها الريفية وبحيرة تايهو (Taihu) في الشمال وغابات الخيزران الواقعة فوق جبال تيانمو (Tianmu) في الغرب. وعند عودته إلى بلاده انهمك في قراءة الدراسات الكلاسيكية واكتشف مواهب رائعة. وقد ألهمت بحيرة ووشينغ وجبالها

الخضراء مجموعة من الأساتذة الثمانية الموهوبين من ووشينغ، فصاروا معروفين بها. وخلال السنوات السبع التالية نال شهرة كبيرة كأستاذ في ثلاثة مجالات هي الرسم والخط والشعر (وأصبح فيما بعد أعظم فناني عصره كما يرى كثيرون). وفي عام 1286 وصل مسؤول إمبراطوري إلى ووشينغ بحثاً عن مواهب باسم كوبلاي، فسمع عن ثمانية موهوبين فسعى إليهم وعرض عليهم عروض عمل في السلك الإمبراطوري.

وقبل تشاو. وتقول إحدى الروايات إن أمه هي التي أقنعته، حيث كانت تطمح في وصوله لمكانة عالية في سن مبكرة. وانقلب عليه بعض الرافضين، فكيف لسليل أول إمبراطور من أسرة سونغ أن يعمل لدى المغول؟! ومنذ ذلك الحين، ظلت تهمة الخيانة تلاحقه أينما حل. ولم يكن هذا بالقرار السهل، لكن لم يكن ثمة مفر من عواقبه. وبرز تشاو في الحكومة مسؤولاً في وزارة الحرب ومسؤولاً بالمحافظة وعالماً وفناناً. لكن ندمه على خسارة عالمه الخاص المرصع بالبحيرات والجبال حين كان سيد نفسه ظل يطارده بقية حياته، كما يتضح من إحدى قصائده:

أسفي على نفسي.. هويت إلى عالم التراب

تحركاتي مقيدة

في الماضي كنت كطائر النورس

والآن أنا داخل قفص طيور

لا أحد يهتم ببكائي الحزين

وريشي يتساقط كل يوم

وأنتج حزنه لوحة بها خراف جميلة وماعز يبدو عليها القنوط، وتبدو اللوحة للوهلة الأولى بسيطة لكنها تبدو أكثر عمقاً كلما دققنا النظر فيها. وبالوصف التقليدي تتضمن اللوحة بعض خط تشاو الجميل الذي يلمح إلى معاني خفية، فيقول بخطه: «كثيراً ما رسمت الخيول لكني لم أقم من قبل برسم أغنام أو ماعز». كما لو كان يقول إنه رسم مواضيع عزيزة إلى سادته المحبين للخيول لكنها ليست قريبة للناس الذين يحكمونهم. «لقد قمت بذلك

والحياة هازئة بي». رغم أنه لا يقترب من الأسياد القدماء لكنه يعكس شيئاً من روحهم. ورأى أحد المعلقين هو «لى تشو تشينغ» (Li Chu-tsing) ما هو أكثر من الإشارة إلى التراث الفني القديم. فالخراف والماعز هما اثنان من الجنرالات من عائلة الهان (Han) (بين عام 206 و220 بعد الميلاد) وقعا في أسر الهونيون (Xiongnu) وهي الإمبراطورية البربرية في شمال سور الصين العظيم- والهونيون أو الهونو (Hunnu) بالمنغولية كانوا أسلاف الهون (Huns) - كان لدى كل من الجنرالين فرصة للتواطؤ. رفض أحدهما وهو «سو وو» (Su Wu) فأجبر على العمل في الرعي 20 عاماً. وظهر في الصورة خروفاً متكبراً - مع تعبير سخيف ونظرة منتفخة - مُعداً للأكل. وقبل الآخر وهو «لي لينغ» (Li Ling) وعاد لدياره ورسمه ماعزاً ضامراً مكتئباً، لكنه ظل على قيد الحياة ليقاتل في يوم آخر.

وهناك مفارقة في علاقة كوبلاي بالفنون، فقد شجع الفنانين، لكنه ككثير من الرعاة لم يقدر على تبوؤ مقعد عال على سلم التقاليد الصينية الراقية، لأن المغول ظلوا في نظر الفنانين الصينيين مجرد بربر. وعلى أي حال فإن هؤلاء الفنانين العظماء عملوا في خدمة النظام الجديد، وربما كان الصراع الداخلي هو ما دمرهم.

فلأول مرة مثلاً منذ 150 سنة أصبحت هناك حرية انتقال بين الشمال والجنوب، واكتشف فنانو الجنوب المشبعون بالفنون الجميلة التي كان يحبها سكان إقليم سونغ- أنماطاً فنية أكثر ثباتاً وتحرراً عرفها الشمال قبل أن يقوم اللياو (Liao) - أسلاف المغول البربر - بتقسيم إمبراطورية سونغ القديمة إلى نصفين عام 1125.

وقد جمع تشاو كل هذه المعلومات وغيرها الكثير في لوحته الشهيرة، فهو يجمع بين تقليدين فنيين ويرسم تجربته ومشاعره ويعطي تلميحاً مؤثراً لصديق قديم، ويكشف عن شيء من الألم فرضه الوضع السياسي القائم آنذاك. وظل لمدة 6 سنوات تقريباً في منصب «مساعد المدير المدني» لجينان بمقاطعة شاندونغ (Shandong) الواقعة إلى شمال الحدود القديمة. وعاد مرة أخرى إلى مسقط رأسه عام 1295، واستعاد أحد أصدقائه «تشو مى» (Zhou Mi) الذي فر أجداده من ثلاثة أو أربعة أجيال سابقة من منطقة «جينان» عندما سقطت في يد الجين. وما زال يعتبر جينان موطنه، وكان يحلم بالعودة لها يوماً ما. وعندما قام المغول بإعادة توحيد البلاد أحس أن حلمه قد تحقق، إلا أنه كان واحداً من اليى

مين (yi-min) الرافضين الذين انسحبوا من الحياة العامة احتجاجاً على حكم المغول. ووصف تشاو لصديقه القديم مكان أحلامه مثلما يحكي في كتابته: «حدثته عن جبال وأنهار «تشي» (Qi) قرب جينان. ومن بينها جبل «هوا فو تشو» (Hua-fu-zhu) وهو الأكثر شهرة من حيث... فشكله كبير، وهو منحدر، ويرتفع وحده بطريقة أغرب. ولذا فقد رسمت هذه اللوحة له ووضعت جبل جياو (Mount Jiao) في الشرق، وهذا هو السبب الأول لتسميتي لها «ألوان الخريف على جبال جياو وهوا».إنه مشهد يخدعك ببساطته، فهو مستنقعات ممتدة نحو الأفق ومجموعات من الأشجار، وجبلان متقابلان أحدهما مثلث مزدوج بشكل واضح، والآخر يبدو عن بعد مثل صخرة «أيرز روك» (Ayers Rock)، ومنزلان وصياد سمك صغير الحجم يظهر بصعوبة وسط هذا المشهد، وكل هذا تعلوه مسحة حزن الخريف. فهو ليس مشهداً من الجمال التقليدي: فلا توجد جروف صخرية شاهقة ولا غابات معتمة، كما أنها ليست واقعية لأن الجبلين متباعدان في الحقيقة». إنها أكثر فكأنه يقول من خلال إظهار نسخة قاتمة من وطن صديقه غير الظاهر: «لا ينبغي أن نتظاهر بأن الحياة شيء جميل، فهي ليست كذلك، بل هي شيء صعب. على أية حال، هل هي تستحق في نهاية المطاف؟ فالمغول استغلوا آلامنا وانقساماتنا البسيطة، وكل هذه الأمور تمر، وما يبقى هنا في صورتي: الجبال الصلبة والأشجار الشرسة والعمل الجاد».

لوحة «ألوان الخريف» واحدة من أكثر اللوحات الصينية إثارة للإعجاب، وهي واحدة من اللوحات التي على حد قول أحد المتخصصين «جيمس كاهيل» (James Cahil): «تظهر ابتكاراً وإبداعاً مدهشاً وتقدم ابتكارات أسلوبية كبرى من شأنها أن تغير مسار التصوير الزيتي للمناظر الطبيعية الصينية». وبدون كوبلاي، ما كانت لتوجد. ولنا أن نتساءل عن الظروف الأولية بشأن وحشية الغزو، ولكن النتائج ربما كانت ستزداد سوءاً في ضوئها.

وثمة أمر غريب، فقد أحب المغول المسرح لأنه كان شيئاً جديد تماماً، «فلا دليل على تقديم أي شكل من أشكال الإنتاج المسرحي في المجتمع المغولي قبل أو أثناء الفترة المبكرة من الإمبراطورية»، طبقاً لاثنين من خبراء المجتمع المغولي هما «سيشين جاجشيد»، و«بول هير»، وقد أضافا قائلين: «من الصعب تطوير دراما مؤسساتية في مجتمع بدوي».

لم يسجل أحد أول عرض مسرحي حضره المغول، وكان أحد العروض التي أقيمت

في الشوارع، وربما يكون في مدينة حسنة الحظ استسلمت لحملات جنكيز على شمال الصين لأول مرة عام 1211. وأنا أتخيل أن المشهد يشبه شيئاً من الذي شاهدته في منطقة قويوان (Guyuan) في إقليم كانسو - أحد أفقر مناطق الصين - في زيارتي سنة 2002. فقد زرت مسرحاً متنقلاً: وشاهدت الحشود الغفيرة 200 أو 300 رجل وامرأة وطفل افترشوا أرض الميدان الرئيسي قبل ساعة من الغسق في انتظار العرض أمام ستائر المسرح المسدلة، والممثلون وراءها يضعون اللمسات الأخيرة على أدوات التنكر المبهرة التي سيطلون بها بعد قليل على جمهورهم. وها نحن نعود 800 عام إلى الوراء لنرى فرقة المغول يجلسون في خلفية المسرح بصحبة خيولهم. فقد كانوا في حملة لمدة شهور وكانوا يتوقون لشيء من الترفيه. ويترجل الضباط المغول وهم يرتدون الدروع والخوذات الجلدية من على ظهور خيولهم ويتقدمون إلى الأمام، يغلبهم حب الاستطلاع، فتأخذ الرجفة أهالي المدينة وهم يوجهونهم إلى الصف الأمامي. وهناك ينتظرون في صمت حتى يحل الظلام، وترفع الستارة(قطعة من القماش) وتتكشف الشموع عن رجل تبدو عليه الشراسة اسمه ماو (Mao)، يقول مخاطباً الجمهور:

ماو: أنا ماو ين شو، أسافر كل البلاد بأمر الإمبراطور بحثاً عن فتاة جميلة للقصر.

(وبعد دقائق تدخل فتاة اسمها «تشاوقون» بجمالها الخلاب ترتدي الحرير في كامل زينتها. فيصدر المدرعون من الصف الأمامي أصوات إعجاب وتهليل).

- تشاوقون: أنا وانغ تشيان - واسمي أيضاً تشاوقون - مواطنة من زيكوي (Zikui) في شانغدو (Zhengdu). أبي وانغ المسن كان يعمل في الأرض طوال عمره. وولدت...

(وتشرح ظروفها: أسرة فقيرة جرى اختيارها لتكون وصيفة ملكية في سن 18 عاماً، وترتكب جريمة وهي مختفية عن الأنظار. وهي لم تر الإمبراطور على الإطلاق وهي حزينة).

... والآن وفي عزلة الليل، سأحاول عزف أغنية حتى يمر الوقت مسرعاً.

(وتعزف على العود. ويدخل الإمبراطور)[1].

---

(1) هذا النص مأخوذ من مسرحية من يوان بعنوان «الخريف في قصر هان»، ولكن القصة أقدم بكثير، وذلك من الممكن

قد لا يفهم المغول كل شيء لكن المترجم عمل بكد، وتُيّم المغول بجمال الفتاة وغنائها الذي سحرهم، فكرهوا الشرير وعرفوا كل شيء عن الإمبراطور عدوهم. القصة تتملكهم وسرعان ما يعرفون أنها مشهورة في الصين. (ما يزال أفضل فندق في مدينة هوهيهوت (Hohhot) عاصمة منغوليا الداخلية يُسمى على اسم البطلة). فالكل يعرف كيف جرى إرسال الشابة الجميلة تشاوقون عبر سور الصين العظيم لتصبح زوجة لخان الهونيين في منغوليا البعيدة، وهي تبكي قائلة إنها تتمنى أن تصبح بجعة حتى تعود إلى بلادها: قصة تدمي القلوب فعلاً.

وربما حدث شيء من هذا القبيل بين عامي 1214 و1216 حين قام موقالي - أحد أكبر جنرالات جنكيز - باجتياح منشوريا وقت كان جنكيز يحاصر بكين، وقد واتت الشجاعة مدينتين فصمدتا في وجه الهجوم. وكالعادة قال موقالي: «إذا تركنا هذه العصابات المتمردة تعيش، لن يكون هناك ما نلوم عليه الأجيال التالية». فذبحهم جميعاً عدا الحرفيين والمهنيين والممثلين.

وكان التراث الفني للصين غنياً بما يكفي لإغراء المغول، فقد كان الصينيون يشاهدون حفلات الرقص والمسرحيات الغنائية وسرد الحكايات والمسابقات وبرامج المنوعات على مدى قرون. وظهرت تقاليد متباينة في الشمال والجنوب مع ازدهار المسرح وانتعاشه في المسرح إبان حكم سونغ. وتشير الدلائل الأثرية إلى أن المسرح كان أكثر من مجرد ترفيه يجري في الشوارع. فبلاط القبور - التي تعود للقرن العاشر وقد كُشف عنه في هينان (Henan) عام 1958 - يظهر ممثلين يؤدون أدواراً درامية تقليدية. وفي حفرات في شانشي (Shanxi) في عام 1970 تقريباً اكتُشف بقايا مسرح إقليمي مصنوع من الطوب والبلاط. وحتى في منشوريا البعيدة كانت هناك فرقة ومسرحية وموسيقا وفتاة للترفيه عن الغزاة.

وبمجرد وصول كوبلاي للسلطة عمل «راعي الفنون» على توفير الكثير من المسارح لشعبه. لكنه لم يرد أن تكون مجرد اجترار الأعمال القديمة، وطمح إلى كتابات جديدة تجتذب المغول وبلاطه ذا الطابع الدولي. أي أراد أعمالاً سهلة المتابعة، فكوبلاي نفسه لم

أن يكون قد عُرضت نسخة منها في عصر سونغ.

يتحدث الصينية بشكل كاف ولم يعلم الأعراف الأدبية الراقية التي تعود لعصر سونغ. فكان ذلك كفيلاً بإحداث ثورة بين أدباء عصر سونغ، الذين تناقضت مواقفهم إزاء المسرح - مثلما فعل جمهور عصر عودة الملكية (Restoration) في إنجلترا - والذين أحبوا المسرحيات لقيمتها الترفيهية، لكن لأنها كانت مكتوبة باللغة الدارجة، احتقر الأدباءُ الممثلين وصارت الممثلات - في نظر الأدباء المعتنقين لتقاليد سونغ - مجرد عاهرات. فكانت أي وجهة نظر تخالف وجهة نظر هذه الطائفة الأدبية تُعامل بهذا التعالي، وكانت هذه الطائفة معروفة بكبرياء شديد. ويعني بزوغ نمط مسرحي جديد أفول نجم قرائحهم الشعرية، فلم يعد أحد ينظر إلى المسرحيات على أنها أدب، ولم يفكر أحد في الاحتفاظ بها. وبالتبعية لم يبق سوى قليل جداً من مسرح ما قبل اليوان (Yuan).

كل هذا تغير في عهد كوبلاي، ففي بلاطه كان هناك اثنان من الموظفين: أحدهما مسؤول عن الموسيقا والتمثيل، والآخر عن تنظيم طقوس البلاط والمسرحيات. وكان العميل يذكر اللحن ولا يتمتع إلا بذوق متواضع. ووصفهم «هنري هارت» أحد أوائل مترجمي مسرح عصر اليوان بقوله: «جهلاء بالأدب ووسائل الراحة والحياة المتحضرة والفلسفة والشعر والرقص الممتع والموسيقا الناعمة ولا ينجذبون إليها. تربوا في الصحاري العاصفة، يفرحون بالقتل والسلب والنهب... ويفضلون الدراما مكتوبة ومعروضة باللغة اليومية التي يستخدمها عامة الناس».

كان هذا الطلب هو ما نشط الدراما الصينية ابتداء من عصر الدا دو، فظهرت بكين التي بناها كوبلاي مؤخراً وظهر جيل جديد من كتاب المسرح. كان كثير منهم علماء أحبطهم إنهاء نظام الامتحانات ويسعون لزيادة إيراداتهم الهزيلة بوصفهم موظفين، ويأملون في تحصيل شهرة وإيجاد متنفس لمهاراتهم الأدبية. وأنشؤوا مثلما كتب مؤرخ المسرح الصيني «تشونغ ون شي»: «مجموعة من الأعمال التي لا مثيل لها من قبل أو من بعد من حيث الكم والنوع في المسرح الصيني، جعلت المسرح في يوان أحد أكثر المسارح تألقاً في تاريخ الأدب الصيني». وكان لهذا المجال الغني عيب لدى المؤرخ، فقد ظل الكتاب محرجين من ظهور أسمائهم وارتباطها بما ينتجونه، ولذلك لا يعرف عنهم سوى أقل القليل. ولحسن الحظ جمع واحد من كتاب المسرح «تشنغ سو تشونغ» (Zhong Su-cheng) مذكرات

وسير ذاتية عن كتاب يوان في «سجل الأشباح» وعنوانه يدل على خفاء موضوعاته، فمن بين 152 شخصاً مذكوراً كان منهم 111 كاتب مسرح.

وكُتبت آلاف المسرحيات (700 مسرحية منها معروفة بالاسم، و150 عمل ظل حياً ربما لأنها أفضل هذه الأعمال على الإطلاق) من نوعيات «المسرحيات المنوعة» أو مسرحيات «الترفيه المختلط»، ويمكن أن نسميها أيضاً مسرحيات غنائية، رغم أنها قد تتعدى حدود المسرح الغنائي. فقد درست اهتمامات العصر الذي كُتبت فيه من اضطهاد وظلم وفساد وصراعات ضد السلطة، واستخدمت مصطلحات شعبها وليس المصطلحات الغربية طبعاً. وقد عُرضت في نظام منظم بعناية، فالمسرحيات لا تعرض الهموم الداخلية والمشاعر المدمرة المنتشرة في المسرح الغربي من شكسبير فصاعداً، لكن بعضها كان يهرب من العالم الحقيقي نحو رومانسية ليس لها زمان كما في «قصة رومانسية من الحجرة الغربية» المستمدة من قصة كتبت أول ما كتبت في سنة 800 تقريباً. وهي تحكي عن طالب ينقذ فتاة جميلة من المتمردين فتفتنها شجاعته، لكن أمها الشرسة ترفض، وتساعدهما خادمة ذكية حتى يتغلبا على الأم وتكون النهاية سعيدة. عولجت القصة عدة مرات فتحولت القصة إلى مسرحية شهيرة على يد «وانغ شي فو» (Wang Shifu) وظلت مشهورة منذ ذلك الحين. وقد اشتريت نسخة حديثة منها في بكين عام 2004.

وكما هي الحال في مسرحيات شكسبير، يجري تناول التيمات في سياقات تاريخية «فلا يمكن تحديدها في الوقت الحاضر خوفاً من ارتكاب مخالفة (رغم أن توجيه انتقادات خفيفة كان مقبولاً ما دام ضمنياً وفقاً لما تكشفه المعايير الإمبراطورية للمسرح: «في حالة وجود أي نقد... يغلف الممثلون القضية في قصة للانتقاد باستدعاء خفي ومن ثم لا يظهر أي استياء على وجه الإمبراطور»). وهذا يعني أن المسرحيات ليست محددة زمنياً. فهي تحاول أن تفعل ما ينبغي أن يفعله المسرح الذي يحول الاهتمامات الحالية لتيمات غير محددة بزمن يقدمها بشكل ترفيهي يظهر بين الحين والآخر المكانة الأدبية العالية.

وخير من يمثل هذا الاتجاه هو «قوان هان شينغ» أغزر الكتاب المسرحيين إنتاجاً في يوان. فكان كل شيء عن حياة شينغ غامضاً، ذلك الرجل الذي عاش بين عام 1240 تقريباً و1330، وكتب 63 أو 64 مسرحية غنائية (هناك روايات متضاربة حول واحدة من رواياته)،

بقيت منها 14 أو 18 مسرحية (روايات متضاربة أيضاً). وتدور معظم مسرحياته حول الحب وأفراحه الشخصية وأتراحه - الحب بين المحظيات والعلماء والأباطرة، والمحظيات وعاشقي الزهو، ورفعة المكانة والبسطاء. وكان بارعاً في تشخيص بطلات مسرحياته، فقد ألّف 11 مسرحية من إجمالي 14 مسرحية حول شخصية امرأة عنيدة وقوية وشجاعة. ولا شيء يفوق نجمة مسرحيته «الظلم الواقع على دو إي»، تلك الأرملة القروية البسيطة التي كان عمرها 18 عاماً عندما اتهمها أحد خطابها بالتورط في جريمة قتل خطأ، فاقتيدت إلى المحكمة وتعرضت للضرب على يد أحد القضاة الفاسدين.

وعندما ترفض الفتاة الاعتراف، هدد القاضي بضرب حماتها، ورغبة في إنقاذ حياة حماتها، تضطر الفتاة لتقديم اعتراف كاذب ويُحكم عليها بالإعدام. وعشية إعدامها تطلب ثلاث أمنيات، أولها: أن تعاني المنطقة من الجفاف ثلاث سنوات. وتتحقق جميع أمانيها لتثبت أن السماء استجابت دعاءها. فيجذب الجفاف انتباه والدها وهو مسؤول رفيع المستوى، فيعيد فتح القضية. وتظهر «دو إي» كشبح لتوجه الاتهامات لمن اتهموها، وتتحقق العدالة ويعود توازن الكون.

ولم تكن الحبكة ما أكسب المسرحية نجاحها، وإنما اللغة الشعرية التي أضفت عليها فخامة الملاحم. فالفتاة دو إي ليست امرأة عادية، وإنما هي عفيفة ومطيعة وعندها تضحية ذاتية، فهي أشبه ما تكون بشخصية جان دارك، إذا ظهرت نموذجاً صارخاً على أمة تعيش تحت المعاناة. وعندما تعرضت للانتهاكات - مثل الصين التي انتهكها المغول - انقلبت قوانين السماوات وحكم الفساد وساد الغباء. فهي تغني قائلة: «الطيبون عانوا الفقر وقصر الحياة في حين غرق الأشرار في الثروة والنبل والحياة الطويلة». إلا أنه لا يمكن احتقار الفضيلة إلى الأبد، فقد حفّز موتها السماء على العمل، وإعادة العدالة إلى العالم الظالم، وهي تيمات عظيمة ضمنت البقاء للمسرحية لتظهر لاحقاً في نسخ عديدة تعرض إحداها هذه الأيام في أوبرا بكين.

جلب كوبلاي للصين قدراً من الاستقرار والأمن لم تعرفه منذ قرون، فجعل الضرائب قدر الطاقة، ووفر سيادة القانون، وانتهج سياسة إيجابية، أو في أسوأ الأحوال محايدة تجاه الفنون، ونفذ مشروعات للصالح العام. ويمكن القول إنه جلب لشعبه مستوى راقياً من

السعادة. وقد يتفق مع هذا نسبة ضئيلة تتمثل في النخبة من كبار المسؤولين المغول وكبار المسؤولين الصينيين والتجار المسلمين، فهل كان 100 مليون نسمة أقل سعادة؟ لا يمكن أن نعرف، لأن السعادة كما نفهمها الآن لم تظهر إلى الواجهة إلا في القرن الثامن عشر. فقد ظهرت في الآونة الأخيرة بوصفها موضوعاً في حد ذاته ويمكننا الآن على أساس الدراسات الاستقصائية والإحصاءات والتحليلات أن ننظر إلى الوراء ونناقش قضية ما. وكما يشير ريتشارد لايارد في «السعادة: دروس من علم جديد» إلى أن أحد تعريفات السعادة هو الشعور بأن اليوم أفضل قليلاً مما كان عليه الوضع أمس. بدأت الأغلبية الساحقة من الصينيين في القرن الثالث عشر في الصعود من القاع. فكانوا بالتأكيد يخشون حدوث مجاعة ومرض وفيضانات وجباة الضرائب وعتاة المرابين، ويخشون المسؤولين الذين يُسخّرون رجال العصابات. ولكنهم أدركوا أيضاً أنه - في الجيلين السابقين - مات الملايين وطرد ملايين غيرهم من منازلهم، في حين كانوا هم يعيشون في سلام منذ عام 1276 فصاعداً. فصار بإمكانهم العمل بمزيد من التفاؤل بأنهم لن يُلقوا في النفايات في نهاية الأمر، وهو أمل لم يكن متاحاً في السابق. ولا يختلف أحد في صين القرون الوسطى على أن غرض الحكومة كان زيادة معدل السعادة لدى مواطنيها، فكوبلاي وموظفوه عملوا بصورة أو بأخرى على خلق استقرار وبناء ثروة وطنية، وتمكنوا من تحقيق السعادة. وإن لم يكن كوبلاي حقق سعادة هي الأكبر من نوعها لأكبر عدد من أبناء الصين على مدار 25 إلى 30 عاماً، فإنه حقق أعلى معدلات تراجع التعاسة.

الجزء الرابع

الشتاء

الفصل الثالث عشر

كاميكازي اليابان.. حماية السماء

في عام 1280، بعد إخضاع الجنوب، استطاع كوبلاي التوجه مرة أخرى نحو اليابان، وكان عمره حينها 65 عاماً وكان الوقت يداهمه. وكان دافع كوبلاي أبعد من مسألة تقدم العمر به، فكان القلق يسيطر عليه لرغبته في تحقيق طموحات جده في غزو العالم ومعاقبة الدولة الصغيرة على تهورها في مقاومته. وبالنسبة له كإمبراطور، كان معنياً على الدوام بمسألة شرعيته ولم ينصرف عزمه يوماً عن إثبات ذاته بأسرع ما يمكن.

صدرت روايات هذه الحملة تحمل وجهة النظر اليابانية لأنهم كانوا المنتصرين، والتاريخ دائماً منحاز إلى المنتصر أكثر من المهزوم. فكانت القصة دائماً تقول إن الأسطول الصيني الجبار كان على وشك تدمير مقاتلي الساموراي اليابانيين القليلي الحيلة، لكن السماء هبت لنجدة اليابانيين فأطلقت إعصار «أودى» الذي أودى بأسطول كوبلاي إلى طي النسيان. وأطلق اليابانيون منذ ذلك الحين على العاصفة اسم «الرياح الإلهية» (كاميكازي)، كلمة كامي معناها «الإله» و»الروح» و»الأعلى»، ويُشار إلى هذه الرياح على أنها دليل على أن اليابان كانت تحت حماية السماء. وناسب هذا الطرح النخبة الحاكمة التي كانت تستمد سلطتها بدرجة كبيرة من مسألة الإيمان ومن القدرة على أداء الشعائر الدينية بشكل سليم. وعادت إلى الأذهان فكرة الحماية السماوية، حين أُطلق على الطيارين الانتحاريين في الحرب العالمية الثانية اسم كاميكازيون، وجرى اعتبارهم بمثابة رياح إلهية جديدة ضمنت الحماية للشعب من الغزو الأجنبي. وظلت هذه الفكرة مبعث راحة في نفوس اليابانيين حتى هزيمة عام 1945. فيما بعد كشفت الأبحاث التي أجريت منذ 2001 أن هذه الرياح لم تعد مجرد أسطورة، وبات واضحاً الآن، أي بعد مرور قرابة 800 عام، أن اليابانيين كان لديهم قدرة أكبر مما اعتقدوا، ولم تكن الرياح الإلهية هي من أنقذتهم، وإنما عدم كفاءة المغول في مقابل بأس اليابانيين في القتال.

ويبدو أن شيئاً كريهاً شاب هذا العمل من البداية، فكان كوبلاي بعيداً عن الحقيقة مثله مثل هتلر في معركة ستالينجراد[1]، وبدا له أن مجرد إصدار أمر الهجوم سيتحقق النصر

(1) معركة مهمة ضمن الحرب العالمية الثانية دارت بين ألمانيا النازية وحلفائها من جانب وبين الاتحاد السوفيتي على الجانب الآخر للسيطرة على مدينة ستالينجراد الروسية (المدينة اسمها فولجوجراد الآن)، وانهزم فيها الألمان وكانت أول هزيمة برية مهمة يتعرض لها الألمان في هذه الحرب (المترجم).

حتماً، وظن أن الرغبة وحدها ستحسم المسائل العسكرية. لكنه بالغ في تقدير نفسه واستخف بالوضع وطلب المستحيل، ومتجاهلاً المشاكل اللوجستية والقيادية، ولم يعمل للطقس حساباً، ولم يتعلم مما حدث قبل ست سنوات.

فقد كان كوبلاي في هذه الموقعة يحتاج إلى أسطول أكبر من ذي قبل ليحمل قوات برية بأعداد أكبر، وكان كوبلاي يحتاج إلى خضوع كوريا المعارضة له، لكن كوريا تحملت فيما سبق ثمناً باهظاً في هزيمة عام 1274؛ إذ جرى مصادرة محاصيل الحبوب، وتجنيد شبابها للعمل في بناء السفن والانضمام إلى صفوف المحاربين، ولم يُستثن سوى كبار السن والقصّر فقط الذين استُخدموا في حرث الحقول، فأصبحت كوريا بلا حصاد ولا قوة بشرية. وعلى مدار خمس سنوات ظل كوبلاي ملزماً بتقديم المعونات الغذائية لكوريا كي تبقى على قيد الحياة، وظلت كوريا توفر له كل السفن المطلوبة دون قيد أو شرط، وكان معظم السفن يأتي من الجنوب من إمبراطورية سونغ السابقة التي كان سكانها معارضين بشدة لهذه الحال.

كان من الأيسر طبعاً أن تعترف اليابان بسيادة كوبلاي، ففي عام 1279 وصلت بعثة أخرى إلى اليابان بتعليمات خاصة تلزمها بالتحلي بأعلى درجات الكياسة والأدب حتى تتلافى مصير البعثات السابقة. ولسوء الحظ وصل أفراد البعثة في وقت بدأت شائعات تنتشر وتنشر الخوف في أرجاء الأرض. فقد اختفت إحدى الجميلات في ظروف غامضة، ويُعتقد أن من خطفها هم مجموعة من الجواسيس المغول الذين قاموا بإنشاء قاعدة في جزيرة صخرية غير مأهولة بالسكان. قيل إن زعيم هذه المجموعة وقع في حب تلك الفتاة، فقام اليابانيون بشن غارة لإنقاذها، وقام زعيم المجموعة بسحبها نحو قمة جرف وهدد بقتلها، لكنها ألقت نفسها في البحر وعامت حتى الشاطئ، في حين قُتل جميع اليابانيين على أيدي الجواسيس المغول. وبقيت الفتاة الجميلة وحدها على قيد الحياة، لتروي مشاهد المأساة، وبذلك رويت الحكاية التي ربما تكون صحيحة أو غير صحيحة. لكن على أي حال، فإن حكومة مدينة كاماكورا اعتقدت أن هذه المجموعة الموفدة من كوبلاي هي جزء من المؤامرة ذاتها. ولم يشفع للمبعوثين قيام كوبلاي بإرسال هدية عبارة عن ديك ذهبي صغير منقوش عليه جملة مهينة تقول: «إلى هوجو توكيمون: سأنصّبك ملكاً على اليابان، ملمحاً

إلي أنه سيكون سعيداً باغتصاب الإمبراطورية، فقد شُنق المبعوثون الثلاثة واشتد العزم على اتخاذ إجراء رداً على هذه الواقعة، فجرى حشد جنود المشاة والفرسان في كيوشو، وزيادة امتدادات الحصن وارتفاعه حول خليج هاكاتا، وإنشاء تحصينات على المواقع المحتمل الرسو عليها - ناجاتو الواقعة على الطرف الجنوبي للجزيرة الرئيسية؛ وهاريما وتسوروجا التي تقع على بعد 400 كيلومتر على الساحل نفسه، واستجمعت اليابان قواها لصد هجوم أصبح في حكم المحتوم.

أصدر كوبلاي أمراً بإعداد الأسطول للغزو في غضون أقل من عام، وإذا صدقت الأرقام فسيصبح هذا أكبر غزو على مدى 700 سنة وصولاً إلى غزو الحلفاء لنورماندي[1] في 6 يونيو 1944. تألف هذا الأسطول من قوتين: إحداها من كوريا بقيادة أدميرال كوري، والأخرى من جنوب الصين تحت قيادة المارق الصيني «فان وين». وكان «فان وين» أحد المحاربين الذين استسلموا للمغول أثناء تقدمهم نحو نهر اليانغتسي في عام 1275 بصحبة القائد المساعد كسِن-دو. وصل إجمالي القوات إلى 140 ألف مقاتل تقريباً، وحسبما جاء في كتاب «تاريخ يوان» (Yuan History)، قدّم الكوريون 900 زورق و3.500 زورق أخرى يُفتَرَض أنها أتت من الجنوب. وكان الضغط كبيراً جداً بالنسبة لمنطقة صناعية واحدة، فأُرسل طلب إلى مراقب التجارة في إقليم «فوكين» (Fukien) الصيني (اسم الإقليم الآن هو فوجيان) لبناء 200 سفينة، لكنه قال إنه طلب مستحيل وقدّم 50 سفينة فقط. وكانت الخطة أن يُنقل الجنود في أُسطولين: 40 ألف مقاتل في 900 سفينة من كوريا، و100 ألف في 3.500 مركب من مدينة كوانزهو (Quanzhou) الواقعة ضمن إقليم فوكين. ونصّت الخطة على أن يلتقي الأسطولان في جزيرة آيكي، على بعد 30 كيلومتراً من الشاطئ الياباني، وبعد ذلك يجري غزو البر الرئيسي عن طريق الأسطولين معاً. لكن هذه الخطة كانت متفائلة إلى حد بعيد، ضع في الاعتبار أن 4.400 سفينة هو عدد مهول، ولاسيما إن تحدثنا عن السفن الحربية. ومن خلال مسألة قسمة مطولة حسابية بسيطة، يبدو أن هذا الغزو لا يشبه الأسطول الحربي الإسباني في حرب عام 1588. فقد تألف الأسطول الإسباني من

(1) يقول التاريخ إن غزو منطقة نورماندي الفرنسية أثناء الحرب العالمية الثانية هو أكبر معركة برمائية في التاريخ البشري (المترجم).

130 سفينة حربية ضخمة، حملت 27 ألف مقاتل، بواقع 200 رجل لكل سفينة. ويمكن مقارنة أسطول كوبلاي إلى حد كبير بقوات التحالف التي غزت مدينة نورماندي الفرنسية في عام 1944، وكان قوامها نحو 156 ألف مقاتل في قرابة 5 آلاف مركب (معظمها كانت سفن للرسو)، مما يعني أن المركب الواحد يحمل 31 فرداً.

عند هذه النقطة علينا أن نتوقف ونسأل: هل أرقام أسطول كوبلاي صحيحة؟ الحقيقة لا أعلم. لأنه ليس هناك إحصائيات بخلاف المصادر الرسمية، وينبغي التعامل مع جميع التقديرات بدرجة من الشك، لكن في هذه الحالة تلك الأرقام لا يمكن تصديقها. كان لدى كوبلاي أعداد ضخمة من السفن التي حشدها لشن هجوم على إقليم سونغ الواقع أدنى نهر اليانغتسي. وقبل سنوات قليلة من هذه الواقعة، كانت المصادر الرسمية تتحدث عن أسطول قوامه ثلاثة آلاف سفينة في نهر اليانغتسي وحده، ومنذ ذلك الحين سقطت إمبراطورية سونغ وبقية سفنها في يد المغول. انظر للموضوع من زاوية أخرى: إسبانيا في سنة 1588 استطاعت حشد 27 ألف جندي من إجمالي 7 مليون نسمة (إجمالي سكانها في ذلك الحين)، أي بنسبة جندي واحد لكل 260 مدنياً. وكان تعداد سكان الصين في القرن الثالث عشر 50 مليون نسمة تقريباً. إذا كان بإمكان الصين حشد قوة بحرية قوامها 189 ألف رجل، وهو أكثر من العدد اللازم لتبرير الأرقام الرسمية.

وإذا قبلنا أن القوة الجنوبية كان قوامها 140 ألف رجل تقريباً، يصبح المعنى واضحاً. فباستثناء السفن الحربية الضخمة القليلة التي أتت غالبيتها من كوريا، فإننا هنا بصدد أسطول يشمل سفن رسو صغيرة الحجم. المسافة بين بورتسموث ونورماندي تُقدر بحوالي 170 كيلومتراً، وهي مسافة تعبرها السفن التي تدار بالمحركات في 6 ساعات. وحين ساءت الأحوال الجوية في يوم 2 يونيو، قام إيزنهاور بتأجيل الغزو لمدة يوم، وبعدها أصدر أمره بالانطلاق! في خلال 24 ساعة ساد فيها الهدوء. أما كوبلاي فاعتمد على طاقة الرياح والمجاديف لدفع 900 سفينة كورية ضخمة لمسافة 200 كيلومتر و3.500 قارب أقل في الحجم من الجنوب لمسافة 1.400 كيلومتر تتميز بالوعورة. حتى تحت الرياح المواتية، كان الوصول إلى الوجهة المقصودة يستغرق ستة أيام.

والواضح أن هدف كوبلاي وقادته كان التغلب على مصاعب مهمة الغزو وإنزال الجنود

بشكل سليم قبل بداية موسم الإعصار الاستوائي في شهر أغسطس. لكن أي بحار خبير يعلم أن وضع خطة بجدول زمني محدد للعمليات هو ضرب من الجنون. وكان القائد الأعلى كوبلاي خبيراً بحرب المساحات الواسعة المفتوحة، وكان يتنقّل في «البحر الداخلي» (Inland Sea) كما لو كان موطنه، وكما تجول الصينيون في الأراضي الحصوية العشبية لآسيا الداخلية، لكنه لم يعرف عن البحر الحقيقي شيئاً، ناهيك عن الإبحار فيه وتوقّع ما يُمكن للإعصار الاستوائي أن يفعله. فأصبح كوبلاي الذي أعماه اليأس وعزلته القوة، في غمار مخاطرة مخيفة دون أن يوجد حوله من يدله على الحقيقة.

والحقيقة أن البعض استطاع أن يستشرف المتاعب ويتكهن بها، فحين علم مسؤولو «يوان» أن الإمبراطور الياباني صلى من أجل إنقاذ دولته ولو على حساب حياته، استبشروا خيراً. وبينما كان الجنود المغول ينتظرون العبور رأوا حية عظيمة تظهر على سطح المياه، وكانت المياه برائحة الكبريت، لكن لم يجرؤ أحد على الحديث في حضرة كوبلاي. ساءت الأمور منذ البداية، ووصل الأسطول الكوري إلى مدينة آيكي حسب الخطة في أواخر شهر مايو، وانتظر... ثم انتظر. حتى إن الأسطول المتجه جنوباً في كوانز لم يتمكن من الانطلاق في الوقت المحدد له، إذ أصاب القائد مرض ولزم استبداله بقائد جديد، وتعفن الطعام بسبب ارتفاع درجة الحرارة، وانتشرت الأمراض الوبائية. حتى إن الأسطول حين تمكن أخيراً من الإبحار، بدأت رياح مضادة في دفع العديد من السفن إلى الموانئ على طول الشاطئ.

وأخيراً في يوم 10 يونيو استطاع قائد الأسطول الكوري احتلال آيكي (Iki) وانتظر أسبوعين بعدها ثم قام بعبور الفجوة الصغيرة ورسا على شمال السور الصيني في موناكاتا (Munakata)، لكنه أُجبِر على التراجع إلى جزيرة في وسط الخليج. وكانت لديه فرصة سانحة ليتراجع نحو خليج هاكاتا الياباني، ويتأكد من الأخبار التي جاءته من مصادر أخرى عن السور الدفاعي. في النهاية ظل قائد الأسطول قابعاً في هذه المنطقة مدة خمس سنوات، ورأى بعينيه صعوبة الحرب من جهة الشاطئ، وتوصل إلى حل. وجد أن السور يحمي الشاطئ ولا يغطي الجبال الممتدة على طرفي الشاطئ. وكانت مهمة قائد الأسطول صعبة ولا يمكن مقارنتها بمناورة جنكيز الذي تسلق الجبال ليأخذ الطريق المؤدي إلى بكين عام 1213. لكن المغول استطاعوا هذه المرة شق طريقهم عن طريق الالتفاف حول حافة السور

واجتيازه من الخلف. ولم يبق سوى مشكلة واحدة هي انكشافهم أمام العدو، ومن ثم عليهم أن يتوقعوا مقاومة ضارية، وكانوا بحاجة إلى مزيد من الجنود لعدم قدرة الأسطول الكوري على تنفيذ المهمة بمفرده.

في هذه الأثناء سار الأسطول المتجه جنوباً - وكان متأخراً شهراً كاملاً عن موعده - مباشرة نحو البر الرئيسي، بعد أن فاتته فرصة الرسو على ميناء آيكي، ليستقر أخيراً على جزيرة تاكاشيما الصغيرة المرتفعة في خليج إيماري (Imari)، وكانت الجزيرة تبعد 100 كيلومتر إلى غرب خليج هاكاتا (Hakata). هنا عقدوا العزم على التجمع مرة أخرى واستكمال المؤن وشن الغزو بشكل سليم. عند هذه النقطة ستلعب جزيرة تاكاشيما دوراً مهماً.

جزيرة تاكاشيما (الحدايات) هي مكان جميل دافئ وخصب، مشهورة بأسماكها المنتفخة مثل سمكة «الفوغو» (Fugu) الشهية التي يتفنن الطهاة في إعدادها وتجنب التسمم بعضّاتها الخطيرة. ورغم أن معظم شواطئ هذه الجزيرة تحتوي على منحدرات حادة وقيعان صخرية، فلديها ميناء واحد صغير في منطقة قاع البحر فيها ضحل موحل. وهي البقعة التي ناسبت المراسي المغولية المصنوعة من الخشب والحجارة. وكان يسكن تاكاشيما مئات الفلاحين المسالمين ومجموعة من الصيادين لا يملكون حولاً في مواجهة الغزو المغولي وقد أُبيد هؤلاء الصيادون عن بكرة أبيهم في غضون أيام. وتقول الروايات إن القتال استمر هناك حتى آخر عائلة كادت تنجو لولا أن الديوك الصغيرة قادت المقاتلين إلى مخابئهم. لكن على أي حال نجت سيدة عجوز واحدة من القتل وعاشت لتروي ما جرى. وحتى يومنا من المؤكد أن سكان تاكاشيما لا يحتفظون بالديوك الصغيرة.

ولم تكن الخطة جيدة، فمدينة تاكاشيما تقع على بعد كيلومتر واحد من الشاطئ، لكن الشاطئ عند هذه المنطقة شديد الانحدار مدعم بجبال مغطاة بالأشجار، وهي منطقة مثالية لحرب العصابات. وبعيداً عن خليج هاكاتا[1]، كانت مناطق الرسو قليلة، وعُرضة للهجوم، فاستطاع سلاح الفرسان الياباني الوصول إليها بسهولة وتجريد الجنود من عتادهم وإجبار السفن على التقهقر نحو البحر. كما أُقيمت معسكرات على الجزر النائية، ومنع اليابانيون حدوث اشتباكات عند الشاطئ إذ أبحروا في مراكب صغيرة خفيفة في جوف الليل لقطع

(1) يقع خليج هاكاتا في شمال غرب مدينة فوكوكا اليابانية (المترجم).

المراسي، والتسلل إلى سطح السفن، وتنفيذ عمليات القتل وإشعال النيران بالسفن. وكانت أقواس الحصار الموجودة على السفن الأكبر حجماً، بمثابة سلاح المدفعية في هذا العصر، حيث قامت بقذف سهام كبيرة مزقت الزوارق اليابانية. لكن المنجنيق الذي ربما يكون فعالاً على الشاطئ ضد القوات البرية، كان عديم القيمة في ضرب الأهداف المتحركة من فوق أسطح السفن المتحركة. يتحدث قادة كوبلاي ثلاث لغات مختلفة، والجزء الأكبر من جنودهم – الصينيين والكوريين – ليس لديهم دافع القتال من أجل ساداتهم المغول الجدد. وتمركز اليابانيون تحت قيادة موحدة، وبعد سنوات من الإعداد في أرض الوطن الرابض وراءهم، في مواقع حصينة استطاعوا من خلالها درأ الهجمات وشن هجمات مضادة.

من وجهة النظر المغولية كان اليابانيون منتشرين في كل مكان بأعداد كبيرة، وقد استطاعوا باقتدار تغطية مسافة 20 كيلومتراً على امتداد السور وخلفه، واستطاعوا أيضاً الجري ذهاباً وإياباً والتجمع عند تلقي الأوامر بالرسو. وتقول إحدى مصادر يوان إن عدد اليابانيين في هذه الموقعة كان 102 ألف مقاتل. ولقي الضباط المغول والصينيون هزيمة كارثية، وتوفرت لهم كل أسباب المبالغة في قوة المقاومة لتبرير الفشل. فقد كان الحديث دائماً عن أعداد الجنود مثار شك ولا يخلو من مبالغة قد تصل إلى عشرة أضعاف. وهناك واقعة حدثت في القرن الثالث عشر عندما كلّف أحد المسؤولين الرسميين عدداً من أفراد الجيش بحصر قوة مقاتلة عددها 10 آلاف جندي تقريباً، وبعد الحصر تبيّن أن العدد الحقيقي هو 0108 جندياً[1]. لذلك فإن المؤرخين يضعون تقديراتهم بناء على التقارير العسكرية ووثائق أخرى. تداخلت نتيجة هذين التقريرين، ما بين 2.300 حداً أدنى، و3.600 حداً أقصى، وبين 5.700 وستة آلاف الآن. وتعتمد تلك الأرقام على المصادر المسجلة الباقية، ومن الطبيعي أن العديد من تلك المصادر لم تعد موجودة الآن، ومن ثم فإن التقديرات ضئيلة جداً. وقد استطاع القادة اليابانيون حشد مقاتلين - من إجمالي عدد السكان البالغ 5 مليون نسمة - بنفس النسبة التي حشد بها الإسبان جنودهم في عام 1588، أو وبنفس نسبة المغول والصينيين، فجمعوا جميعاً قوة قوامها 20 ألف مقاتل، بواقع جندي واحد لكل متر من السور.

(1) مقاتلو السماء: تطور الجيش الياباني، 500-1300، للمؤلف: وليم واين فَريس، مقتبس من مقالة مترجمة عن «في حاجة إلى تدخل بسيط من السماء»: لفائف البردي الخاصة بغزوات المغول لليابان، لتوماس د. كونلان.

وكانت هناك أعداد كافية من الجنود اليابانيين لرد المغول والصينيين والكوريين، الذين بسبب عجزهم عن تنظيم عمليات بحرية وبرية متجانسة بعيداً عن أرض الوطن نظراً لتشتتهم بصورة يائسة، ضاعت ميزة تفوقهم العددي الهائل. ودارت مناوشات على مدار شهرين بين الجانبين بين 23 يونيو و14 أغسطس، ولم تفض إلى نتيجة، ولم يجرِ اختبار السور في أي معركة، وظل منظر السور كفيلاً بصد الأسطول الكوري، ولم تتح للقوة المتحدة فرصة إحراز أي تقدم.

وكان من بين الذين اشتهوا القتال- تكازَكي سويناغا الذي وردت قصته في لفائف البردي المدونة عن الغزو. فوصل سويناغا على ظهر فرسه في كامل حلته كمحارب، وأخذ موقعه خلف السور (ويظهر في أحد الرسومات شديد الشبه بالقطاعات التي جرى ترميمها اليوم)، وقد احتشد جنود العدو ناحية البحر، وقد يئس سويناغا من ملاقاة العدو.

وقال سويناغا: «لا استطيع محاربتهم أثناء هذه الأزمة بدون سفينة».

فرد عليه قائده جوتا جورو قائلاً: «إن لم يكن لديك سفينة، فلن يتحقق أي شيء».

لكن قائداً (جوكينين[1]) آخر من هزم قال: «لنبحث عن سفينة في حالة جيدة بين السفن المحطمة في الميناء ونمتطيها لإبعاد القراصنة!».

قال سويناغا: «هذا صحيح». «ستكون تلك القوات من المشاة وستكون مراكبهم صالحة للإبحار. أريد القضاء على واحد من أفراد العدو على الأقل!».

بحث سويناغا واثنان من مرافقيه عن مركب ولم يحالفهم الحظ، وحين شارفوا على فقدان الأمل، إذا بمراكب حربية يابانية تصل إليهم. وكانت مراكب صغيرة لم يزد طولها عن 8 أمتار، وكانت تسير ببطء في المياه، حاملة عشرة أو أحد عشر فرداً ليس أكثر، نصفهم من المجدفين. وكانت المراكب صالحة للاستخدام في الخليج، لكن لا فائدة منها في البحار المفتوحة. أدرك جوتا جورو أن تلك السفينة هي خاصة بالضابط البارز أداتشي ياسوموري، فأرسل سويناغا وصديقيه كرسل. قاموا بتقديم مركب الرسول وانتقلوا إلى المركب الأكبر. صرخ سويناغا الذي وقف عند مقدمة السفينة، قائلاً إن لديه أوامر بالصعود إلى المركب

(1) قائد تابع في نظام الشوغون الياباني.

التالية والقتال. وبعدها ودون انتظار للإذن، قفز على متن السفينة.

استشاط كابتن السفينة كوتابيه (Kotabe) غضباً وقال: «هذه سفينة مستدعاة [لصاحبها أداتشي]! ولا يستطيع ركوبها إلا أفراد قواته! ابتعد عن السفينة الآن!».

قال سويناغا: «أردت أن أقدم يد العون في هذا الوضع الحرج إلى سيدي. لذلك صعدت على متن المركب، ولن أنزل وانتظر أخرى قد لا تأتي أبداً».

ولم يستطع التأثير على الكابتن: «ستكون خارجاً عن القانون إن لم تترك المركب بعد تلقي أمر النزول».

فقفز سويناغا والحزن يملؤه إلى المركب، وجدّف بصحبة مرافقيه إلى الأمام حتى أتت سفينة حربية أخرى تابعة لضابط اسمه تاكاماسا. فاقترب منها سويناغا واختلق كذبة سافرة قائلا:

«لدي أوامر سرية بالصعود على متن سفينتك».

فانطلقت الصيحات من مركب تاكاماسا: «ليس لديك أية أوامر!».

ارحل من هنا! ليس لدينا مكان شاغر!»

وكان سويناغا جسوراً بمعنى الكلمة، فحاول تجريب حيلة أخرى، وقال مفتخراً: «أنا محارب مرموق.. دعوني إذاً أصعد وحدي».

هذه الحيلة حققت النتيجة المرجوة، وجاءه رد غاضب: «نحن سائرون إلى معركة. لماذا نتسبب في هذه الجلبة على سفينة تاكاماسا؟ تقدم!».

فانتزع سويناغا واقي قصبة الساق من أحد رفاقه واستخدمه كخوذة. وصاح رفيقاه من المركب السفلي. ولكن سويناغا تجاهل صياحهما، وقال: «اتباع طريقة القوس والسهم يكون عن طريق فعل ما يستحق المكافأة. سألاقي العدو بدون رفيق».

وبدأ يقدم النصائح للقائد تاكاماسا نفسه قائلا: «لن يستسلم العدو حتى نصعد على متن سفنهم، ولابد أن نستخدم الكلاليب الخطافة ونلقيها على السفن ليصاب بدن السفينة

بطعنات ورشقات حيث يوجد مفصل في دروعهم». لكن طاقم تاكاماسا لم يكن مسلحاً بالشكل الكافي، ولم يفكروا بالأمر، وكذلك فعل سويناغا. وقعت عينه على خادم خلع للتو خوذته، وكانت خوذة جميلة مزركشة بقيطانات صفراء وبيضاء مزينة بزهور الكرز.

فقال سويناغا: «أعطني خوذتك».

«آسف. لدي زوجة وأطفال. ماذا سيكون حالهم إن قُتلت بسببك؟».

«أعطني إياها!».

«لا أسف. فقط أنا وسيدي من يرتدي تلك الخوذة».

قبلَ سويناغا اعتذاره على مضض، وبدأ يستعد للعمل مستخدماً واقي القصبة كخوذة، وألقى بعض سهامه في المياه لتخفيف حمولته.

الآن بدأ التنفيذ. وجد سويناغا نفسه وخمس رفاق على نفس القارب يهاجمون سفينة مغولية صغيرة طولها 10 أمتار وعدد طاقمها سبعة مغول وضابطان صينيان. هذا النوع من السفن لا يستطيع تجاوز مئات الكيلومترات في البحار المفتوحة، وكان سويناغا أول من امتطى ظهر السفينة. واستطاع أن يقطع عنق أحد الضباط ليسقط صريعا، وانخرط في مقاتلة الآخرين، فقبض على ضفيرة أحدهم، وفي نفس اللحظة كان رفاقه ينقضون على مؤخرة السفينة. وخلال فترة وجيزة استطاعوا الاستحواذ على السفينة، حيث تصور الرسومات سويناغا معه رأسان.

كان ذلك ما أراد سويناغا فعله، وبعد ذلك عاد إلى الشاطئ ومعه رأسان تذكاريان، ليحكي لقائده جوتا جورو عما فعل، فأُعجب القائد به إعجاباً طغى على كرهه لعناد سويناغا، وقال له: «لو لم تحصل على مركبك، كنت ستستمر في الكذب حتى تنضم إلى المعركة. أنت أسوأ الرجال حقاً!».

وفي يوم 15 أغسطس تدخلت الطبيعة عندما هبت مجموعة متنوعة من الرياح ليس أعتاها «الرياح العكسية» الشهيرة لعام 1274، وكان أول إعصار استوائي (تايفون) على الأبواب. فحالياً عندما يجري تعقّب الزوابع الاستوائية في المحيط الأطلنطي والأعاصير

الاستوائية في المحيط الهادئ، من المألوف أن يجري الحديث عن قوتها التدميرية في البرامج الإخبارية، لكن رؤية المشاهد الإخبارية لا تضاهي الشعور بقوة العاصفة. وليس لدينا أية معلومات تساعد في تصنيف هذا الإعصار الاستوائي على أنه من الدرجة الأولى حسب مقياس سافير سبمبسون (119-153 كيلومتراً في الساعة. وتكون القوة التدميرية مقتصرة على أوراق النباتات والقوارب غير المثبتة والمنازل المتنقلة») أو تصنيفه بالدرجة الخامسة إعصاراً استوائياً عنيفاً («تفوق قوة الرياح فيه 249 كيلومتراً في الساعة. وقد يتسبب في سقوط الأسقف وإحلال الدمار بفعل موجة الأعاصير الكارثية»). لكن وضع الإعصار على مقياس الأعاصير لا يعني الكثير للبحارة الذين سافروا على متن القوارب الصغيرة، فقد عاش البحار جوزيف كونراد البحرية بين أعتى عواصف الصين، وذات يوم في شبابه هبت عليه عاصفة لا ينساها. ضربت هذه العاصفة (الإعصار) مدينة نان-شان (Nan-Shan)، وكان اسم قائد السفينة ماكوير كربان وجوكس الصغير هو الرفيق الآخر على متنها. في السطور التالية يصف جوزيف كونراد مشاهداته:

ضرب برق خافت أنحاء المكان كأنه برق في داخل كهف أو حجرة مظلمة سرية في أعماق البحر، وتكشّفت السماء في لحظة شؤم عن كتلة من السحب المنتشرة على ارتفاع قريب من أشرعة السفينة الممتدة. تشبث الرجال - الذين بدوا وكأنهم نقاط سوداء صغيرة - بمنصة الربان، رؤوسهم إلى الأمام في وضع النطح بالرأس. وغطى الظلام كل شيء، وفي النهاية ظهر الشيء الحقيقي. كان شيئاً مروعاً وخاطفاً كالانفجار المفاجئ لقارورة من غضب، ويبدو أنه سينفجر في كافة أنحاء السفينة مع حدوث هزه قوية واندفاع هائل للمياه، كما لو كانت تندفع من سد في اتجاه الرياح. في لحظة فقد الرجال اتصالهم ببعض. تلك هي القوة المحطمة للرياح العظيمة: فهي تعزل الفرد عن نوعه. تباغت الزلازل، الانهيارات الأرضية، الانهيارات الجليدية الإنسان على حين غرة، كما لو كانت بلا مشاعر. تهاجمه العاصفة العنيفة كما لو كانت عدو شخصي له، تحاول أن تنتزع أطرافه، تشل تفكيره، ترغب في طرد روحه من جسده.

كان جوكس يبتعد عن قائده ... هطلت الأمطار، وانهالت عليه كالألواح. أخذ يلتقط أنفاسه ويلهث، وكانت المياه التي ابتلعها عذبة أحياناً ومالحة أحياناً أخرى. وكان يبقي عينيه

مغلقة تماماً أحياناً، خشية أن يفقد بصره من اندفاع الأشياء بقوة هائلة نحوه... بعد أن تلقى ضربة ساحقة على ظهره وجد نفسه فجأة يطفو ويرتفع لأعلى. الانطباع الأول الذي سيطر عليه أن بحر الصين بأكمله ارتفع على الجسر. وكان واعياً إلى حد كبير، فظن أنه طار إلى خارج السفينة. وكان يندفع طوال الوقت وتتقاذفه الريح ويدور في كتل مائية عظيمة، وظل يردد - وهو في وعيه خلال هذه الدفعات الهائلة - قوله: «إلهي! إلهي! إلهي! إلهي!»...

تمايلت السفينة في حالة ضعف مخيف: تُقذف كما لو كانت تغوص في الفراغ، وبدا أنها اصطدمت بحائط وظلت ترتطم به. وظلت تدور ومالت على جانبها خارجة عن السيطرة، ثم استعادت وضعها بضربة قوية على نحو أشعر جوكس بأنها تدور كرجل مضروب يترنح قبل أن يسقط. عوت العاصفة وهاجت تحت جنح الظلمة، كما لو كان العالم بأسره أصبح أخدوداً مظلماً فوق صفحة المياه. وعند لحظة معينة اندفع الهواء نحو السفينة وكأنه يُسحب داخل أنبوب بقوة متواصلة مكثفة، ترفعها من الماء بسرعة وارتجاف. وبعد ذلك بدأت السفينة في السقوط مرة أخرى وكأنها أُلقيت في مرجل يغلي...

طفا سطح البحر وغمر طرفي مدينة نان-شان ودفعت بتدفقات ثلجية رغوية في أنحاء المكان امتدت على مساحة واسعة في الليل. وعلى هذا السطح المذهل الذي امتد تحت سواد السحب، وانطلق وهج ضارب إلى الزرقة، استطاع الكابتن ماكوير أن يرى بقعاً سوداء صغيرة وأبواب الحجرات والدعائم المثبتة بعوارض ورؤوس الروافع المغطاة والجزء السفلي للصاري. استطاع رؤية كل ذلك في سفينته. وكان جزؤها الأوسط مغطى بالجسر الذي رفعه ورفيقه، أُقفِلَت المقصورة المغلقة. سيطر الخوف من أن يطاح بهما للخارج مع كل ما على ظهر السفينة دفعة واحدة، وكان الجزء الأوسط كصخرة تقف في وجه المد والجزر تتلاطم فوقها الأمواج وترتطم. وكانت السفينة كالصخرة المعزولة تدافعت فوقها المياه وتدفقت عليها وانهمرت وضربت جنباتها، كصخرة تحت الأمواج المتكسرة تشبث بها أشخاص تحطمت سفينتهم قبل أن يتركوها. وهي تطفو وتغرق وتدور دون توقف، كصخرة قذفتها قوة هائلة من الشاطئ وانغمست في البحر.

تدمرت نان-شان تحت العاصفة بصورة فاقت التصور، وتمزقت الحبال الإضافية المستخدمة في ربط الأشرعة العواصف، وقُذِفَت المظلات المجدولة جدلاً مزدوجاً، اجتيح

الجسر.. والتوت السياج وتحطمت الحواجز الخفيفة. دُمرت المركبتان تماماً.. اختفتا ولم يُريا أو يُسمَع عنهما شيء تحت الأمواج.

تخيل أن السفن الخشبية مضروبة، وليس السفن الحربية فحسب، التي بُنيت لأجل الأعاصير، لكن سفينة تحمل 3 آلاف رجل أو أكثر قليلاً أتت من الجنوب. كان البحارة الكوريون على علم بما سيحدث، فأصدر الأدميرال أمراً للأسطول بالتحرك في البحر لتجنب الارتطام بالصخور. أما هؤلاء الذين استطاعوا الصعود على متن السفينة لتجنب انقطاع السبل بهم على الشاطئ، فصعدوا إلى السطح بمشقة وتعرضوا لصراعات في المناطق الضحلة. هذه الأجواء أودت بحياة 15 ألف مقاتل من قوات الشمال و5 آلاف من قوات الجنوب في عرض البحر. ولقي مئات حتفهم على أيدي اليابانيين، أو تقاذفتهم الأمواج إلى حتفهم على متن مراكبهم الصغيرة التي بقيت قرب الشاطئ الملبد بالصخور. فكانت كارثة لا مثيل لها في تاريخ البحار، وحتى في تاريخ البر، ولاسيما إن علمنا أن دمار هيروشيما بالقنبلة الذرية أودى بحياة 75 ألف شخص في تفجير عام 1945.

ولا غرو في أن اليابانيين اعتبروا هذه العاصفة حماية إلهية، وتبنوا فكرة الحماية السماوية منذ ذلك الحين، فاستغرق مسؤولو قصر الإمبراطور والمسؤولون العسكريون في الابتهال والدعاء على الغرباء بأن تصيبهم المحن وتحل بهم النوازل، وزُخرفت المعابد والأضرحة بهذه الفكرة، حتى القائد سويناغا المعروف بوضوح طموحه وأغراضه نسب نجاحه إلى الآلهة. ولم تكن ابتهالات اليابانيين هي حصنهم الوحيد في هذا العالم، فقد اعتنوا بالسور أيما عناية فيما بعد، ودججوه بالحراسة المستمرة على مدار ثلاثين عاماً من تاريخ العاصفة. والنتيجة أن من يزور اليابان اليوم يجد أجزاء من هذا السور قائمة لم يصبها ضرر. ونجد إلى يومنا هذا أن فكرة التدخل الإلهي لإنقاذ اليابانيين راسخة في الثقافة اليابانية. وقد ثارت تساؤلات كثيرة وركزت أبحاث عدة على هذا الجانب: فهل هبّ هذا الإعصار بأمر إلهي لإنقاذ اليابان؟

في التحليل النهائي نجد دليلاً ذا مصداقيته على أن هذا الزعم غير دقيق، فنجاة اليابانيين في هذه الموقعة كانت بيد اليابانيين أنفسهم. هنا في قصة سويناغا انظر إلى روحه القتالية العالية، سويناغا كان رجلاً شجاعاً تواقاً إلى المخاطر.. ملك ناصية نفسه. ورغم أنه نموذج

للمقاتل الياباني، فهو واحد من كثيرين، فالشعب الياباني لديه حس عال بالغاية المشتركة.. وإستراتيجية شاملة. فقد شارك المقاتلون اليابانيون في معركة واستطاعوا فيها ردع العدو بشكل كاف والتعامل معه كما ينبغي. ولم يرد أي ذكر للإعصار على الإطلاق، كما توضح لفائف البردي المدونة عن الغزو. فالفضل يرجع إلى المقاتلين اليابانيين. ورغم أن سويناغا أبدى تبجيله للآلهة بالصلوات، ليس هناك إشارة في الروايات المدونة أو الصور إلى أن السماء تدخلت أثناء الحرب أو بعدها.

توضح النصوص والصور - حسب تفسير كونلان - أن مفهوم «الرياح الإلهية» عكس أحد ملامح عقلية القرون الوسطى التي أكدت مسألة السببية السماوية، أكثر من تأكيدها غياب الكفاءة لدى الطرف الياباني في المعركة. وقال كونلان: المحاربون اليابانيون كانوا قادرين على قتال المغول تماماً، لكن سويناغا ورفاقه المحاربون في حاجة يسيرة إلى تدخل إلهي». ماذا حدث للأسطول الحربي؟ يحاول علماء الآثار البحرية الإجابة عن هذا التساؤل بقولهم: إن الصينيين لم يكن لديهم سجلات كافية عن هذا الموضوع على الأرجح، فقد تحطمت بارجة الأدميرال «فان ون هو» والجنرال «كسي» قرابة سواحل تاكشيما اليابانية. قام الاثنان بجمع بقية الناجين - وكان عددهم ألفان - الذين أغاروا على منازل ومزارع السكان المحليين المقتولين للحصول على الطعام، وجرى إصلاح إحدى السفن المحطمة التي اتخذها الأدميرال مأوى له. وقتل اليابانيون البقية الباقية من جنود العدو وأسروا ألفاً وخمسمئة جندي تقريباً، وسُمح لثلاثة أفراد بالعودة لإخبار كوبلاي بمصير أسطوله الحربي العظيم وجيشه المهزوم، أما باقي الأسطول فيبدو أنه اختفى عن التاريخ في بطن المحيط.

لم يختف تماماً، فقد أصبحت قصة النصر على المغول جزءاً من النهضة القومية اليابانية في ثلاثينيات القرن العشرين، كان ذلك حينما بدأت عملية التجديد في البداية للسور المحيط بخليج هاكاتا. فبعد الحرب بدأ توراو موزاي (عالم الآثار بجامعة طوكيو) في البحث في موضوع الأسطول. وجد الصيادون في الخليج بعض دعائم المراسي، وقطعاً متصلبة صخرية كبيرة تُثقل المراسي وتجعلها تدور لتأخذ وضعها الصحيح، لكن هذه الدعائم قد تكون خاصة بأي من السفن الغارقة التي لا تُحصى، والتي غرقت على مدار قرون في هذه المنطقة. وفي عام 1980 قرر عالم الآثار الياباني توراو موزاي التركيز على تاكاشيما، حيث

أسس الأسطول الجنوبي قاعدة له، وقام بالبحث عن مرسى لتثبيت السفينة حتى ينجو من الإعصار. وقد عرض الصيادون مع عالم الآثار موزاي أجزاء من الأواني الفخارية المبهمة التي وجدوها على مر السنين.

ظهر بعد ذلك، وعلى نحو مفاجئ، دليل مهم في عام 1974، فقد لفت انتباه الصيادين شيء جديد، حين انتشلوا شيئاً ما علق عليه كائنات رخوية في منطقة تقع على مقربة من الميناء المواجه لجنوب كازاكي: مربع صغير من البرونز له مقبض في الخلف، ومنقوش على مقدمته كتابة بطريقة ابتكرها «فاغز با»، المستشار والناصح التبتي لكوبلاي. وكانت الكتابة باللغة الصينية وتُقرأ: «ختم قائد الألف»، ويوجد رمز صيني يشير إليها في الأعلى نُقش عام 1277. ليس هناك شك في هذا: بقايا أحد ضباط كوبلاي الكبار قابع في تلك المناطق الضحلة المظلمة، وكذلك بقية أفراد سفينته على الأرجح. (منذ ذلك الحين أصبح هذا الشيء البسيط رمزاً وأيقونة للحدث وأبحاث الآثار التي قُدّمت في شكل أبحاث موجزة وصور منقولة. وتوجد النسخة الأصلية حالياً في متحف كايشو القومي في فوكيوكا الذي جرى افتتاحه في أكتوبر 2005).

اهتدى موزاي - الذي أسس برنامجاً بحثياً متخصصاً - إلى فكرة مسح قاع البحر بأشعة السونار وأرسل غواصين لهذا الغرض. فوجد الغواصون في الوحل سيوفاً وسناناً ومطاحن أرز يدوية مصنوعة من الصخر، ودعامات للمراسي، وكرات المنجنيق الصخرية المستديرة، وكلها أدلة مباشرة على أن المغول كانوا يحملون المنجنيق على متن السفن. لكن عالم الآثار موزاي عمل على مجموعة ضئيلة من المصادر، وكانت اكتشافاته مثيرة بدرجة ضمنت له الحصول على مساعدة مجلة ناشيونال جيوجرافيك، لكن بحثه احتاج إلى أساس سليم طويل الأمد. ارجع إلى العالم الكبير كنزو هاياشيدا، العائد مؤخراً من رحلة الماجستير في الآثار القديمة من جامعة بنسلفانيا. ليس هناك فرصة ملائمة في جنوب اليابان لمتخصص في علم الآثار اليونانية؛ في حين توافرت إمكانية لحل أحد الألغاز الكبيرة في التاريخ الياباني والصيني. انضم إلى موزاي في عام 1981، الذي سار على نهجه وعكف على مياه تاكاشيما الطمية، واعتمد في بحثه على العمل مع هيئة التعليم المحلي وجامعة فيوكواكين. وفي عام 1986 أسس جمعية كيوشو وأوكيناوا للآثار الغارقة، والتي تقدم تقارير سنوية عن اكتشافاته

هو وفريقه المكون من 12 غطاساً متطوعاً.

تمتع هاياشيدا ذو الصوت الخافت والخلق الحسن بهالة من الحكمة، وقد ظننت النوم يغالبه عندما شاهدت جفونه نصف المقفلة وحركتها السريعة، ولم يكن الأمر كذلك، فتراجعت الانطباعات الأولى أمام ذكائه البادي وعلمه. وباللغة الانجليزية التي كان يتلمس طريقه خلالها بحرص، كمن عاد بعد اجتياز طريق امتد لنحو 25 سنة إلى اليابان، حدثني عن عمله وأستاذه في تاكاشيما وعن الجزيرة برمتها.

كان لكل شيء في أبحاث هاياشيدا مشكلاته الخاصة، ففي بداية الأمر لم يكن لدى اليابان أي تراث بحثي في هذا الجانب، ولم يكن لديها قسم واحد بأي جامعة لدراسة الآثار البحرية، والتمويل محدود. مشروع بحثي بهذه الأهمية (أصبح الآن قائماً في متحف خاص به) سيصبح مصدر جذب لأموال السياحة. والمشكلة الثانية أن تاكاشيما بعيدة والانتقال إليها يكون عبر عبّارة جميلة تستغرق 10 دقائق في العبور. ورغم ذلك سيُبنى جسر بها انتُهي من نصفه الآن. والمشكلة الثالثة أن الظروف في خليج إيماري صعبة جداً، حيث إن القاع عبارة عن عدة أمتار من الطين التي يهيج بأي لمسة فتنخفض الرؤية عبر المياه إلى الصفر، فيضطر الباحث إلى التراجع حتى تصفى المياه. وهو عمل شاق ومكلف.

ويرجع الفضل في كثير مما أنجزه هاياشيدا في تاكاشيما (إنشاء متحفه ومعمله) إلى اكتشافه المثير سنة 1994، حيث وجد على مسافة 50 متراً من الشاطئ دعامتين ضخمتين من الجرانيت، طول كل منها 1.5 متر ووزنها 300 كيلوغراماً. بعدها اكتُشفت المرساة الخشبية الخاصة بهذه الدعامات. فأصبح إجمالي الاكتشاف هو قطع ضخمة طولها سبعة أمتار ووزنها يزيد عن طن. والأكثر أهمية هو حبال المرسى المصنوعة من الخيزران، فقد وجدت سليمة ولم يصبها ضرر، وعُثر عليها في قاع المحيط.

كشف البحث بعد ذلك أن الجرانيت جُلب من جنوب الصين، ومن خلال آلية تحديد عمر الآثار باستخدام «الكربون 14» علمنا أن خشب البلوط المستخدم في صنع المرساة جرى قطعه قبل معركة سنة 1281 تقريباً. وهذا لا يعني بالضرورة أن تلك المرساة تعود لسفينة المغول الكبيرة التي تراوح وزنها بين 300 و400 طن، والتي أجبرها الإعصار

الاستوائي على السير نحو الشمال وأغرقها في نهاية المطاف، كما ترجح بعض الأبحاث، وعلى متنها قائدها الذي توشح بعلامة برونزية دلت على رتبته. لكن السؤال إن كنا عثرنا على هذه المراسي والقضبان: فأين السفينة نفسها؟ وأين بقية الغارقين؟

تضمنت المكتشفات التي استُخرجت من المواد اللزجة مجموعة من الحواجز الضخمة المتآكلة والأجزاء المتصالبة التي تقسم السفينة الكبيرة إلى مقصورات مانعة لتسرب المياه. ويبلغ طول إحدى المقصورات سبعة أمتار، مما يعني أن عرض السفينة الأم كان سبعة أمتار على الأقل.

وعلى أية حال كان طول هذه السفينة 70 متراً على الأقل، وهو مقاس عملاق. ولم تقترب سفن الإبحار الأوروبية من هذا الحجم حتى القرن التاسع عشر. فكانت مساحة أكبر سفن أوروبا في مطلع القرن الخامس عشر هي بارجة اسمها «نعمة الله» عادت ملكيتها إلى الملك هنري الثاني والعشرين، وكان طولها 38 متراً من المقدمة إلى المؤخرة. أما بارجة الأدميرال نيلسون - والمسماة (عُرفت باسم «النصر») - فبلغ طولها 57 متراً، ولم تزد نظيراتها الإسبانية والفرنسية عنها كثيراً. مع الاقتراب من عصر استخدام طاقة البخار، بدأت السفن الغربية تتجاوز أبعاد السفن الحربية لدى الصين وكوريا.

لكن ضخامة هذه السفن لم تجعلها بمأمن من الإعصار الاستوائي. ربما لأن القائد المحكوم عليه بالموت رسا في منطقة الإعصار في اتجاه غير المواجه للرياح على الشاطئ الجنوبي، أملاً منه في أن الإعصار الاستوائي يدور عكس عقارب الساعة ثم يتجه إلى البر عندما يلتقي بعاصفة الشمال. وفي اللحظة التي يظهر فيها حبل الإرساء، وصلت عين الإعصار إلى الشاطئ وهبت العاصفة من الجنوب عبر خليج إيماري.

توالت الاكتشافات الجديدة بالمئات، وكلها أُحضرت إلى معمل الباحث هاياشيدا من أجل تنظيفها. أحد أهم تلك الاكتشافات كانت ست قنابل رعدية (كان يُطلق عليها في اليابان اسم «القنابل الحديدية») رغم أن هذه القنابل كانت خزفية. وكانت بعض من تلك القنابل أخطر مما تبدو، فقد جرى اكتشاف إحداهاوعند تصويرها بالأشعة السينية وُجد أنها محشوة بأكثر من 12 شظية معدنية بإمكانها إنتاج قذائف نافذة المفعول. ويعتبر ذلك دليلاً مباشراً

على أن سويناغا ورفاقه ربما جرى قذفهم بقنابل رعدية عام 1274. كنت الشخص الوحيد في متحف هاياشيدا في ذلك اليوم، لذلك فتح أمين المتحف الخزانة وأعطاني اثنين من قنابل تتساهو (القنبلة الرعدية كما يسميها اليابانيون) وكانت تجربة مثيرة. كنت أتساءل عن فرصته الضئيلة في الإفلات من الموت لشهور، وها هنا أمسك بأشياء قابلة للكسر، مغلفة بقشرة دبقية في حجم البطيخة، تثبت أن الرواية الخاصة بالموقعة صحيحة. تُرى ماذا يحدث لو أُسقطت بعض الأسباب المفهومة بشكل جيد؟ إني سعيد لأني توصلت إليها، وأسعد لأني قمت بإعادتها.

يوجد خلف الباب الثاني في المعمل مجموعة هاياشيدا والمكونة من أربعة آلاف قطعة معظمها موضوع في حاويات معدنية بها ماء عذب. وقد ظلت تلك القطع بهذه الحاويات على مدار شهور وأحياناً سنين لتنقيتها من ماء البحر. وتضم الحاويات الكبيرة الحواجز، والحاويات الصغيرة قطع الفخار وأجزاء معدنية وشظايا خشبية وتشكيلة من العظام المكتشفة. وعلى أحد الجوانب، نجد أعمدة المراسي وحاويات صغيرة تضم قوارب التجديف. وهناك الغنيمة الكبرى (تحفة أثرية وزنها طن تقريباً) في حاوية محكمة الغلق وقد جرى حفظها في مادة البولي إيثيلين جليكول الحافظة. وتستغرق عملية الحفظ أكثر من سنة كاملة.

وتعرض أكيكوماتسو أمينة المتحف النشطة الحماسية، بعضاً من اكتشافاتها المفضلة: وعاء خزفي فاخر.. خوذة.. وسيف.. مجموعة من قصبات الرماح.. أجزاء من قوس.. قوس ونشاب، وجماجم بشرية موضوعة بعناية في قطن طبي.

قال هاياشيدا: «تلك الجمجمة تعود إلى شاب صغير. تستطيع أن ترى مدى تآكل الكالسيوم فيها بفعل مياه البحر. لكننا علمنا من خلال مرحلة نمو هذه الجمجمة أنها لشاب في عشرينيات عمره. وهنا جمجمة لرجل أكبر سناً. أنظر إلى أسنانه، تلك هي الضروس التي كانت بحالة جيدة، ولم يوجد بها أي تسوس على الإطلاق».

ومن المبكر جداً فهم تلك الاكتشافات، فهي مجرد قطع صغيرة متناثرة على امتداد لغز شديد التعقيد تسبب فيه الإعصار، وكل إعصار جديد هب على المنطقة منذ الحين. وهي

حالة تشبه خفق أربعة آلاف بيضة في خلاط عملاق ثم نثرهم فوق الطين ثم وضع المزيد من الطين فوقهم، ثم محاولة استخراج أي شيء ذي معنى من هذه الكتلة. وعندما نتحدث عن ألف سفينة نحن بالطبع نقصد ملايين الأجزاء والشظايا، ومعظمها منتشرة في أنحاء المكان. وقد أمكن اكتشاف 100 قطعة منها فقط. ولا يزال هاياشيدا في بداية رحلة البحث، لكنه تحدوه آمال كبيرة في العثور على بعض الاكتشافات الأخرى التي تمثل دافعاً للآخرين ليحذوا حذوه ومواصلة هذه الأبحاث.

ولا يزال الوقت مبكراً جداً للتكهن بالنتائج، فهناك عدد كبير من القدور، أغلبها صينية - وليست كورية - صُنعت في أفران منذ أمد بعيد في متحف غياغسو. ومن بين هذه القطع عدد من القطع الكورية هو 20 قطعة فقط، وهو دليل دامغ على أن الأسطول الصيني استأثر بجُل الدمار.

ولكن كيف؟

ما يهم فعلاً بالنسبة للسفن التي تسير عبر المحيط هو البناء، وهنا يبدو أنه كان يوجد قدر كبير من زوايا الأشرعة. قام أحد زملاء هاياشيدا، ويدعى راندال ساسكي وهو من جامعة تكساس إيه أند إم (كلية ستيشن)، بعمل دراسة عن 500 قطعة من الخشب، وأصابته الدهشة حين وجد ثقوب مسامير كانت قريبة من بعضها، وتم تجميعها كما لو قام عمال البناء بإعادة استخدام القطع الخشبية القديمة.

هناك الكثير لدى هاياشيدا، فقد أظهر لي قطعة مربعة من الخشب بها ثقبان «عبارة عن سناد للصاري، وهي قطعة من الخشب ينتصب عليها الصاري، ويتم تقويتها بدعامتين تستقران في هاتين الفجوتين. لكن انظر: الفجوتان بعيدتان عن المركز. وقد صنع سناد الصاري هذا شخص لا يتقن عمله جيداً». وفي النهاية قال لي هاياشيدا: «أتعلم ما الغريب فعلا؟ حتى الآن لم نعثر على أي دليل على وجود سفن مسطحة القعر على شكل حرف V.

وتفترض تلك الأدلة حدوث خسارة فادحة بمركبة واحدة على الأقل، ربما استطاعت الصمود أمام الإعصار، وهو استنتاج مدهش وغير منطقي في آن. فاستجابة لأوامر كوبلاي الجنونية بإنشاء سفن ضخمة في أسرع وقت، ارتجل صناع السفن هذا العمل. فقاموا بأخذ

أي سفينة تطولها أيديهم، سواء كانت صالحة للإبحار أم لا، ووضعوا السفن الجيدة في الخدمة، وجرى تجديد السفن الرديئة بنفس الخامات. فيما عدا السفن الجديدة التي بناها الكوريون - والتي لم يُعثر على أي منها - فإن الغالبية العظمى من سفن الغزاة كانت عبارة عن مراكب نهرية بلا عوارض، وهي غير صالحة إطلاقاً للإبحار في أعلى البحار. يتساءل هاياشيدا أيضاً عن احتمال افترضه استخدام قطع الأخشاب والبناء الرديء: هل كانت معارضة خطة كوبلاي قوية بدرجة دفعت العمال فعلياً إلى التخريب؟ على أي حال أدت طموحات كوبلاي بشكل حتمي إلى فشل في التحكم في الجودة. أكاد أسمع الكلمات الخادعة لملاحظي العمال كثيرين يقولون بفخر إن الأوامر نُفّذت، وأن كافة المراكب جاهزة. لم يخبر أحد الإمبراطور أن العمل يجري على نحو ارتجالي، فإن تلك المراكب تكون بمثابة شراك الموت.

وجرى البحث في نطاق 0.5 ٪ من مساحة بلغت 1.5 كيلومتر من تاكاشيما، وتُرِكَ باقي خليج إيماري. وبالتأكيد لا يزال يوجد هناك المزيد الذي ينتظر الكشف، وأراهن على أن الاكتشافات سوف تأتي بمزيد الأدلة عن ضعف التحالف المغولي الصيني، والرجوع إلى ملحوظة كونلان أن اليابانيين لم يكونوا في حاجة إلى التدخل الإلهي.

صحيح أن العاصفة في نهاية الأمر تكفّلت بالأسطول المغولي، وصحيح أن السفن بُنيت بصورة غير مهنية وبإستراتيجية معيبة، لكن مقاومة اليابانيين هي التي أبعدت المغول عن الشاطئ. وكان كوبلاي يحتاج إلى الرسو على البر، لإنزال 100 ألف جندي إلى الشاطئ، ثم إنزال المعدات والأحصنة وآلات المنجنيق وأقواس الحصار. لكن بطء الرد الياباني الجَسور أخّر عملية الرسو، في حين قام البعض مثل سويناغا بالاشتباك مع العدو في الخليج، فارضين على المغول حالة من الجمود لم يُقدم المغول على أي محاولة لكسرها.

فهل كان بمقدور كوبلاي إحراز النصر في تلك الحملة؟ أشك في ذلك. ففي أحسن الأحوال، إذا تحرك الأسطولان معاً، فستكون النتيجة مفروغاً منها. وبالتأكيد مجرد وصول الأسطول المتجه جنوباً بعد الميعاد المقرر، وضع المغول على أول طريق الهزيمة. فقد كانوا ضحايا الظروف المعقدة وسعة حجم العملية والمعارضة الداخلية وغياب الكفاءة وارتباك الحرب. وكانوا على مسافة بعيدة من القاعدة دون دعم أو عون، فامتدت الأيام إلى

أسابيع، واستمر نفاد الطعام والماء والذخيرة. وأصبح أمامها خياران لا ثالث لهما: الموت أو الانسحاب المخزي. ولم يغير الإعصار مجري الحرب؟ فكان بمثابة نهاية عاجلة لنزيف متواصل. فقد دمّر كوبلاي بسبب طموحه الجنوني أسطوله قبل أن يبدأ رحلته.

الفصل الرابع عشر

مال وجنون.. وسفك دماء

ليس هناك ما يفوق القتل كوسيلة للكشف عن العواطف الدفينة، وليس ثمة أداة أكثر فعالية من الاغتيال للكشف عن أخطاء الحكومة. هذه القصة تلقي الضوء على القلب النابض لحكومة كوبلاي.

فقد خلق كوبلاي وحشاً شرهاً في حب الرجال والمواد والأموال، وكان عليه إطعام هذا الوحش باستمرار. وبدا أن هناك رجلاً لديه السر - وهو سببٌ كافٍ جعل كوبلاي يتجاهل الكراهية التي بلغت حد الطاعون - لوزيره المهووس بالسلطة. وقد سمح كوبلاي طوال عشرين عاماً للكارثة أن تختمر حتى نضجت وتحولت إلى مأساة أكثر إثارة من أي قصة خيالية لرجل انتحاري متعصب وراهب مجنون ذات مؤامرة هزلية. ولا عجب في أن ماركو بولو عرّج على القصة رغم أنه لم يعرف شيئاً عن نصفها.

كان وغد هذه الرواية هو أحمد الأوزبكستاني الذي وُلد في قرية باناكات (Banakat) التي تبعد بضعة كيلومترات إلى جنوب غرب طشقند (Tashkent) على نهر سرداريا (Syrdar'ya). وقد وقعت المدينة في قبضة جنكيز خان في بداية غزوه للعالم الإسلامي سنة 1220، حيث قام المغول بذبح جنود الحامية العسكرية واستخدموا الحرفيين والفتيان لأداء الأعمال المتعلقة بالحصار[1]. حدث هذا تقريباً وقت مولد أحمد، ومن المحتمل أن أمه أُسرت مع الفتيان وأن أحمد كان صبياً ضمن حاشية تشابي بعد زواجها من كوبلاي سنة 1239، وكان كوبلاي آنذاك لا يتجاوز 24 عاماً. وعمل أحمد مع عائلة كوبلاي حيث ساعد في تولي إدارة الشؤون المالية والنفقات العسكرية، وقد شهد تطوراً في شخصيته في هذه البيئة حسبما قال كاتب سيرته «هيربرت فرانك»، بحيث أصبحت «لديه شهية لا تهدأ للسيطرة على كل الموارد المالية للحكومة».

وعندما تُوّج كوبلاي إمبراطوراً في عام 1260، أصبح أحمد مسؤولاً عن تدبير مطالب البلاط من الإمدادات. فعلا شأنه سريعاً وكان مدفوعاً بطموح متقد. وفي العام التالي أصبح أحمد يتقلد منصبين: منصباً بارزاً في الأمانة، وآخر مسؤول عن النقل، وكان يكره أعمال الإشراف، وطلب أن يعمل تحت الإشراف المباشر لكوبلاي شخصياً. وكان رئيسه الصيني،

---

(1) و. بارتولد، تركستان في عصر الغزو المغولي. ويستند باقي هذا الفصل على السيرة الذاتية لفرانك في إيجور دي راشولتز وآخرين: في خدمة الخان: شخصيات بارزة في حقبة المغول-يوان (1200-1300).

وهو أحد العلماء الذين انضموا إلى كوبلاي عند سقوط حكم الجين عام 1234، شديد التمسك بالنظام والدقة في أداء المهام من خلال قنوات التدرج الوظيفي المناسبة. وقد اعترض على ذلك ووافق كوبلاي، مانحاً ابنه ووريثه زينجين صلاحيات تتجاوز الأمانة. وكانت هذه البداية، وتلتها محاولات من جانب أحمد لكسب نفوذ أكبر وأوسع، وبداية أيضاً للعديد من المواجهات بينه وبين زملائه، وبداية ولا شك لعداء مستمر مع زينجين.

كانت وظيفة أحمد داخل الأمانة تركز على زيادة دخل الحكومة، ولم يعجز عن الإتيان بأفكار جديدة لتحقيق ذلك، فماذا لو أمكن زيادة إنتاج الأدوات المصنوعة من الحديد في أعمال الصهر المملوكة للحكومة بحيث تُعطى هذه الأدوات إلى المزارعين مقابل الغلال؟ حتماً سيعمل ذلك على زيادة الاحتياطي من الغلال. وماذا لو جرى فرض ضريبة مبيعات على تعاملات الفضة؟ سيتعين على التجار القادمين إلى العاصمة عندئذ أن يقدموا إيصالاً بدفع الضريبة، أما إذا عجزوا عن تقديم هذا الإيصال فسيحاكموا بجريمة التهرب من الضرائب وسيكون عليهم سداد غرامة. وماذا لو أُلغيت الإعفاءات الضريبية للرهبان؟ وكذا تغريم منتجي الملح في شانشي (Shanxi) الذين أثرت المواد الرديئة والرخيصة التي ينتجونها بصورة سلبية على المنتج الملحي للحكومة؟

وأحب كوبلاي النتيجة وحقق أحمد نجاحاً صاحبته مجموعة من المناصب. وكانت سلطته المتزايدة تسير جنباً إلى جنب مع غطرسته ومن ثم عدم شعبيته. وعندما بدأ حرسه الخاص شجاراً، قام أحد مستشاري كوبلاي من الأويغور يدعى زيزيان بمحاكمته بل وضربه. ولم يكن هذا الأمر روتينياً بيد أنه في عالم العدالة القاسية والجاهزة كان سريعاً ما يتم نسيان الأمر، ولم يكن ذلك ليردعه، فما الذي يهمه فيما إذا كان لا يحظى بشعبية؟ وقد كان هذا واقع الحال مع معظم المسؤولين الأجانب حيث سجل ماركو بولو: «عليك أن تعلم أن كافة مواطني كاثاي (شمال الصين) كانوا يبغضون حكم الخان الأعظم لأنه كان يولي عليهم حكاماً من التتار والسراسنة والمسيحيين، والذين كانوا مرتبطين بأسرته وموالين له، وكانوا أغراباً في كاثاي».

وفي عام 1266 أحرز أحمد تقدماً كرئيس منصب جديد لتنظيم نفقات الدولة، ولكي يعصر كل مورد متاح حتى آخر نقطة كان يشتكي من جودة الأقمشة هنا أو سبائك الذهب

هناك. وكان يدرس خططاً لصنع أقمشة غير قابلة للاحتراق من مادة الأسبستوس، ولاستغلال أحد مناجم الفضة الجديدة بصورة أفضل من خلال صهر بعض القصدير من المادة الخام. وكان يتساءل عن كيفية تحسين إمدادات الحبوب إلى القوات التي تحارب أريق، وكان يحرص على التأكد من أن القاعدة الضريبية للإمبراطورية سليمة، ففي عام 1261 كان لدى منطقة شمال الصين 1.4 مليون أسرة دافعة للضرائب، ووصل الرقم إلى 2 مليون تقريباً بحلول عام 1274.

استمرت الخلافات حول أحمد الذي حاول تأسيس إدارة حكومية أخرى لتفادي الأمانة، واعتراضاته على تأسيس المنصب الرقابي الجديد المتمثل في الهيئة الرقابية. وتساءل أحمد: «لماذا نقيم هيئة رقابية؟ ليس من سبب لذلك مادامت الأموال والغلال تدخل إلى الإمبراطورية». وقد خسر أحمد المعركتين، لكنه قلل من أهمية النتائج واعتبرها انتكاسات مؤقتة. وفي عام 1270 حصل أحمد على «إدارة شؤون الدولة»، وكانت رابع أهم هيئة في الحكومة بجانب الأمانة ومجلس الشؤون العسكرية والهيئة الرقابية. ونال أحمد مهمة إدارة الشؤون السياسية في الأمانة على خلاف رأي كبير المسؤولين لدى كوبلاي، لكن كوبلاي رأى أن لأحمد لمسه سحرية وأنه لا يُخطئ.

وحدث صراع آخر حتمي، إذ أراد أحمد أن يستأثر لنفسه بالحق في تعيين الأفراد العاملين لديه، وذلك معناه تقليص دور وزارة الأفراد التي كانت تحكمها الأمانة. فتحدث أحمد إلى كوبلاي في هذا الأمر، وقام كوبلاي بتغيير القوانين لصالحه. لكن لم يكن هناك ما يمكن أن يكفل له الرضا، حيث عرض عندئذ حل الأمانة نفسها، وعندما عارض ذلك اثنان من العاملين لديه قام بإنزال رتبة أحدهما وعزل الآخر. ونجح أحمد في عام 1272 في دمج المجلسين، جاعلاً نفسه الرجل الأول لدى كوبلاي وكبير مسؤوليه، وعمل أحمد على توظيف ابنه الأكبر حسين حاكماً على بكين. وظل كوبلاي يهمّش جميع الشكاوى التي وردت إليه في هذا الصدد، حيث اتهمته عدة شكاوى بالتقصير والقصور، لكن كوبلاي لم يسمح لأي شيء باعتراض مسيرة حشد الموارد لمحاربة سونغ، وهي مهمة كان أحمد كفيلاً بها.

وعندما بدا النصر على سونغ في حكم المؤكد، كان أحمد أحد أعضاء الفريق الذين

جرى استدعاؤهم لتقديم النصح والمشورة فيما يتصل بتحقيق الاستغلال الأمثل من هذا النصر والفتح الجديدين. ومن بين القضايا التي طُرحت للنقاش هو إلغاء العملة الورقية الخاصة بسونغ واستبدالها بعملة اليوان. وكان قائد قوات الجنوب، واسمه بيان (Bayan)، قد وعد بعدم تغيير العملة، فوافق نصف مستشاري كوبلاي على هذا الرأي على اعتبار أن التغيير قد يؤثر بالسلب على مصداقية النظام الجديد بين عامة الناس، لكن النصف الآخر من المستشارين عارض الرأي بناء على رأي أحمد الذي رأى منفعة في هذا التغيير. فأصدر كوبلاي رأيه مرجحاً رأي أحمد فجرى استبدال العملة، ومُنح سكان الجنوب التعساء أسعاراً هزيلة لاستبدال العملات التي امتلكوها، فكان يجري استبدال اليوان الواحد بـ 50 من عملة سونغ.

واتسع نفوذ أحمد في ذلك الوقت على نحو وضعه فوق نظام الحكومة الصيني الذي حرص على تحقيق التوازن، ونصّب أحمد نفسه وزيراً على منطقة الشرق الأوسط. ولحسن حظه كان العديد من المستشارين البارزين لدى كوبلاي منذ الفترة التي سبقت تتويجه وزيراً، قد ماتوا لأسباب طبيعية، ومن أبرزهم المستشار ليو بينغ زونغ وياو شو. وأعلن أحمد احتكار الدولة للملح والأعشاب الطبيعة والأدوات النحاسية وبيع الحديد، والذي مكنه من التلاعب بأسعار هذه المواد مستفيداً من ذلك. وأصبح أحد أبنائه حاكماً على العاصمة الجنوبية هانغتشو (Hangzhou)، وأسس مكاتب انتقال في كل ولاية من الولايات الإحدى عشرة، مع ترشيح المسلمين لرئاسة خمسة منها، وهو ما مثل صفعة على وجه زملائه الصينيين. وأُرسل منافسه الأكبر، كبير المستشارين هانتوم بعيداً مع ابن كوبلاي المدعو نومو خان للمساعدة على قمع تمرد كايدو (Kaidu) في وسط آسيا، حيث اختفى الاثنان لمدة عشر سنوات قضوها سجناء لدى القبيلة الذهبية. كما جرى تخفيض مراتب بقية المعارضين أو الزج بهم في السجون، حيث لاقى العديد منهم الموت أو عوقب بالإعدام، واختفى بعضهم ببساطة وجرى التخلص منهم بطرق سادية كما توحي الصورة المروعة التي عُثر عليها بعد وفاتهم.

وربما أفلت أحمد بقسوته ووحشيته من العقاب. أما الفساد فمسألة أخرى، فكان أحمد مصاباً بهوس التملك بصورة خطيرة، وكان يؤكد من خلال مساعديه أن تقديم أحد

الممتلكات له كهدية أو الجواهر أو فرس جميل للإسطبل الخاص به؛ يمكن أن يمهد الطريق لتعيين مقدمه في هذا المنصب أو ذاك. وكان له اهتمام خاص بالنساء، وقد تحدث بولو عن ذلك قائلاً: «عندما كان يعرف أن أحداً ما لديه ابنة جميلة، كان يرسل أعوانه الهمجيين إلى والدها ليقولوا له: ما قولك؟ تمنح ابنتك الجميلة إلى أحمد ليتزوجها، ويعينك في منصب كذا». وقد اتفق الجميع - وفقاً للمؤرخ الفارسي رشيد الدين - أن أحمد كان لديه 40 زوجة و400 محظية. وعندما تم حصر ممتلكاته بعد وفاته، وُجد أنه امتلك 3.758 من الخيول والإبل والثيران والأغنام والحمير.

أضمر أحمد كراهية للقائد العظيم بيان الملقب بـ«صاحب المئة عين» الذي غزا الجنوب، فعندما وصل بيان للاحتفال بالنصر في بكين، حرص أحمد على أن يكون أول المحيين له، ومنحه بيان مشبكاً من اليشم هدية شخصية له. وكان اليشم هو حجر السماء ورمز النبل والجمال والنقاء، وقال بيان: إن هذا المشبك هو كل ما يملك لأنه لم يأخذ أي شيء من كنوز سونغ. واعتبر أحمد مقولة بيان انتقاداً مبطناً لممارساته، فاتهم بيان أمام كوبلاي ذات مرة بسرقة كأس من اليشم، واتهمه مرة أخرى بذبح بعض الجنود المستسلمين، وبعد إجراء تحقيق في الجريمتين، لم يجد المحققون أي أساس لهذه الاتهامات، رغم أن مجرد إجراء تحقيق مثل إهانة كبيرة لهذا القائد العظيم.

رغم ذلك ظل كوبلاي عبداً لحكمة أحمد المالية وقيادته وثقته بنفسه وشخصيته الجديرة بالتصديق. وظلت تصرفات كوبلاي هي ما يمكن أن تتوقعه من أي قائد سياسي، فأي رئيس وزراء أو رئيس دولة يسارع بتأكيد ثقته في وزيره الذي يُتهم بجريمة أو مخالفة ما، ولا يسمح بإعلان أي شيء يعطي انطباعاً بضعف حكومته أو سوء نظام الحكم. وقد آمن كوبلاي بأنه قادر على السيطرة على مجريات الأمور، وحاول تجاهل نقائص أحمد المستمرة والاستفادة من مهاراته في إدارة الشؤون المالية، فمن غير أحمد يستطيع تأمين التمويل اللازم لحملات غزو اليابان والمغامرات التالية؟

كانت الأمور على وشك الاشتعال والانفلات إلى خارج سيطرة الجميع مع اتساع المعارضة بصورة مطردة، وقد كتب أحد الضباط العسكريين السابقين اسمه زوي بين - وهو أحد المحاربين البارزين في الحملات العسكرية ضد سونغ - مذكرة يشتكي فيها من أن

أحمداً يؤسس إمبراطورية من خلال إنشاء ما يصل إلى 200 منصب حكومي غير ضروري وتعيين أصدقائه وأقاربه - حوالي 700 رجل - في مناصب عبر الإمبراطورية. فرد كوبلاي على مضض باتخاذ إجراءات لعزل أقارب أحمد على أن يجري إعادة تعيينهم في هدوء، وكان حسين بن أحمد أحدهم. ولم يدع أحمد المسألة تمر دون ثأر، حيث وجه اتهاماً إلى الضابط «زوي بين» واثنين من زملائه بسرقة الغلال وصنع أختام برونزية غير مسموح بها، وقد أُعدم الثلاثة في سنة 1280.

بيد أن الوزير أحمد كان لديه عدو صعب التغلب عليه هو زينجين - ابن كوبلاي ووريث ملكه، وكان زينجين يبغض أحمد كل البغض، وزادت كراهيته له بسبب إعجابه بالضابط «زوي بين»، حتى إنه أرسل ضباطاً لينقذوه من الإعدام، لكن محاولته لم تنجح بسبب وصول الضباط متأخرين. وفي وجود أحمد لم يكن لزينجين أي سيطرة على نفسه، فقد حدث أن لكمه في وجهه بقوة ولم يستطع الوزير أحمد أن يفتح فاه. وعندما سأل كوبلاي عن الأمر تمتم أحمد وهو يجز على أسنانه مجيباً بأنه وقع من على فرسه. وفي مرة أخرى ثار زينجين بشدة على أحمد في حضرة الإمبراطور لكن كوبلاي تجاهل ذلك. وسعى أحمد لكسب المزيد من السيطرة عندما اقترح إنشاء محكمة عدل عليا تخول سلطة أعلى من جميع الأمراء، لكن كوبلاي عاتبه على ذلك قائلاً إنه لم يسمع من قبل عن أحد حاول انتقاد عائلة الإمبراطور.

وفي عام 1281 ظهرت فضائح أكثر لفتت الانتباه إلى مجريات الأمور، فقد حدث أن قام اثنان ممن يكفلهم أحمد بالحماية بمضاعفة الضرائب لما يقرب من ثلاثة أضعاف في إحدى المقاطعات في إقليم شانشي، من 950 ألفاً إلى 2.700.000 عملة نقدية. وكتب أحد أفراد الحرس الإمبراطوري القدامى خطاباً آخر يدين فيه أحمد بسبب الفساد والرشاوى، وكان نتيجة ذلك أن أبعده أحمد عن الساحة ليعمل في إدارة أحد مسابك الحديد في الولاية. وعقب اتهامه بالتقصير في تحقيق الحصة المطلوبة منه فقد جرى إنزال رتبته إلى مستوى كاتب؛ وجرى في النهاية مصادرة ممتلكاته والزج به في السجن.

ورغم ذلك لم يسحب كوبلاي ثقته في أحمد، وقام الإمبراطور في ربيع العام التالي بترقيته إلى رتبة «مستشار اليسار»، وهي ثاني أعلى مرتبة في الدولة بعد «مستشار اليمين»،

وبدأ يلوح في الأفق احتمالية أن يصبح أحمد شريكاً مباشراً ووحيداً لكوبلاي في إدارة شؤون الإمبراطورية.

وحينئذ دُبرت إحدى المكائد، حيث كان هناك اثنان من المتآمرين وهما من الشخصيات البارزة المتقلبة، وتمثلت القوة المحرضة في وانغ زو (Wang Zhu)، وهو رجل عسكري صارم وقائد لإحدى الفرق العسكرية، والذي كان مشبعاً بكراهيته لـ «أحمد» لدرجة أنه أتى بهراوة ضخمة مصنوعة من النحاس ليستعملها في قتله. وكان شريكه في المؤامرة راهب بوذي يلفه الغموض يدعى جاو، والذي كان يدعي بأنه ساحر. وكان الاثنان قد التقيا في إحدى الحملات عندما قام جاو بإلقاء تعاويذه التي لم تأت بمفعول، ثم قام بقتل أحد الرجال واستخدم الجثة لتزييف انتحاره هو نفسه، ومن ثم فقد أصبح بذلك متوارياً عن الأنظار.

وفي ربيع 1282 كان كوبلاي مقيماً في زانادو كعادته في هذا الفصل من كل العام، وتُركت بكين للوزير أحمد - الذي «خصص كامل طاقته إلى إشباع جشعه والانغماس في الملذات على نحو أثار كراهية الناس له»- حسب روايات التاريخ الرسمي. وانتهز المتآمران الفرصة - حسبما ذكر التاريخ الرسمي في أربع روايات متناقضة فيما بينها، وتتضارب مع ما رواه المؤرخ الفارسي رشيد الدين والإيطالي ماركو بولو. وفيما يلي محاولة مني لإعادة نسج خيوط القصة.

تفتق ذهن المتآمرين عن خطة جنونية، تمثلت في حشد مئة رجل تقريباً، يظهرون فجأة في طرقات المدينة ويدّعون أنهم الحاشية المصاحبة لولي العهد زينجين الذي قرر فجأة العودة إلى بكين لحضور أحد الاحتفالات الدينية. وحسب الخطة تقرر أن يكون ذلك أثناء الليل تحت جنح الظلام حتى يصبح التعرف على هوية الرجال صعباً. وتتلخص الفكرة في أن أحمد الذي سيشعر بالصدمة لمجيء أحد الرجال الذين يخشاهم بخلاف الإمبراطور نفسه سيقود المسيرة لتقديم التحية، وعندئذ تحين اللحظة الحاسمة لتوجيه الضربة.

وفي يوم 26 أبريل وضع «وانغ زو» و»جاو» المرحلة الأولى من خطتهم المعقدة في طور التنفيذ، فأرسلا راهبين من التبت إلى مجلس المدينة ليعلنا هذا الخبر، ويطلبا من أعضاء المجلس شراء التجهيزات المناسبة للاحتفال. وتفاجأ أعضاء المجلس بهذه الأنباء

حتى إنهم سألوا الحراس عن الأمر، فأخبرهم الحراس أنهم لم تصلهم أية أوامر بهذا المعنى، فأين إذاً ولي العهد؟ عندها بدا الارتباك على وجه الراهبين اللذين لما يجيبا بشيء، وشك قائد الحرس في وجود مكيدة، فأمر بالقبض على الرجلين.

بعد ذلك قام وانغ زو بتنفيذ خطته الاحتياطية، فأرسل خطاباً مزوراً ادعى فيه أنه مرسل من ولي العهد إلى نائب مفوض مجلس الشؤون العسكرية قال فيه: «اذهب إلى محل إقامتي لمزيد من الأوامر»، نجحت هذه الخطوة. ومع ابتعاد الحرس الرئيسي من الطريق وذهابه إلى قصر زينجين، أسرع «وانغ زو» إلى أحمد يطالبه بالإسراع في جمع العاملين في الأمانة لاستقبال الأمير، نجحت هذه الخطوة أيضاً إلى حد بعيد. وأرسل أحمد موكباً صغيراً من الحرس لاستقبال الأمير المزيف والحاشية المصاحبة التي استأجرها وانغ على مسافة خمسة كيلومترات تقريباً إلى خارج المدينة، وعندها اكتشف الحراس أن المسألة عبارة عن خدعة ومكيدة، ولم يكن أمام المتمردين سوى قتل الحراس ومواصلة طريقهم.

وفي نحو الساعة العاشرة مساءً، استطاع المتمردون الوصول إلى أحد مداخل المدينة الشمالية وواصلوا تقدمهم حتى الباب الغربي لقصر الأمير. وهنا واجهتهم مشكلة، حيث كان الحراس على أهبتهم ومتشككين لأقصى درجة، وسألهم حراس القصر: «أين رسل الأمير المعتادة التي تسبق قدومه؟ إننا نطلب رؤية هذين الرجلين و بعدها تفتح أبواب القصر.» وهنا لم يملك القادمون شيئاً سوى التوقف.

وعندها تراجع المتمردون واستداروا حول القصر في جنح الظلام، وقاموا بمحاولتهم مرة أخرى، ولكن عند الباب الجنوبي هذه المرة، ولم يكن هناك متسع من الوقت للإسراع ببعث رسالة عبر المدينة لتحذير الحراس، ومن ثم فقد فُتحت الأبواب واندفع الحراس المخدوعون بخطاب آخر مزور من الأمير لمرافقته.

وظهر أحمد وحاشيته لاستقبال الأمير، وترجل جميع القادمين من الغرباء الجدد في حين ظل الأمير المزيف على جواده يلفه الظلام. ونادى الأمير المزيف على أحمد الذي تقدم للأمام ووقف خلفه وانغ ومجموعة من التابعين. وما أن أصبح أحمد في المكان المناسب حتى أخرج وانغ من كم ثيابه هراوته النحاسية ووجه بها ضربة واحدة مميتة إلى

أحمد. كما استُدعي الرجل الثاني بعد أحمد وقتله بنفس الطريقة.

وهنا آنس معاونو أحمد أمراً مريباً فصاحوا يطلبون المساعدة، وتحول الأمر بغتة إلى فوضى واضطراب واختلط الحراس بالمتمردين في الظلام، وفر جاو الذي لعب دور الأمير المزيف بفرسه في الظلام، وتطايرت السهام وتشتت الحشد تاركين وانغ يتوسل لكي يُقبض عليه لأنه كان واثقاً من أن فعلته النبيلة سوف تحظى بالعرفان والتقدير. لكن لسوء الحظ أُلقي القبض على الراهب جاو بعد هذه الحادثة بيومين، وفي الأول من شهر مايو صدر حكم بالإعدام على الاثنين وقائد حرس المدينة.

وقبل أن تسقط مقصلة الإعدام، صاح وانغ: «أنا وانغ زو أموت الآن بسبب تخليص العالم من آفاته! وسوف يأتي رجل ما في يوم ما ليسطّر قصتي!» وقد قطعت رقاب الثلاثة وتمزيق أشلائهم، وهي نهاية دموية لسلسلة أحداث ألقت الشكوك على قدرة كوبلاي على الحكم على الأشخاص والسيطرة على الأحداث.

وكان قائد حرس بكين هو من جاء بالأنباء ليبلغها شخصياً إلى كوبلاي بعد مسيرة 500 كيلومتر دون توقف، وقد بدّل الكثير من الخيول على طول الطريق. واستغرقت رحلته يومين حتى وصل إلى الإمبراطور في أحد المعسكرات المؤقتة في «تساجان نر» (Tsagaan Nur) – أو البحيرة البيضاء – التي تبعد مسافة 170 كيلومتراً شمال زانادو. وكان الإمبراطور – حسب رواية ماركو بولو – يستمتع بالربيع في المراعي، ويمارس صيد طيور الكركي والحجل باستخدام الصقور. وفي الحال أمر كوبلاي بالعودة إلى زانادو ومن هناك قام بإرسال نائب مفوض الشؤون العسكرية بولاد للتحقيق في الحادث والتأكد من تنظيم الجنازة اللائقة لأحمد.

وبعد ذلك بعشرة أيام عاد بولاد بحقيقة الأمر حول مقتل أحمد، وعند علمه بالأمر استشاط كوبلاي غضباً وقلب الأمور رأساً على عقب: «كان وانغ زو محقاً تماماً عندما قتله!» وأمر كوبلاي بالقبض على جميع أفراد عائلة أحمد ومعاونيه في جميع الإمبراطورية، وأُلغي جميع ما كان أحمد قد قام به، ومصادرة جميع ممتلكاته.

وقد عثر المحققون في إحدى الخزانات على كشف محير، إذ وجدوا قطعتين من الجلود

البشرية المدبوغة وبهما أذنان، مما يوحي بأن أحمد باشر أعمالاً مروعة وغريبة الأطوار ضد ضحاياه. وعندما سأل المحققون الأغا الداخلي المسؤول عن مفتاح الخزانة، أجاب بأنه لم يعلم سبب وجودهما، لكنه قال: «لو كانوا وضعوا عرش الروح عليهم أثناء ممارسة التعاويذ، كانت الإجابة ستأتي سريعاً». وأياً كان ما قام به أحمد، فإن هذا لم يكن له علاقة بالإسلام، وقد شكك المحققون في وجود أي علاقة بين هذه الممارسات الغريبة وبين الممارسات الدينية. وتعززت شكوك هؤلاء المحققون عندما عثروا على مخطوطتين حريريتين نُقشت عليهما صور لفرسان يحيطون بخيمة ويلوحون بسيوفهم ويصوبون سهامهم كما لو كانوا في حالة هجوم على أحد. ماذا يعني ذلك؟ لا أحد يعلم. غير أنه جرى التعرف على الشخص الذي قام برسم تلك الصور وأُعدم على سبيل الاحتياط. وقد فتحت هذه التفاصيل المربكة مجالاً للحديث بكثرة عن السحر الذي يبرر ملاحظة ماركو بولو بأن أحمد «مارس السحر على الخان حتى أصبح لدى الأخير ثقة عمياء فيما يقوله أحمد».

بعد ذلك أُعيدت الزوجات والبنات من حريم أحمد إلى أوطانهن، وأُعيدت الممتلكات المسلوبة إلى أصحابها، وجرى تحرير العبيد وفضّ الحشود وصرف المتبقين ممن عيّنهم أحمد. وفي هذا الخريف أُعدم أبناء أحمد الأربعة، حيث جرى وضع ابنه حسين - حاكم بكين - في محلول مخلل كنوع من إلحاق الخزي به، وسُلخ جسد أخ له، وأُشيعت جرائم أحمد على الملأ. وتبع ذلك حالات إعدام أخرى نُفذت في مساعد أحمد في الأمانة، وهو أحد المسلمين الذين كانوا يحظون بحمايته المباشرة، وكان قد قدم إحدى بناته إلى حريم أحمد مقابل الحصول على وظيفة.

ورغم أن أحمد حظي بمراسم دفن رسمية، فإن كوبلاي أمر بعد خمسة أسابيع على دفنه، بنبش قبره من جديد واستخراج جثمانه وقطع رقبته أمام العامة، وأمر بإلقاء بقايا جثمانه خارج المدخل الشمالي الرئيسي لبكين حتى تأكلها الكلاب. وحسب ما جاء في «تاريخ اليوان»: «اجتمع المسؤولون والأعيان والعامة للنظر في الأمر ووافقوا على ذلك».

الفصل الخامس عشر

للتوسع حدود

يشغلني سؤال عن الدافع الذي حرّك جنكيز خان وحفيده كوبلاي. أعتقد أن التحليل النفسي لدوافعهما لابد أن يقوم على حقيقة أن القائدين كانا يشعران بعدم الأمان، وهو شعور عميق تجذّر فيهما، فقد كان جنكيز منبوذاً في طفولته، ويبدو أنه قضى بقية عمره محاولاً بناء الأمان على نطاق واسع. أما كوبلاي فورث ما أنجزه جده، إلا أنه بسبب عدم رضا أهل جده- المغول المتمسكين بالتقاليد- عنه، لم يشعر بالراحة. ولحُسن حظ رعاياهما أن كلاً منهما كانت لديه موهبة قيادية غير عادية استفاد منها في توسعة حدود الإمبراطورية لأبعد نقطة ممكنة. ولم يعش جنكيز طويلاً حتى يصطدم بأي قيود، لكن كوبلاي واجه هذا المصير، وكان اكتشاف القيود في مشوار كوبلاي بمثابة الصدمة له، فكان هناك طفل مدلل وراء كل زخارف العظمة يضرب الأرض بقدميه ويرفض أن يقول له أحد «لا».

ولا شك أن هذه الخلفيات تبلورت في أيديولوجية تفكير القائدين، ويعد تجميع الملايين من مواطني الصين في إمبراطورية واحدة بمثابة إنجاز مذهل، غير أنه كانت لا تزال هناك خطوة أخرى تجاه تحقيق هذا الطموح المطلق: أن يعترف العالم أجمع بسيادته المباركة من السماء، وكان هذا الدافع وراء عزم كوبلاي على التوسع. ولم يكن ثمة تهديد أمام كوبلاي أو أي سبب إستراتيجي يستلزم الغزو، فكل المسألة أنه أراد الغزو ليس إلا، من هنا أظهرت حملته على اليابان وحملاته الأربعة على بورما وفيتنام وبورما مرة أخرى وجاوة- عدم جدوى طموحه. وربما حلم كوبلاي يوماً بالوصول إلى القمر، فكانت كل مغامرة من مغامراته تقول له إنه بلغ الحدود التي لن يتخطاها، لكنه كان يعاند ويرفض. وكانت كل انتكاسة تجعله أكثر عزماً على ترقيع عباءته الخرقاء الممزقة، ومفهوم «القوة التي لا تُقهر» الذي تبناه، وفي كل مرة كانت تتمزق العباءة أكثر فأكثر، ولم يتغير عناده يوماً حتى غيّبه الموت.

وربما كان من الصعب تصديق عزم كوبلاي على مهاجمة اليابان مرة أخرى، ففي عام 1283 أمر تجار المنطقة الجنوبية بصناعة 500 سفينة جديدة له. وبعدها بعامين أمر الجورشيين في منشوريا بصنع 200 سفينة جديدة. وطلب كوبلاي كميات من الأرز من الكوريين لإطعام جيوشه التي كان ينوي إرسالها إلى اليابان، لكن في عام 1286، نجح مستشاروه في إقناعه بالعدول عن الفكرة نظراً لتورطه العميق في موقعة أخرى.

وعندما حل وقت السقوط الثاني لليابان، أصبح لليابان روابط راسخة مع معظم الشعوب المجاورة، وكانت السفن التجارية تأتي وتذهب إلى اليابان. وفي عام 1265 قدم أحد الوفود من مملكة أنام (Annam)- وهو اسم فيتنام الشمالية قبل سنة 1945. وكان كوبلاي يريد الحصول على اعتراف بسيادته وأن يحصل على الجزية التي تعتبر برهاناً على هذا الاعتراف. وكان من الحتمي أن يطلب هذا الاعتراف من بورما الواقعة على حدود إقليم يونان الذي مثّل جزءاً من الصين منذ الغزو المغولي، وقد تُرك إقليم يونان تحت إدارة أجهزته الخاصة مع وجود حامية عسكرية صغيرة بقيت فيه 20 عاماً حتى 1273، عندما نُصّب أول حاكم رفيع هو «سيد أجل» التركماني، وهو من بخارى (Bukhara)، وكان جده قد أعلن ولاءه إلى جنكيز خان في عام 1220. ومع انضمام إقليم يونان بأكمله إلى الإمبراطورية، قرر كوبلاي أن يرسل ثلاثة وفود لطلب الولاء والطاعة من بورما.

ولم تكن بورما لتخضع لهذا المطلب، فكان الملك ناراثيهيبات في ذلك الوقت حاكماً على مملكة كبيرة تأسست قبل قرنين من الزمان على يد أهل بورما الذين هاجروا إلى المنخفضات الاستوائية لدلتا إيراوادي (Irrawaddy) من مرتفعات إقليم يونان، متشربين الثقافة الغنية لمواطني «المون» الأصليين. ووصل البورميون من دولتهم الجديدة التي أسموها مرانما (Mranma) (من هذا الاسم جاءت كلمة «ميانمار» الاسم الحالي لبورما)، إلى سريلانكا والهند وكمبوديا وإندونيسيا والصين. واتخذ المملكة مدينة باجان (Pagan) عاصمة لها. وتمتعت المملكة بالرخاء والاستقرار، وكان بها أعداد ضخمة من المعابد (خمسة آلاف معبد في باجان وحدها) منحت الإكبار اللازم للديانة البوذية. ومن ثم كان توجيه أوامر إلى بورما بدفع الجزية إلى الصين إهانة لا يمكن تحملها، خاصة عندما تأتي الرسالة من منطقة كان البورميون يرون أنها كانت ملكاً لهم في يوم من الأيام. وناهيك عن مسألة الكبرياء والفخر، فقد كان ذلك يدعو للشعور بالتهديد الأمني. وكانت بورما قد عانت من ثورات وشقاقات دينية في القرن الماضي، وانتهى العصر العظيم لبناء المعابد.

ولم يكن الملك ناراثيهيبات هو الرجل الذي يمكنه وضع الأمور في نصابها الصحيح، فلم يكن الوريث الشرعي للعرش حيث استولى عليه بالقوة، وكان محل كراهية وبغض شعبه الذي كان يدعوه بـ «روث الكلب». وكان ناراثيهيبات يتسم بالاستبداد والوحشية،

وكان يضع محظياته اللاتي بلغ عددهن ثلاثة آلف محظية تحت رقابة شديدة؛ فعندما اكتشف أن إحدى محظياته المفضلات لديه خططت لاغتياله بالسم، قام بوضعها في قفص وحرقها. وقد أسرف في الكثير من الموارد على إنشاء معبد منغالازيدي (Mingalazedi) الضخم، وهو أحد آخر معابد باجان العظيمة، وربطه بالقصر عن طريق أحد الأنفاق خشية المغتالين. وتأخذ الأحجار الملساء قرنفلية اللون لهذا المعبد البوذي والتي تثير الإعجاب نظراً للطريقة التي تسطع بها عند الغروب شكلاً هرمياً ضخماً على قاعدة مربعة توجد عليها نقوش تسجل تباهي الملك بأنه كان «القائد الأعلى لجيش جرار، وأنه كان يبتلع 300 طبق من الكاري يومياً»، رغم أنه لم يكن يشير إلى نفسه فحسب حيث كان يبقي أبناءه وعائلاتهم في القصر أيضاً تحسباً لانقلابهم عليه. وهناك مثل من بورما يوجز كثيراً إنجازات الملك: «لقد اكتمل المعبد، وانهارت الدولة العظيمة».

وعندما وصل مبعوثو كوبلاي كان الملك قادراً على المبادرة بالتهدئة والتفاوض، لكنه رفض مطالب كوبلاي، وأعدم مبعوثيه وأرسل إحدى قواته إلى إقليم كوانجي (Kaungai) التايلاندي الفاصل بينهما، ليوفر بذلك كل أسباب الغزو من الناحية العملية.

وطوال السنوات الأربع التالية، انهمك كوبلاي في مقاتلة إقليم سونغ، وفي عام 1277 جاء وقت التصرف في هذا الشأن، فوقع اختيار كوبلاي على القائد ناصر الدين (Nasir al-Din) ابن أحد معاوني أبي كوبلاي في إدارة إقليم يونان. ويصف ماركو بولو الأحداث التي تلت ذلك بأسلوبه الذي يمزج الحقائق والمبالغات قائلاً:

«تقدم البورميون بقطيع من 200 فيل مدرب على المعارك باتجاه الغزاة على الحدود على طول الوديان المرتفعة بجوانبها المنحدرة وغاباتها والتي تؤدي إلى ما تعرف الآن بمدينة باوشان (Baoshan) الصينية (تقع في غرب إقليم يونان). واعترضت طريقهم قوات ناصر الدين المغولية، وقوامها 12 ألف جندي. وكان القليل من المغول قد شاهدوا الفيلة من قبل، والأكيد أن الخيول لم ترى الأفيال من قبل. ومن ثم عندما لكزها الجنود للتقدم حرنت ولم تتقدم، وهنا أمر ناصر الدين جنوده بالنزول عن صهوة الخيول والتقدم على الأقدام واستخدام النبال، ولم يكن للسهم الواحد أثر كبير على الفيل، لكن مئات السهام كان لها أثر كبير.

وعندما شعرت الفيلة بآلام السهام التي انهالت عليها كالمطر، استدارات على أعقابها وولت الفرار، ولم يكن هناك شيء على وجه الأرض يمكن أن يجعلها تستدير هكذا. تراجعت الفيلة سريعاً محدثة جلبة وضوضاء يمكننا أن نتخيل معه أن نهاية العالم قد أتت، ثم اندفعت الفيلة تجاه الغابات بهذه الطريقة، حيث حطمت قلاعها عندما اصطدمت بالأشجار، وأتلفت عتاد الحرب الملحق بها ودمرت كل شيء عليها، وبذلك دمرت الفيلة كل شيء في طريقها بما في ذلك جنود المشاة البورميين أصحاب الحظ العاثر».

جاء الآن دور سلاح الفرسان ليخوض المعركة بنفسه، كما يروي ماركو بولو بحماسة شعراء الملاحم في العصور الوسطى، واصفاً ضربات السيوف والصولجانات الحربية، وتمزق الأذرع والأرجل إلى أشلاء، وسقوط مئات الجرحى والقتلى. لاذ البورميون بالفرار ولاحقهم المغول مستخدمين قادة الفيلة المأسورين. «الفيل حيوان أكثر ذكاء من غيره، لكن تم أسر الفيلة في النهاية عن طريق قادة الفيلة البورميين الذين وقعوا في الأسر، وكان عددهم أكثر من 200 فيل، ومنذ ذلك بدأ الخان الأعظم في الاحتفاظ بأعداد من الفيلة في جيشه.

حسناً، ربما لم يكونوا 200 من الفيلة، نظراً لأن ناصر الدين الذي شعر بالرضا عن انتصاره قد عاد إلى زانادو في شهر يوليو 1279 بـ 12 فيلاً فقط جعلها تسير أكثر من ألفي كيلومتر عبر البلاد. وقد كان انتصاراً إلى حد ما، إذ إن الملك قد لاذ بالفرار إلى دلتا إيراوادي مكتسباً لنفسه لقباً آخر مثيراً للازدراء: «الملك الذي فر من الصينيين». لكن الجو كان شديد الحرارة وتفشى المرض، وكانت قوات ناصر الدين بعيدة عن أوطانها، وكل ما قام به عقب المعركة هو حصر العائلات في المنطقة (110.200 منهم)، وإنشاء بعض محطات البريد. ولم تكن بورما قد فُتحت بعد، لذا فقد كان هذا عملاً غير مكتمل.

ثم جاء بعد ذلك أمر فيتنام - أو بالأصح أمورها- حيث انقسمت فيتنام في القرن الثالث عشر إلى مملكتين: مملكة أنام ومملكة شامبا (Champa)[1]. ولأن كوبلاي نظر إلى هاتين المملكتين كأجزاء غير معترف بها من إمبراطوريته، فمنحهما فرصة الإقرار بسيادته ومُلكه، وفتح الباب أمامهم إما ليأتي ملك كل مملكة بنفسه إليه ليقر بسيادته على مملكته، أو عن طريق إرسال سجلات السكان الرئيسية إلى الإمبراطور والتي تضم بيانات الضرائب

(1) مملكة حكمت المناطق الجنوبية والوسطى من دولة فيتنام بين القرنين السابع الميلادي وسنة 1832.

والعمالة، أو من خلال إيداع أقاربهما الصغار رهائن لدى كوبلاي، وهو دليل على حسن النوايا. فأرسلت أنام بعض الهدايا إلى كوبلاي ولا شيء غير الهدايا، وفي عام 1279 أرسلت شامبا فيلاً وكركدناً ومجموعة من المجوهرات. وفي المرة التالية أعلن كوبلاي أن الملك عليه أن يحضر بنفسه، وفي عام 1280 وصل المزيد من الهدايا إليه دون أن يأتي الملك، فأصر كوبلاي على مطالبه.

ترك كوبلاي الأمور في يد سودو حاكم قوانغتشو (Guangzhou)- التي عرفها الأوروبيون باسم كانتون (Canton)- وهي أقرب ميناء كبير لمملكة شامبا. ووصلت قواته البالغ عددها 5 آلاف جندي و100 سفينة إلى النتوء الموجود في جنوب فيتنام، في البحيرة المؤدية إلى العاصمة فيجايا (Vijaya)، وهي الآن مدينة كوي نهون (Qui Nhon)، واستولوا على المدينة، لكنهم اكتشفوا أن الملك إندرافارمان الخامس كان قد اتجه نحو التلال في الداخل. وقرر سودو بسذاجة أن يلحق به وهو على اقتناع لا ريبة فيه بتحقيق انتصار سريع في معركة مفتوحة، وبدلاً من ذلك تحول الفيتناميون إلى قوات مناوشة استطاعت أن تُعمل القتل في القوات الغازية. فأرسل سودو يطلب تعزيزات، ووصلت بالفعل قوات تعدادها 15 ألف جندي تحت قيادة أتاكاي (Ataqai) المحارب المخضرم الذي شارك في الحملة العسكرية ضد إقليم سونغ (وكان الرجل الثاني في جيش القائد بياناً في الهجوم على هانغتشو عاصمة إقليم سونغ)، لكنه لم يستطع لا هو ولا التعزيزات الأخرى تحت قيادة أحد القادة المخضرمين يدعى أريق-خايا (Ariq-Khaya) أن يصنع أي فارق. وظل الملك طليقاً وظلت قواته دون هزيمة، وكانت لقواته المناوشة تأثير بالغ على إبقاء المغول على الحافة في غابات المرتفعات الوسطى لمملكة شامبا.

واستدعى ذلك ضرورة التفكير في إستراتيجية جديدة من جانب المغول، ويبدو أن الفكرة كانت عائدة إلى القائد سودو، وقد اقترحها عند عودته إلى زانادو ومفادها: «ماذا لو جاءت القوات براً عبر مملكة أنام؟ فالمفترض أن أنام تبعت الإمبراطورية الصينية، وكوبلاي يستطيع حتماً نشر قواته في أنحاء مملكته دون أن يصيبهم شر». وقد راقت الفكرة لكوبلاي، وولى ابنه توغان (Toghan) القيادة وجعل سودو نائباً له.

غير أنه كان هناك حاكم جديد لمملكة أنام، وهو الحاكم الثالث لأسرة تران يدعي تران

نهان تونج، والذي كان يرى أن هذا الطلب بمثابة حيلة للغزو، ومن ثم رفض الإذعان، وحفز البلاد على الدفاع عن نفسها، والتي كان باستطاعتها الصمود جيداً تحت قيادة تران. وكان يتعين على جميع الذكور باستثناء العبيد أداء خدمة وطنية تحت قيادة نخبة من الضباط الأرستقراطيين، ومن ثم أمكن استدعاء جيش مدرب في غضون أيام. ولا توجد مصادر جيدة لرصد الأحداث التي دارت، لكن كانت هناك لمحات من الحقيقة حول الحماسة التي أظهروها. وقد تردد الملك في بداية الأمر، فقد أخبر القائد الأعلى «تران هونغ داو» بأن الحرب الممتدة ستجلب معها دماراً مروعاً. وتساءل الملك: أليس من الأفضل أن نضع أسلحتنا من أجل إنقاذ شعبنا؟ ومن المفترض أن القائد أجاب بأدب قائلاً: «ما الذي سيحل ببلاد أجدادنا ومعابد أسلافنا؟ إذا كنت تريد الاستسلام فأنا أرجو منك أن تأمر بقطع رأسي أولاً». وفي أوائل عام 1285 وفي إحدى الاجتماعات المحلية لكبار القرية، قام «تران هونغ داو» الذي كان يمثل بالفعل المقاومة الوطنية بطرح الأمر للتصويت قائلاً: «العدو قوي، فهل ينبغي علينا الاستسلام أم القتال؟» وجاءت الإجابة عالية: «القتال»، هذا غير أن الشخصيات البارزة لم تكن تضرب مثالاً جيداً؛ لذلك وبخهم الجنرال في أحد التصريحات الذي أصبح فيما بعد واحداً من كلاسيكيات الأدب الفيتنامي، وكانت دعوة لحمل السلاح على طريقة تشرتشل: «لا أستطيع الكلل أو النوم وقلبي يعتصره الألم، والدموع تنهمر من عيني. أشعر بجام الغضب لأني عاجز عن تمزيق عدوي إلى أشلاء وانتزاع كبده وتذوق دمائه. يا أيها الضباط وقادة الجيش... إنكم تنفقون أوقاتكم في مشاهدة مصارعة الديكة، وتلعبون الميسر، وتعتنون بحدائقكم، وترعون زوجاتكم وأبناءكم. انشغلتم بجمع الأموال ونسيتم شئون الدولة. لكن اعلموا أنه إن غزا المغول البلاد، فإن مهماز الديوك لن يكون قادراً على خرق دروعهم، وخدعكم في الميسر لن تحل محل الإستراتيجية الحربية، ربما تمتلكون حدائق وحقولاً فسيحة، لكن ألف تيل[1] من الذهب لن يعيد إليكم الحياة».

واستجاب الشعب لندائه، ووضع الفلاحون الذي استُدعوا من مزارعهم وشماً على أذرعهم بعبارة: «الموت للمغول!» وزركشت راياتهم بعبارة: «دمروا قوة العدو، وسددوا فضل الملك».

---

(1) وحدة وزن في دول شرق آسيا.

ولم يكن توغان الذي حشد جيشاً في المقاطعات الجنوبية للصين يعلم شيئاً عن المقاومة، سواء روحها أو تكتيكاتها. وكان يتوجب عليه ذلك، حيث إن يوريانغ كاداي العظيم كان قد سار في الطريق نفسه في غزوه الذي لم يدم طويلاً في الماضي في عام 1257، وذلك قبل أن يتراجع أمام عناد فيتنام وحرارتها الشديدة. وجاءت الأمور جيدة في بداية الأمر، فمع تقدم توغان بجيش ورد أن قوامه 300 ألف جندي (وذكر البعض أنه كان يبلغ 500 ألف جندي)، بتفوق عددي اثنين إلى واحد، استطاع أن يرغم قوات مملكة أنام على الارتداد، وعلى ما يبدو أنه كان يسخر من الوشم المرسوم على أذرعهم والعبارات المرسومة على راياتهم. وفي يونيو 1285، استطاع المغول الزحف حتى هانوي (Hanoi) - التي عرفت فيما بعد باسم «ثانج لونج» (Thang Long) - ليكتشف عندئذ فقط أن تكتيكات أنام كانت شبيهة تماماً بتكتيكات شامبا، فلقد كان التقهقر مقصوداً، ولم يكن هناك أي عمل حاسم. وكانت المنازل خالية والحدائق مجردة من الثمار، وهربت حاشية القصر والشعب، وأصبح المغول الذين تعززت قواتهم بالسفن المبحرة في النهر الأحمر يسيطرون على الساحل، أي دلتا النهر الأحمر، وليس المنطقة الداخلية المتمثلة في الغابات والجبال أو قاعدة تمركز الملك في «ثانه هوا» التي تبعد 170 كيلومتراً صوب الجنوب، وبدأت حروب المناوشات، والأمراض، ونقص الغذاء، وحرارة الصيف المخيفة في التهام جيش توغان.

وبعد مرور شهر آخر، اختار «تران هونغ داو» اللحظة المناسبة لتوجيه ضربة مضادة، وأسفرت المعركة التي دارت في «شونغ دونغ»، التي تبعد 20 كيلومتراً باتجاه النهر من هانوي، عن رجوع القوات الفيتنامية إلى العاصمة وإجبار المغول على التقهقر عبر النهر الأحمر. ودارت معركة أخرى بالقرب من أحد الأنهار الصغيرة، تاي كيت، الذي يتصل بالسد القديم للنهر الأحمر على مسافة بضعة كيلومترات جنوب شرق هانوي؛ مما وضع خاتمة لهزيمة المغول حيث أُسر 50 ألف جندي من قوات المغول، وقتل سودو نفسه وقطعت رأسه، وجرت مناوشة الفلول المتبقية وإجبارها على العودة إلى الحدود.

احتاج كوبلاي عامين كاملين ليصلح ما فسد في قواته ويبدأ محاولة جديدة. واتضح أن توغان كان بحاجة إلى مساعدة، فتم إرسال القادة المخضرمين أريق-خايا وناصر الدين و«إسين تيمور» - أحد أحفاد كوبلاي. وكانت الإستراتيجية هذه المرة مختلفة، فقد أُقيمت

قاعدة ضخمة نحو داخل مدينة هاي فونغ[1]، والهجوم بشكل موسع من جهة البحر والبر على حد سواء.

وكان رد فعل «تران هونغ داو» في أوائل سنة 1288 ينم عن ذكاء محض، فعلى اليابسة كانت إستراتيجيته هي ذات الإستراتيجية التي اتبعها في حربه الأولى، حيث انسحب من المناطق المعمورة وأحرقها خلفه، ولم يترك أي شيء أمام المغول ليغزوه. ومع توقع توغان لذلك فقد أعد لعملية هائلة جمعت 500 سفينة لإحضار التعزيزات والطعام عبر نهر باش دانغ (Bach Dang) من مدينة هاي فونغ. وانصب تركيز «تران هونغ داو» على الأسطول، وكان يخطط لتكرار أحد التكتيكات التي استخدمتها فيتنام قبل 300 سنة لهزيمة أحد الأساطيل الصينية وتحقيق الاستقلال. وتمثلت الخطوة الأولى من الخطة في أمر القوات بقطع مئات الأوتاد الخشبية والحديدية وشحذ أسنتها. وتم نقل هذه الأوتاد لمسافة خمسة كيلومترات داخل خليج هالونج إلى واحدة من الألف جزيرة الصغيرة التي ترصّع الخليج وتكسبه شهرته العريضة (تقول الأسطورة إن هذه الجزر تكونت عندما غطس تنين في البحر فأحدث ذيله شقوقاً وأودية، وشق كهوفاً لا حصر لها في قلب الأحجار الكلسية المنحدرة). وفي وسط الجزيرة وعلى ارتفاع 200 متر تقريباً، كان ثمة كهف بعيد عن الأنظار اتسع لألف رجل، استقرت فيه القوات بأوتادها تراقب مسيرة سفن توغان في النهر.

وبمجرد أن مرت السفن وتوارت عن الأنظار، عبر قارب صغير للقوات الفيتنامية قادماً من اليابسة، والتقطت القوات أوتادها المشحوذة، وعلى بُعد بضعة كيلومترات باتجاه أعلى النهر وفي منطقة متسعة يتحول فيها النهر إلى أراض ضحلة عند تراجع المد، انتظر الجنود حتى وصلت المياه إلى أدنى مستوياتها، ثم قاموا بغرس أوتادهم في قاع النهر بواقع وتد لكل متر مربع (بعضها كان عمودياً وبعضها الآخر باتجاه أعلى النهر) في شكل متعرج عبر المجرى الرئيسي. وقد وضعوا الأوتاد تحت سطح الماء مباشرة، بحيث تستطيع القوارب الصغيرة الطفو فوقها دون أن يصيبها أذى. وتقول القصة إن القائد «تران هونغ داو» حضر بنفسه لمتابعة سير العمل، وغرز سيفه في أرض النهر ليجدل شعره حتى يتمكن من الرؤية بوضوح.

---

(1) ثالث أكبر مدينة في فيتنام من حيث عدد السكان.

تتابعت الهجمات ولا نعرف أي تفاصيل عنها حالياً، وتراجع أسطول المغول في يوم 22 مارس (بعض التقارير تقول يوم 3 أو 8 أبريل) إلى أدنى النهر تحت ضغط المناوشات القادمة من الضفاف والشاطئ. وقامت قوارب فيتنامية صغيرة بلعب دور الطعم حيث مرت فوق الأوتاد، وهو هجوم أخير كان الهدف منه إبطاء هجمات المغول الذين ساروا بسفنهم فوق الأوتاد. فاخترقت الأوتاد السفن ومزقتها وثبتتها في مكانها، وتصادمت سفن أخرى، وأصبحت سفن المغول بلا حول مع اندفاع القوارب الفيتنامية من أعلى النهر. ومع خوض المغول في المياه ناحية الشاطئ عبر الطين والمياه أصبحوا فريسة سهلة للقوات التي تراصت على الضفتين. ومن حُسن حظ توغان أنه استطاع الهرب، لكنه واجه غضب كوبلاي، حيث قام الإمبراطور بنفي ابنه إلى مدينة يانغتشو (Yangzhou) الواقعة على مبعدة 150 كيلومتراً أعلى نهر اليانغتسي وعلى مسافة كبيرة من القصر.

وبمرور السنين امتلأ النهر عند باش دانغ بالطمي واختفت الأوتاد تحت قاع النهر، لكن كيف نتأكد من صحة ما حدث؟ إثبات هذه الوقائع يرجع جزئياً إلى أن الموضع الذي غرس فيه «تران هونغ داو» سيفه في الأرض ليحل شعره قد تم تمييزه ببناء معبد خاص له، والبرهان الأساسي على صحة هذه الواقعة أنه في عام 1953 قامت فيتنام الشمالية بحفر النهر لتحسين الملاحة وعثرت على هذه الأوتاد فعلاً. وفي 22 مارس 1988، تم الإعلان في العيد الـ 700 للانتصار العظيم أن ساحة أوتاد باش دانغ أصبحت موقعاً ذا أهمية تاريخية لإحياء ذكرى هزيمة الإقطاعيين الشماليين. وأصبحت الجزيرة- التي خُبئت فيها الأوتاد، وكهفها الضخم (المعروف باسم كهف الأوتاد الخشبية) مواقع سياحية مهمة، ولا يزال «تران هونغ داو» معروفاً هناك بصفة بطل وطني أمّن استقلال أنام.

ويعطي تورط كوبلاي في فيتنام تشبيهات واضحة وملفتة لوقائع أكثر حداثة، إذ يتخيل أحد الحكام النافذين أن خدمة المصلحة الوطنية تقتضي إرسال قوات لمهاجمة النظام الصارم في الشمال، وفشلت القوات الأجنبية في تحقيق أهدافها، وأُرسل مزيد من القوات، فتحول الأمر إلى مسألة حفاظ على الهيبة والاعتبار. ولا يمكن التصور أن قوة صغيرة تستطيع صد هجوم أعظم قوة على وجه الأرض آنذاك. ظلت القوة العظمى - طوال عشر سنوات - تجاهد لتحقق غايتها وتقاتل في أراضي ضحلة دون أن ترى الضوء في نهاية النفق،

لتجد نفسها مطاردة بدرجة جعلتها تتقهقر بصورة شائنة مخزية.

وهناك قصة شبيهة بهذا في العصر الحديث - حرب الولايات المتحدة على فيتنام، لكن الفروق بين المثالين تثير نفس القدر من الانتباه. فقد انخرطت الولايات المتحدة في فترة الستينيات في الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي، وكان هناك سبب منطقي وراء الخطوة الأولى للولايات المتحدة في فيتنام. لكن كوبلاي - على الجانب الآخر - كان متخصصاً في صنع الأعداء ممن لم يشكلوا أي تهديد عليه فالأمر في حالة كوبلاي تعلّق بأيديولوجية التفكير.

وهناك درس مستفاد من هذه الأحداث اصطلحت عليه روح كوبلاي والأمريكيين: لا تشتبك أبداً مع فيتنام الشمالية. فبعد هذه الأحداث لم يكن هناك أي تفكير في غزو مملكة شامبا، رغم أن المهمة لم تكن حدثت في بورما. وفي عام 1283 حاولت قوة مكونة من عشرة آلاف جندي من إقليم سيتشوان (Sichuan) دفع الملك إلى الاستسلام، لكنه فر إلى التلال، ثم أرسل راهبين للتوسل من أجل السلام في محاولة لتجنب المزيد من المصاعب. فقد أدرك كان البورميون أنهم يقفون على أرض ضعيفة: «يا جلالة الملك، ألست أنت بوذا القادم؟ إن نطاق ملكك فسيح للغاية، وباجان دولة صغيرة لكنها تتبع المذهب البوذي ودين بوذا يزدهر فيها. رجاءً لا ترسل المحاربين إليها. تعال أنت لزراعة المحاصيل». وجاء وعد كوبلاي الذي احترم كلمته.

وفي أواخر عام 1286 ومع هزيمة كوبلاي في فيتنام، حاول مجدداً في بورما وحقق المزيد من النجاح الذي يرجع كثيراً إلى الأوضاع الداخلية فيها. فلم يكن قد مر وقت طويل على اغتيال الملك ناراثيهيبات على يد ابنه ثيهاثو الذي أمسك بسكين ووضعها على رقبة والده مرغماً إياه على شرب السم. لقد كانت هذه المملكة في حالة انهيار، وسار القائد إسين تيمور - حفيد كوبلاي الذي اكتسب خبرة من حربه في فيتنام - بقواته البالغة 7 آلاف جندي إلى دلتا إيراوادي. وعندما وصل المغول إلى باجان قاموا بتجريد أديرتها من الذهب والفضة، ومع عدم استطاعتهم التأقلم مع حالة المناخ فقد آثروا العودة إلى ديارهم تاركين بورما إلى المزيد من اغتيالات الملوك والفوضى والقادة العسكريين التايلنديين، وكانت الجزية تأتي على شكل فتات من بورما الشمالية، لكنها لم تكن تكفي أبداً لتعويض الحروب

أو لإرضاء الأنا الملكية.

وكان الملك كرتيناجارا حاكم جاوة قائداً ناجحاً بسط سيطرته على أحد أنجح ممالك جنوب شرق آسيا. كان لدى جاوة - خاصة جاوة الشرقية - تاريخ من الإمبراطوريات الصغيرة. وقبل تلك الفترة بثلاثة قرون كانت إحدى هذه الإمبراطوريات ماتارام (Mataram) غنية بالأرز والبهار، حيث كان الأرز ينمو جيداً في التربة البركانية الخصبة في الداخل، وكانت سفن الجزيرة تحتكر القرنفل وجوز الطيب والتوابل في «جزر البهار». وقد تفوقت ماتارام على منافستها الكبرى سريفيجايا (Srivijaya) الواقعة في جزيرة سومطرة المجاورة، وفي عام 928 ثار بركان ميرابي (Merapi) الهائل مصدر التربة الخصبة للجزيرة نافثاً الرماد وأنهاراً من الحمم الطينية أسفل أودية النهر؛ مما نتج عنه دفن المدن والمعابد على عمق عدة أمتار تحت الأرض. هذا ولم تستعد ماتارام سابق عهدها ثانية، لكن أحد الأمراء الذين ظلوا على قيد الحياة عمل على إعادة بناء دولة مزدهرة من جديد رغم أنها لم تدم طويلاً. وكان هذا الأمير يدعى أيرلانجا، والذي تولى الحكم عندما كان يبلغ من العمر عشرين عاماً، وبعد أربع سنوات قضاها في عزلة في أحد الأديرة. قام الأمير أيرلانجا بإعادة البناء بشكل سريع، حيث أسس قاعدة جديدة بالقرب من منطقة سورابايا (Surabaya) الحالية، وأقام السدود على الأنهار، وأنشأ مشروعات للري. وعندما وافته المنية في عام 1049 انهارت إمبراطوريته وتشرذمت إلى مملكتين متنافستين. ظهرت إحداهما بقوة، وهي مملكة سنجوساري (Singhsari) التي أسسها البطل الأسطوري اليتيم واللص «كين أروك» (Ken Arok) في عام 1222، بعدما هزم مملكة كيديري (Kediri). وقد ورث الملك كرتيناجارا حكم إمبراطورية سنجوساري الجديدة، التي كانت إرثاً غير مستقر، واعتمد بقاؤها إلى حد بعيد على التحكم في تجارة البهارات ومراقبة مملكة كيديري ومتمرديها. ولأن كرتيناجارا طمح إلى توسيع حدود مملكته، وكان يرى نفسه أحد رواد الأمة الإندونيسية، فقد تحالف مع مملكة شامبا بعد أن تزوج من واحدة من أميراتها، وفي عام 1284 حاول كرتيناجارا الاستيلاء على جزيرة بالي (Bali) لكنه فشل، وحاول الاستيلاء على أجزاء من جزيرة سومطرة.

غضب كرتيناجارا بوصول مبعوث كوبلاي- «مينغ شي» في سنة 1289، حاملاً أمراً وقحاً يطالبه بالإذعان لكوبلاي. أراد كرتيناجارا معاقبة كوبلاي على وقاحته، فرسم وشماً

على وجه رسوله كي تبدو الإهانة صريحة على الملأ عندما يعود الرسول إلى القصر، وهو تصرف استوجب الانتقام، فأمر كوبلاي بتجهيز أسطول حربي في الجنوب تحت قيادة القائد شي بي – أحد المحاربين المخضرمين في الحرب على سونغ. وتولى كاو زينج قيادة القوات البرية،في حين تولى القوات البحرية قائد من الأويغور اسمه «إيخ موسو». قال لهم كوبلاي إن الانتصار سيكون سهلاً: «إذا استوليتم على هذه الدولة، فستخضع الدول الأخرى من تلقاء نفسها. وعندها سنرسل مبعوثين إلى هذه الدول لطلب ولائهم». وواصل المغول على مدار ثلاث سنوات حشد قواتهم في مدينة كوانزهو الصينية، فوصلت إلى ألف سفينة و20 ألف مقاتل.

وكان هناك متسع من الوقت أمام الملك كرتيناجارا للإعداد للهجوم، لكنه أساء فهم إستراتيجية القائد «شي بي»، وافترض أن قائد المغول سيتجه بقواته ناحية الجنوب على طول الساحل، ماراً بمملكتي شامبا ومالايا. فسارع بإرسال القوات إلى هناك للتربص بالأسطول المغولي، وهو خطأ قاتل. لقد قطع «شي بي» أربعة آلاف كيلومتر إلى جاوة دون توقف. وكانت إستراتيجية عالية المخاطرة، «حيث كانت الريح عاتية والبحر هائجاً، حتى إن السفن كانت تتمايل بشدة ولم يستطع الجنود تناول الطعام لعدة أيام»، لكن ذلك أتى بثماره في النهاية. فقد رست قوات «شي بي» في عام 1293 والتي لم تجد أي مقاومة؛ لأن كرتيناجارا كان في هذه الأثناء مشغولاً بحربه مع الدولة المجاورة كيديري وقتل هناك، وكانت جميع القوات الوطنية بعيدة تقاتل في الجنوب.

وكان المتوقع أن يحصل «شي بي» على الانتصار السهل الذي وعده به كوبلاي، لكن سرعان ما حاصرته السياسات الداخلية، فقد أرسل فيجايا – صهر كرتيناجارا، وكان رجلاً طموحاً شديد الدهاء– رسالة إلى «شي بي» يعرض فيها الاستسلام مقابل مساعدته في حربه ضد كيديري، ودعم عرضه بهدايا من البخور والعطور وقرون للكركدن والعاج. ووافق «شي بي» على هذا العرض. ومن جانبه أرسل فيجايا تفاصيل المنطقة الواقعة على نهر برانتاس، في سفح جبل ويليس، على مسافة 105 كيلومتراً باتجاه الجنوب الغربي من سورابايا، وهي أراض غنية بالأرز، وتمثل مرفأ على الساحل، وأوضح جميع ذلك على خريطة مساعدة، وبدأت قوات المغول في زحفها هناك. وبعد ذلك بأسبوع، قُتل 5 آلاف من قوات كيديري

وأُعدم قائدهم، وأصبح المكان تحت سيطرة «شي بي».

ولم يتبق شيء سوى الاحتفال بالنصر وقبول استسلام فيجايا. طلب فيجايا إرسال موكب من 200 رجل غير مسلح تحت قيادة ضابطين إلى عاصمته ماجاباهيت محملين بالهدايا كما هو متعارف عليه، وفي الطريق قام رجال فيجايا بقتل الموكب غير المسلح وانقلبوا على قوات المغول، وما كان من «شي بي» إلا أن لاذ بالفرار بقواته التي اشتبكت في قتال على مسافة 150 كيلومتراً في اتجاه الساحل، ورحلوا بعيداً نحو ديارهم، فكافأه كوبلاي بـ 17 جلدة وصادر ثلث ملكه.

وعقب ذلك بعامين أعاد خليفة كوبلاي القائد «شي بي» إلى مكانته. فرغم ذلك، وكما أوضح أحد المستشارين، فقد كان قد سافر 12 ألف كيلومتر ووصل لبلاد لم يصلها أحد قبله وصنع انطباعاً هائلاً لدى مواطني تلك البلاد. وكانت هذه الخاتمة كارثة أخرى انتهت بإرضاء الكبرياء من خلال خداع الذات.

وبالنسبة لكوبلاي كانت هذه المغامرة عبارة عن مثال جيد لـ «قانون النتائج غير المقصودة»، فمع عزم كوبلاي معاقبة أحد الملوك، كان ينوي بذلك مساعدة خليفته الشرعي على تأمين العرش وتأسيس أسرة جديدة ودولة قطرية. وعلى الجانب الآخر، فعلى مدى الخمسين عاماً التالية، تحولت ماجاباهيت التي أنشأها فيجايا إلى إمبراطورية غنية وذات نفوذ، وتضمنت جزءاً كبيراً من إندونيسيا، والبعض يقول كلها، وهو عكس ما قصده كوبلاي تماماً.

الفصل السادس عشر

عندما زحف الشرق على الغرب

كان تأثير الصين على الغرب لا يُذكر خلال معظم عهد كوبلاي، لكنه لم يشتهر إلا بعد وفاته، وذلك بفضل رجل ورد ذكره كثيراً في الفصول السابقة هو ماركو بولو.

ولكي نفهم تأثير ماركو بولو، علينا أن ننظر إلى ما كان يعرفه الغرب عن الصين وآسيا الوسطى قبل عهد كوبلاي. ففي القرن الثاني عشر كان الأوروبيون وسكان الشرق الأوسط لا يعرفون عن الصين سوى أفكار مبهمة. وفي أوروبا المسيحية لم تكن الخرائط خرائط حقيقية، وإنما مخططات للمعتقدات المتصلة بيوم القيامة والجنة في صورة كتل من المحيطات واليابسة. وكانت القارات المعروفة هي أوروبا وآسيا وأفريقيا فقط. وكانت تُرسم على شكل أجزاء من دوائر أو خطوط منقطة، ولم يميز أحد بين آسيا والهند، ولم تظهر الصين في أي من الخرائط. وكانت الجغرافيا العربية التي لا تعرف أوروبا عنها إلا القليل أفضل حالاً، لكنها لم تتميز عن جغرافيا الغرب بفارق كبير. فقد سافر يهودي إسباني اسمه بنيامين توديلا من جزيرة سيلان إلى الصين في أواخر القرن الثاني عشر، لكنه لم يسجل سوى تفاصيل بسيطة عن رحلته. ولم تعرف أوروبا المسيحية عن هذه الجولة شيئاً حتى القرن السادس عشر، ولم يسجل أي من المسيحيين النساطرة الذين نهضوا بالمهام التبشيرية في آسيا الوسطى، أية معلومات عن تلك المناطق، ولتنسخ أي من رواياتهم. أما بقية المسيحيين فكانوا يعرفون هذه المناطق جغرافياً، لكنهم تصوروا خطأً أنها محكومة بملك مسيحي اسمه القس جون، وهي أسطورة ليس إلا!

لذلك عندما شن مغول جنكيز هجوماً على أوروبا جاؤوا من اللامكان، فبعد اكتساح قوات جنكيز المدمرة لآسيا الوسطى ووصولها إلى فارس (1219-1223)، شاع جو من التفاؤل بأن هؤلاء الغزاة مسيحيون أتوا لإنقاذ الصليبيين، لكن سرعان ما دب الخوف والوجل ليحل محل التفاؤل. وكان الأوروبيون لا يعرفون إلا اسم مجموعة من قبائل المغول هي التتار، وأطلقوا على كل المغول اسم «التتار»، أي الأشخاص القادمون من المناطق الجهنمية التي تعود إلى العصور القديمة. وكانت الهزائم الأولية للأوروبيين بمثابة نذير شؤم عليهم، ففي عام 1238 أضاع تجار الأسماك في مدينة نوفجورود (Novgorod) الروسية على أنفسهم رحلتهم المعتادة إلى مدينة نورفولك (Norfolk) الواقعة شرق إنجلترا لصيد أسماك

الرنجة من بحر الشمال، وبقوا في بلادهم لمحاربة الغزاة، مما تسبب في وفرة الأسماك في البحر حول مدينة يارماوث. وتلقى الملك المجري (الهنغاري) رسالة تهديد من باتو الذي كان خاناً للقبيلة الذهبية[1]، وهو حفيد جنكيز وابن عم كوبلاي. وجاء في الرسالة: «أنتم يا من تسكنون البيوت وتملكون الحصون والمدن لن تفلتوا من قبضتي؟». بعدها بقليل بدأ الغزو في عام 1241، وسقطت روسيا وبولندا والمجر، وأوشك زعماء أوروبا على بناء اتحاد أوروبي للرد على هذا الهجوم، وكان من بين الاقتراحات المتاحة لقادة أوروبا شن مجموعة من الحملات الصليبية. وبدأ الزعماء المتنافسون يطلبون المساعدة والتعاون من بعض، لكن المغول لم يتركوا للأوروبيين هذه الفرصة وانسحبوا فوراً وعادوا أدراجهم بعد أن تلقوا خبر وفاة أوقطاي.

وبعد الوهم والرعب الشديدين حلت ساعة الحقيقة في شكل مبعوثين أوفدهما البابا إلى كاراكوروم، هما جيوفاني (جون) رجل الدين القادم من مقاطعة ماجيونه (Magione) الإيطالية (وكان اسمها وقتها بلانو كاربيني)، وكان جيوفاني حاضراً في وقت انتخابات الإمبراطور جويوك في كاراكوروم سنة 1246؛ والراهب وليام من مدينة روبروك الواقعة في شمال شرق فرنسا، الذي التقى مونخيه (في سنة 1253-1255). وقد أحضر الرجلان معهما من خانات المغول مجموعة من المطالب المحددة التي لا تقبل المساومة. وجاء في الرسالة الموجهة إلى البابا: «بحول الله وقوته ستخضع لنا كل الأراضي من مشرق الشمس إلى مغربها». وأُرسل مبعوثان آخران للقاء المغول في الشرق الأوسط، ونتيجة لذلك حصل الغرب على معلومات مفصلة وواقعية عن خلفاء جنكيز وشعوبه، ارتكزت على رواية كاربيني التي تسربت قبل وصوله إلى بلاده، ووُزّعت نسخ من هذه الرسالة على نطاق واسع (في حين أن تقرير روبروك الرائع لم يُنسخ طوال ثلاثة قرون). وما قرأه الناس واستمعوا إليه من كاربيني نفسه خلال جولته التي قام بها إلى أوروبا بعد عودته من البلاط المغولي لم يُهدئ من خوفهم وروعهم. لكن بعد مرور عدة سنوات اتضح أن التهديد المباشر انتهى، وأن المغول انكفئوا على أنفسهم وفضلوا الاستقرار داخل إمبراطورياتهم الجديدة الصغيرة في جنوب روسيا وفارس (إيران حالياً)، وبدؤوا بممارسة أنشطة الدولة العادية من

(1) مغول القبشاق: (المترجم).

قبيل بناء العلاقات والتحالفات مع القوى الخارجية، وبدأت النزاعات الداخلية (المغولية - المغولية) تدب بينهم. وقد عرفت أوروبا عن تلك الإمبراطوريات الجديدة الكثير من الأخبار والوقائع.

وفي هذه الأثناء برز عالم جديد في الشرق الأقصى هو عالم كوبلاي الذي لا يعرف الغرب عنه شيئاً. ولم يُرسل أي من المبشرين إليه لا من روما، ولا أي مبعوثين من أي حاكم آخر حتى تسعينيات القرن الثاني عشر. وحتى في هذه الفترة ظل التواصل بين الغرب وعالم كوبلاي محدوداً بسبب المشاكل اللغوية. فالمترجمون كانوا قلائل ولم يمتلكوا الكفاءة اللازمة، ولم يطق أي منهم المكوث طويلاً لإجادة اللغة الصينية أو المغولية، كما أن المغول لم يبدوا أي اهتمام بالتنصر. صحيح أنه كان بين المغول مسيحيون نساطرة- ولاسيما سوركاكتاني، أم كوبلاي- لكنهم كانوا متجذرين في المجتمع الصيني والمغولي ولم يمثلوا أي عون للكاثوليكية باعتبارها التيار المسيحي الرئيسي. وكما قال الخان الفارسي أرجون للبابا، حين عبرّ بلباقة عن رفضه للمعمودية: «إذا صلى الإنسان للسماء الخالدة وحدها وتدبّر طريقة الصلاة الصحيحة، أليس ذلك أنه قبل بالمعمودية؟». وهكذا كان المغول غير قابلين للتنصير.

وكانت القنوات الرئيسية للحصول على المعلومات هي الطرق التجارية، إلا أنه لسوء حظ المؤرخين، لم يهتم التجار سوى بالتجارة ولا شيء غيرها، ولم ينخرطوا في مسألة وصف غرائب السفر والتقاليد الاجتماعية لدى الأمم الأجنبية. ورغم أن حكم المغول سمح بانفتاح طرق طويلة أمام راغبي السفر، إلا أن عدداً قليلاً جداً من الناس أرادوا السفر لمسافات طويلة. وقد أشار أحد أبناء مدينة فلورنسا الإيطالية في القرن الرابع إلى أن الوقت الذي يستغرقه السفر من أوكرانيا إلى بكين كان 250 يوماً. ويرى الباحثون الآن أن من يقول إن الطريق عبر الإمبراطورية المنغولية كان آمناً هو مبالغ، لأن المغول كانوا في حالة تشاحن وتحارب دائمة في معظم عهد كوبلاي. وعندما كان هولاكو وبركة خان يتقاتلان في سنة 1260، ذبح كل منهما تجار الآخر، فمن يرضى أن يتعرض لهذا الخطر وأن يبقى في وعثاء السفر 18 شهراً عبر آسيا لكي يجلب بضاعة يستطيع الحصول عليها من وسطاء آخرين موجودين بالفعل في بلاده؟

وكان هناك دائماً طريق البحر، لكن هذا الطريق كان أسوأ حالاً بالنسبة للغربيين، فقدكانت الرحلات تبدأ من الخليج العربي لأن الإبحار حول جنوب قارة أفريقيا ظل مستبعداً على مدار قرنين من الزمان. وكانت السفن العربية تحتاج إلى عامين تقريباً كي تصل إلى الشرق، وكانت ترى الكثير من المخاطر على طول الطريق من قتل على أيدي القراصنة وعواصف وانهيار بهياكل السفن، إذ كان الأسطول يُشدّ بعضه إلى بعض بحبال (ماركو بولو ذكر ذلك)، لكن أحداً من التجار لم يسجل شيئاً عن هذه التجارب.

غير أن بعض الناس قاموا برحلات برية في وقت لاحق بعد وفاة كوبلاي، فقد أتيحت فرصة جني الأرباح للمحظوظين من أصحاب المعرفة. ولم يتمكن أحد من القيام بهذه الرحلات في عهد كوبلاي، باستثناء عائلة بولو الذين موّلوا رحلتهم الأولى عن طريق بيع البضائع في القسطنطينية التي اشتروا منها مجوهرات وأعطوها إلى «بركة» خان القبيلة الذهبية في ساراي، مقابل شحنات من البضائع التي باعوها لاحقاً في رحلتهم باتجاه الشرق.

ولما كانت عائلة بولو المكونة من ثلاثة أشقاء هي من تجار مدينة البندقية، كان وضعهم فريداً سمح لهم بالسفر في اتجاه الشرق. فالبندقية كانت تمتلك جزءاً من القسطنطينية حصل عليه المسيحيون اللاتين من الأرثوذكس اليونانيون، بالإضافة إلى عكا السورية وسولدايا في شبه جزيرة القرم. وقد سيطرت البندقية على طرق التجارة التي ربطت روسيا بمصر، والشرق الأوسط بإيطاليا، وكانت تجني ثروات طائلة من تجارة العنبر والعسل وشمع البلطيق والفراء الروسي والعبيد. وفي عام 1260 تقريباً بدأ الشقيقان نيكولو ومافيو في رحلة لتبادل المجوهرات مع مغول «القبيلة الذهبية» في جنوب روسيا، وعندما وصل الأخوان وقعت كارثتان قلبتا خططهما رأساً على عقب، فقد استعادت اليونان القسطنطينية، وقُتل أو أصيب بالعمى 50 تاجراً من البندقية، وأعلنت الحرب إمبراطوريتان تابعتان للمغول هما «القبيلة الذهبية» وفارس، فلم يعد أمام الأخوين أي طريق آمن سوى السفر شرقاً.

وبعد إقامتهم ثلاث سنوات في بخارى عرضت بعثة تبشيرية مغولية عليهما اصطحابهما إلى بلاط سيدها الإمبراطور كوبلاي، وبعد عام وصلا إلى كوبلاي الذي سألهما عن البابوية والنسخة الرومانية من المسيحية، ومن ثم ساعدهما في العودة إلى ديارهما وأعطاهما أحد الأقراص الذهبية أو الفضية (بايزا – Paiza)، وكانت بمثابة جواز سفر وأمر رسمي يتيح لهما

الاستفادة من محطات الطرق الرسمية للمغول في رحلة العودة. وكلفهما كوبلاي بإحضار 100 من المبشرين، وكمية من الزيت من مصباح في ضريح السيد المسيح في القدس. ولم يكن التسامح وحده وراء هذا التصرف من كوبلاي، وإنما سياسته الجديدة أيضاً، فقد كان كوبلاي منزعجاً بسبب رجال الدين المثيرين للجدل من عدة ديانات منها المسيحية النسطورية، وكانت والدته نسطورية، وكان من الممكن لبضعة مئات من المسيحيين من طائفة مختلفة أن يسمحوا له بإنشاء جماعة جديدة ذات اهتمام خاص تتصدى لهيمنة أية طائفة أخرى.

وعندما عاد نيكولو إلى الوطن في سنة 1269 التأم شمله مع ابنه ماركو الذي كان عمره 15 عاماً، لكن للأسف لم يُتح له تلبية طلب كوبلاي لأن البابا كان قد توفي وحدث تأخر كبير في تعيين خليفة له. وبعد عامين ارتحل الأخوان مجدداً وأخذا ماركو معهما سعياً وراء الثروة والفرص الطائلة التي توافرت في الصين في عهد كوبلاي. تشاور الثلاثة في عكا مع صديقهم القديم تيوبالدو فيسكونتي كبير الشمامسة، وبدا أنهم كانوا موفقين في قرارهم؛ لأن هذا الصديق أصبح فيما بعد وبمحض الصدفة هو البابا، وبات قادراً على منحهم وثائق التفويض الرسمية. وبعد ثلاث سنوات ونصف وصل الثلاثة إلى كوبلاي في زانادو، وبالتحديد في صيف 1275.

وهناك جدل طويل بين الباحثين حول صحة رواية ماركو، وتنوعت آراؤهم بين التشكيك والتصديق، ومن الأسباب التي جعلت لفيفاً من الباحثين يشككون في الرواية أن ماركو عمل مع مؤلف مغمور اسمه روستيشيللو حرص على إكساب الكتاب جاذبية من خلال إضافة كلمات أدبية على رواية ماركو. فكانت هناك حميمية ظاهرة في الكتاب ومبالغة في استخدام ضمير المتكلم (أنا)، وانتشرت في الكتاب تعليقات جانبية كان الهدف منها إضفاء صفة العفوية على العمل منها: «آه نسيت أن أذكر كذا وكذا». وحاول الكاتب بهذه الطريقة شد المستمع وليس القارئ لأن النصوص في تلك الفترة كانت تُكتَب لتُقرأ بصوت مرتفع. وفي فترة لاحقة قام ماركو ومحررو الكتاب بإضافة معلومات وحذف معلومات أخرى من الكتاب، وإعادة صياغته، مما أدى إلى ظهور إصدارات عدة من العمل نفسه، ومن ثم ليس هناك نص أصلي له.

ويعج الكتاب بالثرثرات والقليل من الحقائق، مما يجعله جديراً بالنظر والاعتبار. فالبعض يتساءل: هل سرق ماركو محتويات كتابه من مؤلفات أخرى؟ والإجابة عن ذلك أن ماركو لم يستطع ذلك؛ لأن الكتاب محشو بالتفاصيل التي لا يعرفها أي شخص غربي (مثل مشاهد الرخام في زانادو). وحتى بعض أقواله مثل زعمه بأنه قدّم المساعدة في صناعة منجنيقات شيانغ يانغ يمكن اعتبارها مبالغة وليست خيالاً. فعندما كان ماركو والمؤلف المساعد روستيشيللو يعملان على الكتاب، لم يكن لدى أحد في الغرب أي فكرة عما يحدث في الصين، فكان من السهل على المؤلفين الزج بأكاذيب وافتراءات إلى جانب الحقائق. لكن الباحثين اليوم برعوا في استخدام مصادر أخرى لتمييز الحقيقة عن الكذب، ولكن كتاب ماركو استطاع بوجه عام الصمود في وجه هذا التمحيص باستثناء بعض الهفوات المتفرقة.

ويعود الفضل في كل ما تعرفه أوروبا عن كوبلاي إلى رواية ماركو بولو للسبعة عشر عاماً التي قضاها في الصين، فأصبح ماركو بالنسبة للمؤرخين شاهد عيان لا يقدر بثمن؛ لأنه وصل براً قبل انتهاء غزو الجنوب ونفذ إلى قلب الصين، في حين أن بقية المؤرخين الذين وصلوا بعده جاؤوا عن طريق البحر ولم يروا سوى الموانئ الجنوبية. وقد كانت عائلة بولو في قلب الأحداث داخل بلاط كوبلاي، واطلعوا على المعلومات كافة التي أتيحت للأجانب الذين أجادوا مبادئ اللغة، وقد استطاع ماركو تعلم مبادئ التواصل الشفهي باللغتين المغولية والصينية، لكنه لم يستطع تعلم الكتابة بأي منهما. وقد عين كوبلاي ماركو بولو في منصب مبعوث، وهو منصب بالغ ماركو في إظهار أهميته، رغم أنه لم يكن إلا مراسلاً مهمته تقديم صورة مستقلة عن الأماكن والأشخاص والأحداث.

وكان كوبلاي يحب عائلة بولو لدرجة أنه رفض عدة مرات السماح لهم بالمغادرة، إلا أنه أذن لهم بالذهاب لمرافقة أميرة مغولية في رحلتها التي قطعتها للتزوج بالحاكم المغولي على بلاد فارس- أرجون. منح كوبلاي عائلة بولو جوازات سفر ذهبية ليضمن حصولهم على الرعاية المناسبة، وطلب منهم تسليم رسائل إلى جميع ملوك أوروبا المسيحيين. فوصلوا إلى فارس في قافلة تضم 13 سفينة في سنة 1293 أو 1294، وقد استغرقت رحلتهم عامين كاملين تعرضوا خلالهما لكوارث من أنماط شتى. لكن بحلول ذلك الوقت كان الحاكم أرجون قد توفي، فتزوجت الأميرة من ابنه، ووصلت عائلة بولو إلى البندقية

(إيطالية) في سنة 1295.

لكن ماركو وجد نفسه بطريقة أو بأخرى وراء قضبان سجن جنوة الواقع بين البندقية ومدينة جنوة الإيطالية، وهذا الحسن حظه! فقد التقى ماركو على ما يبدو بالكاتب روستيشيللو في السجن، وبدءا كتابة كتاب «الرحلات» الذي انتهيا منه قبل الإفراج عنهما في سنة 1300. وكان ماركو في تلك الفترة قد بلغ منتصف الأربعينات وكان متزوجاً وله ثلاث بنات، وقد عاش حياة مترفة وتوفي عن 69 عاماً في سنة 1324.

وليس هناك سبيل لإثبات ما إذا كان الناس صدقوا أن الكتاب عائد إلى ماركو بولو أم لا، فقد تحدث ماركو بولو في كتابه عن أمور بعيدة جداً، ولم تكن هناك وسيلة لإثبات صحتها أو دحضها، لكن البعض يقول إن الكتاب اعتُبر بمثابة مجموعة من الخرافات. وقد خاطب ماركو القارئ في بداية كتابه مؤكداً صحة ما ذهب إليه قائلاً: «سوف تجد في هذا الكتاب كل الروائع... وحسب رواية السيد ماركو بولو - ابن البندقية الحكيم النبيل - الذي شاهد بأم عينيه كل ما كتب عنه. وهناك بعض الأشياء التي لم يرها ماركو بنفسه، لكنه سمع عنها من رجال ثقات، وسوف نروي هذه الأمور كما شاهدناها وسمعناها، دون ذرة من باطل أو ريب يفسدان صدقه».

وبعد كل ذلك لو كان ماركو يكذب لأشار إلى ذلك، لكن ثمة أمران يحملان الإدانة لكتابه، وهما كمية التفاصيل الكبيرة جداً والأساطير التي لم يدعمها بسند. لكن الكتاب ضرب الكتاب على وتر الصدق، وهو ما جعله يروق للناس.

حظي كتاب «الرحلات» بشعبية هائلة بين نفر من الناس استطاعوا الحصول على نسخة منه أو استعارته. وتُرجم الكتاب خلال 25 عاماً من لغته الأصلية، التي كانت مزيجاً من الفرنسية والإيطالية، إلى الفرنسية ولغة توسكان ولغة البندقية واللغة الألمانية واللاتينية، وحُرّرت كل نسخة منه لتتوافق مع الأحكام المسبقة لجمهور القراء في البلد المستهدف. لكن ماذا تعني كلمة «حظي بشعبية»؟ لا أحد يعلم عدد النسخ التي نُسخت من الكتاب، وعدد الذين قرؤوه أو استمعوا إليه عندما تُلي كالملاحم الشعرية. وقد كتبت المؤرخة إليزابيث أينشتاين تقول إن: «عملية نشر الكتب قبل عصر الطباعة - أو طريقة انتقال الرسائل

في عصر الكتبة - تظل أسئلة لا يمكن الإجابة عنها». وكل ما نستطيع قوله إن الطلب زاد بشكل كبير على الكتب خلال قرنين من الزمان، وكانت معظم الكتب دينية، وكان لدى الكاتدرائيات الكبرى فريق من الكتبة يخطون الكتب ببطء لتأسيس المكتبات الصغيرة التي عرفها هذا العصر. وكانت هذه المكتبات كنوزاً فكرية، وكان من النادر أن تضم مكتبات الكاتدرائيات أكثر من 200-300 كتاب. ولم تحو مكتبات الجامعات الكثير من الكتب أيضاً، ففي سنة 1338 ضمت مكتبة السوربون 338 مرجعاً رُبطت معاً بالسلاسل، و1728 كتاباً للإعارة - جميعها لمؤلفين لاتين، وكتاب واحد باللغة الفرنسية هو نسخة من «قصيدة الوردة» (Roman de la Rose) الملحمية. وكان من النادر أن يمتلك أي فرد من خارج طبقة الأرستقراطيين كتاباً واحداً، والأندر أن يمتلك شخص كتاباً مكتوباً بلغة الحياة اليومية.

ومع ذلك تضاعف عدد نسخ كتاب «الرحلات»، حيث نجا 85 نسخة منه من الضياع، واشتمل العديد منها على رسوم توضيحية، مما جعل الكتاب عملاً فنياً وتقريراً عن الرحلات. وأخذ المترجمون اللاتينيون ماركو على محمل الجد؛ لأنهم حاولوا النظر في إمكانية تنصير الصين وتقييم هذه الإمكانية. فأحد المترجمين اللاتين - فرانشيسكو بيبينو من بولونيا - اعتبر ماركو «رجلاً محترماً صادقاً متديناً» وهي أوصاف توحي بأنه اعتبره مثل والده أو عمه، وقد عُبِّر عن هذا الرأي بصورة مصطنعة من خلال إضافات تصف الديانات غير المسيحية بـ «البغيضة». واعتبر رجال الدين اللاتين ماركو أحد الثقات. وخلال ثلاثينيات القرن الرابع عشر، روى راهب الدومينيكان جاكوبو داكوي قصة عن وفاة ماركو قائلاً: «نظراً لوجود العديد من الأشياء العظيمة في هذا الكتاب والتي لا تبدو ذات مصداقية، فقد طلب منه أصدقاؤه وهو على فراش الموت تصحيح الكتاب بإزالة الأكاذيب والافتراءات. فأجابهم بأنه لم يورد في الكتاب سوى نصف ما رآه في الواقع».

لذا بدأ التجار ببطء باستكشاف إمكانيات اقترحها ماركو، وازداد عدد الأشخاص الذين قاموا بالرحلة براً من جنوة بحلول عام 1330 حيث قدم فرانشيسكو بيجولوتي بعض النصائح لهم قائلاً: إن الطريق إلى الصين «آمنة تماماً ليلاً ونهاراً» ما لم يَمُت المسافر وهو على الطريق، حيث يقوم أمراء الحرب المحليين في هذه الحالة بالاستيلاء على جميع ممتلكاته.

وقد قبل المبشرون أيضاً بهذا التحدي حيث أسس أحد رهبان الفرنسيسكان، جون من مونتي كورفينو، أول كنيسة مسيحية في بكين عام 1294، وهي السنة التي وافت فيها كوبلاي المنيّة. ووصل راهب آخر من رهبان الفرنسيسكان، وهو أودوريك من بوردينون، إلى الصين عام،1322 وكتب سرداً لما رآه هناك حظي بشهرة تماثل تقريباً شهرة كتاب ماركو.

ومن آثار هؤلاء المسيحيين الأوائل تم الوصول إلى ما يدعم تقريباً واحدة من أكثر مزاعم ماركو إثارة للجدل والتي لا يمكن تصديقها، وهي أنه قد حكم مدينة يانغتشو مدة ثلاث سنوات. ففي خريف عام 1951 وبعد أن استولى الشيوعيون من أتباع ماو على السلطة، قام عمال بهدم جدران يانغتشو واستخدام الأنقاض لبناء طريق جديدة. وأثناء الهدم لاحظ العمال وجود لوح من الرخام عليه بعض العلامات الغريبة فسلموه لأحد خبراء الآثار المحليين الذي رأى فيها ما يشبه مشاهد من حياة قديس مسيحي. فشعر بحيرة شديدة بخصوص لوح الرخام جعلته يشحنه إلى صديق له بالقرب من شنغهاي، وهو اليسوعي الشاب فرانسيس رولو الذي كان يستعد للرحيل بعد أن طرده النظام الجديد من البلاد. وكان رولو يدرك جيداً حساسية البحث في الصور الدينية، فالتقط صوراً فوتوغرافية للوح الذي اختفى بعد مغادرته. لكنه بعد ذلك قدم تقريراً عما رآه وفحصه[1] إذ كان لوح الرخام شاهدة ضريح مزينة بمشاهد من حياة القديسة كاثرين نظراً لكون اسم المتوفاة التي توفيت في يوليو 1342 كاترينا إيلينوي. وبعد سنوات قليلة وُجدت شاهدة لضريح آخر في يانغتشو هي لشقيق كاترينا أنطونيو، الذي توفي في نوفمبر 1344، وكلاهما من أبناء أنطونيو إيلينوي من جنوة، وهو وصي على أملاك صديق جاء إلى الصين وازدهرت أعماله هناك فأسس كما يبدو مجتمعاً صغيراً. وأشار أودوريك إلى أنه أقام مع الفرنسيسكان في يانغتشو في سنة 1322، وذكر أيضاً وجود ثلاث كنائس نسطورية هناك. ويبدو أنه قد كان هناك مجتمع مسيحي لبعض الوقت، وهي فترة كافية ربما لإرسال كوبلاي لماركو كي يضع المدينة تحت جناحيه؟ فربما قد أصبح حاكماً ليس للمدينة وإنما لمسيحييها، وهو الأمر الذي قد يكون روستيشيللو أساء فهمه أو بالغ فيه؟

---

(1) الأب فرانسيس رولو: «The Yangchow Latin Tombstone as a Landmark of Medieval Christianity in China»

وعلى أية حال عرف الناس الكثير عن أخبار كوبلاي بفضل ماركو والتجار والمبشرين.

ويكشف الباحثون في الشأن المغولي بين الحين والآخر معلومات مدهشة، فقالوا مرة: إن النص الذي كُتب بلغة «فاغز-با» رسمه الرسام الشهير جيوتو في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وقد يكون هناك رابط بين كوبلاي خان والراهب رابان ساوما. وكان ساوما الذي سافر غرباً من عالم كوبلاي، وكان أول رجل قطع المسافة بين الصين وأوروبا حسبما يذكر التاريخ. وكان ساوما نسخة طبق الأصل من ماركو بولو مع بعض الاختلافات الطفيفة. فكانت فترة إقامته في أوروبا أقل من عام، وكان مبعوثاً رسمياً عقد اجتماعات على مستوى راق. وهو صاحب قصة رائعة اختفت بشكلها الأصلي الفارسي، ووصلت ترجمتها السريانية غير الأصلية التي وجدناها في أواخر القرن التاسع عشر. وقد أعاد المؤرخ موريس روسابي إحياء قصة هذا الرجل ومغامراته بطريقة رائعة في كتابه «مسافر من زانادو» الذي قال فيه: «في هذه الأيام التي تنتشر فيها التعددية الثقافية يبدو المقام مناسباً لي لأكتب عن رجل ازدهر في مجموعة متنوعة من الثقافات وعمل على مد الجسور بينها». لكن القصة تحتوي ما هو أكثر من ذلك، فهي تأريخ لمحاولات ساوما الذي كاد ينجح في إقامة تحالف بين المغول وأوروبا المسيحية، تحالف لو تم لغيّر مجرى التاريخ. لذلك سوف ننحّي جيوتو جانباً في الصفحات المقبلة، ونسلط مزيد الضوء على ساوما.

ينتمي ساوما إلى قبيلة أونجود، إحدى القبائل التركية التي كانت تعيش قرب النهر الأصفر الذي يشق منتصف الصين اليوم، وقد تحالفت قبيلته مع جنكيز. وبسبب إقامة هذه القبيلة على طريق تجاري رئيسي مع الغرب تحولت إلى المسيحية النسطورية، وهي الطائفة التي تؤمن بأن للمسيح طبيعتين واحدة إلهية والثانية بشرية، وبأن مريم هي والدة المسيح الإنسان وليس الإله. وقد أعلنت روما أن هذه الطائفة مهرطقة، مما ساعد النسطورية في تحقيق نجاح في آسيا الوسطى والصين وكسب سمعة كبيرة، مع اعتناق الأطباء ورجال الأعمال لهذه الديانة وإبدائهم تسامحاً بيّناً مع الممارسات المحلية. ومن أفراد هذه الطائفة سوركاكتاني والدة كوبلاي وزوجة هولاكو. وقد أحب جنكيز أفراد قبيلة أونجود الذين أتقنوا العمل الوظيفي لديه، وأثبتوا أنهم الحلفاء المناسبون لكوبلاي في صراعه ضد ابن عمه كايدو.

وُلد ساوما في عام 1240 تقريباً وانضم إلى الكهنوت وهو لم يزل في الخامسة والعشرين من عمره، وأصبح ناسكاً اعتزال الحياة وسكن الجبال على بعد 50 كيلومتراً جنوب غرب بكين. واشتهر ساوما بزهده وعلمه، وكاد أن يبقى في عزلته لولا أنه تعرّف على تلميذه ماركوس، ذلك الشاب اليافع المتقد الحماس الذي كان عمره 15 حينئذ. وبقي المعلم وتلميذه لعقد من الزمان في عزلة عن العالم، بعيدين كل البعد عن التغيرات الهائلة الحاصلة حولهما إلى أن اقتنع ماركوس بضرورة التوجه إلى القدس للحصول على سقف من المغفرة والرحمة لا ينبغي لأحد في أي مكان آخر. وكان الراهبان لا يهابان المشقة ولا الموت، وكانا مدعومين من نساطرة بكين ومن كوبلاي نفسه، لأنهما كانا آلة إعلامية دعائية متميزة له في مساعيه للحفاظ على تعاطفه مع طائفة أمه سوركاكتاني. وشاء القدر أن تزامنت هذه الفترة مع عودة عائلة بولو إلى بكين مع ماركو الشاب، وكان كوبلاي يأمل في إحداث طفرة في الاتصالات البرية بين الشرق والغرب، وكان من المرجح أن ساوما وماركوس قادران على إعادة الخبراء الغربيين الذين سيساعدونه في تأسيس بكين الحديثة، فأعطاهما جوازات سفر رسمية من الفئة الذهبية (البايزا) سمحت لهما بالاستفادة من نظام نقل البريد والحصول على الرعاية والدعم في الطريق، وقاما بتجميع قافلة من الإبل وسائسيها والطهاة والحراس، وانطلقوا في عام 1275 على الأرجح.

الرحلة استغرقت وقتاً طويلاً، وكانت المحطة الأولى مسقط رأسهما على ضفاف النهر الأصفر، ثم توجها إلى «شيانغ يانغ» عبر ممر كانسو، والتفا حول صحراء تاكلا ماكان الصينية (Taklamakan)، وصولاً إلى هوتان، تلك الواحة المتعددة الجنسيات أدنى جبال كونلون (Kunlun)[1]. بذلك أصبحا داخل أراضي كايدو وخارج نطاق حماية كوبلاي، وهي منطقة ساءت سمعتها بسبب انتشار قُطّاع الطرق بها. وقد دفعت الحكمة الراهبين المسافرين إلى التوجه إلى مخيم كايدو في مدينة تالاس (قرغيزستان حالياً)، وحرصوا على عدم ذكر اسم كوبلاي أو بلاد فارس لأن الاثنين كانا عدوين لكايدو. شق الراهبان الجبال والصحارى وذاقا مرارة الحر والرياح العاصفة والانهيارات الثلجية والجوع والعطش وعدة سرقات، حتى وصلا عبر طوس (اسمها اليوم مدينة مشهد وتقع في شمال شرق إيران) إلى

(1) واحدة من أكبر السلاسل الجبلية في آسيا وتمتد على الحافة الشمالية لهضبة التبت (المترجم).

ابن شقيق كوبلاي «الخان أباقا» في عاصمته التي أقام فيها زعيم الطائفة النسطورية البطريرك الكاثوليكوس مار دنها. وبعد لقائهما بالبطريرك الذي بادلهما عواطف جياشة، قاما بجولة في المواقع النسطورية المحلية وانطلقا غرباً إلى أربيل شمال العراق. وهنا حصل تغيير مفاجئ في خطتهما، فقد استدعاهما الكاثوليكوس إلى بغداد وكلفهما بمهمة جديدة، هي كسب تعاطف أباقا مع النساطرة. فانطلقا إلى تبريز عاصمة إيلخان الجديدة التي لم يلحق بها أذى خلال الغزو المغولي؛ لأنها استسلمت على عكس بغداد. وفي هذا المركز العالمي الذي تميز بأسواقه الغنية وتوافر عدة طوائف مسيحية وانتشر به التجار الإيطاليون، أظهر الراهبان التأشيرة الذهبية للخان أباقا، فما كان منه إلا أن أمر لهم بكل المساعدة والعون الذي تطلبه رحلتهم.

وأثناء وجودهما اندلعت حرب في الغرب، فاضطرا للبقاء في المدينة لكنهما حظيا براحة كبيرة لأن الكاثوليكوس رقّاهما حيث أصبح ماركوس «مدينياً» (مرتبة تعادل المطران) وساوما «زائراً عاماً» في الصين (وهي مرتبة تقترب من السفير المتنقل)، فاعترضا لأنهما أرادا عيش حياة بسيطة مع مواصلة رحلة الحج، لكن لم يكن أمامهم أي خيار سوى القبول وتأجيل السفر.

هنا بدأت الأحداث تأخذ منحى أكثر إثارة للدهشة، فبعد عام توفي الكاثوليكوس وخلفه ماركوس الذي كان عمره 36 عاماً. وخلال السنوات الخمس التي تلت ذلك انخرط ماركوس وأستاذه الذي كان في منتصف العمر في السياستين المحلية والكنسية منذ وفاة أباقا واندلاع الاقتتال الوحشي على السلطة وانتهاء بتسلمهما لمناصبهما.

وفي 1286 وجد الخان الجديد أرجون نفسه بحاجة إلى الدعم ضد المصريين وغيرهم من المسلمين، فخطرت له فكرة غير عادية، إذ أراد أن يقترح على أوروبا شن حملة صليبية جديدة يتحد فيها المسيحيون والمغول ضد الإسلام. ولما كان المغول استطاعوا نثر الرعب في أوروبا قبل 40 عاماً، بدا هذا الاقتراح غريباً؛ لكنه مقبول أيضاً إذا نظرنا إلى أنماط التعاون التي ستنشأ بين المغول والصليبيين المسيحيين بعد ذلك بعشرين عاماً. وبالفعل اتفقوا على أن يقوم أرجون بتسليم القدس إلى أوروبا مقابل حصوله على المساعدة منها. ولتنفيذ هذه الخطة احتاج أرجون إلى مبعوث مثقف وكثير الترحال يجيد لغات عدة، فكان ساوما الاختيار

الأمثل لأنه عرف التركية والصينية وربما المغولية منذ نعومة أظفاره، وأتقن الفارسية فيما بعد. ونظراً لوجود العديد من الإيطاليين في الإيلخانية، أصبحت اللغة الإيطالية لا تشكل أدنى مشكلة.

سلّم الخان أرجون ساوما ليقوم الأخير بإرسالها إلى البابا والإمبراطور البيزنطي والملوك الفرنسيين والإنجليز. وسافر السفير عام 1287 برفقة ثلاثة رجال إلى البحر الأسود وأخذوا سفينة إلى القسطنطينية، وهناك التقى السفير الإمبراطور أندرونيكوس، وشاهد مواقع الآثار وأعجب بها، لكنه لم يحقق الكثير هناك؛ لأن بناء تحالف مناهض للمسلمين احتاج إلى تضافر الكنائس الشرقية والغربية معاً، وهي مهمة لم تكن بالسهلة.

وفي شهر يونيو 1287 أبحر المبعوث ساوما ووفده الصغير الذي لم يضم ماركوس (الذي تولى مهام الكاثوليكوس في دياره) بالقرب من صقلية وبركان إتنا الثائر - إلى نابولي ثم إلى روما، ليجد أن البابا فارق الحياة ولم يُنصب خليفة له. فاستقبل الكرادلة ساوما - بدلاً من البابا، وقدموا له الاحترام الواجب. وسألوه أولاً عن موطنه، وربما كانت إجابته عن هذا السؤال هي أول تقرير مفصل يصل إلى أوروبا عن عالم كوبلاي البعيد. ثم انتقلوا بسرعة إلى سؤاله عن عقيدته، فأجاب بعناية مركزاً على أخبار آباء الكنيسة الأوائل ومتجنباً المسائل الخلافية مثل طبيعة السيد المسيح والروح القدس حتى لا يحسب الكرادلة أنهم يحاورون كافراً. أُعجب الكرادلة كثيراً بسعة اطلاعه وقالوا له: «رائع أن تكون مسيحياً وشماس عرش البطريرك في الشرق، وأنك جئت مبعوثاً من ملك المغول». لكنهم لم يقدموا له أي التزام فيما يتصل بالحملات الصليبية بسبب غياب البابا.

روى الكرادلة للمبعوث الكثير من قصص المسيحية، واصطحبوه إلى جميع المواقع التاريخية مثل مكان استشهاد القديس بول (الذي عندما قُتل طارت رأسه في الهواء وهو يصيح «المسيح! المسيح! المسيح!»)، وشاهد أحد أثواب السيد المسيح، وبعض الخشب من مهد السيد المسيح، وإكليل الشوك الأصلي. وأعرب المبعوث عن تقديره لهذه الآثار والحكايات، لكنه أراد مواصلة رحلته لأنه لم ينجز سوى نصف المهمة التي خرج من أجلها، وكان عليه أن يلتقي ملوك فرنسا وإنجلترا.

غادر ساوما حر إيطاليا واحتاج شهراً كاملاً كي يعرف طريقه، فظل يتجول بين الخانات على الطرق الترابية المغبرة في فرنسا، وكان عمره 60 عاماً تقريباً وكانت نقطة الانهيار البدني قد اقتربت مع تقدم سنه. لكن ملك فرنسا المراهق والطموح فيليب أحسن استقباله في باريس وأنزله منزلاً مريحاً. وعندما ارتاح ساوما عرض على الملك قضيته، ويبدو أن فيليب أُعجب بها. فإذا كان المغول على استعداد للمساعدة على استعادة القدس، ماذا سيكون من المسيحيين سوى الاستجابة للعرض والقبول به؟ فقد كان حريصاً على عرض قوته لأسباب خاصة به، لأنه كان يسعى للسيطرة على مصالح الإنجليز في فرنسا، وتأكيد المطالب الفرنسية في فلاندرز، ومنع الفاتيكان من الاستيلاء على أموال وممتلكات الكنيسة الفرنسية.

وغادر ساوما متوجهاً إلى ملك إنجلترا إدوارد الأول مفترضاً أن فيليب أصبح عضواً في التحالف الأوروبي المغولي، وكان ملك إنجلترا آنذاك في إحدى مستعمراته الفرنسية، فوصل ساوما إلى مدينة بوردو في أكتوبر 1287 بعد سفر ثلاثة أسابيع، وعرّف عن نفسه، فدعي فوراً للدخول على الملك. وبعد أن قدّم ساوما هدايا أرجون من الحرير والمجوهرات إلى الملك، طرح عليه فكرة الحرب الصليبية. أحب إدوارد الفكرة لأنه سبق وتعهد بخدمة الصليب في ذلك الربيع، وكانت فكرة مناسبة لمخططاته، فشعر ساوما أنه نفذ بنجاح ثلثي المهمة، وبقي الثلث الأخير يبدأ العمل عليه بعد عودته إلى روما.

وتأكيداً على التوصل إلى اتفاق، دعا إدوارد حليفه الجديد إلى ترؤس القربان المقدس حسب الطقوس الفرنسية التي كانت تختلف عن طقوس الروم. وأعقب ذلك وليمة فاخرة نُحر فيها 10 ثيران و59 حملاً تكريماً للضيوف الذين بلغ عددهم بضع مئات. ولابد أن يكون ساوما قد أجرى مقارنة بين عدد الضيوف والستة آلاف ضيف الذين تناولوا العشاء في قاعة كوبلاي الكبرى في بكين.

والآن أمسى كل شيء متوقفاً على روما، لأنه بدون البابا لن تقوم أية حملات صليبية، لكن منصب البابا ما زال شاغراً، وكان الشتاء يقترب، فتوجه ساوما جنوباً إلى جنوة حيث «حديقة الجنة» كما أسماها، وكانت حديقة دائمة الثمر وتستطيع أن تقطف منها العنب وتأكله على مدار السنة. وبعد ثلاثة أشهر من الإحباط المتزايد، وصل خبر تتويج الكاهن جيروم

(من أسكولي) في منصب البابا تحت اسم نيكولاس الرابع في الأول من مارس 1288.

بعد ذلك وُجهت دعوة إلى ساوما الذي توجه إلى هناك وألقى كلمة رائعة وسلّم هدايا أرجون، فلاقى استجابة كريمة من نيكولاس، وكان ساوما ضيف شرف كما قال، وأقام هناك حتى عيد الفصح. وطلب ساوما حضور القداس فأجيب طلبه، وأقيم القداس بحضور مئات المؤمنين وترأسه البابا شخصياً يوم أحد الشعانين، فضلاً عن احتفالات خميس الأسرار، والجمعة العظيمة، والسبت المقدس، وعيد الفصح.

بعد ذلك طلب ساوما الإذن له بالسفر إلى دياره، فرفض نيكولاس، لكن ساوما أصر لأنه أراد إخبار شعبه عن الاستقبال الرائع الذي حظي به، وطلب الحصول على بعض الآثار، لكن البابا شعر بالانزعاج وقال له: «إذا أعطينا الآثار لكل من يطلبها، فلن يتبقى لنا شيء». لكنه أضاف أنه يمكن في هذه الحالة تقديم بعض الآثار كقطعة من ملابس يسوع وشيء من وشاح العذراء وبعض القطع الأثرية المتنوعة للقديسين، وللكاثوليكوس ماركوس تاج مرصع بالجواهر والذهب ورداء أرجواني مبطن بخيوط الذهب وجوارب مزينة باللؤلؤ، وخاتم البابا... ورسائل عدة تؤكد مكانة ماركوس وساوما. وهدايا أخرى للخان أرجون جاء فيها أن يسوع أعطى السلطة لبطرس ولجميع الباباوات اللاحقين، وعلى أرجون الاعتراف بالإيمان الحقيقي. أما بالنسبة للحرب الصليبية، فإن مسؤولية إعلانها تقع على عاتق البابا ولا يمكن لغيره اتخاذ قرار بها، لأنه وحده يتحمل مسؤولية نجاحها أو فشلها. اجعل أرجون يتنصر ويقبل بالسلطة البابوية، وعندها سيمنحه الله قوة الاستيلاء على القدس، وبذلك يصبح بطل المسيحية، أي باختصار: بدون مساعدة عملية لن تكون هناك حملة صليبية.

ومع ذلك عندما وصل ساوما إلى فارس في سبتمبر، شعر أرجون بالسعادة لأنه أدرك على الأرجح أنه بذلك أرسى دعائم السلام والدبلوماسية (وكان ذلك بعد فترة لا تزيد عن 60 عاماً على وفاة جنكيز، و30 عاماً على تدمير بغداد وتولي كوبلاي الحكم)، وأقيمت مأدبة لمدة ثلاثة أيام لساوما والكاثوليكوس.

لم تذهب فكرة الحرب الصليبية أدراج الرياح بطبيعة الحال فقد حاول أرجون بعد ذلك إثارة اهتمام الفرنسيين والإنجليز بالفكرة، لكنه لم يحصل إلا على أجوبة مراوغة. فانصرف

هو نفسه عن هذا الهدف بسبب تحديات القبيلة الذهبية والمسلمين المتمردين. ومات أرجون عام 1291 ومعه أحلامه بالمزيد من الفتوحات. وبحلول ذلك الوقت كان الأوان قد فات، ففي العام نفسه تولى المماليك المصريون حكم عكا، وهي آخر موقع مسيحي في الشرق الأوسط، فأسدل الستار على العصر الصليبي.

وعاش ساوما أيامه الأخيرة في كنيسة حديثة رائعة محاولاً قضاء أطول وقت مع صديقه القديم ماركوس، وكلاهما لم يصدق التحول الكبير الذي طرأ على حياتهما. وفي أواخر عام 1293 أصيب ساوما بالمرض في بغداد واستجمع قواه حتى وصل ماركوس إليه لوداعه، وفارق الحياة في يناير 1294 بعد شهر من وفاة كوبلاي نفسه. ورافقه ماركوس الحزين إلى مثواه الأخير في الكنيسة النسطورية الرئيسية في بغداد.

وهنا سؤال: ماذا كان يحدث لو دعم نيكولاس التحالف؟ كانت سوف تجتمع البابوية وفرنسا وإنجلترا والمغول والصليبيون للدفاع عن معاقلهم في سورية، وربما أدى ذلك إلى نتائج غريبة مثل طرد الإسلام من منطقة الشرق الأوسط، وتسليم القدس إلى البابا تحت الإدارة الفرنسية الإنجليزية المغولية الإيطالية المشتركة، ومن ثم انتصار أرجون وانتشار المسيحية في وسط آسيا..

والآن وعلى طريقة ماركو في كتابه، لابد أن أذكر شيئاً نسيته وهو صلة ساوما بالفنان جيوتو، التي تأخذ شكل نقوش غريبة على ثوب المسيح في واحدة من لوحات جيوتو. فقد كان رابان ساوما يحمل معه البايزا (جواز السفر آنذاك) في روما، ولابد أن الناس هناك رأوها وأعجبوا بها ونسخوا الكتابات عليها. وبعد اثني عشر عاماً كان الرسام جيوتو في روما للمشاركة في احتفالات الذكرى المئوية سنة 1300 التي أقامها البابا بونيفاس الثامن. ولا شك أنه قام باستلهام مجموعة من الأفكار للوحاته من هذه الاحتفالات. وفي عام 1305 كان جيوتو في بادوَا على وشك رسم تحفة عظيمة على جدران كنيسة آرينا- 67 جدارية غطت كل المساحة الداخلية للكنيسة، وصورت مشاهد من حياة المسيح. ومن جوانب الأصالة في أعماله استعداده لرسم عناصر من الحياة المعاصرة في إبداعاته. ومن المعروف أن جيوتو صوّر - في لوحته الخاصة بتكريم المجوس للسيد المسيح - نجمة داود والتي أخذت شكل مذنب هالي الذي ظهر في السماء في شهري أكتوبر - نوفمبر 1301.

وقد بحثت في كل رداء للسيد المسيح في كنيسة أرينا ولم أجد أية كتابة غريبة عليها. لكني وجدت صورتين خطفا انتباهي - إحداهما تصور المهد ومريم العذراء مستلقية في الإسطبل مرتدية لباساً أنيقاً لا يناسب المكان المحيط بها. وعلى طرف ردائها، تظهر بعض الكتابات المألوفة بخطوط متمايلة على شكل مربعات. أما الصورة الثانية فهي لوحة «الملاك في القبر» الجدارية التي تمثل القيامة وتظهر فيها الكتابات نفسها على أطراف أثواب الجنود الرومان النائمين الذين لم يدركوا المعجزة التي حدثت بجانبهم، كما تظهر هذه الكتابات أيضاً على طرف رداء مريم المجدلية.

وهذه الكتابات هي حروف من لغة «فاغز-با» التي استخدمها المغول وأضافها الفنان جيوتو على لوحاته ليسبغ عليها مسحة غرائبية أحضرها من الشرق الغامض، وأحضرها له شخص مسيحي. وقد تكون مجرد مصادفة لأن جيوتو رسم هذه اللوحات بعد 17 عاماً من زيارة الكاهن رابان ساوما، لكنها مصادفة غريبة. وربما تكون هناك فعلاً سلسلة من الأسباب والآثار التي تربط بين زانادو وبادوَا؛ إذ ثمة إمبراطور صيني قلق بشأن التواصل مع رعاياه، وراهب تبتي لامع، ومسافر تركي مسيحي يقطع مسافات طويلة، وبابا حريص على معرفة إمبراطورية المغول، وفنان يسبغ على تحفته مسحة صينية.

وقد طرح التفكير في انتقال محتمل لكتابات جديدة سؤالاً في ذهني، فقد تحدث معظم هذا الكتاب عن إنجازات كوبلاي غير العادية، لكن ثمة جانب آخر من حياته يثير الفضول أيضاً وهو إخفاقاته ونواحي قصوره. فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار مهاراته في القيادة ومستواه الفكري، ترى ما الذي كان يمكن أن يقوم به؟ فقد نشأت صلة خاصة بين الشرق والغرب كان من شأنها أن تحول عالمنا بطرق مذهلة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا لم يخترع كوبلاي الطباعة عن طريق الأحرف المنفصلة؟ لقد كانت موجودة بين يديه.

لننظر فيما يلي: لقد عاش كوبلاي في وضع فريد بين العديد من الثقافات، وهو يعلم بأنه لا توجد أية كتابة تناسب أغراضه، فجميع الكتابات كانت إما صعبة جداً أو غامضة جداً أو غير مقبولة من قبل الأعضاء الآخرين من عائلته الملكية. ونظرياً حلّت كتابة «فاغز-با» هذه

المشكلة بصورة جيدة حتى لو لم تترسخ في واقع الأمر.

وكان يحيط بكوبلاي الكثير من الكتب حيث تملك حكومته ألف كتاب، ويوجد في المجتمع بأكمله مليون كتاب. لكن لم يكن إنتاج الكتب بالطريقة التي اخترعت في الغرب من قبل يوهانس جوتنبرج في عام 1450 تقريباً، أي عن طريق استخدام حروف معدنية منفصلة لتكوين العديد من الصفحات في وقت واحد ثم طبعها بواسطة المطابع. لقد كان الأسلوب الشرقي من الطباعة الموجود منذ القرن الخامس يتم من خلال حفر النص أو الصورة بصورة معكوسة على الخشب ثم تغطيتها بالحبر وضغطها على الورق. وقد استُخدمت هذه التقنية في البداية لصنع الأختام والطوابع والصور الدينية. ثم في أواخر القرن الثامن بدأت الكتب الأولى بالظهور. أثبتت هذه التكنولوجيا فعاليتها وبساطتها من الناحية التقنية، لكن عيبها كان في عدم الكفاءة. فكان نحت قالب الصفحة الواحدة يتطلب عدة أيام، ولم ينتج القالب سوى صفحة واحدة، ولطبع نفس الصفحة مرة أخرى تحتاج إلى قالب جديد، فما بالك بطباعة كتاب كامل؟ امتلأت ساحات المطابع بقوالب الكتب القديمة التي استخدمت كحطب.

وقد كان الحل واضحاً، إذ لو تم جعل لكل حرف قالب منفصل خاص به، كما هي الحال في الأختام، فإنه يصبح بالإمكان تشكيل أي نص نريده وإعادة استخدام الأحرف بعد الطباعة. وعندئذ لا حاجة لنحت كل صفحة، ولا حاجة للتخلص من ملايين القوالب المهملة. هل تذكُر «بي شينغ» الذي يُفترض أنه قد اخترع الطباعة عن طريق قوالب الحروف المنفصلة في القرن الحادي عشر؟ فقد كانت فكرته أن تُنحت الحروف في الصلصال الرطب بالاتجاه المعاكس ثم شيها. ثم تُختار الحروف المطلوبة لتشكيل الكلمات، وصفّها في إطار، ثم تحبيرها وضغطها على القماش أو الورق. وقد كانت هذه التقنية فعالة حيث تحسنت واعتمدها الكوريون الذي طبعوا أول كتاب لهم عن طريق الحروف المعدنية المنفصلة عام 1234. وقد غزا المغول كوريا لأول مرة عام 1216، ثم عاودوا الكر والفر على مدى السنوات الخمسين اللاحقة. وقد ضم كوبلاي كوريا إلى الإمبراطورية المغولية عام 1271. لذا من المحتمل أن يكون كوبلاي نفسه، وبالتأكيد مستشاروه العلميون، قد عرفوا بالطباعة عن طريق قوالب الحروف المعدنية المنفصلة.

وكانوا يعلمون أيضاً المشاكل لأن متاعب هذه التقنية أكثر من مشاكل الطباعة عن طريق

قوالب الصفحات، فإيجاد الحرف المناسب من بين ثمانية آلاف حرف على الأقل، أو ربما 40 ألفاً أو أكثر بحسب متطلبات التصميم، لا يكسب التصميم أية ميزة إضافية، كما أنه لا يزيد كثيراً في سرعة إنجاز العمل. وشكلت هذه التقنية تهديداً لمهارتين قديمتين هما فن الخط ونحت قوالب الصفحات. غير أنه كان هناك من بقي مفتوناً بهذه الفكرة. ففي عام 1297 قام تشن وانغ، وهو قاض من دونغ بنغ في إقليم شاندونغ، بصف 30 حرفاً خشبياً في جدولين مستديرين دائريين لتيسير الوصول إلى الحرف المطلوب. وفي وقت لاحق أصدرت بعض الحكومات مطبوعات مذهلة عن طريق الحروف المنفصلة مثل موسوعة عام 1726 التي ضمّت 5 آلاف جزءاً واستخدمت 250 ألف حرف. لكن طريقة الطباعة هذه بقيت مرهقة للغاية للاستخدام اليومي، ولم تتجاوز كونها إحدى الغرائب التكنولوجية.

ومن هنا تمكن كوبلاي من معرفة المشاكل الحقيقية لكل من الطباعة عن طريق قوالب الصفحات والطباعة باستخدام الأحرف المنفصلة- أي نظام الكتابة الصينية. فالكتابة الصينية تتضمن مقاطع[1]، وهذا ما أخّر الطباعة الصينية حتى ظهور التقنيات الحديثة، كما أن الحاجة إلى تسويق الكتب والصحف على نطاق واسع هي ما أكسبت جهود تطوير هذه الصناعة الجدوى المناسبة في القرن العشرين.

لكن كوبلاي كان لديه الحل لتلك المشكلة من خلال الكتابة الأبجدية التي اعتمدتها قبائل اليوغور بتحريض من جده. ولديه أيضاً حل آخر من خلال الكتابة الأبجدية التي تتضمنها لغة «فاغز-با»، لذلك شكّل حلقة في السلسلة التي تمتد إلى 3400 عاماً خلت إلى الفترة التي بدأ فيها مجتمع المهاجرين في الشرق الأوسط في مصر القديمة بالتكيف مع الكتابة الهيروغليفية وتعرفوا على الاختراع الثوري المتمثل بالحروف الأبجدية.

فنظم الكتابة المبكرة الهيروغليفية في مصر والمسمارية في بلاد ما بين النهرين هي كالصينية تستند إلى المقاطع التي يبدو ظاهرياً أنها العناصر الطبيعية الأساسية للغة. لكن لدى اللغة مستوى أساسي أكثر، وهو الأصوات التي تبدو لا معنى لها وتشكل المقاطع.

---

(1) مع استثناءين اكتشفتهما عندما بدأت في بداية تعلمي للغة الصينية أناضل لتذكّر الحروف المكتوبة؛ وهي صوتي (r) و(dz) الحرّين كما في كلمتي «nar» (التي تعني أين)، وbeizi (التي تعني الكوب) على سبيل المثال؛ فهذان الصوتان لا معنى لهما بحد ذاتهما، لذا يمكن اعتبارهما حرفين.

فعبقرية الأبجدية، أية أبجدية كانت، تتجلى في أنها تستخدم رموزاً قليلة لا يتجاوز عددها بضع عشرات لتمثيل مجموعة كاملة من الأصوات اللغوية، وحتى غير الأصوات (مثل طريقة تكوين الشفتين قبل نطق الحرف (P). وتمثيل الصوت بالرمز ليس كاملاً كما يُزعم غالباً، فالقوة الكبيرة للحروف تكمن في ضبابية تمثيلها للأصوات، الأمر الذي يضفي عليها مرونة. وهذه الميزة هي التي تسمح لها تمثيل أي صوت في أي لغة بمجرد إتقان أساسيات كتابة اللغة بأحرف اللغة الأخرى: فالصوت (r) بالصينية يشبه الصوت (s) في كلمة treasure، والصوت (r) بالفرنسية يشبه الصوت (ch) بالاسكتلندية، و(r) بالألمانية يشبه صوت الحشرجة من الحلق، وصوت (r) عند الطفل في اللغة الإنجليزية هو غالباً أقرب إلى (w) (في كلمات مثل wound the wagged wocks the wagged wascal wan). هذا المزيج بين البساطة والضبابية يعطيها ميزة كبيرة على الكتابة على أساس المقاطع.

وهكذا أصبح تحت تصرف كوبلاي عدد من العناصر التي استخدمها جوتنبرج في إنتاج أسباب النهضة والازدهار بعد قرنين من الزمان. فقد أفل عصر الكتبة ونسي الزمن أساليبهم البطيئة الجميلة في الكتابة، وحل عصر المطبعة وبزغ العديد من مظاهر التقدم الأخرى خرج كل منها من عباءة الآخر، كالأسواق الضخمة وبرامج محو الأمية الشاملة والكتب الرخيصة وزيادة إمكانية تبادل المعلومات بين الباحثين. وكانت أفكار كوبرنيكوس غامضة وغير مفهومة في عصره، لكن بمجرد طباعتها سكنت المكتبات في انتظار قدوم جاليليو لتأصيلها وتوثيقها. وكذا الناسخ الذي احتاج إلى أسبوع كامل لينسخ بضع صفحات عالية الجودة، وسنة كاملة لكتابة نسخة من الكتاب المقدس. لكن جوتنبرج وفريقه ابتكروا تكنولوجيا جديدة تماماً وتمكنوا من طباعة 180 نسخة من كتابه المقدس الشهير في عامين. وبحلول عام 1500، وصل عدد المطابع في أوروبا إلى 250 مطبعة، صارت تطبع ألفي عنوان بواقع 200 ألف نسخة سنوياً أو أكثر. وبين عامي 1518 و1525 طبعت ألمانيا وحدها مليون كتاباً سنوياً، ثلثها من تأليف مارتن لوثر الذي تسبب كتابه المعادي للبابوية «خمسة وتسعون رسالة علمية» في حركة الإصلاح الديني، والذي يلام ويُثنى عليه في آن واحد لتسببه في أكبر انشقاق في تاريخ الكنيسة المسيحية. فوُلدت من عصر النهضة والإصلاح أوروبا الجديدة، أوروبا التي سيطرت على العالم، وهيمنت على التجارة، وأسست الأمم المتحدة، واكتشفت

أراضي جديدة، وهو على وجه التحديد ما كان جنكيز وكوبلاي يريدانه لإمبراطوريتهم.

وربما أمكن اندلاع ثورة من هذا النوع تحت رعاية كوبلاي. فقد كان لدى الصين في عهد كوبلاي التكنولوجيا والسفن والعلاقات العابرة للقارات عن طريق البر والبحر لدعم طموحاته الإمبراطورية. وقد خطا كوبلاي - أو مستشاروه متقدو الذكاء - خطوات واسعة نحو تحويل كتابة «فاغز-با» إلى حروف منفصلة معدنية يمكن صفها في أطر للطباعة، وكانت هذه الخطوة ترتكز على مبرر مالي أيضاً. ففي أوروبا كانت هناك ضغوط كبيرة من الدين تتجلى في الحاجة إلى جعل جميع المؤسسات المسيحية تقرأ الكتاب المقدس نفسه المعتمد رسمياً والخالي من الأخطاء. أما في الصين في عهد كوبلاي، فكان ثمة حاجة إلى طباعة كميات كبيرة من النقود الورقية المتعددة التصاميم والألوان لمنع التزوير. لكن لماذا لم يحدث ذلك؟

هنالك العديد من الخطوات التقنية الأساسية التي كانت غير موجودة، منها عدم وجود النوع المناسب للورق، فالورق في الصين كان آنذاك ناعماً وماصاً للأحبار يشبه أوراق المرحاض، وهو مثالي لفرش الكتبة والطباعة بالقالب. وأما في أوروبا فالكتبة يكتبون بالريشات التي تحتاج إلى ورق أقوى بكثير وعديم الامتصاص، وهو نوع الورق نفسه الذي احتاجه جوتنبرج لطباعة حروف صغيرة وواضحة. ثانياً، لم يكن في الصين الزيتون أو العنب الذي تحتاج إليها المطابع ذات الأداء العالي والتي استخدمها جوتنبرج في مطابعه. وثالثاً، كانت هناك حاجة لتوصل شخص ما إلى اختراع القالب اليدوي، وهو الاختراع المدهش لجوتنبرج الذي يمكن أن ينتج يومياً عدة مئات من الحروف الجديدة الرصاصية المنفصلة. وقد كان هذا الجهاز أساسياً في الطباعة طوال 500 عاماً، لكنه بات الآن غير موجود إلا في المتاحف.

وأخيراً ربما كان السبب الحاسم في عدم ظهور ثورة طباعية في الصين هو طبيعة الغرض من الطباعة، فالغرض من الطباعة بالأساس هو نقل المعلومات. لكني أعتقد أن المغول لم يكن لديهم أية معلومات يودون نقلها. فما أسسه كوبلاي هو مجرد كيان منغولي كبير مكرّس لخلق الثروة والسلطة لنفسه، ولا يهمه سوى البقاء إلى الأبد. وكان هذا التوجه مشكلاً دائماً، فقد كان التسامح إحدى السمات الأساسية عند جنكيز، لأنه اعتبر أن السماء

اختارته وورّثته حكم العالم. لكنه لم يعرف لماذا اختارته السماء وظل هذا لغزاً محيراً له، وبقي طيلة حياته يتساءل عنه آملاً في أن تأتيه الأديان بإجابة. وورث عن جنكيز خلفاؤه هذا التسامح والحرص على معرفة سبب اختيار السماء له، وسعى كوبلاي أيضاً للحصول عن إجابة على نفس السؤال. كما لم يكن لدى المغول ميراث أدبي أو فني مهم، وجل ما فعلوه في هذا الجانب هو تشجيع حركة انتقال الفن والأدب من لدن رعاياهم الصينيين.

لذا كان هناك خواء فكري وفني في المشروع الإمبراطوري المغولي، الذي انحصر هدفه في قهر الشعوب وحكمها وتمويل وجوده، وهذا السلوك لا يكفي لبناء حكومة، ناهيك عن بناء حكومة تستطيع السيطرة على إمبراطورية بحجم إمبراطورية كوبلاي، ولذلك لم يكن لدى المغول الشيء الكثير ليقولونه.

وهكذا نال جوتنبرج شرف اختراع الطباعة، وانتقل كتاب «الرحلات» الذي كتبه ماركو بولو من النسخ اليدوي إلى الطباعة، مما وسّع نطاق انتشاره. وقبل فترة من ظهور النسخ الأولى من الكتاب باللغة الألمانية في سنة 1477، جرى إغلاق الطريق التي سلكها ماركو بولو بسبب انهيار الإمبراطورية المغولية وعودة المسلمين إلى مسرح الأحداث بعد استيلائهم على القسطنطينية التركية سنة 1453.

وهكذا تحول تجار أوروبا مجدداً إلى الطريق البحري شرقاً كي لا يرتبطوا بوسطاء التجارة المسلمين، وكان هؤلاء التجار يسافرون للحصول على مجموعة من البضائع الأساسية مثل الحرير والأحجار الكريمة والتوابل التي جلبتها السفن الصينية إلى ماليزيا، ثم السفن العربية إلى الهند وفارس وأفريقيا وشبه الجزيرة العربية، ومن هناك عبر البحر الأحمر إلى منطقة البحر المتوسط. وبسبب طول الطريق كانت أسعار التوابل الشرقية تتضاعف 50 ضعفاً قبل أن تصل إلى المطابخ الأوروبية، فكان على الأوروبيين أن يسافروا ويجلبوها بأنفسهم. وهكذا بدأ سباق اكتشاف رأس الرجاء الصالح والإبحار حولها، مما جعل كولومبوس يفكر في الوصول إلى الشرق من خلال الالتفاف حول العالم من جهة الغرب.

إذاً كان هدف كولومبوس الوصول إلى الصين وأرض الخان العظيم، لكننا نتكلم عن تسعينيات القرن الخامس عشر، في حين أن كتاب ماركو ظهر عام 1300 تقريباً، فهل يُعقل

أنه بعد مرور قرنين من الزمان ما زال الخان العظيم على قيد الحياة؟ هذا غير منطقي بالطبع. لكن عندما أغلق المسلمون باب الطريق البري في منتصف القرن الرابع عشر، انقطعت أخبار الصين عن الأوروبيين، ولم يعودوا يعرفون ما يحدث هناك. فحسب معلوماتهم، كان كوبلاي خان شخصاً خالداً ولم يحاول أحد تفنيد هذه الفرضية. وكما قال جون لارنر في كتابه «ماركو بولو واكتشاف العالم»: «بالنسبة لأوروبا، فإن الخان العظيم ما زال حياً وقد حكم مدة 130 عاماً بعد طرده من الصين».

وكان كريستوفورو كولومبوس بحاراً من جنوة مهووساً بحلمه، سعى على مدار سنوات للحصول على دعم البرتغاليين، لكن الدعم جاءه في نهاية المطاف من إسبانيا لينجز مهمة خدمت جميع شعوب العالم إلا سكان أميركا الأصليين. لقد أصبح معروفاً تاريخياً أن كولومبوس أراد الوصول إلى الصين التي حكمها كوبلاي لأنه قرأ وصف ماركو بولو عنها. والمفترض أن كولومبوس أخذ معه كتاب «الرحلات» في رحلته الأولى سنة 1492 ليضمن الوصول إلى طريقه، إلا أن هناك جدلاً واسع النطاق بين الباحثين في هذا الجانب، ويظن غالبية الباحثين أن كولومبوس لم يأخذ معه كتاب ماركو بولو. ولخص الباحث «جون لارنر» رأيه قائلاً: «كولومبوس لم يمتلك نسخة من كتاب ماركو- باللغة اللاتينية وقد طبع الكتاب عام 1490. ولأن كولومبوس لم يحب القراءة كثيراً، فإنه على الأرجح حصل على الكتاب بعد عودته من العالم الجديد للتحقق من اكتشافه».

وربما أتى مصدر إلهام كولومبوس من مصادر عدة، منها ماركو بولو في القرن الخامس عشر، الذي أصبح مراسلاً معترفاً به وقد دمج معلومات كتابه في «الخرائط»، إن جاز إطلاق اسم «خرائط» على هذه الافتراضات الخيالية. ومن المحتمل أن تكون قد خطرت لكولومبوس هذه الفكرة نتيجة لرسالة كتبها منجّم وباحث من فلورنسا اسمه «بوزو توسكاليني» الذي كان عضواً في جمعية بحثية غير رسمية في أوروبا. ومن أعضاء هذه المجموعة رجل دين برتغالي اسمه فيرنيو مارتينز، وقد أصبح كاهناً في لشبونة ومستشاراً لألفونسو الخامس البرتغالي. وفي عام 1474 أرسل له توسكاليني خريطة مع رسالة قال فيها: «لقد تحدثت معك ذات مرة عن طريق أقصر للوصول إلى بلاد التوابل عن طريق البحر، مروراً بغينيا». وتابع توسكاليني: «يُقال إن هناك ميناء اسمه (زيتون) يحكمه أمير اسمه

الخان العظيم، هذا الخان يحكم العديد من المدن». وتقع هذه المدينة في مقاطعة المانجي (جنوب الصين) بالقرب من محافظة كاثي الشمالية. وقد تصادف أن كولومبوس كان في لشبونة في ذلك الوقت، ويعتقد لارنر أن كولومبوس رأى رسالة توسكاليني ومنها حصل على معلومات ماركو، ولكن عن طريق وسيط.

وعندما أبحر كولومبوس بحثاً عن كاثي في سنة 1492، سجّل في يومياته أن الملك فرديناند والملكة إيزابيلا اللذين سانداه في مهمته، أعطياه رسائل إلى «الخان العظيم وجميع ملوك الهند وأمرائها». وعندما وصل إلى كوبا، علم بوجود نهر إلى الأمام وقال إنه سيسعى للوصول إلى الخان العظيم الذي اعتقد أنه في تلك المنطقة أو إلى مدينة كاثي التي حكمها الخان والتي ظنها شديدة الاتساع حسب مصادره». (وصف كولومبوس لـ «كاثي» بلفظة «مدينة» يعني أن مصدر معلوماته شفهي وأنه لم يقرأ كتاب ماركو بولو).

إنها سلسلة غير عادية من الأسباب والنتائج، فقد كتب ماركو في كتاب «الرحلات» أن كوبلاي رحب به، مما أوحى لكولومبوس ببداية الرحلة، وربما كان ذلك أعظم إسهام لكوبلاي في تاريخ العالم؛ إذ كان بمثابة المغناطيس الذي جذب كولومبوس غرباً وحقق التواصل بين العالمين القديم والجديد.

وفي سنة 1492 أصبح كوبلاي متجذراً في الوعي الغربي ملكاً لا حدود لملكه، ولم يعد كابوساً للغرب كما كان جده. وقد وصلت أخبار كوبلاي إلى أوروبا باللغة الإنجليزية بفضل كتاب «الرحلات» لماركو بولو، وقد ترجمه إلى اللغة الإنجليزية الكاتب ريتشارد هاكليوت عن الترجمة الإيطالية (التي أنجزها راموسيو)، وخرجت الترجمة في ثلاثة مجلدات (بين عامي 1598 و1600). وقام زميله صامويل بورشاس بتحرير هذا العمل مع عمل آخر للكاتب هاكليوت وأبحاث أخرى، وأصدر كتاباً أكبر نُشر في طبعات مختلفة كان آخرها طبعتي «هاكليوتوس ما وراء التراب» (Post-humus Hakluytus) و»رحلات الحج لبورشاس» (Pilgrimes Purchas His) في عام 1625. وفي خلاصة الكتاب نقرأ: «قام كوبلاي خان ببناء قصر فخم في زانادو، أحاطت به أراض مساحتها ستة عشر ميلاً وطوقه بجدار ضخم. وضمت الأراضي المحيطة سهولاً خصبة وينابيع رائعة وجداول رقراقة، فضلاً عن جميع أشكال حيوانات الصيد. وفي قلب القصر قام منزل فخم امتلأت

أركانه بصنوف الأُنس وأنماط المتع».

ولكي نعرف قصة كتابة هذا العمل علينا أن نسافر 170 عاماً في الزمن حتى نصل إلى أمسية أدبية انعقدت في شهر يونيو 1797. المشهد عبارة عن مزرعة معزولة على سفوح تلال إكسمور القريبة من الساحل بين قريتي بورلوك ولينتون الإنجليزيتين. يدخل الشاعر صمويل تايلور كوليردج إلى المزرعة التي يقيم فيها عائداً من نزهة طويلة سيراً على الأقدام ناجى فيها الطبيعة. لكنه شعر أثناء نزهته بألم كبير في معدته ناتج عن مرض الزحار (الدوسنتاريا) كما يسميه، فتناول بعض الأفيون، وقرأ مقطعاً من بورشاس، ونام وحلم أحلاماً مثيرة. وأثناء نومه أيقظه «شخص يعمل في ميدان الأدب من قرية بورلوك، وهو من أشهر الشخصيات التي تحمل اسماً مستعاراً في التاريخ الأدبي، وقد بقي مجهولاً لأن كوليردج درج على هذه العادة، وربما كان هذا الشخص أحد التجار الذين تعاملوا معه (البعض اقترح ذلك). فاستيقظ وعلى طرف لسانه قصيدة كتبها في 300 بيت، وأجرى معه اتفاقاً تجارياً نسي فيها معظم القصيدة ولم يتذكر إلا بضعة أبيات منها. وسعى جاهداً خلال الأسابيع التي تلت ذلك ليتذكر ذلك الجزء من القصيدة الذي أصبح من أشهر قصائد اللغة الإنجليزية:

في زانادو قضى كوبلاي خان

بإقامة قبة للأنس فخمة

حيث جرى النهر القدسي ألفُ

عبر كهوف لا يقدر أن يسبر غورها الإنسان

ليصب ببحر لا تشرق فيه شمس.

عشرة أميال من الأرض الخصبة

أحيطت بالجدران وبالأبراج

وحدائق زاهية تتلوى داخلها الجدران

وتزهر فيها أشجار بخور عدة،

وثمة غابات غابرة كالهضبات سحيقة
تتكشف عن بقع مشمسة خضراء.
عجباً! تلك الهوة الغائرة الرومانسية
تنحدر من التل لتخترق تعاريش من شجر الأرز
مكان وحشي! يشبه في قدسيته وسحره
مكاناً مسكوناً بشبح امرأة تنتحب على عشيقها الشيطان
ومن تلك الهوة، بغليان هياج متواصل
وكأن هذي الأرض تتنفس بنفثات لهاث متحشرجة وسريعة،
تفجّر نبع جبار فجأة
وفي خضم تفجره بنوبات متسارعة
تتقافز أشظاء هائلة كوابل برد يرتد عن الأرض بعيد سقوطه
أو كعصف متناثر من تحت المِدرَس،
ووسط هذا الصخر الراقص باستمرار
قذف النبع النهرَ القدسي ليجري
خمسة أميال متلوياً منساباً كمتاهة
عبر الوديان والغابات جرى النهر القدسي
ليبلغ إذ ذاك كهوفاً لا يقدر أن يسبر غورها الإنسان
فغار بنوبة هيجان نحو محيط لا حياة فيه
ووسط خضم الفوضى هذه يسمع كوبلاي
عن بعد أصوات الأسلاف منبئة بالحرب!

وطفا ظل القبة

فوق الأمواج إلى منتصفه

حيث تناهى للأسماع اللحن الممتزج

الآتي من النبع وتلك الكهوف.

إنها معجزة نادرة

قبة أنس مشمسة ذات كهوف ثلجية!

فتاة بين يديها آلة قانون

رأيتها ذات مرة في رؤيا

كانت فتاة حبشية

تعزف على قانونها

وتغني لجبل أبورا.

فلو استطعت أن أحيي في داخلي

سمفونيتها وأغنيتها

لبلغت بي البهجة مبلغاً

يجعلني أشيّد بألحان متواصلة ثرة

تلك القبة في الهواء

تلك القبة المشمسة! تلك الكهوف الثلجية!

وكل من يسمع لا بد أن يراهما هناك

والكل لابد أن يصرخ، حذار! حذار!

من عينيه المبرقتين، وشعره المتطاير في الهواء!

انـــــسجـــوا ثـــــلاث دوائـــــــــر حـــولـــه

وأغـــــمــــضـــوا أعـــيـــنـــكـــم بـــوجـــل ربـــانـــي

فـــــقـــــد كـــــــان طـــــعـــــامـــــه الـــــمـــــنّ

وشـــــــرابـــــــه حـــلـــيـــب الـــــفـــــــردوس.

وبطبيعة الحال ليس هناك أي شيء في هذه القصيدة يشير إلى كوبلاي، كما أن زانادو تخلو تماماً من الكهوف والغابات والهوات، ولا توجد بها أشجار بخور، وليس فيها سوى نهر بطيء الحركة وتلال عارية من الأشجار، وبحر شمسه كشمس غيره من البحار، يبعد عنها مسيرة يومين على ظهر الدواب. فالقصيدة في الواقع من وحي تلال كوانتوك وساحل سومرست ومنحدراتها التي تكسوها الغابات، وثلة من المراجع الأدبية، وعشق كوليردج للطبيعة، وإدمانه المتزايد على الأفيون. أنا لست متأكداً من أن تأثير الشعر ما زال بقوته حتى يومنا هذا، لكن هذه القصيدة هي لوحة سريالية لمزيج من صور ساحرة جعلت اسم «كوبلاي خان» يترسخ في أذهان الناطقين باللغة الإنجليزية الذين لم يسمعوا عن كوليردج ولو مرة واحدة في حياتهم.

لكن لماذا ترسخ اسم زانادو في أذهان الناس؟ قد يستغرب هواة السينما إن علموا أن زانادو هو اسم مكان حقيقي. فهواة السينما يعرفون أنه اسم القصر الشهير في فيلم «المواطن كين» الذي أخرجه أورسون ويلز عام 1941، ويعرفه عشاق موسيقا البوب من جيل السبعينيات بأنه اسم إحدى أغاني المغنية الشهيرة أوليفيا نيوتن جون. وأيضاً بالنسبة لخبراء تكنولوجيا المعلومات، فإن زانادو هو اسم أطلقه عالم المعلوماتية تيد نيلسون على فكرة نشر المعلومات عبر العالم على شكل نص تشعبي، وهي فكرة وصفها «مشروع زانادو الإلكتروني» بأنها «مصدر إلهام لشبكة الويب العالمية». يقول تيد نيلسون صاحب الفكرة: «لم نحصل على اسم زانادو من أوليفيا نيوتن جون. زانادو هو مكان حقيقي في منغوليا [وهذا خطأ يا تيد. المكان في الصين في حقيقة الأمر]، والمكان ورد في قصيدة رومانسية إنجليزية، ربطت اسمه بالذاكرة والنسيان. لأن كوليردج قال إنه نسي جزءاً من القصيدة بسبب انقطاعه عنها لأسباب دنيوية. لقد اخترنا اسم «زانادو»، الغني بالدلالات، ليصبح مكاناً سحرياً من

الذاكرة الأدبية والحرية، ولا يستطيع الإنسان أن ينساه».

وعندما نصغي إلى هذه الروايات والأصداء التي تشوهت بفعل الزمن، ندرك أننا ابتعدنا كثيراً عن شانغدو التي حكمها كوبلاي، لكنه هو الذي أطلق المبادرة التي كانت بداية كل شيء، وأعتقد أن كوبلاي سيُسر كثيراً إن علم أن صيته وصلت إلى هذا الحد.

الفصل السابع عشر

جبل مقدس ومدفن سري

جاءت نقطة التحول في سنة 1281 عندما كان كوبلاي في السادسة والستين من عمره، وامتدت إمبراطوريته إلى أقصى اتساع لها، وأدرك متأخراً أن إمبراطوريته لن تمتد أبعد من ذلك فبدأ اليأس يعرف طريقه إليه. وربما إن تناولنا شخصية كوبلاي من منظور علم النفس الحديث، نجد أن هذا الرجل - الذي كان الأقوى في العالم في عصره - تحدى التسليم بأن الأحلام تموت والطموح يذبل والجسد يشيخ، وأنه لم يقبل سوى بطموحه لبناء إمبراطورية تستطيع الصمود داخل الحدود التي وضعها لها؟

كان عام 1281 حاسماً بمعنى الكلمة في حياة كوبلاي خان، وفيه ماتت زوجته الحبيبة تشابي التي كانت صاحبته ومستشاره الأول خلال 41 عاماً. ففي أول عشرين عاماً من زواجهما - قبل أن يتولى الإمبراطورية - أنجبت له أربعة أبناء من بينهم ولي عهده جينجيم وخمس بنات، وقامت على تربيتهم وتثقيفهم بكل الثقافات المحيطة بهم، الثقافة المنغولية والصينية والبوذية والكونفوشيوسية.

وكانت زوجته مشهورة باقتصادها في الإنفاق وذوقها الرفيع، واعتادت أن تأمر نساء القصر بجمع أوتار الأقواس القديمة التي كانت تُستخدم كخيوط في نسج الملابس. وقامت بإعادة تصميم القبعات المنغولية، حيث زادت فيها جزءاً من الأعلى لحماية مرتديها من حرارة الشمس، ولم تكن زوجة كوبلاي المفضلة مزهوة بنجاحات زوجها. فبعد انتصاره على عاصمة إقليم سونغ في عام 1276، حذرته من الانجراف وراء الطموح المفرط قائلة: «سمعت خادمتك أنه من سالف العصور لم تستطع أية مملكة أن تحافظ على أوجها ومُلكها ألف عام»، وتأكدت بنفسها أن إمبراطورة إقليم سونغ الأسيرة تحظى بمعاملة محترمة وإنسانية في الأسر.

وفي هذه الآونة حدثت الفضيحة التي تمثلت في مقتل الوزير المسلم الجشع غير المحبوب «أحمد»، وكان مقتله دليلاً مفاجئاً على سوء تقدير كوبلاي. ولكن كانت خلافته مأمونة متمثلة في «جينجيم»[1] ابنه الثاني من زوجته «تشابي»، فهو الآن في ريعان شبابه، 38 عاماً، وقد كان دائماً ولي العهد المُعَد، ذلك أن أخاه الأكبر مات في طفولته، وبعد مقتل «أحمد» أصبح ملك نفسه، وأسرع كوبلاي إلى الزواج من امرأة أخرى اسمها «نامبوي»،

(1) الاسم يعني «الذهب الخالص».

وهي إحدى بنات عم تشابي. وربما كانت تشابي هي من اختار نامبوي قبل وفاتها لتمنح زوجها الدعم الذي يحتاجه. وبدا الاختيار موفقاً، واتضح أن كوبلاي لا يزال قادراً على مواجهة الحياة. ففي سن السبعين تقريباً عزم كوبلاي على الإنجاب من نامبوي، وبالفعل وضعت له ولداً، وبدأت تتصرف كوسيط له في محاولة منها لحمايته من فرط الإجهاد.

وكانت المسؤولية تُلقى على عاتق «جينجيم» شيئاً فشيئاً، حتى إنه في عام 1285 لاحت لأحد المسؤولين البارزين فكرة أن يتنازل كوبلاي عن العرش لابنه، ورغم تحفظ «نامبوي» علم كوبلاي بذلك، وغضب غضباً شديداً، وأدى ذلك الأمر إلى حدوث أزمة بين الابن وأبيه، ذلك أن كوبلاي اتهم ابنه بالخيانة، لكن الفاجعة داهمت الجميع لما مات «جينجيم» بعد أن أقعده المرض الذي ألَمَّ به من جراء وباء غير معروف، ولكن كوبلاي العجوز ما زالت لديه بقية قوة تكفيه بأن يقوم بآخر مجهود له، فقد كان يحتاج إليه.

حدث كل هذا حين نشط ابن عم كوبلاي الذي يُدعى كايدو - المثير للمشكلات والمفعم بالطموح - في آسيا الوسطى، وكاد لا يعرفه أحد في الصين في غمار نشاط الإدارة والتجارة الخارجية، لكنه انشغل ببناء الدعم حول حدود الإمبراطورية التي تمتد جنوباً إلى التبت وشرقاً إلى منشوريا. ولذلك كان على كوبلاي أن يأخذ حذره حتى لا يتلقى طعنة من الخلف.

وفي التبت كان خليفة «فاغز-با» في وقت موته عام 1280 صبيّاً في الثالثة عشرة من عمره، التُقط من إحدى المحاكم المنغولية، مما تسبب في تذمر كبير على المستوى المحلي، وفي عام 1285 سلكت إحدى الطوائف البوذية مسلك العنف؛ إذ هاجمت أديرة طائفة «فاغز-با» المسماة «ساسكيا» وربما حدث هذا بشكل عفوي، لكن كايدو رأى أن فرصته قد حانت بذلك، وقام معاونه «دوا» بمساعدة المتمردين، وهرع إلى الحاميات التابعة لكوبلاي ومحطات تحويل البريد في أراضي الإيغور، المعروفة الآن باسم مدينة «شيانغ يانغ». وقام «دوا» بحصار مدينة «خارا-خوكو»[1] على مدار ستة أشهر، وهاجم أسوار السدود مستخدماً كمية كبيرة من المنجنيق وقاذفات النفط، لكن دون جدوى، ولم يقلع عن ذلك إلا عندما قام حاكم المدينة البائس بإلقاء ابنته من على الأسوار كهدية بعد ذلك بعام استولى كايدو على

(1) الآن هي بقايا قديمة تبعد 45 كيلومترا شرق «تروبان».

«أوريمكي»[1]، وهي عاصمة الإيغور.

وفي عام 1288 قام 1.050 من الحرفيين بالهجرة من هوتان وكاشغار بحثاً على وظائف أكثر أماناً في الشرق، وهو دليل على أن المزيد من الأحداث كانت في طريقها إلى الوقوع. وبالفعل في العام التالي أمر كوبلاي بالانسحاب الكامل من شيانغ يانغ تاركاً كايدو، وقد أصبحت لديه مساحة تبلغ ضِعف أراضيه الأصلية. ثم أرسل كوبلاي حفيده الأكبر على رأس جيش، فقضى على المتمردين وقتل نحو 10 آلاف[2]، وأُصلحت محطات تحويل البريد، وعادت السيادة للمغول، وتحولت التبت إلى حالة من الركود في القرن التالي.

ونشط كادو في هذه الفترة في جميع الأنحاء، ففي عام 1287 هدد بالاتصال بالأمير نايان الشجاع الذي كان في الثلاثين من عمره، وهو أخ غير شقيق لجنكيز في منشوريا. وأصبح كوبلاي أمام احتمال مخيف عندما باتت جميع الحدود الشمالية لإمبراطوريته - وجزء كبير من أراضي شيانغ يانغ السهلية مروراً بوطنه المنغولي الأصلي وصولاً إلى منشوريا - معرّضة للضياع لصالح الإمبراطورية البدوية الرعوية التي طالما تعلق بها طموح المتمردين.

واختار كوبلاي بطلاً اسمه بيان، وكان جنرالاً وكبيراً للمستشارين وقام بتنفيذ حملة سونغ، وكلّفه باستقصاء المعلومات[3]. ووفقاً لأحد المصادر، أوشك بيان أن يقبل دعوة الأمير نايان على مأدبة لكنه علم بخديعة دبَّرها له الأمير نايان، فأعد عدته للهرب. وقرر كوبلاي أن يتخذ إجراء صارماً في هذا الصدد. ورغم أن التفاصيل غير واضحة، فقد أرسل كوبلاي بيان ليقوم بفصل المتمردين عن بعض عن طريق احتلال كاراكورام- وقاد هو بنفسه جيشاً آخر ضد نايان.

ويروي ماركو بولو القصة بطريقته المبالغ فيها كالمعتاد. فعلى مدار 12 يوماً ظل كوبلاي يجمع قواته التي بلغ عددها 360 ألف فارس و100 ألف جندي مشاة[4]. واستشار كوبلاي

(1) كان يُطلق عليها اسم «شباليه» في ذلك الوقت.

(2) تقول المصادر: «إن هذا يبدو كثيراً».

(3) أعرف أن بيان في مقابل «نايان» شيء مربك، لكن هذا ما حدث.

(4) وهي أرقام مستحيلة يجب على الفور أن يخفضها بنسبة 90 ٪، وحتى إن فعلا ذلك فجيش قوامه 46 ألف جندي يعد قوة هائلة.

المنجمين الذي تنبؤوا له بالنصر، فأصدر أوامره بإرسال مستكشفين للقبض على أي شخص يرونه حتى يضمنوا عدم ذيوع أمر تقدم الجيش وعدم تسرب أخبارهم. وقد حُمل كوبلاي إلى وحدة القتال المتحركة المجهزة له – وكانت بمثابة حصن مُصغَّر تحمله أربعة أفيال منضمة إلى بعضها – وبعد زحف استمر 20 يوماً، وصل الجيش إلى سهل في بقعة ما من الأراضي المفتوحة الشاسعة في جنوب شرق منغوليا.

وفوجئ المتمردون بذلك، لكنهم احتشدوا، وانخرط الجانبان في الغناء والعزف، وبعدها بقليل دقت الطبول والمراجل – التي بلغ طولها مترين طولاً وعرضاً – والمغطاة بجلود الجاموس معلنة الأمر بالهجوم. تتابعت السهام كالمطر وتصادم الرجال بالقضبان الشائكة المستخدمة في كسر الدروع والرماح والسيوف، وتعالت صرخات الجرحى، واشتد وطيس المعركة كالرعد يدك السماء، كما هي عادة حروب القرون الوسطى.

وفي النهاية تنتهي المعركة بانتصار كوبلاي ويقع الأمير نايان أسيراً، ويتم إعدامه بالطريقة المعتادة للأمراء – دون أن ينزف نقطة دم واحدة، إذ تم لفه في بساط وقذفه ذهاباً وإياباً دون رحمة حتى أسلم الروح. أما كايدو – ذو الإستراتيجية البارعة – فرجع إلى جهة الغرب ليتفادى الحرب، مفضلاً أن تظل جيوشه بكامل قوتها استعداداً للهجوم المفاجئ المعتمد على الكر والفر[1]، ولذلك لم يكشف عن أوراقه، لكن هذا التراجع حال دون قيام تحالف بين المتمردين في آسيا الوسطى ومنشوريا على أقل تقدير.

وبعد سيطرة بيان على كاراكورام وعلى المناطق المجاورة لها من جديد، لم يحاول كايدو – الخان الفعلي لآسيا الداخلية – التوسع خلال السنوات الثلاث التالية. وقد تلقى بيان تعنيفاً بسبب تركه كايدو ينجو، مما تسبب في اتهامه بالتحالف مع كايدو ودفع كوبلاي لتنحيته من القيادة ونفيه إلى مدينة داتونغ الواقعة في إقليم جانجشي (Guangxi) الشمالي انتظاراً لأوامر أخرى. وقبل أن يرحل بيان دفع التهور كايدو إلى الرجوع، لكنه هذه المرة تعلم درساً شديد القسوة فتم أسر ثلاثة آلاف من جنوده، وكان درساً كافياً لحبسه خلف الحدود التي أقامتها قوات اليوان، ولم تظهر أية محاولات جديدة من كوبلاي لاستعادة السيطرة على آسيا الوسطى، مما دفع الأمور إلى طريق مسدود.

---

(1) وقد ألهاه النزاع الذي نشب مع الفرس، وبقي طيلة حياته معادياً للفرص، لكن هذا موضوع آخر.

وبقيت هذه الورطة حتى موت كوبلاي في سنة 1294، واستمرت بعدها أيضاً. فبالنسبة لولي عهده تيمور الذي تخلى عن مخططات جده المبالغ فيها والمتمثلة في توسيع فتوحاته الخارجية، فقد رأى أنه يستطيع النهوض بمهمة ردع التمرد داخل البلاد، لكنه أساء التقدير. ففي سبتمبر 1301 أرسل قوات هائلة تفوق قوات كايدو بأعداد ضخمة، ليلتقي الجيشان في أربع معارك في جنوب غرب منغوليا. وقد بدأت جبال «ألتاي» تتلاشى في سهول غوبي. وتختلف المصادر التاريخية في تحديد المنتصر في هذه المعارك، ويبدو أنه من المنصف القول: «إن أحداً من الطرفين لم ينتصر على الآخر»، ولذلك لم يكن هناك حل نهائي. ولكن الحل جاء هذه المرة من كايدو الذي رغم جهود الأطباء الصينيين في علاجه، مات بعد فترة من المعركة إثر جراح ألمت به. وحسبما يقول رشيد الدين: «ربما مات كايدو بسبب التعب الذي لحق به بعد 45 عاماً من الحملات العسكرية، وقد كان في السبعين من عمره.

وقام «دوا» - وهو صانع الملك - بتتويج شابار الابن الأكبر لكايدو، وطبقاً لرشيد الدين فقد كان شابار شاباً بغيضاً شديد الهزال، لكنه قبض على زمام نفسه، ونجح في التخلص من كل ورثة كايدو المعارضين له حتى وفاته.

بعد ذلك أعاد شابار إحكام سيطرته على الأمور ورأى ألا طائل من الصراع، فتنازل عن إقليم يونان في سنة 1310، ورحل إلى القصر الذي رفض والده إنشاءه في سنة 1264، واضعاً نهاية لتحدي السلطة الإمبراطورية من وسط آسيا. وكانت الخسائر الشخصية والثورة والهزيمة في الخارج أكثر مما يجب، لذلك انصرف شابار إلى الاهتمام بالطعام والشراب، وتهافت على ولائم القصر التي حفلت بألوان وأصناف الطعام والشراب، كلحم الضأن المسلوق وصدر الحمل والبيض وفطائر الخضروات المتبلة بالزعفران، والشاي المحلى بالسكر، والشراب المغولي المفضل (أيراج)[1]. وكان هذا هو الشراب الذي ابتلي به شابار، فكان يتجرعه مع خمور أخرى بكميات هائلة، فخارت قواه وزاد وزنه عاماً بعد عام، حتى مرض بفرط السمنة.

وكان شابار على يقين بأنه على وشك الموت لكنه لم يأبه، فقد علم شابار أن عمره لم يبق منه الكثير، فعقد سلاماً مع شبح وريثه المفقود عن طريق تعيين تيمور ابن جينجيم الثالث

(1) هو لبن الفرس المخمر كما هو معروف باسمه التركي «كيومس».

خليفة له. وحدد شابار المكان الذي أراد أن يُدفن فيه فعاد إلى مسقط رأسه - معقل الشعب المغولي - حيث تلتقي السلاسل الجبلية بالمراعي الخضراء.

في هذه البقعة مات جنكيز خان بعيداً عن وطنه في جبال ليوبان بإقليم «نينج سيا» (Ningxia) على حافة أرض «تشي شيا» وحُمل جسده في موكب جنائزي مهيب سار نحو الشمال عبر البحر الأصفر على امتداد جبال «هلان» عبر مراعي منغوليا الداخلية، وعبر سهول صحراء غوبي ونهر خيرلين، حتى وصل الجثمان إلى جبل «بورخان خلدون» المقدس لدى المغول. وقد وصل المغول أول مرة إلى هذا الجبل سنة 800 قبل الميلاد[1]. وعرف جنكيز هذه المنطقة بنهري خيرلين وأونون وجبل «خنتي» الذي ينبع منه نهران.

كان جبل بورخان خلدون هو الأرض التي طالما راوغ جنكيز أعداءه عليها، وكان الوحي[2] يأته عنده، ويقول له إن السماء الأبدية العليا تؤيده في بناء أمة وإمبراطورية. وتعهد جنكيز بتقديم فروض الشكر للجبل يوماً بعد يوم. وقد جاء ذكر هذا المكان في الروايات الشفهية وفي ملحمة تأسيس الدولة المغولية («التاريخ السري للمغول» الذي كتبه «شيجي»)، وفي ملحمة تضمنت سيرة عائلة جنكيز منذ أن كان طفلاً. ولم يكن من المتصور أن يُدفَن جنكيز في أي مكان غير هذا الجبل، ولم يكن منطقياً أيضاً أن يسمح شعب جنكيز لأي أحد بتدنيس هذه البقعة، فالناس هناك يقولون دائماً: «لا أحد يعلم أين دُفِنَ جنكيز»، فلا تصدقهم لأن كل فرد في منغوليا يعلم أين دفن جنكيز. فقد دُفن في بقعة معروفة ومحددة على سفوح جبل «بورخان» الشاسعة المستديرة، المغطاة بالأشجار، وركام الأحجار، حيث كانت الخيول تتجول في المكان ويقف الحراس على مسافة مناسبة. فكانت مقبرة جنكيز معلومة للجميع.

واليوم يعتبر الباحثون عن الكنوز أن جبل بورخان خلدون أرض ميعاد سيتم فيها اكتشاف ثروة عظيمة لا تنضب يوماً ما، لكن المغول يقولون إن «هذا الكنز لن يعثر عليه أحد؛ لأن جنكيز المقدس أراد ذلك». وقد كان النظر بالعين الإمبراطورية إلى هذه البقعة

(1) تعني «خلدون المقدس» كما يتم ترجمة الاسم عادة رغم أن هناك من يقول: (إن كلمة «بورخان» ليست سوى كلمة قديمة لـ «شجر الصفصاف»).

(2) أو كما اعتقد شعبه كذلك؛ لأنه أخبرهم بذلك.

ما جعل كوبلاي يعهد لأحفاده كامالا بمسؤولية صحراء أوردوس لجنكيز والقصور الغنية بخيامها وممتلكاتها في سنة 1292. فذكر المؤرخ الفارسي رشيد الدين أنه بعد بضع سنوات من موت كوبلاي، تضمن الفناء المحظور لجنكيز خان، والذين يطلقون عليها اسم «بورخان خلدون». وحيثما لا تزال صحراء أوردوس الخاصة بجنكيز موجودة - وهذه الأخيرة حماها كامالا - وكانت هناك أربع صحارٍ عظمى اسمها أوردوس وخمسة أخرى، ولم يُسمَح لأحد بدخولها. وقد وضعت العائلة صوراً لها هناك ويقومون بصفة مستديمة بحرق العطور والبخور عندها. وأعتقد أن كوبلاي أراد أن يثبت نفسه ويؤكد أنه ليس كايدو أو أي متمرد آخر متجرئ على المطالبة بحقوق في هذه البقعة المباركة.

ومن المرجح أن خيمة الأضرحة نُصبت عندما وصل كامالا لحراسة موقع المقبرة الذي حُفر قبل 70 سنة من هذا التاريخ، والمكان كان مكسواً بالعشب منذ أمد بعيد، لكنها كانت خياماً مؤقتة. وفي الوقت المناسب، فإن الخيام البالغ عددها ثمانية ستصبح تسعة، وكانت الخيام الثمانية البيضاء تقوم كضريح متنقل يتحرك عبر الأراضي المغولية، ليستقر أخيراً في جنوب مدينة «دونغ شينغ» في «منغوليا الداخلية». وأصبحت هذه الخيام اليوم ضريحاً لجنكيز خان، أراد كابالا مكاناً مستديماً يتمكن فيه من ممارسة طقوس تبجيل جنكيز وكوبلاي في الوقت المناسب، كما أضاف رشيد الدين: «قام كامالا أيضاً ببناء ضريح له هناك». وبدا جبل بورخان خلدون مثل «ملك ختني» على الخرائط رغم أن البعض يقول بعدم وجود تطابق بين الاثنين، لكني لا أصدق ذلك ولا الحكومة أيضاً، لأنه كل ثلاث أو أربع سنوات يذهب الوزراء والنواب - ضمن وفد يتكون من اثني عشر شخصاً - لتقديم مراسم التبجيل لهذا الجبل ولجنكيز وكوبلاي أيضاً. ويستخدم هذا الوفد الحكومي النشيط السيارات الرباعية الدفع المزودة بأوناش في رحلتهم هذه، وقد اكتشفت ذلك بنفسي في رحلتي عام 2002 من مدينة «أولان باتور».

تسلك الطريق شرقاً مسافة 100 كيلومتر تجاه مدينة تعدين الفحم «لبجانور» حيث لن يروق لك منظر تكدس المباني السكنية في المنطقة الشيوعية، وفي هذه المنطقة ينتهي الطريق الممهد وتتوجه الرحلة نحو الشمال على التلال العشبية من خلال شبكة مسارات

متنوعة.[1]

وتمضي قدماً يكون نهر خيرلين على يمينك، نحو منطقة غير آهلة بالسكان، وتُعرَف هذه المنطقة الآن بـ «حديقة خان خنتي الوطنية»، ويربط تلك المسارات جسر من الخشب الصلب، في النهاية تأتي الحكومة لهذا الطريق أحياناً. وبعد العبور تكون قد وصلت إلى مسار واحد موحل في كثير من الأحيان، وأحياناً لا يمكن اجتيازه بعد هبوب عاصفة تجتاح شجيرات الصفصاف وشجر التنوب المبعثر.

ثم تصل بعد مسافة 25 كيلومتراً إلى مستنقع جاف، وسلاسل من التلال المتتابعة، وإن استطاعت السيارة صعود سلاسل التلال يستقبلك مشهد هائل يمتد فوق خيرلين تتعرض بعد ذلك لانحدار فظيع على المستنقع الأخدودي الذي يكون مستنقعه في الجو الرطب، أو يكون شديد الجفاف مثل فخاخ الدبابات.

وإن استطعت النزول فسوف تجتاز منخفض خيرلين الضحل ذا القاع الصخري، وعند هذه النقطة سيظهر لك جبل بورخان خلدون الذي يمتد إلى ارتفاع 2.452 متراً. وهو رجل متوسط الارتفاع، ولكنه مثل عضلات كتف الممثل الأمريكي «شوارزنجر»، ويحتوي على نوع من الحجارة المغولية الضخمة.

ثم تمضي مسافة 18 كيلومتراً على امتداد الوادي حتى تصل إلى لافتة ومجموعة من جذوع الأشجار تميل على بعضها وتكسوها قطع الحرير الأزرق ورايات الصلوات التبتية. هذا هو «أوفو» (الضريح) وهو مبني من الحجارة، وتحته تمتد جذور أشجار الصنوبر التي ربما أكسبت الصخور المدفونة في باطن الأرض ملمساً ناعماً.

الآن أنت على قاعدة جبل بورخان خلدون، وفي هذه اللحظة عليك أن تقفز. ستحتاج إلى ساعتين فقط للوصول إلى القمة وبعد مسافة قصيرة، سوف تصل إلى مكان كان يوماً مسطحاً صناعيّاً واضحاً، وهي منطقة مقدسة أيضاً. وثمة ركام حرير آخر يطلق عليه اسم «الضريح» وبه قرابين، وعند قاعدته زجاجات فودكا وأطباق بها أعواد بخور، هو موقع معبد كامالا سابقاً. وفي عام 1961 وجد المغامر الغربي «جوهانز ستسبرت»- أول رجل غربي

(1) هذا هو عادة ما يقصده المغول بـ«الطريق» الذي يقودك إلى «مونجونمورت»؛ والتي تعني «الحصان الفضي».

يتسلق الجبل – العديد من قراميد الأسقف والقطع الفخارية.

تجوّل في المنطقة المحيطة الآن حتى تحصل على هذه الأشياء، فقد وجدت قطعتين من القراميد[1]، وهو أمر يثير أمامي منظراً خيالياً كلماالتقطها؛ حيث كان كامالا البالغ من العمر تسعاً وعشرين عاماً يراقب خمسين عامل بناء صينيين يعملون على الحوائط والأعمدة الخشبية، في حين كان صانعو القراميد المجاورون يشكِّلون الصلصال المحلي على شكل قراميد أسقف منحنية يتم وضعها على جذع شجرة مغطى بالقماش لتجف، ثم يتم وضعها بعد ذلك في فرن قريب منها.

وكان كامالا متحمِّساً لإنهاء هذا الأمر؛إذ كان يعلم أن والده لن يعيش طويلاً وبالفعل عاد كامالا بعد عام، وفي ذلك الحين لم يكن كوبلاي الذي وصل عمره إلى الثمانين قادراً على القيام بمهامه إلا من خلال زوجته «نامبوي».

وفي يوم 28 يناير عام 1294 الذي يوافق رأس العام وفق التقويم القمري، كان كوبلاي مريضاً بشدة لدرجة عدم قدرته على حضور الاحتفالات المعتادة في بكين، فلم يرتد اللباس الأبيض، ولم يتلق الثناء والإشادة من الأتباع الزائرين، ولم يعقد استعراضاً عسكرياً للفيلة والخيل البيضاء التي عليها سروج مزركشة بشكل جميل، ولم يترأس مأدبة الطعام التي تقام في صالة كبيرة.

أدرك الجميع أن النهاية أوشكت، فأُرسل رسول على وجه السرعة إلى الرجل الوحيد القادر على رفع معنويات الإمبراطور وهو بيان الذي لا يزال منتظراً مهمته التالية في مدينة داتونغ الواقعة على بُعد 300 كيلومتر.

وبعد مرور ثلاثة أيام، اجتمع بيان بالإمبراطور، لكن بيان لم يستطع أن يفعل شيئاً باستثناء تقديمه وعداً بالولاء الأبدي. وكان كوبلاي يعرف أن نهايته أوشكت، وطلب أن يكون بيان واحداً من الثلاثة الذين يقومون بتنفيذ وصيته[2]، وقد بدأ الضعف والوهن ينخر جسد كوبلاي دون توقف وصولاً إلى وفاته يوم 18 فبراير.

---

(1) قطع من الطين المحروق كان تستخدم في تغطية أسقف المنازل والقصور (المترجم).

(2) الاثنان الآخران هما: كبير المراقبين، ومدير الشئون السياسية في أمانة السر.

وبعد يومين أصبح موكب الجنازة جاهزاً. وفيما يتعلق بثروة كوبلاي والأموال التي أنفقها على حملاته، فقد بدت قليلة إلى حد ما، لكن بطانته وصلت إلى مئات الأشخاص، من أفراد العائلة إلى مسؤولي الحكومة الذين تجهزوا للسفر والحراس وسائقي الحيوانات وسائسي الخيل والطهاة وخدم الأسرة برفقة خيول احتياطية، وعربات النساء والخيام، والإبل التي حملت جميع احتياجات الموكب الإمبراطوري الذي سيسير على الطريق ثلاثة أسابيع لمسافة تزيد عن الألف كيلومتر.

وفي مكان ما بالقرب من المقدمة، وخلف أحد الحراس كانت تسير العربة التي تحمل جسد كوبلاي، وكانت عربة تحمل خيمة تغطي تابوتاً كبيراً محكم الغلق معبأ بالتوابل والمواد الحافظة الأخرى، وكانوا يسيرون مسافة 50 كيلومتراً في اليوم، ويعتبر هذا تقدماً لا بأس به لحشد كبير مثل هذا، وكان خط السير من خلال جبال جارديان ببكين - حيث يوجد السور العظيم الآن - ثم عبروا سلاسل الجبال والأودية خلال الحدود الصينية المغولية القديمة في «كالجان»- تشانغجياكو حالياً - إلى الهضبة المغولية، وتجنبوا المنعطف اليمين الموصل إلى «ساندو»، مما يعني تأخير يومين على الأقل.

وكان من الأجدر لهم أن يسيروا خلال منطقة غوبي الترابية، حتى ينتهي بهم الطريق المليء بالحصى إلى التلال الخضراء، ومسطح نهر خيرلين، وفي النهاية إلى سفح تلال «خنتي». وأشك أننا نعرف على الإطلاق أين دُفِنَ، فثمة مكان يبعد مسيرة نصف ساعة عن معبد كامالا صعوداً لأعلى حيث تترك خلفك الأشجار التي وهنت حالياً وضعُفت بسبب الارتفاع، وتساقطت على الأرض. ولا تزال القمة بعيدة، فأحياناً تكون موجة من الصخر كاسرة، وفي أحيان أخرى تكون غير مرئية في السحاب، وتشبه المنطقة التي تقف فيها مدفناً، ولقد اعتقدت أنها كذلك عندما رأيتها لأول مرة؛ لأن الآخرين يعتقدون ذلك أيضاً. والقبور التي تراها عبارة عن ركام من الحجارة غير منتظم، شيئاً ما يبلغ عرضه من متر إلى ثلاثة أمتار، وهناك - حسب اعتقادي - المئات منها، ومن السهل تخيلها على أنها قبور، فهي ركام من الحجارة كأنه ركام قبر مسطح، وكان ثمة شيء غير مناسب، فركام الحجارة كان عبارة عن نقط غير منتظمة، وكانت جميعها مسطحة، ورغم ذلك كان يوجد حولها كثير من «الأوفو» من الحجارة يبلغ ارتفاعها متراً أو أعلى بقليل، وقد جاء عدد كاف من الناس اليوم ليصنعوا

«الأوفو» ويحافظوا عليه.

لماذا لم يحافظوا على القبور؟ وإن كانت هذه البقعة مخصصة لقبر سري، فهي ليست أفضل مكان لذلك، لأنها على الطريق الرئيسي المؤدي إلى قمة الجبل. اعتقد أن هذه السمات الجيولوجية هي نتيجة للصقيع الذي غطى هذه المنطقة على مدار قرون وأضفى عليها سحراً خاصاً. وقد ظلت برودة الطقس موضوعاً لدراسات «علماء جيولوجيا الصقيع». وإذا ألقيت نظرة سريعة على الصور الإيضاحية في كتب جيولوجيا الصقيع، ستجد أنماطاً من المضلعات والدوائر والحلقات التي تبدو مصنوعة بيد إنسان أو كأن الجان قد رسمها على الحجارة، لكنها في واقع الأمر نتيجة لتغيرات درجات الحرارة، ولا يعرف أحد كم من الوقت استغرق تشكيلها؛ لأنها تحدث وفق مقاييس زمنية جيولوجية.

وتوحي هذه الدوائر الحجرية بفكرة غريبة، فهل توفر هذه القبور الطبيعية تمويها للقبر الحقيقي؟ فمن يعرف القبر الحقيقي من مئات الشواهد؟ وحتى اليوم، وفي ظل وجود التقنيات الأثرية الحديثة، قد يتكلف الأمر ملايين الدولارات وعدة سنوات للبحث فيها جميعاً، وهذا مستحيل. وأنا على قناعة بأن كامالا لم يصل إلى المكان الخطأ. وثمة مشهد أسترجعه كلما تذكرت تسلقي للجبل عندما سار صف من الرجال بين أشجار التنوب النحيفة على هذه الأرض المفتوحة، يرتدون فراء ليحميهم من البرد القارس. وكانت أحذيتهم الجلدية المزخرفة التي تنحني مقدمتها لأعلى، تشق طريقها بصعوبة كاشطة غطاء رقيقاً من الجليد غطى الأرض الصلبة تحتهم. وكان ستة من هؤلاء الرجال يحملون معهم أحمالاً ثقيلة، ساريتين عليهما نعش بسيط مغطى بالحرير الأزرق والأصفر.

ولم أر أي راهب بوذي آنذاك، ولا أية زخارف بوذية وفقاً لتقاليد التقشف المعروفة في الديانة البوذية التي حبذها جنكيز. وقد قاد هؤلاء الرجال كاهنٌ مقنّع يحمل طبلة وجرساً، واستمر الرجال في السير حتى حافة الهضبة، حيث المنظر الخلاب للوادي الناعس تحت الكسوة الجليدية البيضاء، والنهر المتجمد الممتد إلى الجبال النائية، وهي أرض لم يرها الخان في حياته ولم تكن يوماً جزءاً من وطنهم.

وهناك نفر من الناس انتظروا فوق هذا المكان لفترة ما، وبأيديهم التي حفظوها في قفازات

أزالوا الأحجار عن واحدة من مئات الدوائر الحجرية، وأوقدوا النار بمنطقة منخفضة قليلاً لإذابة الأرضية الحديدية الصلبة، ثم حفروا قبراً بتؤدة شديدة مستخدمين مجارف حديدية. عند هذه اللحظة حان موعد الدفن المهيب الذي تلته صلوات الكاهن وترتيلاته والنقر على الطبلة. ثم أعاد الجمع الحجارة إلى أماكنها الحجر بعد الآخر، حتى عادت الدائرة إلى الالتصاق بما حولها، ليرقد كوبلاي أخيراً إلى جوار جده جنكيز، ويصبح كلاهما جزءاً من التربة التي من رحمها وُلدت إمبراطورية المغول.

خاتمة
تركة خان عظيم

لم يكن مر على دفن كوبلاي في جبل بورخان خلدون سوى فترة وجيزة حين انعقد مجلس لتسمية من سيخلف الخان من حفيديه كامالا وتيمور[1]، وهنا دب الخلاف واقترحت الأم الحاكمة حلاً عندما قالت: «كوبلاي قال إن من يحيط علماً بأقوال جنكيز على النحو الأفضل هو الشخص الأنسب للحكم». وتمت الموافقة على إجراء منافسة بين المتقدمين للخلافة تمتع خلالها تيمور الأصغر ببلاغة أكبر وحُسن سرد ومهارة في الخطابة، بينما تلعثم كامالا ولم يستطع مضاهاة منافسه. فانطلقت الصيحات من حناجر الجميع: «تيمور أعلم بأقوال الخان، تيمور أحق بالتاج والعرش».

وكان توريث تيمور- من الناحية النظرية- مذهلاً، فقد حكمت أسرته الصين وكوريا والتبت وباكستان وإيران، ومعظم أنحاء تركيا والقوقاز[2]، ومعظم روسيا المأهولة بالسكان، وأوكرانيا ونصف بولندا وهي مساحة تعادل خُمس مساحة اليابسة من العالم.

وعلى غرار التوسعات التي قام بها كوبلاي كانت توسعات تيمور في الإمبراطورية الممتدة إلى أوروبا وآسيا اسمية ليس إلا، حيث كانت الجذور القبلية للطبقة الأرستقراطية المغولية غير حقيقية وقليل جداً من هؤلاء الأرستقراطيين زار بلدهم المزعوم منغوليا. وكان هؤلاء الأرستقراطيون مرتبطين أكثر بأوطانهم الفعلية. ومثل الرجل الإيرلندي الذي يعيش في «نيويورك» ويتجول في الجادة الخامسة في شارع «باتريكس داي»، أصبحت الإمبراطورية صرحاً منهاراً تغلفت حطامه بذكريات مؤسسها.

بدأت القبيلة الذهبية في جنوب روسيا حكمها على مدار قرنين، ويعرفها الروس حتى اليوم باسم «التارتار» أو «التتر» واعتنق حكامها المنغوليون - وكانوا مغولاً قبل ذلك - الإسلام، وتعاملوا عن كثب مع الحكام في مصر والذين تبادلوا معهم المراسلات

(1) اختيار كامالا وتيمور بصورة مؤقتة لم يكن تصديقاً على خلافته.
(2) التي هي حالياً جورجيا وأرمينيا وأذربيجان.

الدبلوماسية التي طُرّزت بالذهب وخالص التحيات وكُتبت باللغة التركية.

وكان المفترض أن يأتي كل خان- من أفراد العشيرة الذهبية- من نسل جنكيز، لكن بمرور الوقت أصبح بإمكان أي حاكم ادعاء ذلك، حتى إنه عندما قامت روسيا تحت ولاية كاثرين العظيمة بضم القرم عام 1783، كان لا يزال الخان بها اسمه ينتسب إلى جنكيز خان.

وفي بلاد فارس مارس «الخانان التابعان»- كما أطلقا على أنفسهما- الاستعباد والنهب وفرضا الضرائب بأعلى المعدلات، وأحكما ربقة السيطرة على عامة الشعب بعدائية شديدة، وكانت المدن المشتهرة بالتجارة تدر ثروات كافية لتمكين المغول من الاحتفاظ بسيطرتهم المزعزعة بعد أن انقطعت اتصالاتهم بجذورهم.

واعتنق الحفيد العظيم لهوليغو الإسلام، وشن حرباً على مسلمين آخرين، لكن هذه الحرب لم تكن في صالح أي من الطرفين. وفي عام 1307 كان إيفاد آخر بعثة مغولية إلى «إدوارد الثاني» في «إنجلترا» محاولة عديمة الجدوى للتعزيز الذاتي. وبعد ذلك بثلاثين سنة، مات آخر الحكام المغول بلا وريث. وانتهى الحكم المغولي في آسيا الوسطى. وحكم ورثة «شاغادي» نطاقاً مبهماً مزَّقته الخلافات الدينية والحروب والنزاعات المدمرة لكل من شارك فيها. وظلت التقاليد البدوية ضاربة بجذورها وبقوتها، وقام خلفاء «شاغادي» تحت إجبار منافسي المغول في الشرق والغرب بالنظر ناحية الجنوب إلى أفغانستان والهند، وشنوا العديد من الحملات على هذه المناطق- وهم مفعمون بروح التقليد الذي تحملوا عبئه حين سقط الحكم المغولي في يد القائد تيمور لينك.

ورغم أن تيمور لينك لا ينتمي إلى نسل جنكيز خان، فقد حاول إثبات نفسه كامتداد لجنكيز وأكّد على أصوله الوقورة، وشدّد على أنه مختار من قبل السماء، وأنه محقق الانتصار القاسي. وهو ادعاء يوضح السبب الذي جعل بابور- خليفة تيمور لينك- يُطلق على نفسه اسم «موجول» حين تولى حكم الهند في بداية القرن السادس عشر، وهو الذي أسس سلالة حاكمة انتهت بتنحية البريطانيين لآخر حكاما عن العرش سنة 1857.

وما دمنا تحدثنا عن الحاكم بابور فالشيء بالشيء يُذكر، فقد كان اسمه «باهادور»، وهو صدى للكلمة المغولية «باتا» ومعناه «البطل»، والشق الثاني في الكلمة نفسها هو اسم

عاصمة منغوليا «أولان باتور» ومعناها «البطل الأحمر». وتحتوي اللغة الإنجليزية الحديثة على أصول قديمة لنفس كلمة «موجول» (Mogul) ومعناها في الأصل «ثري هندي»، وفيما بعد تم استخدام الكلمة بمعنى «رجل أنجلو هندي»، واليوم معناها «قطب إعلامي أو صاحب إمبراطورية إعلامية».

وبعد مرور 73 سنة أخرى على موت كوبلاي، ربط خلفاؤه في الصين الشرق والغرب، وقاموا بتفعيل التبادل التجاري الحر مع أقاربهم البعيدين وتبادلوا الدبلوماسيين والخبراء. لكن المغول أصبحوا على أرض غير مستقرة. فلم يعودوا بدواً كسابق عهدهم، ولم يعودوا صينيين خالصين على الإطلاق. ورغم أن عدداً من خلفاء كوبلاي العشرة أجادوا اللغة الصينية، فإن أحداً منهم لم يتقن الكتابة الصينية. وأصبح ثمة ازدراء متبادل بين الحكام والمحكومين، رغم أن السلام ساد على الجميع، وعاد عدد السكان إلى مستواه السابق، وازدهرت التجارة. ولم يعد أمام السلطة المغولية سوى اعتماد القوة التي أصبحت بمرور الوقت سبباً في تداعي قواها.

ونشبت الصراعات والمؤامرات بين الخلفاء واستشرت الاغتيالات. وفي عام 1328 اندلعت حرب أهلية على مدار شهرين انتهت بعمليات إعدام واسعة النطاق. وبحلول عام 1331 انتشر الطاعون في أجزاء من الصين، وقد تكون هذه بداية الطاعون الأسود الذي سرعان ما انتقل إلى أوروبا. وفي إقليم هنان الصيني وحده مات ٪9 من السكان بالطاعون، وبعد ذلك انهارت ضفاف النهر الأصفر الذي اتخذ مجرى جديداً نحو البحر، فأغرق آلاف البشر، وبدأ المتمردون في الاستيلاء على أحواض نهري هواي واليانغتسي، بعد أن ظنوا أن ولاية السماء قد تراجعت.

وقام القراصنة بشن غارات على السفن الراسية على الساحل في إقليم «هنان» المصاب بالطاعون، وقام المتمردون المعروفون بـ «أصحاب العمامات الحمراء» بإعادة سلالة سونغ في وقت قصير، وحاول الإمبراطور «توكتوا» استعادة النظام وإصلاح الأضرار، فقام بطبع نقود ورقية، مما أدى إلى اندلاع تضخم هائل أعاد البلاد قسراً إلى العملات الفضية والنحاسية. وفي نهاية الأمر تراكمت الضغائن والفساد والطاعون والتضخم والكوارث والفوضى ووصلت ذروتها.

وفي عام 1368 تولى راهب سابق حكم آخر إمبراطورية مغولية، وعادت الأميرة «توغون تيمور» إلى سهول منغوليا تاركة ما بين 300 و400 ألف مغولي بين يدي منغ المتعطش للانتقام، وذهب معها 60 ألفاً من صفوة المغول مسحولين على الأرض التي عاشوا فيها غرباء. ولم يتقبلوا أبداً فكرة الأفول المفاجئ لنجمهم، وجرى تتويج خلفائهم في كاراكوروم وواصلوا ترديد أنهم كانوا الحكام الحقيقيين للصين، وقد ادَّعوا ذلك لأنهم كانوا على علم بالحقيقة الخفية التي تقول إن منغ كان مغولياً في حقيقة الأمر. والقصة كما أوجزها «هوك لام تشان» الأستاذ المساعد في جامعة «واشنطن بسيتل» في كتابه «الصين والمغول» كانت على النحو التالي:

كانت ملكة إمبراطورية يونان الأخيرة «توغون تيمور»- في ذلك الوقت- حاملاً حين وقعت في الأسر واتخذها منغ زوجة له. وفي عام 1368 قالت الأميرة: «إن وضعت خلال وقت قصير، فسوف يقتلون الطفل»؛ لذلك تضرعت بالصلاة لتطول مدة حملها، فاستجيب لصلواتها ووضعت حملها بعد اثني عشر شهراً. وقد قبل الإمبراطور «منغ الأول» الولد خليفة له، واتخذ منغ من نانجينج عاصمة لدولته. وفي أحد الأيام قابل الأمير الصغير الذي ينتمي للمغول منغ رجلاً غريب الأطوار، داكن الوجه يرتدي ثوباً أسود، ويمتطي حصاناً أسود أخبره بأن يعثر على مدينة عظيمة ذات جوانب أربع بعدد الفصول الأربع، لها تسعة أبواب خارجية بعدد الكواكب التسعة، وذات خصائص سحرية ودينية أخرى. فقال راكب الحصان الأسود: «في مكان ذهبي بوسط المدينة هناك عرش من اليشم رُسم عليه تسعة تنانين (جمع تنين- حيوان أسطوري) في وضع متداخل، فإذا جلست على هذا العرش، ستكون قد نصّبت نفسك إمبراطوراً». وعلى ذلك وجد الأمير المغولي بكين الحديثة التي جرى نقل قصر منغ إليها بعد ذلك بوقت قليل.

هذه القصة مجرد أسطورة وليس من دليل على صحتها، لكن وفقاً لاستنتاج الدكتور «هوك لام تشان»، فإن تلك القصص تثبت وجود دم مغولي بين أباطرة سلالة منغ. وقد اكتسبت فكرة المغول المتعلقة بإعادة بناء العاصمة قوة على مدار عقود، وحينما توحدت منغوليا من جديد تحت حكم «خان» انتهج نهج كوبلاي ومنح نفسه لقب «دايان»، وهي كلمة مشتقة من «دا يوان» أي «اليوان العظيم»، واختير اسم كوبلاي ليُطلق على نسله، وكانت

تُحكى الأساطير مراراً وتكراراً حتى القرن التاسع عشر.

ورغم أن هذه الأساطير تضمنت الكثير من الخرافات فإنها لا تخلو من طائف من الحقيقة، فتراث الفاتحين جنكيز وكوبلاي الذي تناقلته الأجيال عبر قرون لا يزال يحدد سياق الجغرافيا السياسية الحالية رغم أن المناطق الصينية التي خضعت لحكم كوبلاي امتدت وراء حدود الصين التقليدية. ورغم أن أحفاد الخليفة كان عليهم اللجوء إلى الصين القديمة، فإن إضافات كوبلاي حددت جدول أعمالهم. وقال الخليفة منغ باتباع إضافات كوبلاي دون تردد أو تساؤل.

وغزا كوبلاي إقليم يونان كأمير وأبقى على هويته الصينية، وكذلك ظل حوض نهر لياو (Liao) في منشوريا صينياً، وكانت غالبية سكانه من الأسرى الكوريين الذين نُقلوا من أوطانهم على أيدي جيوش المغول. وتوحدت التبت تحت حكم المغول، وأصبح منغ حاكماً مطلقاً، وهو منصب أصر عليه بعد انتصاراته. ويقول العالم الياباني «هيدهور أوكادا»: فقد عملوا على إعطاء الأصول غير الصينية لتلك الأقاليم، وهو «التبرير الوحيد الممكن لسيادة منغ عليها بالادعاء بأن الأباطرة من نسل منغ كانوا خلفاء شرعيين لخانات المغول».

ووفقاً للنظام البيروقراطي والهيكل الإداري والعسكري، كان منغ (Ming) تابعاً للمغول، فعلى سبيل المثال، إن كلّاً من المدنيين والعسكريين يحكمون بواسطة النظام الحسابي العشري (Decimal System) الذي فرضه جنكيز على دولته وتبنَّاه كوبلاي في الصين. وهناك ادعاء من قبل منغوليا نفسها بأن منغ عاد إلى بكين حقاً. ويقول أوكادا (Okada) إن سلالة منغ انحدرت عن الإمبراطورية المغولية».

وينطبق الشيء نفسه على المنشوريين الذين مارسوا الاحتلال عام 1644، ولم يفكر أي منهم في التخلي عن الأراضي التي امتلكها في عهد كوبلاي. وعندما تم تتويج أول إمبراطور منشوري- قبل الاستيلاء على عرش الصين- أعلن الإمبراطور نفسه «إمبراطوراً خاناً».. كريم العطايا.. كاملاً مقدساً.. مراعياً للتقليد الإمبراطوري لجنكيز خان، وذلك ليضفي الشرعية على مطالبه المتمثلة في الاستيلاء على النصف الشرقي من الإمبراطورية المغولية القديمة. وحسبما ذكر أوكادا فإن الإمبراطور المنشوري أبعد بين ثلاثة عوالم هي: الصينيون

(كأباطرة) والمغول (كخلفاء لجنكيز) والتبتيون (كرعاة للبوذية).

وفي الصين الحديثة تضم أقاليم كانسو وشينغ شيا (Xing Xia) وشينغ يانغ (Xingyang) سكاناً مسلمين تجمعهم قواسم مشتركة مع وسط آسيا أكبر من تلك التي تجمعهم بسكان أقاليم الهان في الشرق. لكن هؤلاء المسلمين اعتُبروا صينيين لأن جنكيز غزا وسط آسيا، في حين عمل كوبلاي على تشجيع هجرة المسلمين. وظلت المناطق الغربية من منغوليا الداخلية تعرف باسم إقليم التانغت (Tangut) - أو مملكة «شي شيا» - حتى غزاها جنكيز خان وورثها كوبلاي. صحيح أن ابن العم العنيد لكوبلاي فرض سيطرته على مساحة كبيرة من الغرب، لكنه لم يخرج به عن سلطة كوبلاي. وعلى هذا الأساس استطاعت الصين أن تستعيد من روسيا مناطق كادت تفقدها تماماً في القرن التاسع عشر. وهذا يعني أن اتساع رقعة الصين الحالية هو استعادة لإمبراطورية كوبلاي السابقة. وهي مفارقة تبين كيف أن الصين تصرفت على خلاف منغوليا التي مُنحت حرية اختيار الاستقلال فسقطت في المحيط السوفيتي في فترة الوهن بعد الحرب العالمية الأولى.

وينظر المغول دائماً بعين الريبة إلى الصينيين الذين اعتبروهم في السابق أسياداً أباطرة لهم أطماع في مهاجمتهم. فذات مرة كنت في صحراء غوبي الجنوبية أنظر إلى الامتداد الشاسع الذي حسبته سحاباً، لكنه لم يكن كذلك. سألت رفيق الرحلة وكان مغولياً: «ما هذا؟»، وكانت الإجابة المتوقعة: قمم مغطاة بالثلوج. لكنه قال: «الصين. غاية في الخطورة». فالمغول يراقبون مدى توسع الصينيين نحو الشمال بخطوات ثابتة منذ مطلع القرن التاسع عشر فيما وراء سور الصين العظيم والنهر الأصفر، وصولاً إلى المراعي المغولية. وتعتبر منغوليا الداخلية اليوم صينية أكثر منها مغولية. فمن الناحية التجارية تتزايد الضغوط على منغوليا بشكل مطرد عاماً بعد عام، لأنها تملك موارد قيمة ولاسيما في صحراء غوبي المفتوحة على الصين بفضل الدعم المالي الصيني ووسائل النقل الصينية والأيدي العاملة الصينية. وبالنسبة للصينيين، فإنه لو أعملوا النظر في المسألة برمتها، وهم لا يفعلون ذلك في الغالب، فسيقولون ما قاله أحد المرشدين الذين صاحبوني في رحلاتي: «طبعاً نحن نعلم بأن منغوليا صينية».

ولكن هناك وجهة نظر مغايرة في شمال صحراء غوبي تقول إن الصين هي مغولية في

حقيقة الأمر، لكن قواعد الديموغرافيا ووجود قرابة 1300 مليون نسمة، يؤيد وجهتي النظر معاً. فإن استطاعت منغوليا يوماً أن تصبح مستعمرة اقتصادية للصين[1]، فلن تبالي الصين بذلك، وستشير إلى أن المغول كانوا أعضاء في السلالات الصينية الحاكمة على مدار قرون. فكل تزايد في النفوذ الصيني على مستوى إقليمها لا يعتبر سوى ارتداد إلى الوضع الذي أسسه جنكيز خان مؤسس عائلة اليوان الحاكمة في الصين، وكوبلاي خان نجم هذه العائلة.

(1) ليس ثمة إشارة إلى السيطرة السياسية.

قائمة المراجع

فيما يلي قائمة بالأعمال التي أفدت منها في إعداد هذا الكتاب، ومعظم المراجع التالية باللغة الإنجليزية، وتمثل هذه المراجع نسبة صغيرة من المواد المتاحة للمتخصصين في هذا المجال. وأفضل المراجع المكتوبة المتاحة للقراء باللغة الإنجليزية في ويذرفورد (Weatherford) (وهي باللغة الإنجليزية فقط) وروسابي (Rossabi) وموتيه (Mote)، وتشمل أيضاً أعمالاً بلغات غربية أخرى ولغات غير غربية.

Abu-Lughod, Janet L., Before European Hegemony: The World System AD 1250-1350. Oxford and New York: Oxford University Press, 1989. Allsen, Thomas, Culture and Conquest in Mongol Eurasia. Cambridge: Cambridge University Press, 2001.

Amitai-Preiss, Reuven and Morgan, David O., eds, *The Mongol Empire and Its Legacy*. Leiden and Boston: Brill, 1999.

Atwood, Christopher, *Encyclopedia of Mongolia and the Mongol Empire*. New York: Facts on File, 2004.

Aung-Thwin, Michael, *Pagan: The Origins of Modern Burma*. Honolulu: University of Hawaii Press, 1985.

Barthold, W., *Turkestan Down to the Mongol Invasion*. London: Luzac & Co., 1968.

Bartlett, W. B., *The Assassins: The Story of Medieval Islam's Secret Sect*. Stroud, Glos.: Sutton, 2001.

Bira, Sh., 'Mongolian Tenggerism and Modem Globlism: A Retrospective Outlook on Globalism', *Journal of the Royal Asiatic Society*, vol. 14, London, 2004.

Bira, Sh., 'The Mongolian Ideology of Tenggerism and Khubilai Khan', unpublished paper, 2005.

Bira, Sh., *Studies in Mongolian History, Culture and Historiography*. Ulaanbaatar: Intemational Association for Mongol Studies, 2001, esp. 'Khubilai Khan and Phags-pa bla-ma'.

Biran, Michael, *Qaidu and the Rise of the Independent Mongol State in Central Asia*. Richmond, England: Curzon, 1998.

Boyle: see Juvaini.

Cahill, James, *Hills Boyond a River: Chinese Painting of The Yuan Dynasty 12791368-*. New York: Weatherill, 1976.

Cannadine, David and Price, Simon, eds, *Rituals of Royalty*. Cambridge: Cambridge University Press, 1992.

Chan, Hok-Lam, *China and the Mongols: History and Legend under the Yuan and Ming*. Aldershot, Hants: Ashgate, 1999.

Chen, Paul Heng-chao, *Chinese Legal Tradition Under the Mongols*. Princeton: Princeton University Press, 1979.

Ch'ên Yuan, 'Western and Central Asians in China Under the Mongols', *Monumenta Serica Monograph XV,* University of California, 1966.

Conlan, Thomas D. (trans. and interpretive essay), *In Little Need of Divine Intervention: Scrolls of the Mongol Invasions of Japan.* Ithaca, NY: Cornell University Press, 2001.

Crump, J. I., *Chinese Theatre in the Days of Kublai Khan.* Tucson: University of Arizona Press, 1980.

Daftary, Farhad, *The Isma'ilis: Their History and Doctrines.* Cambridge: Cambridge University Press, 1990.

Davis, Richard L., *Wind Against the Mountain: The Crisis of Politics and Culture in 13th-Century China.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1996.

Delgado, James P., Relics of the Kamikaze', *Archaeology*, vol. 56, no. 1 (Jan.-Feb. 2003).

Denney, Paul and Douglas, Julie, trebuchet research at

www.artefacts.uk.com.

Eckert, Carter J., et al., *Korea Old and New: A History.* Seoul and Cambridge, Mass.: Ilchokak/Harvard University Press, 1990.

Farris, William Wayne, *Heavenly Warriors: The Evolution of Japan's Military, 500-1300.* Cambridge,Mass.: Harvard Council on East Asian Studies, 1992.

Franke, Herbert, 'Chia Ssu-tao (12131275-): A «Bad Last Minister»?', in Arthur F. Wright and Denis Twitchett, eds, *Confucian Personalities.* Stanford: Stanford University Press, 1962.

Franke, Herbert, 'Siege and Defence of Towns in Medieval China', in Frank A. Kierman and John K.Fairbank, eds, *Chinese Ways in Warfare.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1974.

Franke, Herbert, *From Tribal Chieftain to Universal Emperor and God: The Legitimation of the Yuan Dynasty.* Munich: Bayerische Akademie der Wissenschaft, 1978.

Franke, Herbert, *Studien und Texte zur Kriegsgeschichte der Sudlichen Sungzeit* (esp. ch. 4: 'Hsiang-yang: Gelände und Befestigungen'). Wiesbaden: Harrassowitz, 1987.

Franke, Herbert, *China under Mongol Rule.* Aldershot, Hants: Ashgate, 1994.

Franke, Herbert and Twitchett, Denis, eds, *The Cambridge History of China,* vol. 6: *Alien Regimes*

And Border States, 9071368-. Cambridge: Cambridge University Press, 1994.

Gernet, Jacques, *A History of Chinese Civilization, 2nd edn, trans.* J. R. Foster and Charles Hartman.

Cambridge: Cambridge University Press, 1996.

Goodman, Jim, *The Exploration of Yunnan.* Kunming: Yunnan People's Publishing

House, 2000.

Grey Company, trebuchet website: www.iinet.net.au/~rmine/gctrebs.html.

Groeneveldt, W. P., 'The Expedition of the Monols Against Java in 1293 AD', *China Review*, vol. 46-1875)).

Grousset, Rene, *The Empire of the Steppes*. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1970.

Harvey, G. E., *History of Burma*. London: Longmans, Green & Co., 1925.

Heissig, Walther, *the Religions of Mongolia*, trans. Geoffrey Samuel. London: Routledge, 1980.

Herrmann, Albert, *An Historical Atlas of China*. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1966.

Hitti, Philip, *History of the Arabs. Basingstoke:* Macmillian, 2002.

Htin Aung, Maung, *A History of Burma*. New York and London: Columbia University Press, 1967.

Jackson, Peter, *The Mission of Friar William of Rubruck*. London: Hakluyt Society, 1990.

Jagchid, Sechin and Bawden, C. R., 'Some Notes on the Horse-Policy of the Yuan Dynasty', *Central Asiatic Journal*, vol. 10 (1965).

Jagchid, Sechin and Hyer, Paul, *Mongolia's Culture and Society*. Boulder, Colo.: Westview, 1979.

Jay, Jennifer W., *A Change in Dynasties: Loyalism in 13th-Century China*. Washington DC: Centre for East Asian Studies, 1991.

Johnson, Dale R., 'Courtesans, Lovers, and «Gold Thread Pond» in Guan Hanqing's Music Dramas', *Journal of Song-Yuan Studies*, vol. 33 (2003).

Juvaini, Ata-Malik, *Genghis Khan: The History of the World Conqueror*, trans. and ed. J. A. Boyle.

Manchester: Manchester University Press/UNESCO, 1958;2nd end 1997.

Karcher, Stephen, *Total I Ching: Myths for Chang*.London: Time Warner, 2003.

Kates, G. N., 'A New Date for the Origins of the Forbidden City', *Harvard Journal of Asiatic Studies*, vol. 7 (19423-).

KOSUWA (Kyushu and Osaka Society for Underwater Archaeology), website reports on the Takashima research into Kublai's lost fleet at www.h3.dion.ne.jp/~uwarchae/english.

Langlois, John D., ed., *China Under Mongol Rule*. Princeton: Princeton University Press, 1981.

Larner, John, *Marco Polo and the Discovery of the World*. New York and London: Yale University Press, 1999.

The Legacy Treasure of the Great Dynasty, catalogue of Monogol-Yuan Exhibition, Arthur M. Sackler Museum, Beijing University, 2004.

Lewis, Bernard, *The Assassins: A Radical Sect in Islam.*London: Weidenfeld& Nicolson, 1967.

Li Chu-tsing, *The Autumn Colors on the Ch'iao and Hua Mountains – A Landscape by Chao Meng-fu.*New York: Artibus, New York University, 1964.

Lin Yutang, *Imperial Peking: Seven Centuries of China.*London: Elek, 1961.

Lindner, Rudi Paul, Nomadism, Horses and Huns', *Past and Present,* no. 92(Aug. 1981).

Liu Bin, ed., *Atlas of China.* Beijing: China Cartographic Publishing House, 1989.

Liu Jung-en, trans. and ed., *Six Yuan Plays* (includes *The Injustice Done to Tou Ngo,* a.k.a. *The Injustice to Dou E).* London: Penguin, 1972.

McMullen, David, Bureaucrats and Cosmology: The Ritual Code of T'ang China', in Cannadine and Price,eds, *Rituals of Royalty.*Man, John, *Genghis Khan: Life, Death and Resurrection.* London: Transworld, 2004.

Mansfield, Stephen, *China: Yunnan Province.* Chalfont St Peter, Bucks: Bradt Travel Guides, 2001.

Medley, Margaret, *Yuan Porcelain and Stoneware.* London: Faber, 1974.

Morgan, David, 'The Mongols in Syria, 12601300-', in Peter Edbury, ed., *Crusade and Settlement.* Cardiff:University College of Wales, 1985.

Morgan, David, *The Mongols.* Oxford, UK and Malden,Mass.: Blackwell, 1986 (many reprints).

Mote, F. W., *Imperial China 9001800-.* Cambridge, Mass. And London: Harvard University Press, 1999.

Moule, A. C., *Quinsai with Other Notes on Marco Polo.* Cambridge: Cambridge University Press, 1957.

Mozai, Takao, 'Kublai Khan's Lost Fleet', *National Geographic,* Nov. 1982.

Needham, Joseph, *Science and Civilisation in China,* vols 5 and 7 on military technology.

Nelson, Janet, 'The Lord's Anointed and the People's Choice: Carolingian Royal Ritual', in Cannadine and Price, eds, *Rituals of Royalty.*

Okada, Hidehira, 'China as a Successor State to the Mongol Empire', in Amitai-Preiss and Morgan, eds, *The Mongol Empire and Its Legacy.*

Olbricht, Peter, *Das Postwesen in China unter der Mongolenherrschaft im 13. und 14. Jahrhundert.* Wiesbaden: Harrassowitz, 1954.

Peers, C. J., *Medieval Chinese Armies,* 12601520-.

Oxford: Osprey, 1992.

Peers, Chris, *Imperial Chinese Armies (2), 5901260-.* London: Osprey, 1996.

Petech, Luciano, 'Tibetan Relations with Sung China and With the Mongols', in Morris Rossabi, ed., *China Among Equals: The Middle Kingdom and its Neighbours, 10^{th}-14^{th} Centuries.* Berkeley, Los Angeles and London: University of California Press, 1983.

Polo, Marco, *The Travels of Marco Polo: The Complete Yule-Cordier Edition:* Henry Yule's 3rd (1903) anno- tated translation, with Henri Cordier's notes. New York: Dover, 1993. This is the edition I used. Ronald Latham's edition (translate and introduced by him-Self), *Marco Polo: The Travels* (Penguin, 1958, still in print) is more accessible. For other editions, see the bibliography in Larner.

Rachewiltz, Igor de, *Papal Envoys to the Great Khans.*London: Faber, 1971.

Rachewiltz, Igor de, trans. and commentary, *The Secret History of the Mongols: A Mongolian Epic*

Chronicle of the 13^{th} Century. Leiden and Bosten: Brill, 2004.

Rachewiltz, Igor de, et al., *In the Service of the Khan: Eminent Personalities of the Early Mongol-Yuan Era (12001300-).* Wiesbaden: Harrassowitz, 1993.

Rashid ad-Din, *The Successors of Genghis Khan,* trans. John Andrew Boyle. New York: Columbia University Press, 1971.

Ratchnevsky, Paul, *Genghis Khan:His Life and Legacy,* trans. and ed. Thomas Haining. Oxford, UK, and Cambridge, Mass.: Blackwell, 1991 (several reprints).

Rossabi, Morris, *Khubilai Khan: His Life and Times.*Berkeley, Los Angeles and London: University of California Press, 1988.

Rossabi, Morris, *Voyager from Xanadu: Rabban Sauma and the First Journey from China to the West.* Tokyo, London and New York: Kodansha, 1992.

Rossabi, Morris, ed., *China Among Equals: The Middle Kingdom and its Neighbours, 10^{th}-14^{th} Centuries.* Berkeley, Los Angeles and London: University of California Press, 1983.

Rouleau, Father Francis, SI, 'The Yangchow Latin Tombstone as a Landmark of Medieval Christianity', *Harvard Journal of Asiatic Studies,* vol. 17, nos 34- (Dec. 1954).

Sansom, Sir George, *A History of Japan to 1334.* Folkestone, Kent: Dawson, 1958, 1978.

SarDesai, D. R., *Southeast Asia, Past and Present.* London: Macmillian, 1989.

Saunders, J. J., *A History of Medieval Islam.* London and New York: Routledge, 1965 (many reprints).

Saunders, J. J., *The History of the Mongol Conquests.* Philadelphia: University of Pennsylvania, 1971.

Saunders, J. J., *Muslims and Mongols: Essays on Medieval Asia.* Christchurch, NZ: Whitcoulls,

University of Canterbury, 1977.

Shih, Chung-wen, *Injustice to Tou O.* Cambridge: Cambridge University Press, 1972.

Shih, Chung-wen, *The Golden Age of Chinese Drama: Yuan Tsa-chu*. Princeton: Princeton University Press, 1976.

Smith, John Masson,'Ayn Jalut: Mamluk Success or Mongol Failure?', *Harvard Journal of Asiatic Studies,* vol. 44, no. 2 (Des. 1984).

Stark, Freya, *The Valleys of the Assassins*. London: John Murray, 1934.

Steinhardt, Nancy, *Chinese Imperial City Planning*. Honolulu: University of Hawaii Press, 1990.

Tarling, Nicholas, ed., *The Cambridge History of Southeast Asia.*Cambridge: Cambridge University

Press, 1999.

Temple, Robert, *The Genius of China,* intr. Joseph Needham. London: Prion, 1999 (a good introduction to Needham's massive work).

Thorau, Peter, 'The Battle of Ayn Jalut: A Re-examination', in Peter Edbury, ed., *Crusade and Settlement.* Cardiff: Cardiff Press, 1985.

Toms, Ron, website: www.trebuchet.com.

Turnbull, Stephen, *Siege Weapons of the Far East (1),* 6121300- and (2) 9601644-. Oxford: Osprey,

20012-.

Vemming, Peter, trebuchet website at http://www.middelaldercentret.dk. See also his latest

reconstruction in http://www.warwicksiege.com.

Wang Jiawei and Nyima Gyaincain, *The Historical Status of China's Tibet.* Beijing: China Intercontinental Press, 1997.

Wang Shifu, *The Romance of the Western Bower,*adapted by Xang Xuejing. Beijing: New World Press,2000.

Weatherford, Jack, *Genghis Khan and the Making of the Modern World.* New York: Crown, 2004. (Includes the empire and Kublai Khan as well as Genghis.)

Wood, Frances, *Did Marco Polo Go to China?*. London: Secker & Warburg, 1995.

Wylie, Turrel V., 'The First Mongol Conquest of Tibet Reinterpreted', *Harvard Journal of Asiatic Studies,* vol. 37, no. 1 (1977).

Yamada, Nabaka, *Ghenko: The Mongol Invasion of Japan.* London: Smith, Elder & Co., 1916.

Yanagida, Sumitaka, *The Mongolian Invasion and Hakata* (in Japanese). Hakata Town, 2001.

Zu An, ed., *Beihai Park.* Beijing: China Pictorial, 1989.

إصدارات أخرى للمؤلف (جون مان)

سور الصين العظيم

سور الصين العظيم هو أشهر آثار الصين، فقد شاهد الجميع صوراً لذلك السور المبني من صفوف الحجارة فوق قمة الجبال. في كل عام يقطع ملايين الزائرين رحلة تصل إلى خمسة أميال من بكين كي يتسلقوا شرفة ذلك السور. ولكن ما الذي نعرفه عن سور الصين العظيم؟

تحيط بذلك السور العديد من الأساطير، فالكثيرون يعتقدون أنه الهيكل الوحيد الذي بناه الإنسان والذي يمكن رؤيته من الفضاء الخارجي، وهذا غير صحيح، فلا يمكن رؤية السور حتى من مدار كوكب الأرض. تتراوح تقديرات ارتفاعه بين ألف وخمسمئة ميل وخمسة آلاف ميل. حتى الإسم الذي يحمله ذلك الأثر تجانبه الدقة، فهو ليس سوراً واحداً، وإنما عدة أسوار (من ثم عدم إمكانية تحديد الارتفاع على وجه الدقة)، كما أن أغلب هذه الأسوار ليست مبنية من الأحجار وإنما من الطمي. وعلى مر التاريخ كلما نظر المرء عن قرب وجد أن ما يراه ليس سوراً عظيماً واحداً، وإنما سلسلة من الأسوار مبنية في أوقات مختلفة ولأسباب متعددة.

ولكن الحقيقة التي لا تحتمل الشك فيما يتعلق بسور الصين العظيم هي أنه نتاج أعظم الفترات التاريخية في الصين وأبلغها أثراً. فقد بنيت بعض الأجزاء في عصور مختلفة وجرى ضمها في القرن الثالث قبل الميلاد كي تصد الهجمات المغولية الهمجية القادمة من جهة الشمال، والذي شكل تهديداً خطيراً على الحدود الصينية قرابة ألفي عام.

مشدوداً بهذا التاريخ المثير، يسافر جون مان عبر سور الصين العظيم وعبر الزمن ليقطع مسافة ألفي عام. إن هذا السور – أحد عجائب الدنيا القديمة – هو مدخل رائع لتاريخ الصين المميز، فهو يحملنا من الماضي القبلي لهذا البلد، مروراً بحربها ضد المغول، ووصولاً إلى العصر الحديث حيث يعود سور الصين العظيم ليمثل شعاراً مؤثراً للصين في أولومبيات بكين عام 2008.

جنكيز خان: حياته ووفاته وعودته للحياة

قالت صحيفة الجارديان عنه: «كتاب يستحوذ على قرائه بأسلوبه الرشيق... رواية مثيرة»

إن جنكيز خان أحد الشخصيات التي خلدها التاريخ: فهو قائد عبقري أسس أعظم إمبراطورية على وجه الأرض، حيث بلغت مساحتها ضعف مساحة الإمبراطورية الرومانية. وكادت وفاته الغامضة في عام 1227 أن تطيح بتلك الإمبراطورية، لذلك بقي الأمر طي الكتمان حتى تمكن ورثته من تأمين فتوحاته. ومن ذلك الحين أحاط الغموض بذلك الرجل. فلا يزال قبره الذي لم يكتشف بعد بما يحويه من كنوز كما يتصور الناس موضعاً للتكهنات والمؤامرات.

واليوم ينظر إلى جنكيز خان على أنه سفاح وبطل ونصف إله، فبالنسبة للمسلمين والروس والأوروبيين فإنه متهم بالقتل الجماعي، أما في مسقط رأسه فيمجده المغول ويعتبرونه الأب الروحي لشعبهم، كما أن الشعب الصيني ينظر إليه على أنه أساس الأسر الحاكمة، فيتبارك به شعبا البلدين.

وهذا الكتاب ليس مجرد رواية شيقة حول انتصارات جنكيز وفتوحاته، فقد خاض جون مان تجربة شخصية في البلاد لكي يكشف عن تأثير الخان الخالد. فهو أول كاتب يقوم باستكشاف الوادي الخفي الذي مات جنكيز فيه، كما أنه أحد الأوروبيين القلائل الذين تسلقوا الجبل المخيف الذي دفن فيه جنكيز على الأرجح.

وكانت النتيجة: رواية مثيرة عن جنكيز خان نفسه وعن ولع الناس به حتى يومنا هذا. حيث إن جنكيز لا يزال حياً حتى الآن في الأساطير والشعائر الدينية وفي الجدل المثار حوله...

صحيفة الإندبندنت: «كتاب رحلات من الطراز الأول، ليس رواية عن حياة الخان بقدر ما هو رحلة بحث عنه... كما أنه يضمن للمرء متعة القراءة»

صحيفة ميل أون صانداي: «كتاب جيد الأسلوب يدل على بحث مستفيض»

صحيفة يوركشاير إيفننج بوست: «رائع... ما من أسلوب آخر يمكنه أن يعرض التاريخ بهذا القدر من التشويق»

أتيلا المغولي وسقوط روما

يقول الكاتب البريطاني سايمون سيباج مونتفيور: «إن كتابه «أتيلا» من أروع ما كتب؛ حيث بساطة أسلوبه وغزارة معلوماته ولمساته الفريدة التي أعادت المغول وملكهم إلى الحياة».

يعد اسم أتيلا المغولي اسماً مألوفاً، فهو مرادف للهمجية والعنف، ولكن حتى هذه اللحظة يبقى الرجل نفسه وعالمه ومنزلته التاريخية لغزاً محيراً لغالبيتنا.

ظل أتيلا متحكماً في مصير الإمبراطورية الرومانية ومستقبل أوروبا مدة عشرين عاماً في بدايات القرن الخامس بعد الميلاد. فقد أشتهر أتيلا ورجاله بالهمجية والوحشية بعد قيامهم بعدة غارات وثلاث حملات عسكرية، انتهت بتفوقه لفترة وجيزة على الإمبراطورية الرومانية، حيث امتدت إمبراطوريته من نهر الراين وحتى البحر الأسود، ومن البلطيق إلى البلقان.

إن قوة أتيلا تكمن في شخصيته المذهلة. ربما كان ذلك الرجل متغطرساً وعنيفاً ومزاجياً، إلا أنه تمتع بذكاء خارق مكنه من كسب ولاء الملايين. فقد اعتبره شعبه نصف إله في حين كان يفتخر مثقفو أوروبا بالعمل في خدمته. فقد انطلق ذلك الرجل الملقب بـ «سوط الإله» من مسقط رأسه في الأراضي العشبية في المجر ليكاد يرسم تاريخ أوروبا...

يعتمد جون مان على أسفاره المتعددة في قلب الأراضي المغولية وعلى خبرته بتقاليد وسط آسيا في كتابة تلك السيرة المثيرة التي تلقي الضوء على حقيقة أسطورة أتيلا المغولي.

الصنداي تلغراف: «تتميز أحداثه بالحيوية والخيال... حيث تعيد الحياة إلى واحدة من أكثر الشخصيات التاريخية عنفاً واضطراباً بأسلوب سهل وشيق».

صحيفة الجارديان: «يتميز الكتاب بأسلوبه الرشيق الجذاب... متعة حقيقية للقراءة».

المحتويات

كوبلاي خان

ملك المغول الذي أعاد بناء الصين

يعد كتاب (كوبلاي خان - ملك المغول الذي أعاد بناء الصين) واحداً من أهم الكتب التي أرخت للقائد العظيم -حفيد جنكيز خان- كوبلاي خان (خان الخانات) ذاك الشبل الذي ولد في العام نفسه الذي دمرت فيه بكين على يد جدّه جنكيز خان عام 1215م، والذي سيقبل التحدي المتمثل في تحقيق رؤية جنكيز المستحيلة ويبذل جهداً يفوق ما بذله أي زعيم آخر لتحقيقه، ويمتد بأسه وسلطته ما بين مناطق المحيط الهادئ وجنوب روسيا.

وقد تمتع بسطوة اسمية على خمس مناطق العالم المأهولة، وربما نصف البشرية جمعاء، وقد انتشر اسمه إلى أبعد من المناطق التي احتلها، وبالتحديد إلى أوروبا واليابان وإندونيسيا... حتى وصل خبر محاولته غزو جاوة الإندونيسية عام 1292م مسامع صائدي خيار البحر قبالة سواحل شمال استراليا. ليس هذا فحسب، وإنما كانت أسطورة ثرواته وملكه مصدر إلهام للمستكشف الأسطوري كولومبوس. فلم يعد كابوساً للغرب كما كان جده، بل أصبح متجذراً في الوعي الغربي ملكاً لا حدود لملكه.

وربما لولا (الخان العظيم) ما قامت أي إمبراطورية للمغول في الصين، وبفضل تراثه ترامت رقعة الصين، وأصبحت تتمتع بالتخوم الموحدة الحالية.

السعر: 80 درهماً





